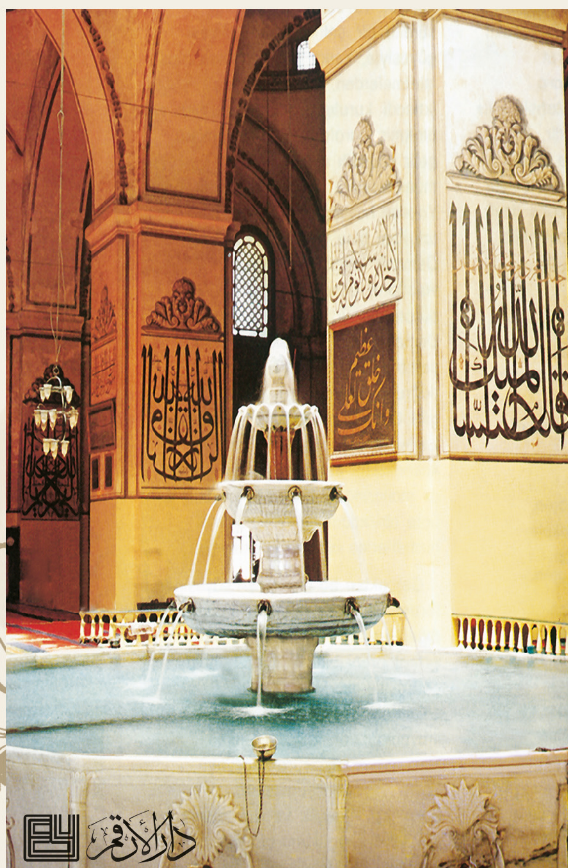
حضارة الفضائل ١

من عصر النبوة وحتى يومنا هذا

عثمان نوري طوباش





إسطنبول: ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

إسطنبول: ١٤٤٠/ ٢٠١٩
اسم الكتاب باللغة التركية: Faziletler Medeniyeti - 1
اسم الكتاب بالعربية: حضارة الفضائل -١
الترجمة للعربية: أرسين إشجي أوغلو/ فاطمة أرسين إشجي أوغلو
مراجعةو تصحيح وتدقيق: أحمد حمدي، إياد عمار
تصميم وتنضيد: حسام يوسف
ISBN: ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٦٢٥٨
طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم
Language : Arabic

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:



▸ Adres: Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi - Atatürk Bulvarı Haseyad
1. Kısım No: 60/3-C Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Faks : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.org
Web site : www.islamicpublishing.org

حضارة الفضائل ١

من عصر النبوة وحتى يومنا هذا

عثمان نوري طوباش



مُقَدِّمَة

الحمد للّه الذي كرَّم الخلقَ وشرَّف البشرية بسيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام، فأقسم بحياته تعظيما له وتكريما، وجعل الانتساب له عزا وشرفا، اللهم فلك الحمد أن شرفتنا بالانتساب إليه وجعلتنا من أمته وعلى ملته.

والصلاة والسلام على سيد الأنبياء محمد، منهل الرحمة ومنبع البركة لجميع العوالم، من ارتقى بفضائله وأخلاقه حتى صار الأسوة الحسنة للإنسانية كلها.

وبعد...

فإن على الإنسان –بعد أن أكرمه اللّه تعالى وسخر له ما في الكون– أن يقوم بحق هذا التكريم وأن يحيى عبدا للّه، شاكرا له، متأدبا بآدابه، متخلقا بأخلاقه، متزيناً بالفضائل والمكارم التي أمر بها سبحانه.

فالفضائل ومكارم الأخلاق –كما أخبرنا النبي ﷺ في الحديث: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» [١]– هي الغاية العظمى والمهمة الأساسية من بعثته، بل هي جوهرها وغايتها، ولذلك كانت جميع أحوال سيدنا رسول اللّه عليه الصلاة والسلام نماذج راقية ومظاهر سامية للخصال الحميدة والأخلاق الحسنة، حتى قال الحق تعالى مادحا نبيه ﷺ:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [٢]

---

١ القلم: ٤.

٢ مسند البزار، البحر الزخار، ١٥، ٣٦٤/ ٨٩٤٩.

فالنبي عليه الصلاة والسلام ليس معلما يعلم القرآن الكريم فحسب، وإنما هو مرشد يهدي الخلق إلى اللّٰه تعالى قولا وعملا حتى كان قرآنا حيا يمشي على الأرض، وكانت حياته الكريمة أعظم قدوة للأجيال المتعاقبة إلى يوم الدين.

ولذلك كانت بعثته الشريفة نورا أضاء آفاق الكون الغارقة في ظلمات الجاهلية، وفجرا مشرقا طالما تاقت إليه البشرية لرؤية تباشيره التي أضاءت القلوب وأنارت البصائر وتألقت بالأرواح وارتقت بها في عالم الفضائل، فبالنبي عليه الصلاة والسلام بلغت البشرية كمالها ونالت كرامتها وعرفت أسمى معاني الحق والعدل والفضيلة.

ولما كان النبي عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين ولا نبي بعده فقد جمع اللّٰه فيه كل ما يحتاجه الإنسان من خصال وأخلاق ليبلغ ذروة الشرف والكمال.

ولذلك فقد كان عليه الصلاة والسلام قمة في المحبة، وقمة في الشجاعة، وقمة في الصبر والثبات، وقمة في الكرم والتضحية والإيثار، وقمة في التواضع والزهد والورع والقناعة على كثرة الغنائم والنعم الدنيوية بين يديه، وقمة في الرحمة والشفقة ومساعدة المحتاجين، وقمة في الإخلاص والتقوى، وقمة في الرضا والشكر، وقمة في عبادة اللّٰه تعالى ومعرفته، وقمة في النبوة، وقمة في التربية والتعليم والأدب مع اللّٰه تعالى، وقمة في تربية القلوب الجريحة، وقمة في الصدق والأمانة، وقمة في محبة اللّٰه تعالى، وباختصار فهو عليه الصلاة والسلام قمة كل فضيلة وخلق، أي إنه أكمل العباد وأشرفهم.

فكل كمال وفضيلة إنما عرفتها البشرية حق المعرفة من خلال حياة النبي عليه الصلاة والسلام، فقد كان نموذج **الإنسان الكامل** الذي أراده اللّٰه تعالى مثالا يحتذى للبشرية جمعاء، فكانت أفكاره ومبادئه وكلماته ومعاملاته منهجا عاشه النبي واقعا في حياته وكذلك أمته من بعده.

هذا بينما بقيت أفكار الفلاسفة وآراؤهم حبيسة الكتب القديمة، منبتة عن الواقع، حتى عجزوا عن تحقيقها في حياتهم وحياة أقوامهم وبقيت نظريات تائهة في عالم الأفكار.

فمع أن أرسطو يعد مؤسس فلسفة الأخلاق وواضع قواعدها إلا أننا لا نكاد نجد من طبقها في حياته وبلغ بها السعادة التي يحلم بها، ويعود ذلك لانفصاله عن الوحي الإلهي، حتى إن أهم أثر للفارابي المعروف بـ «آراء أهل المدينة الفاضلة» -والذي يضم أفكاره بشأن المجتمع المثالي الذي حلم به- لم تجاوز أفكارُه تلك سطورَ كتابه، لأنها لا رصيد لها من الواقع والتطبيق ولم تنبثق عن تجربة ودربة وإنما عن تأملات ورؤى، بينما كان النبي ﷺ يؤثر بسلوكه وأخلاقه فيمن حوله حتى قبل النبوة، فقد كان يعيش الأخلاق الفاضلة سلوكا حيا وواقعا عمليا لا ينفصل عن شخصيته وكيانه. ونتيجة لذلك وصفوه بالأمين الصادق قبل النبوة أيضاً.

وهكذا فإنه بمثل هذه الأخلاق والفضائل السامية تشكل «عصر السعادة» للبشرية، والذي وصفه القرافي -«ت. ٦٨٤» الفقيه المالكي وأحد أهم فلاسفة الحقوق في الإسلام- فقال:

«لو لم يكن لرسول اللّه ﷺ معجزة إلا أصحابه، لكفوه لإثبات نبوته»

فحال النبي عليه الصلاة والسلام كانت ترجمة عملية لأخلاق القرآن الكريم وفضائله التي أمر الناس بها.

ولما كان الإنسانُ أعظم أثرٍ لصنعة الحق تعالى، وكان سيدنا محمد ﷺ أعظم إنسان خلقه اللّه تعالى، جعل الحقُّ تعالى طاعتَه طاعةً له تعالى وعصيانَه عصيانا له سبحانه فقال سبحانه وتعالى:



﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣]

وعليه فقد كان الثناء على رسول اللّه ﷺ –والذي ينعكس على اللسان بقدر تمكنه في الفؤاد– بكل أنواع المديح مباحا شريطة أن لا يشوبه شيء من الشرك أبدا.

ويأتي **الصحابة** على رأسِ الذين أدركوا المثلَ الأعلى لصنْعة ربنا المعجِزَة على الوجه الأكمل –ضمن طاقتهم البشرية– وقاموا بنقل آثاره إلينا.

ولذلك قدم **الصحابة** الكرام فضائل لا يمكن حصرها في الجود والإيثار والتضحية في سبيل اللّه تعالى حين أدركوا–بصحبتهم للنبي ﷺ وتخلقهم بأخلاقه–أن قيمة الإنسان الحقيقية ومكانته إنما تكون بقدر استعداده للآخرة وما ادخره لها.

فهم قد وقفوا حياتهم على رضا اللّه تعالى، وبلغوا القمة في تفانيهم لتبليغ أمره سبحانه، حتى كانت أسعد أوقاتهم وأعظمها أثرا في نفوسهم هي تلك التي أمضوها وهم يبلغون فيها رسالة التوحيد للبشرية.

وكذلك من جاء بعد عصر الصحابة واتبعهم بإحسان من **أولياء اللّه تعالى**، فقد سموا ببركة اتباع النبي عليه الصلاة والسلام والتخلق بأخلاقه حتى بلغوا شأوا بعيدا في عالم الفضائل.

يبين لنا مولانا جلال الدين الرومي هذه الحالة على نحو رائع فيقول:

«أقبل أيها القلب، فالعيد الحقيقي إنما يكون بلقاء النبي محمد ﷺ، لأن إشراق الكون يكون من نور جمال تلك الذات المباركة».

---

٣ آل عمران: ٣١.

ثمّ إنّ أولياء اللّه تعالى -من العلماء والعارفين الذين شَرُفُوا بلقب «ورثة الأنبياء»- هم منارة هادية للأجيال كلها بكمال سلوكهم، يرشدون -بالقدوة والأسوة- من لم ينل شرف لقاء النبي ﷺ ويهدونه إلى التأسي والاقتداء به ﷺ.

وباختصارٍ فَمِمّا لا شكّ فيه أنّ الأنبياء هم النواة الصلبة للفضائل التي تحيي القلوب، والنبي ﷺ يأخذ مكانه في المحراب إماما للأنبياء جميعهم عليهم الصلاة والسلام، وأما الصفوف وحلقات الفضيلة التي تتوالى بعد ذلك فهم العلماء والعباد المخلصون والعارفون والعاشقون وأمثالهم، كلٌّ حسب درجة اتباعه وتعلقه بهم، فهم لتخلقهم بكل فضيلة-مخلصين للّه تعالى-تركوا فيمن حولهم ذكريات نادرة لا تبلى، حتى صاروا وجوه المجتمعات وقياداتها وأثروا في الناس بعبوديتهم للّه وحرصهم على خدمة خلقه حتى صارت قصص الفضائل المأثورة عنهم تمنح الأرواحَ سكينة وطمأنينة، وشفاءً للأفئدة العليلة، فأنشأوا بهذا **حضارة الفضائل**.

لذا قال الإمام الأعظم أبو حنيفة رحمه اللّه فيما يتعلق بالتذكير بفضائل القصص والتي اتخذها القرآن الكريم أسلوباً له:

«إن قصص الصالحين أحبّ إليّ من بعض أبواب الفقه، فهي ترقق القلب وتقرب العبد من ربه» [٤]

وفي الحقيقة فإنه من الصعوبة بمكان أن يدرك الإنسان مسألةً ما على أكمل حال دون ضرب المثل لها، فالخير والشر لا ينجليان إلا في ضوء الأمثلة، والحب يغدو نابضا وحياً بالأمثلة، والتخلق بحال الحبيب يتحقق بأمثلة جميلة تحاكيه، وبناء عليه فإن الأمثلة الحسنة حظوظ إلهية تبلغ بالإنسان إلى قمم الأصالة والكرامة، فقد قال الإمام مالك بن دينار رحمه اللّه تعالى:

«فقصص العباد الصالحين ما هي إلا هدايا من الجنة».

٤ ابن عبد البر، جامع البيان، العلم والفضائل، ١، ٥٠٩-٥١٠، الرياض ١٩٩٤.

وعليه فإن كل واحدة من قصص الفضائل هي بمثابة درر نفيسة تهدى للعبد، وتأخذ بيده للتخلق بالأخلاق الحسنة، فقد قال النبي ﷺ:

«ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن اللّه يبغض الفاحش البذيء»[٥]

وما من شك في أن جوهر الأخلاق الحميدة لا يتحقق إلا بصحبة النبي عليه الصلاة والسلام ومن اتبعه من الصالحين، وهذا أول شرط في التمسك بحلقة الفضيلة، أما الضياع في دوامة الغفلة –بعيدا عن صحبتهم–فهو جوهر الأخلاق السيئة، فقد قال الحق تعالى في الحديث القدسي موضحا هذه الحقيقة:

«من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه...»[٦]

فالواجب علينا اتباع الرسول ﷺ ومَنْ سار على نهجه من الأولياء والصالحين– من صميم قلوبنا– لننال من الفضائل السامية ما يجعلنا مقبولين عند الحق تعالى.

ولذا فإن معرفة النبي عليه الصلاة والسلام والاقتداء به في كل خلق قد يبلغان بالمرء شرف الصحبة التي بشر النبي ﷺ بها.

فإن عرفناه اليوم فسيعرفنا هو غداً في المحشر، وإن شرُفنا بالنظر إليه فسينظر هو إلينا، وإن استمعنا إليه واستجبنا له فإنه سيسمع صراخنا، ويأخذ بأيدينا، وهكذا نغدو نماذج حية تقتدي به في أخلاقه السامية، وهذه أعظم فضيلة لنا.



---

٥ الترمذي، البر، ٦٢/ ٢٠٠٢

٦ البخاري، التواضع، ٨، ١٠٥/ ٦٥٠٢، أحمد، مسند، ٦، ٢٥٦؛ الهيثمي، مجمع الزوائد ٢، ٢٤٨.

إن هذا الكتاب المتواضع الذي بين أيديكم، إنما أُلِّفَ حول نماذج من الفضائل التي بيَّنَّا حقيقتها، هذه الفضائل التي تشكلت في ظلال السنة والسيرة النبوية الشريفة ابتداءً ثم ترسخت بسير الصحابة والأولياء والعلماء والصالحين والتي كانت أشبه بمرآة نقية تعكس تلكم الفضائل الحسنة.

وعلاوة على ذلك فلم نكتف بمناقب النبي عليه الصلاة والسلام وأولياء الحق الذين ساروا في طريق التقوى، بل سردنا أمثلة من سير الشخصيات التاريخية التي كان لها الأثر الطيب في المجتمع والحكم، وبالعديد من سير المجاهدين الذين فتحوا العالم، حتى يجد كلُّ فرد من المجتمع ضالته والنموذج الذي يألفه في سير هؤلاء العظماء على اختلاف مشاربهم وأعمالهم.

ومن الصعوبة بمكان فَهْمُ النبي عليه الصلاة والسلام فهو سلطان العالَمين، ومن اجتمعت فيه جميع حلقات الفضائل، وكذا الفضائل الموزّعة منه على أرباب الفضائل، ثم إن غايتنا الأصلية ليست بيان شخصيته عليه الصلاة والسلام بأكملها وإنما تذوُّقُ قطرةٍ من فيض بحور فضائله غير المحدودة، والتقرب خطوة إليه، وتجديد عشقنا ومحبتنا له، وعرض تعلقنا به، والسعي إلى رحمته التي لا نهاية لها، والالتجاء إليه.

ونحمد اللّه تعالى إذ منَّ علينا بأن نكون من أمة النبي عليه الصلاة والسلام بلا بدل، ولم يجعل الطريق الوحيد للحصول على محبة الرسول ﷺ هي مرتبة الصحبة التي أخبر عنها بـ"أصحابي"، وإنما تتحقق تلكم المحبة لكل من تمسك بسنته الشريفة وتأسى بأخلاقه العلية، ضمن طاقتنا كأولياء اللّه تعالى الذين هم ورثة الأنبياء عليهم السلام.

ولذا لا بدّ لنا في يومنا هذا أن نحرص على تحصيل أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام السامية مفعمين بحبه، كأصحابه وأوليائه تعالى، إضافة إلى ذلك علينا أن

نحيا بهذه المحاسن التي لا تذبل ولا تبلى على مرّ العصور، فنحيا بها ونُحيي بها، فهي أقل الشكر الواجب علينا بعد أن شرفنا اللّه تعالى بالانتساب إلى أمّة النبي عليه الصلاة والسلام.

وبكل الود والامتنان أشكر كل المساهمين الذين بذلوا جهداً في تأليفنا هذا الكتاب وعلى رأسهم الأستاذ مراد كايا، ونرجو من اللّه تعالى أن يجعل جهودهم صدقة جارية.

أكرمنا اللّه تعالى جميعا بحياة مفعمة بنماذج الفضائل والسلوك الحسن التي تكسبنا رضاه تعالى، وأن يجعلنا مقربين من رسوله عليه الصلاة والسلام في الدارين، ويمن علينا بشفاعته عليه الصلاة والسلام! .. آمين! ..

عثمان نوري طوبّاش

مارس ٢٠١٤

أُسْكدار/ اسطنبول

القسم الأول



الإيمان والعبادة

١ . عيش الإيمان بالحب

إن الإيمان نور العقل وصفاء الشعور وتناغم أحاسيس القلب، ولا يمكن الانتقال بسعادة من العالم الفاني إلى العالم الأبدي إلا بتوجيه هذا الإيمان.

وأما مرشدو الإيمان فهم الأنبياء والرسالات السماوية وأولياء الحق الذين ينظمون حياة القلب، فالأنبياء وأولياء اللّه والصالحون أضحوا نماذج حية مفعمة بالإيمان تنبعث بالفضائل الحية على مدى التاريخ.

إن الإيمان لطف إلهي، والامتحان مقياس لصحة هذا الإيمان، وأما حفظ الإيمان المتوقع من المؤمن بالصبر والخضوع فهو بمثابة الوصول إلى اللطف الإلهي، يعني أن اللّه تعالى يطلب من عباده عوضاً كي يجعلهم يدركون عظمة نعمة الإيمان التي منحهم إياها وقيمتها. وآية:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّة...﴾[7]

واضحة في إبراز هذه الحقيقة.

لذلك فإن التضحية بالمال والنفس والجاه وأشباهها برضا نفس في سبيل اللّه تعالى علامة على كمال الإيمان، والسيرُ في طريق اللّه ورسوله مجتازاً مشقات الحياة وصعوباتها برضا واستسلام أهمُّ شعار من شعائر المؤمنين، فينبغي لكل مؤمن أن يضحي عوض نعمة الإيمان بالله تعالى، لأن محاولة ادّعاء التمليك بشيء بلا عوض أو طلب مقابل شيء لم يدفع ثمنه يعتبر اشتغالا بالعبث.

---

٧ التوبة: ١١١



ثم إن ارتقاء المؤمن إلى ذروة الإيمان مرهون بالأعمال الصالحة كالرضا عن اللّه والعبادة له والمعاملة الحسنة لعباده، لذا يُذكَر الإيمانُ والعمل الصالح معاً في القرآن والأحاديث الشريفة في معظم المواطن.

إن الإيمان لا يُجسَّد بالمعلومات السطحية والنظريات بل بالحقائق المسموعة والمحسوسة المنقوشة في القلب وبالنتيجة المنعكسة على الحياة، إن المؤمن نتيجة تفكُّره بتجليات القدرة الإلهية في العالم وأدائه العبادات بقلب حي يتذوق حلاوة الإيمان الحقيقة، ويكتسب فضائل لا تنتهي في حياته.

الإيمان يسمو على العبادات كلها، لأنها لا تقوم إلا به، فهي تؤدى في أوقات معينة، فالصلاة -والتي هي أفضل العبادات- مفروضة في خمسة أوقات في اليوم، أما الإيمان فعلينا دوماً الاحتفاظ به حياً في قلوبنا، لذا لا بد لنا من اجتناب كل ما يوقع القلب في المكائد مما سواه، وحفظ إيماننا بالأعمال الصالحة والتي هي بمثابة درع.

إن الإيمان رأس مال المسلم وأثمن ما يملك، والشيطان -الذي بيَّن القرآنُ الكريم بجلاءٍ أنه عدوّنا- يسعى في محاولة حثيثة هو وأعوانه لانتزاع جوهر الإيمان من قلب المؤمن بحيله ووساوسه التي يحوكها كلما سنحت له فرصة، وبناء على هذا فإن التمسك بالإيمان -بكل حرص وشوق مع يقظة القلب والمحافظة عليه بالأعمال الصالحة على نحو لا يتزعزع- من أهم وظائفنا.

وثمّة حاجة إلى ذكر اللّه تعالى لجعل جوهر الإيمان نقيّاً وبرّاقاً كالمرآة يعكس تجليّاته سبحانه وتعالى، وأما ذكرُ اللّه تعالى فهو نقش لفظة اللّه تعالى على أطراف القلب بالعشق والشوق، حتى يمحى كل أثر للأغيار والغفلات، ويتذوّق العبد حلاوة الإيمان الحقيقية لوصول القلب إلى السكون والطمأنينة التامة.

إنَّ نشوة إيمان هؤلاء العُبَّاد المباركين والمخصوصين الذين ارتقوا إلى هذا النضج المعنوي قد تجاوز كل الحظوظ والشهوات الفانية، ومن جانب آخر فالآلام الموجعة لجميع الهموم والمعاناة ليست شيئاً عندهم.

ولنطّلع معاً على بعض الأمثلة التي تُظهر صبر وثبات ومتانة وفراسة وتضحية وعزم الرسول عليه الصلاة والسلام -معلّمنا الإيمان- والمؤمنين الصالحين الذين لهم الفضل في وصول هذه النعم إلى يومنا هذا في هذا المجال:

صور الفضائل

حين سأله بحيرا الراهب: «يا بني أسألك باللات والعزى» كان النبي ﷺ في الثانية عشر من عمره آنذاك. فرد النبي ﷺ بقوله:

«لا تسألني شيئا باللات والعزى! فواللّه إني لا أنفر من شيء كنفرتي منها» [8]

كان فخر الكائنات ﷺ يجتنب الأصنام والشرك حتى في صغره بفطرته السليمة، وأما ما بذله عليه الصلاة والسلام من العزم والجهد الذي لا مثيل له ليحيي الإيمان ويفنى فيه ويبلغه بعد فترة النبوة فحقيقة معروفة عند جميع المؤمنين.

لقد تحدّى السحرة -الذين أنكروا ألوهية فرعون- بقوة إيمانهم تعذيبه الذي فاق الاحتمال:

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [9]

---

٨ انظر: ابن إسحاق، السيرة، قونية،١٩٨١، ص: ٥٤؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، ١، ١٥٤؛ أحمد، المسند، ٥، ٣٦٢.

٩ طه: ٧٢-٧٣.

ثم إنهم التجؤوا إلى ربهم مظهرين عجزهم البشري مع خوفهم من الوقوع في ضعف الإيمان، رافعين أيديهم إلى السماء ضارعين:

﴿... رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[١٠]. ليلتقوا بعدها بربهم في غمرة لذة الشهادة.



وأما الحواريون المخلصون بإيمانهم فقد حافظوا على إيمانهم بين أنياب الأسود في السيرك، وارتووا من نبع الشهادة.



والفئة الأخرى التي تترأس المؤمنين الأبطال الذين عاشوا الإيمان بمحبة فائقة هم المؤمنون الذين ألقاهم أصحاب الأخدود في النار، حيث أجبر ذو نواس اليهودي حاكم اليمن في العصر الرابع الميلادي أهالي نجران النصارى المؤمنين بالله وحده على تغيير معتقداتهم، ولما قاوموه أمر بحرقهم وإلقاءهم في أخاديد ملتهبة بالنار، وتنقل الآثار أن عدد القتلى على هذا النحو قد بلغ عشرين ألفا.

وأما تسمية هؤلاء الظالمين بأصحاب الأخدود فلِحفرهم الخنادق وإشعالهم النار فيها لحرق المؤمنين، لكن الذين حاولوا إخماد نور الإيمان المحفور في القلوب والمتجذر في النفوس هلكوا بحلول غضب اللّه وعذابه عليهم ولعنوا إلى الأبد، قال الحق تعالى:

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾[١١]



---

١٠ الأعراف: ١٢٦.

١١ البروج: ٤ ـ ٥.

إن الصحابية التي نالت اسم «**أول شهيدة في الإسلام**»، وعاشت الإسلام بحب عظيم في عهد النبوة هي السيدة سمية رضي الله عنها، حيث كانت قبل الإسلام تخاف من وخز إبرة لإصبعها أما حين ذاقت حلاوة الإيمان أظهرت تحملاً عظيماً على الرغم من تعذيبها بتمزيق جسدها بقضيب ملتهب ولم تتنازل عن إيمانها ألبتة، وبعدما لاقت أَمَرَّ العذاب قتلت بوحشية واستشهدت بطريقة مفجعة، وأما زوجها ياسر فعلى كبر سنّه وضعفه أظهر صبراً كبيراً يفوق الاحتمال حتى ورد نبع الشهادة، وبهذا كانت عائلة ياسر رضوان اللّه عليهم أول شهداء الإسلام.[١٢] فأوفوا حق إيمانهم بعيشهم الإيمان بحب عظيم.



وأما سيدنا بلال رضي الله عنه فقد كان يصدع-وهو تحت وطأة تعذيب المشركين المجرمين الطغاة، حتى نزف جسمه وتهشم من التعذيب-بكلمات التوحيد الخالدة «**أحدٌ أحدٌ**»، حيث كان يعيش لذة لقاء اللّه تعالى بدل الألم والمعاناة.[١٣]



كان عمر رضي الله عنه قد سأل خباب بن الأرت رضي الله عنه يومًا عمّا لقي من المشركين، فقال خباب: يا أمير المؤمنين، انظر إلى ظهري،

فنظر عمر، فقال: ما رأيت كاليوم،

قال خباب: لقد أُوقِدَتْ لي نار، وسُحْبتُ عليها فما أطفأها إلا ودك ظهري «أي دهن الظهر»[١٤]

---

١٢ انظر: ابن حجر، الإصابة، بيروت، ١٣٢٨، دار إحياء التراث العربي، ٣، ٦٤٨؛ الزمخشري والكشاف، محمد مرسي عامر، القاهرة ١٩٨٨، ٣، ١٦٤.

١٣ انظر: أحمد، ١، ٤٠٤؛ ابن سعد، ٣، ٢٣٣؛ البلاذوري، أنساب الأشراف، مصر ١٩٥٩، ١، ١٨٦.

١٤ ابن الأثير، أسد الغابة، القاهرة ١٩٧٠، ٢، ١١٥.



لقد حوّل كفّار قريش جميع الحديد الذي كان بمنزل «خبّاب» –الذي كانت تصنع منه السيوف– إلى قيود وسلاسل، كان يُحمى عليها في النار حتّى تستعر وتتوهّج، ثمّ يطوّق بها جسده ويداه وقدماه.[١٥]

إلا أن هيجان الشوق المنبعث من الإيمان، يطفئ جميع آلام الدنيا.

يقول خبابٌ رضي الله عنه:

أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد ببردته في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت ألا تدعو اللّه لنا؟ فقعد وهو محمر الوجه، فقال:

«لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله عز وجل ...»[١٦]

كان كفار مكة يضربون صهيباً رضي الله عنه إلى أن يغمى عليه، وقد استمر هذا التعذيب حتى الهجرة، ولما أرادَ أخيرا أن يهاجرَ مع المسلمين منعه سادةُ قريشٍ، وجعلوا عنده بالليل والنهارِ من يحرُسُه، خوفاً من أن يَهْرُبَ إلى المدينة، فلما كانت إحدى الليالي خرجَ من فراشِه إلى الخلاء، فخرجَ معه من يرْقُبُه، ثم ما كادَ يعودُ إلى فراشهِ حتى خرجَ مرة أخرى إلى الخلاءِ، فخرج معه الرقيب، ثم عاد إلى فراشه، ثم خرجَ، فخرجَ معه الرقيبُ، ثم خرج كأنه يريد الخلاءَ، فلم يخرُج معه أحد، وقالوا: قد شغلَتْه اللاتُ والعزى ببطنه الليلةَ، فتسَلَّلَ رضي الله عنه، وخرَجَ من مكةَ، فلما تأخَّرَ عنهم خرجوا يلتمسونَهُ، فعلِمُوا بهربه إلى المدينة، فلحقوه على خَيْلِهم حتى أدركوُه في بعضِ الطريقِ، فلما شَعَرَ بهم رقي على ثَنِيَّةِ جبلٍ، ثم نَثَرَ كِنَانَةَ سِهَامِهِ بين يديه وقال: يا معشرَ قريشٍ، لقد علمتُم واللّهِ أنّي أصوبُكُم رمياً، واللّه

١٥ ابن الأثير، أسد الغابة، ٢، ١١٤

١٦ البخاري، مناقب الأنصار، ٢٩، المناقب، ٢٥، الإكراه، ١؛ أبو داوود، الجهاد، ٩٧/ ٢٦٤٩

لا تَصلُونَ إليَّ حتى أَقْتُلَ بِكلِّ سَهْم بين يَدَيّ رجلاً منكم، فقالوا: أتيتنا صُعْلُوكاً فقيراً، ثم تخرجُ بنفسكَ ومالك، فقالَ: أرأيتم إنْ دَلَلْتُكُم على موضِع مالي في مكةَ أتأخذونه وتدعوني..؟ قالوا: نعم .. فقال: احفروا تحتَ أُسْكُفَّةِ بابِ كذا وكذا فإن بها أواقيَ من ذهب، فخذوها واذهبوا إلى فلانةَ فخذوا الحُلَّتَيْن من ثياب، فرجعوا وتركوه، ومضى يَطْوِي قِفَارَ الصحراءِ، يحمله الشوقُ ويحدوهُ الأملُ في لقاءِ النبي عليه الصلاةُ والسلام وأصحابِه، حتى إذا وصلَ المدينةَ، أقبلَ إلى المسجدِ فدخلَ على رسول اللّه ﷺ وعليه أَثَرُ الطريق وَوَعْثَاءُ السفرِ، فلما رآه النبيُ ﷺ قال:

«**ربِحَ البيعُ أبا يحيى .. ربحَ البيعُ أبا يحيى .. ربح البيعُ أبا يحيى .. نعم واللّه ربحَ البيع**»[١٧] ...

وَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ عَلَى رَسُولِهِ الْقُرْآن:

﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾[١٨].

حتى فرغ من الآية، وقرأ عليه القرآن.



لقد كانت زنيرة إحدى الصحابيات اللاتي تعرضن للتعذيب وقاسوا الآلام والمعاناة على يد المشركين، وكان أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه قد أعتق معه على الْإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ستَ رِقاب منهم زنّيرةً، فأُصيبت ببصرها حين أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذبوا والله، ما تضر اللات والعزى وما تنفعان، فردّ الله إليها بصرها.[١٩]

---

١٧ ابن سعد، الطبقات،٣، ٢٢٦ ـ ٢٣٠؛ الحاكم، المستدرك، بيروت ١٩٩٠، ٣، ٤٥٠، ٤٥٢.

١٨ البقرة: ٢٠٧.

١٩ ابن هشام، سيرة النبي، بيروت ١٩٣٧، دار الفكر، ١، ٣٤٠ـ ٣٤١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٧٩ ـ ١٩٨٢، ٢، ٦٩؛ أسد الغابة، ٧، ١٢٣.



وقد احتار المشركون -الذين أظلمت أرواحهم وران عليها الكفر- حين رأوا في الصباح الباكر أن زنيرة قد ارتد لها بصرها.



وكم عانى المسلمون الأوائل من هذه الآلام والمآسي، فعامر بن فهيرة وأبو فكيهة والمقداد بن عمرو وأم عميس والسيدة لبينة والسيدة النهدية وابنتها، تعرضوا إلى تعذيب لا يخطر على بال ولا يتصوره عقل، حيث كان المشركون يربطون أرجلهم بسلاسل من حديد، ويخرجوهم إلى الصحراء وهم عراة ليتركوهم تحت الشمس الملتهبة في أحر ساعات النهار، ويضعون فوقهم صخوراً كبيرة، ويعذبوهم إلى أن يفقدوا وعيهم ويتكلموا بما لا يعقلوه، يلوون أعناقهم ولا يدعونهم إلا بعد أن يغلب على ظنهم أنهم قد ماتوا.[٢٠]

لقد حافظ الصحابة الكرام على إيمانهم رغم أنواع التعذيب والظلم التي تفوق الاحتمال، وبذلوا جهوداً ضخمة فضحوا بأموالهم وأرواحهم في سبيل إيصال هذه النعمة الإلهية إلينا، لأنهم كانوا على إدراك ووعي تام بنعمة الإيمان وحقيقتها، وبهذا عرفوا كيف يفتحون باب العزة الإلهية في الدارين. وهكذا قضوا عمرهم الفاني تحت محتوا قوله سبحانه ونالو بذلك السعادة الأبدية:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[٢١]



كان سعد بن أبي وقاص فتى بارّاً بأمه محبّاً لها، وحين دخل الإسلام قالت له أمه: يا سعد، ما هذا الدين الذي اعتنقته فصرفك عن دين آبائك وأجدادك!، لتتركن هذا الدين أو لأمتنع عن الطعام والشراب حتى أموت، فيتفطر قلبُك حزناً

٢٠ انظر: ابن ماجة، المقدمة، ١١؛ أحمد، مسند، ١، ٤٠٤.

٢١ آل عمران: ١٠٢.

عليَّ، ويأكلك الندم على فعلتك التي فعلت بي، ويعيِّرك الناس بها أبدَ الدهر، قال: قلت: يا أماه! لا تفعلي، فأنا لا أدع ديني لشيء، لكنها نفَّذت وعيدها وامتنعت عن الطعام والشراب أياماً، كان يأتيها ويسألها أن تتبلغ بقليل من طعام أو شراب فترفض ذلك، فما كان منه ذلك اليوم إلا أن جاءها وقال:

يا أماه! إني لَعَلَى شديدِ حبي لك أشدُّ حباً للّه ورسوله، واللّه! لو كانت لك ألف نفس فخرجت منك نفساً بعد نفس ما ارتددت عن ديني، فكلي أو دعي، فلما كاشفها بهذه الحقيقة الصادمة ما كان منها إلا أن أكلت على كُره منها، فأنزل اللّه ﷻ فيه وفيها:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ. وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٢٢]. [٢٣]



وعندما أراد الرسول ﷺ الهجرة إلى المدينة، أمر عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه أن ينام في فراشه، وكان قد خلفه رسول اللّه وراءه لقضاء ديونه، ورد الودائع التي كانت عنده لمشركي مكة، فخرج إلى الغار ليلا وقد أحاط المشركون بالدار، وقال له:

«نم على فراشي وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم» [٢٤]

---

٢٢ لقمان: ١٤ ـ ١٥.

٢٣ انظر: مسلم، فضائل الصحابة، ٤٣ ـ ٤٤؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٢، ٣٦٨.

٢٤ ابن هشام، ٢، ٩٥، ٩٨.



وفي هذه الليلة وفي جنح الظلام تسللت مجموعة من كفار مكة، وفي يد كل واحد منهم سيف صارم حاد، فوقفوا أمام باب بيت النبي ﷺ ينتظرون خروجه لصلاة الفجر، ليضربوه ضربة رجل واحد، فأخبر اللهُ نبيَّه بتلك المؤامرة، وأمره بالخروج من بينهم، فخرج النبي وقد أعمى اللّه أبصار المشركين، فألقى النبيُّ ﷺ التراب على رؤوسهم وهو يقرأ قول اللّه تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[٢٥]

ولما طلعت الشمس استيقظ المشركون، وهجموا على البيت، ورفعوا سيوفهم ليضربوا النائم، فإذا بهم لا يجدونه رسول اللّه ﷺ، وإنما هو ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فسألوه عن ابن عمه النبي عليه الصلاة والسلام، فأجاب: لا أعلم، طلبتم منه الرحيل عن مكة، وقد ذهب.

فغضبوا ونهروه حتى إنهم ساقوه إلى المسجد الحرام وحبسوه أياماً هناك.[٢٦]



وقد قدم عامر بن مالك على رسول اللّه ﷺ المدينة، فعرض النبي عليه الإسلام، فلم يسلم ولم يرفض، وقال للرسول ﷺ: لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال ﷺ:

«إني أخشى عليهم أهل نجد»

فقال عامر: أنا لهم جار «أي: سوف أحميهم»، فبعث معه رسول اللّه ﷺ سبعين رجلا من صحابته ليدعوا قبائل نجد إلى الإسلام، فسار الصحابة في الصحراء، وكانوا يجمعون الحطب نهارًا ويبيعونه حتى يكسبوا معاشهم، وينامون بعض الليل، ثم يستيقظون لعبادة اللّه بقية ليلهم، وظلوا هكذا حتى وصلوا إلى بئر

٢٥ يس: ٩.

٢٦ ابن هشام، ٢، ٩٦؛ أحمد، مسند، ١، ٣٤٨؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، بيروت، ١٩٩٢، ٢، ٣٩.



معونة، وهناك أرسلوا أحدهم، ويدعى حرام بن ملحان ﷺ برسالة من الرسول ﷺ يدعو فيها عامر بن الطفيل إلى الإسلام، ولكن هذا المشرك طعن حرام بن ملحان بكل غدر وحقد، فصاح ذلك الصحابي -والدم يسيل من جسده الطاهر-: **فزتُ وربِّ الكعبة**، ولم يكتفِ عامر بن الطفيل بما فعله، وإنما جمع أعوانه من الكفار، وأحاطوا بالمسلمين وهم في رحالهم، وقتلوهم جميعًا إلا كعب بن زيد الذي عاش حتى قتل يوم الخندق شهيدًا، وكان في سرح الدعاة اثنان لم يشهدا الموقعة الغادرة، أحدهما عمرو بن أمية الضمري ولم يعرف النبأ إلا فيما بعد، ورجل من الأنصار، فأقبلا يدافعان عن إخوانهما، فقتل الأنصاري، وأُسِرَ عمرو بن أمية، ولكن عامر بن الطفيل أطلق سراحه، فرجع إلى المدينة، وفي الطريق لقى رجلين ظنهما من بني عامر فقتلهما، ثم تبين لما وصل إلى رسول اللّه ﷺ أنهما من بني كلاب، وأن النبي ﷺ قد أجارهما، فالتزم الرسول ﷺ بدفع ديتهما.

حزن الرسول ﷺ وصحابته حزنًا شديدًا على هؤلاء الصحابة، وظل الرسول ﷺ يَقْنُتُ شهرًا في صلاة الصبح ويدعو على قبائل سليم، مؤجلا الرد عليهم حتى يتخلص من أعداء المسلمين في المدينة؛ لأن خطرهم أشد، ألا وهم يهود بني النضير.[٢٧]



ولقد جاءت صفية يوم أحد -وقد انهزم الناس عن رسول اللّه ﷺ- وبيدها رمح تضرب به في وجوه الناس، وتقول: انهزمتم عن رسول اللّه ﷺ!! -وكان أخوها حمزة بن عبد المطلب قد قتل ومُثِّلَ به- فلما رآها رسولُ اللّه ﷺ مقبلةً قال لابنها الزبير:

«القها فأرجعها، لا ترى ما بأخيها»

٢٧ انظر: ابن حجر، فتح الباري، دار الفكر، فؤاد عبد الباقي نشري، ٧ ، ٣٩٠، المغازي ٢٨؛ ابن هشام، ٣، ١٨٧؛ الواقدي، المغازي، بيروت ١٩٨٩، ١، ٣٤٦.



فذهب إليها الزبيرُ بنُ العوام وقال: يا أماه، إنَّ رسولَ اللّه ﷺ يأمركِ أن ترجعي، فقالت صفية بنت عبد المطلب: ولم؟ لقد بلغني أن أخي قد مات، وذلك في اللّه، لأصبرن ولأحتسبن إن شاء اللّه، فلما جاء الزبيرُ رسولَ اللّه ﷺ فأخبره بقول أمه صفية قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**خلِّ سبيلَها**»، فأتت صفيةُ فنظرت إلى أخيها حمزة، وقد بُقِرَت بطنه، فاسترجعت واستغفرت له.[٢٨]



إن إيمان الصحابة الكرام -الذين أخذوا رسائل النبي ﷺ إلى الحكام- من الصلابة والرسوخ بحيث أضحى أسطورةً تتردد على الألسن، إذ قاموا بتبليغ رسائل النبي عليه الصلاة والسلام للظالمين العتاة والسفاحين المتعطشين لسفك الدماء -الذين بلغ صيتُ ظلمهم وبطشهم جميعَ أنحاء العالم- دون أن يتملّكهم الخوف إلا من اللّه تعالى، كما إنهم لم يتوانوا عن الصدع بالحق تحت ظلال الأسنة والرماح بكل شجاعة وبسالة ودون خوف أو وَجَل، وفيما يلي نبذة من هذه المشاهد:

عندما انصرف رسول اللّه ﷺ من الحديبية، قال:

«أيها الناس، أيكم ينطلق بكتابي هذا إلى صاحب مصر وأجره على اللّه، فوثب إليه حاطب ﷺ، وقال، أنا يا رسول اللّه، قال: بارك اللّه فيك يا حاطب، قال حاطب ﷺ: فأخذت الكتاب وودّعته، وسرت إلى منزلي، وشددت على راحلتي، وودعت أهلي وسرت.

وقصد الاسكندرية ولما وصلها قرأ على المقوقس رسالة النبي عليه الصلاة والسلام. فناداه المقوقس إليه وجمع الأقطاب، ولنستمع إلى بقية القصة من حاطب بن أبي بلتعة:

٢٨ انظر: ابن هشام، ٣، ٤٨؛ ابن حجر، الإصابة، ٦ ، ٣٤٩



«بعثني رسول اللّه عليه الصلاة والسلام إلى المقوقس ملك الإسكندرية، فجئته بكتاب رسول اللّه ﷺ، فأنزلني في منزله وأقمت عنده ليالي، ثم بعث إليَّ وقد جمع بطارقته، فقال: إني سأكلمك بكلام أحب أن تفهمه مني، قلت: هلمَّ، قال أخبرني عن صاحبك أليس هو نبيا؟ قلت: بلى هو رسول اللّه، قال: ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه: أي من قومه، وأخرجوه من بلده إلى غيرها أن يسلط عليهم، فاستعاد منه الكلام مرتين ثم سكت، فقال له حاطب: ألست تشهد أن عيسى ابن مريم رسول اللّه؟ فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه أن لا يكون دعا عليهم أن يهلكهم اللّه تعالى حتى رفعه اللّه إليه؟ قال: أحسنت، أنت حكيم جاء من عند حكيم، ثم قال له حاطب ﷺ: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى يعني فرعون ﴿**فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأولَى**﴾ [29]فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرُك بك، إن هذا النبي عليه الصلاة والسلام دعا الناس، فكان أشدّهم عليه قريش، وأعداهم له يهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى عليهما الصلاة والسلام إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوما فهم أمته، فالحقُّ عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبي. ولسنا ننهاك عن دين المسيح ﵇، ولكنا نأمرك به. فقال: إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب عنه، ولم أجده بالساحر الضالّ ولا الكاهن الكذاب، ووجدت معه آلة النبوّة بإخراج الخبء بفتح الخاء المعجمة وهمز في آخره: أي الشيء الغائب المستور، والإخبار بالنجوى، أي يخبر بالمغيبات وسأنظر، وأخذ كتاب النبي عليه الصلاة والسلام وجعله في حق عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له.

ثم دعا كاتبا له يكتب بالعربية، فكتب إلى النبي عليه الصلاة والسلام:

---

٢٩ النَّازِعَاتِ: ٢٥.

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. لمحمد بن عبد اللّه من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك. أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا قد بقي، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك»... ولم يزد عليه شيء .وقال: ارحل من عندي ولا تسمع منك القبط حرفاً واحداً ».[٣٠]

إن هذه الكلمات التي قالها حاطب رضي الله عنه أمام الملك، والتي تنبض بالحكمة، والمستمدة من قوة الإيمان أبلغ مثال على فراسة المؤمن وشجاعة.



وأما الرسالة المكتوبة لكسرى فارس فأخذها عبد اللّه بن حذافة السهمي رضي الله عنه، فمزّق كسرى كتاب رسول اللّه ﷺ لغضبه مِن ذكر اسم محمد عليه الصلاة والسلام قبل اسمه، واستهزئ بالرسول الحامل للكتاب أشد الاستهزاء.

ولكن عبد اللّه رضي الله عنه قال لكسرى وأعوانه بقوة الإيمان وصلابة الحق:

يا معشر الفرس، إنكم عشتم بأحلامكم لعدة أيامكم بغير نبي ولا كتاب ولا تملك من الأرض إلا ما في يديك، وما لا تملِكُ منها أكثر، وقد ملك الأرض قبلك ملوكُ أهل الدنيا وأهل الآخرة، فأخذ أهلُ الآخرة بحظِّهم من الدنيا، وضيع أهلُ الدنيا حظَّهم من الآخرة، فاختلفوا في سعي الدنيا واستووا في عدل الآخرة، وقد صَغَّرَ هذا الأمر عندك أنَّا أتيناك به، وقد واللّه جاءك من حيث خفتَ، وما تصغيرُك إيَّاه بالذي يدفعه عنك، ولا تكذيبك به بالذي يخرجك منه،[٣١] ثم أمر بعبد اللّه بن حذافة أن يُخرَج من مجلسه فأُخرِج.

٣٠ ابن كثير، البداية والنهاية، القاهرة ١٩٩٣، ٦، ٢٦٦ ـ ٢٦٧؛ ابن سعد، ١، ٢٦٠ ـ ٢٦١، ابن حجر، الإصابة، ٣، ٥٣٠ ـ ٥٣١

٣١ السهيلي، روض الأنوف، بيروت ١٩٧٨، ٦، ٥٨٩ ـ ٥٩٠

خرج عبد اللّه بن حذافة من مجلس كسرى وهو لا يدري ما يفعل اللهُ له ... أَيُقتَلُ أم يترك حرا طليقًا؟ لكنه ما لبث أن قال:

واللّه ما أبالي على أي حال أكون بعد أن أديت كتاب رسول اللّه ﷺ، وركب راحلته وانطلق.[٣٢]

هذا هو اطمئنان ضمير أبطال الإسلام الذين ضَحَّوا بأنفسهم في سبيل تلبية طلب رسول اللّه ﷺ.



وثمَّة واقعةٌ أخرى مليئة بالعبر والعظات، تعرض لنا جانبا من فضل عبد اللّه بن حذافة رضي الله عنه وقوة إيمانه:

ففي السنة التاسعة عشرة للهجرة بعث سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيشا لحرب الروم فيه عبد اللّه بن حذافة، وكان قيصر الروم قد تناهت إليه أخبار المسلمين وما يتحلون به من صدق الإيمان واسترخاص النفس في سبيل اللّه ورسوله، فأمر رجاله إذا ظفروا بأسير من أسرى المسلمين أن يُبقوا عليه وأن يأتو به حيا .. وكان عبد اللّه بن حذافة ممن وقع في الأسر.

نظر ملك الروم إلى عبد اللّه بن حذافة طويلا ثم بادره قائلا: إني أعرض عليك أمراً !

قال: وما هو ؟ فقال: أعرض عليك أن تتنصَّر ... فإن فعلتَ خليتُ سبيلَك، وأكرمت مثواك، فقال الأسير في أنفة وحزم: هيهات.. واللّه إنَّ الموت لأحبُّ إليَّ ألفَ مرة مما تدعوني إليه.

---

٣٢ انظر: أحمد، ١، ٣٠٥؛ ابن سعد، ١، ٢٦٠، ٤، ١٨٩؛ ابن كثير، البداية، ٤، ٢٦٣ـ٦، حميد الله، الوثائق السياسية، بيروت ١٩٨٥، ص: ١٤٠



فقال قيصر: إني لأراك رجلا شهما ... فإن أجبتني إلى ما أعرضه عليك أشركتك في أمري وقاسمتك سلطاني، فتبسم الأسير المكبل بقيوده وقال: واللّه لو أعطيتني جميع ما تملك، وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلتُ، قال: إذن أقتلك، قال: أنت وما تريد، ثم أُمِرَ به فصُلِبَ، وقال لقناصته –بالرومية– ارموه قريبا من رجليه، وهو يعرض عليه مفارقة دينه فأبى، عند ذلك أمرهم أن يكفوا عنه، وطلب إليهم أن يُنزلوه عن خشبة الصلب، ثم دعا بقِدْرٍ عظيمة فصُبَّ فيها الزيت، ورُفِعَت على النار حتى غلت، ثم دعا بأسيرين من أسارى المسلمين، فأمر بأحدهما أن يلقى فيها فألقي، فإذا لحمه يتفتت، وإذا عظامه تبدو عارية... ثم التفت إلى عبد اللّه بن حذافة ودعاه إلى النصرانية، فكان أشد إباء لها من قبل، فلما يأس منه، أمر به أن يُلقَى في القدر التي أُلقِيَ فيها صاحباه، فلما ذهب به دمعت عيناه، فقال رجال قيصر لملكهم: إنه قد بكى ... فظن أنه قد جزع وقال: ردوه إلي، فلما مَثُلَ بين يديه عرض عليه النصرانية فأبى، فقال: ويحك، فما الذي أبكاك إذا؟!

فقال: أبكاني أني قلت لنفسي: تُلْقَى الآن في هذه القدر، فتذهب بنفسك، وقد كنت أشتهي أن يكون لي بعدد ما في جسدي من شعر أنفسٌ، فتُلْقَى كلُّها في هذا القِدْرِ في سبيل اللّه، فقال الطاغية: هل لك أن تقبِّل رأسي وأخلي عنك؟ فقال له عبد اللّه: وعن جميع أسارى المسلمين أيضا ؟ قال: وعن جميع أسارى المسلمين أيضا، قال عبد اللّه: فقلت في نفسي: عدو من أعداء اللّه، أقبل رأسَه فيخلي عني وعن أسارى المسلمين جميعا، لا ضير في ذلك علي، ثم دنا منه وقبَّل رأسه، فأمر ملك الروم أن يجمعوا له أسارى المسلمين، وأن يدفعوهم إليه فدفعوا له، وقد حرر يومها ٨٠ أسيراً من المسلمين.

وقدم عبد اللّه بن حذافة على عمر بن الخطاب ﷺ، وأخبره خبره، فسُرَّ به الفاروق أعظم السرور، ولما نظر إلى الأسرى قال:

حقٌّ على كل مسلم أن يقبِّل رأس عبد اللّه بن حذافة .. وأنا أبدأ بذلك... ثم قام وقبل رأسه ...[٣٣]

إن المسلم الكامل –لما يتمتع به من فراسة المؤمن– ينظر إلى الوقائع من حوله بنور اللّه فإيمانه الذي بين جنبيه يكسبه نظرة عميقة للأحداث، فلا قيمة عنده لألم الدنيا المؤقت ومعاناتها الزائلة أمام ما يجنيه من لذة الإيمان، وبهذا فهو دوما ضمن دوّامة من حساب الخير والشر.



وأحد الأبطال الذين عاشوا الإيمان بحب عميق وهب بن كبشة ﵁، ويقع قبره ﵁ في الصين.[٣٤] وكان قد أرسله النبي ﷺ لتبليغ الدعوة في الصين، على بعدها عن المدينة المنورة آنذاك مسيرة سنة، وبعد أن ذهب هذا الصحابي إلى هناك ومكث مدة طويلة يبلّغ فيها قصد المدينة وهو على أمل أن يسكّن ولو قليلاً من أشواق قلبه المتلهف لرؤية رسول اللّه ﷺ، ووصل المدينة المنورة بعد سفر شاق دام سنة كاملة، لكنه وللأسف الشديد لم تكتحل عيناه برؤية النبي ﷺ الذي كان قد توفي، ولم يلبث أن عاد إلى الصين تغمره حالة روحية وشعور عميق بعظمة هذه الخدمة التي أمره ﷺ بها وسلم روحه إلى بارئها أثناء تأديته لها.

وبهذا نال وهب بن كبشة ﵁ شرف كونه أول مندوب للنبي ﷺ في الصين، ولئن بقي جسده الفاني في الصين إلا أن روحه المؤمنة ظلت ممتلئة بروحانية النبي ﷺ في المدينة المنورة.



---

٣٣ ابن الأثير، أسد الغابة، ٣، ٢١٢ ـ ٢١٣؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، بيروت ١٩٨٦ ـ ١٩٨٨، ٢، ١٤ ـ ١٥. وثمة مقام ينسب لسعد بن أبي وقاص ﵁ في مدينة غوانغ زهو في الصين، إن المحافظة على مشاعر الإيمان قوية لدى شعوب البقع التي تواجد فيها كبار الصحابة وأولياء الله تعالى كثيراً من الأحيان حقيقة تاريخية فهناك أمثلة كثيرة على هذا

٣٤ في بلدان كآسيا الوسطى وسمرقند وبخارى وتركمنستان وطشقند.



ثمّ إنّ ما جرى من حوادث بين السلطان بيازيد الثاني وأخيه السلطان جيم تعكس لنا بجلاء صلابة إيمان أجدادنا وجمال الفضائل التي رباهم عليها الإسلام:

أمضى السلطان بيازيد الثاني السنوات الأربع عشر الأولى بعد تولّيه السلطنة عام ١٤٨١ في حل المشاكل الناجمة عن ادعاء أخيه جيم أحقيته في عرش السلطنة، وهذا الوضع ألزمه أن يهمل الصليبين إلى حد ما، فعرض عليه أخوه السلطان جيم عرضا قائلاً له:

«لنقسم دولتنا قسمين، تكن أنت حاكماً على نصفها وأنا على النصف الآخر».

ولكن السلطان بيازيد رفض العرض قائلاً:

«أخي، إن الوطن ملك الأمة، إذا قسمناه فستفقد الدولة قوتها، ونصبح ولايات ضعيفة، وهذا سيكون وبالاً كبيراً، واللّه أقسم جسدي نصفين ولا يقسم تراب الأمة!».

وفي هذه الأثناء اقترف السلطان جيم خطأ بذهابه إلى رودوس إثر قبوله لدعوة لطيفة من فرسان رودوس، ولكنهم –بنقضهم العهد– باعوه أسيرا إلى البابوية، وكانت البابوية تخطط لاستخدام الأمير جيم في حملتها الصليبية ضد العثمانيين، لكن البابا إنوسنت لما أدرك أنه لن يفلح في هذا عَرَضَ عليه النصرانية، فصَعُبَ الأمرُ على السلطان جيم وحزن أشد الحزن، ورد عليه بقوله:

«واللّه لا أبدل ديني ولو أعطيتموني الدنيا كلها، وليس السلطنة العثمانية ...».

ويظهر جلياً حرصه وشعوره الديني من خلال مناجاته للّه تعالى التي فاض بها قلبه حين علم أنه أريد استخدامه ضد الإسلام من قبل الصليبيين:

«يا ربِّ إن كان المشركون سيستخدمونني آلةً لإلحاق الضرر بالعالم الإسلامي، فلا تمد بعمر عبدك هذا! واقبضني إليك عاجلاً ...».



وقد استجاب اللّه تعالى دعاءه حيث توفاه في نابولي وهو في السادسة والثلاثين من عمره، وقد أوصى مَنْ حوله بهذه الوصية في اللحظات الأخيرة التي ودع فيها هذه الدنيا الفانية:

«أسمعوا خبر وفاتي كل الأنحاء بصورة واضحة مطلقة، ولتقوموا بذلك حتى تنتهي الحيل والألاعيب التي يحوكها الكافرون للقضاء على المسلمين من خلالي!. ومن ثم فلتصلوا إلى أخي الأكبر السلطان بيازيد، واطلبوا منه أن يأخذ جسدي إلى الوطن مهما كلفه الأمر، فلا أريد أن أدفن في بلد كافر، فما حصل حتى الآن فقد حصل، وإياه أن يرد طلبي هذا! وليؤد كل ما عليَّ من الديون، فلا أريد الظهور في حضرته تعالى وعليَّ ديون، وليسامح عائلتي وأولادي وكل من خدمني، وليرضهم ...».

وقد نفّذ الأخ الأكبر السلطان بيازيد هذه الوصية.

وهذا هو التكامل والاتساق الذي يربي الإسلام أتباعه عليه! حيث يقدم فضائل كثيرة كمعاملة هذين الأخوين لبعضهما البعض، وولائهم للإيمان بكل رضا، وحب الوطن، والقدرة على التضحية بكل شيء في سبيل الأمة، والتسامح، ومحاسبة النفس والضمير نتيجة الاعتراف بالخطأ، وتفادي حق العبد، والعفو والرحمة.



كان الأخوان عروج وخضر -وهما من كبار قادة القوات البحرية في التاريخ العثماني- يشتغلان بالتجارة البحرية قبل أن يرفع علم الجهاد في البحر الأبيض، ولكن هذه التجارة كانت خطرة جداً، وفي يوم ما أُسر الرئيس عروج من قبل قراصنة رودوس، فبدأ يبحث أخوه الرئيس خضر عن حل لهذا الأمر قائلاً:

إن كان الأمر واقعا فلا مرد له، سواء جعلت قلبك واسعاً أم ضيقاً.



وبقي أخوه الأكبر أسيراً مدة طويلة بسبب حيل القراصنة الذين لم يوفوا بوعودهم على الرغم من إرساله الكثير من الفدية، ولم يكتف الكافرون بهذا بل أرسلوا إلى الرئيس عروج راهباً يعرض عليه النصرانية، إلا أنه قال:

«أيها الغافلون الحمقى، كيف ألتحق بدين باطل تاركاً الدين الحق»

ونزل هذا الجواب صفعةً أليمة على وجوههم. وردَّ الصليبيون الغاضبون بقولهم:

«إذاً فليأت صاحبك محمد ولينقذك»،

وربطوه على الصندل ليعمل عبدا في التجديف، فالتجأ الرئيس أوروج إلى اللّه تعالى إثر هذا وقال لهم:

«سترون كيف يساعدني ربي».

وبعد مدة قصيرة تمكن من التحرر من الأسر بجنود مجهولين من قبل اللّه تعالى معتمين بعمامات خضراء، ونال بهذا بركة التسليم والتوكل على اللّه بقوة الإيمان.

وهكذا فقد بدأ الرئيس عروج مع أخيه الرئيس خضر بمجادلة شديدة ضد قراصنة البحر الأبيض، وفي فترة وجيزة اجتمع حولهما البحارون الأشداء، وأبحروا بعيداً قائلين:

«الوقت وقت الغزو، وبسم اللّه ارفعوا المرساة».

وظهور الذين يعيشون الإيمان بحب قوي في جبهة "جاناك قلعه" مثير للغاية، يقول ضابط متقاعد في مذكراته وقد كان قاد معارك "جاناك قلعه" وأصيب فيها بجراح:

«كنا في يوم من أيام معارك "جاناك قلعه"، وقد كان الظفر على وشك أن يصبح حليفنا في المعركة التي استمرت حتى المساء، وعلى الرغم من تغلُّب

العدوِّ علينا من الناحية المادية إلى حدٍّ لا يمكن تصوره، وكنت حينئذ أتعقب المراحل النهائية للمعركة من برج المراقبة، وأمام صرخات الجنود "اللّه اللّه ...» تزلزلت الآفاق وأطبقت على أصوات مدافع الأعداء التي كانت عنوانا على بطش تلك الحضارة المخيفة.

ثم كأن بي للحظة أسمع صوت وَقْعِ أقدام فالتفت خلفي فإذا أنا بالمساعد علي، كان وجهه شديد الاصفرار تقرأ في وجهه علاماتٍ المعاناة الشديدة، وقبل أن أسأله عما به بادرني هو بأن أراني ذراعه التي كانت كافية لتوضيح كل شيء، خِفتُ وأحاطت بي الدهشة، كانت يده قد أصيبت من مقدار أربع أصابع من مكان الرسغ وكادت تنقطع بالكامل بل كان يحول دونَ وقوع يده على الأرض قطعةٌ ضعيفة من الجلد، وأما هو فقد عض على أسنانه من الأَلم محاولاً التغلب على الوجع، وقد مد إلي سكيناً صغيرة كانت في يده اليمنى وهو يقول: "فلتقص هذا أيها القائد !».

لقد كانت هذه الجملة على بساطتها طلباً رهيباً جداً، وكانت من الإلزام بحيث جعلتني آخذ السكين من غير اختيار وأقطع اليد المتأرجحة عن الذراع من مكان الجلد، وأقول للمساعد علي مواسياً له أثناء قيامي بهذه المهمة التي تقشعر منها الأبدان:

«لا تحزن يا مساعد علي، فَلْيَسْلَم جسمُك».

وقبل أن ينقضي الكثيرُ من الوقت ضحَّى المساعدُ علي –ليس بيده فقط بل– بجسده الطيب كله في سبيل الوطن، وقد قال وهو يغمض عينيه عن الدنيا:

«لِيَسْلَمِ الوطن، وليثبتنا اللهُ على الإيمان، روحي فداءٌ للوطن! ...»

وظل يكررها حتى سلَّم روحه لخالقها، وقد أصبح ما حوله كبركة صغيرة من الدماء.



هذا جندي في «جاناك قلعه» عامر القلب بالإيمان، يعلم –بمقتضى إيمانه– أن الدفاع عن الوطن وحمايته دينٌ عليه، ولا يتوانى عن وفاء دينه بنفسه وروحه، ولذا كانوا يتمسكون بدينهم كتمسكهم بسلاحهم، ويتمسكون بسلاحهم كتمسكهم بإيمانهم.



في معركة«جاناك قلعه»كان معقل مجيدية في روملي قد أبيد كله تقريباً إثر هجوم رهيب من العدو، فقسْم كبير من الترسانة كان قد طار في الهواء، واستشهد ١٦ مدفعي، وكل ما بقي من المعقل الكبير نقيب واحد وجنديان ومدفع كسر مرفاعه لا تدخل القنبلة في فوهته.

كان النقيب قد ابتعد ليخبر القوات المركزية عن الوضع للمعقل، وتنفس كوجا سعيد الصعداء وهو ينظر إلى تقدم سفن الأعداء وهي تقذف الموت والدمار فوق البحر، وامتلأت عيناه ورفع يديه إلى السماء داعياً ربه وملتجئاً إليه وطالباً العون منه وقلبُه المتألم يرتعد من ألم العجز أمام العدو:

«يا رب! اللهم يا قادر! أعطني من القوة ما يعجز معه أي من عبادك أن يكون أقوى مني».

كان كوجا سعيد قد انسلخ من العالم الدنيوي تقريباً ... حيث أضحى في حضرة ربه تعالى فقط، وكانت الدموع التي تسيل من عينيه تقطر من خديه حتى الأسفل، وقد ردد لفترة:

«لا حول ولا قوة إلا بالله».

وبعدها فجأة صاح «يا اللّه» ورفع قذيفة مدفع بحجم ٢١٥ اوقية «أي ما يعادل ٢٧٦ كيلو» تحت حيرة ودهشة صديقه، وقد صعد الدرج الحديدي ونزله لثلاث مرات، وسمع صوت طقطقة عظام صدره وكتفيه، وكان كوجا سعيد يواصل دعاءه وقد غمره العرق من ناحية وتشققت شفتاه من ناحية أخرى حيث يقول:



«يا رب أمدني بالقوة ولا تقطعها عني».

وأخيراً تغيرت نتيجة المعركة بالقذيفة الثالثة المشهورة التي ساقها إلى فوهة المدفع إذ أصيبت سفينة الانكليز المدرعةالمسماة أوشين، وقد غطى سطحَ البحر نارٌ جهنمية.

وأما جواد باشا الذي علم بالأمر وشكر اللّه ﷻ، فقد طلب من كوجا سعيد عندما هنأه على ما فعله أن يعاود رفع قذيفة أخرى بنفس الثقل، لكن كوجا سعيد أجابه بقوله:

«يا سيدي! لقد كان قلبي ممتلئاً بفيض اللّه تعالى ومَظْهراً للتأييد الرباني، فكنت أشعر باختلاف في نفسي، حيث تجلّت نصرته وعنايته في مقابل دعائي، وهذا كان أمراً مخصوصاً بتلك اللحظة، لا يمكنني حمله الآن يا سيدي، فلتعذرني! ...».

وقال جواد باشا معقباً على كلام سعيد:

«لقد قمت بعمل عظيم يا بني، اطلب مني ما تشاء أكافئك به؟».

وقدم الشجاع المضحي -الذي محى من قلبه كل شيء سوى عبوديته للّه تعالى- البطولة الثانية الموجودة في روحه بهذه الكلمات:

«يا سيدي! ليس لي أي طلب، إلا أن لي بُنية مصارع فلا يكفيني رغيف من الخبز، فهلا أمرتم بأن يعطوني رغيفين من الخبز حتى أكون أقوى أمام الأعداء! ..».

وقد كافأه النقيب الذي تبسم من هذا الطلب برتبة مساعد الشاويش.

ولما جاء المساء وأعطي الجميع رغيفاً واحداً وأعطي مساعد الشاويش سعيد رغيفين لم يرض بطل الإيمان الكبير بهذا، حيث رفض أن يكون مختلفاً عن أصحابه في وقت تسيطر فيه المجاعة، فأعاد واحداً من الرغيفين ولم يأخذ بعدها أبداً.



يا له من قلب نقي وشفاف... مامن شك في أن حال كوجا سعيد هذه ليس إلا عبارة عن مشاهد الإخلاص والصدق مع قوة الإيمان.

وختاما فإن الإيمان ليس ادعاءً خاويا، وإنّما هو شاهد ودليل على مستوى قلب المؤمن وكماله، وأمارته التضحية. ولأن الإيمان سر الخلود، فقد قدمت الكثير من الفضائل والبطولات التي لا نظير لها في سبيل المحافظة عليه وتقويته كالتضحية بالكثير من الأنفس على مدى التاريخ وتحمل أنواع التعذيب والمشقة البالغة في سبيل اللّه تعالى.

وثمّة حاجة ملحّة الآن وقبل كل شيء إلى أنْ نحيا الإيمان بحب عميق وشوق عارم، وعلينا حشد الهمم لتتمكن الإنسانية جمعاء من دخول دار السلام لتأدية شكر نعمة الإيمان التي منَّ اللّه بها علينا، فالمؤمن الذي يحيا الإيمان بكل حب يشعر بنفسه مسؤولاً عن حال المجتمع، ثم إنّ نيل لقاء اللّه يوم القيامة سيكون متناسباً مع مقدار التضحيات التي قمنا بها لكمال إيماننا في هذه الدار الفانية.

ليجعلنا الحق تعالى من عباده الواصلين لنشوة الإيمان والقادرين على إفناء حياتهم في هذا السبيل! .. آمين! . . .



٢ . الإخلاص

يقول عليه الصلاة والسلام:

«**إنما الأعمال بالنيات...**»[٣٥]

وفي هذا الصدد يكون قصد رضا اللّه تعالى في جميع أعمال الخير -وعلى رأسها العبادات- أمراً رئيسياً، وهذا لا يتحقق إلا بالإخلاص، وبعبارة أخرى لا ترقى أعمالنا اليومية إلى مرتبة العبادات إلا بربطها بغاية سامية والإخلاص فيها، ومن ثم فإن الشرط الأساسي لقبول اللّه تعالى لأعمالنا إنما هو الإخلاص.

الإخلاص هو تأدية الأعمال بقصد رضا اللّه تعالى لا غير، وعدم إسدال ستار الرغبات والأهواء النفسية عليها، إن الإخلاص للعمل كالروح للبدن، فعملٌ لا إخلاص فيه لا يعدو أن يكون تعباً وقد يكون حراما وجرما كبيرا.

والإخلاص هو وقاية القلب وحمايته من كل أهواء النفس والدنيا للتقرب إلى اللّه تعالى. وهو تنقية الأعمال من جميع أنواع الملوِّثات المعنوية وعلى رأسها الرياء والعجب، إذ إنها أمراض قلبية تطمس الإخلاص وتقضي عليه.

ثم إنَّ خلْع كل آمال القلب وتعلُّقاته مما عدا اللّه تعالى وظيفةٌ عظيمةٌ، على المسلم أن يفي بها ويقوم بحقها خير قيام. لكن ينبغي ملاحظةُ أمر مهم جدا والتيقظ له دوما، وهو أن المخلصين أيضا على خطر عظيم فهم معرَّضون في كل لحظة لفقد لغلبة النفس والهوى وخسارة نقاء القلب وصفائه، فكما أنه من الصعوبة البقاء في القمة فكذلك من الصعوبة بمكان المحافظة على الإخلاص، ومن المشهور قول ذي النون المصري في هذا الشأن:

---

٣٥ البخاري، الإيمان، ٤١، مسلم، الإمارة، ١٥٥.



«الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء كلهم نيام إلا العاملون، والعاملون كلهم يغترون إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم...».[٣٦]

قال اللّه ﷻ: ﴿**لِيَسْأَلَ الصَّادِقِيْنَ عَنْ صِدْقِهِم...** ﴾[٣٧]

وعلى الرغم من ذلك فإن العباد الذين يتمكنون من المحافظة على الإخلاص يضحون مظهراً للكثير من اللطف الإلهي.

فالإخلاص يجعل العباد ينالون الخير الأعظم وهو رضا اللّه، لأن ما يريده اللّه تعالى من أعمال العباد قصدُ رضا اللّه تعالى أي الإخلاص، يقول اللّه تعالى:

﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّيْنَ**﴾[٣٨]

﴿**قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّيْنَ**﴾[٣٩]

ثم إن الإخلاص يخلِّص المؤمنَ من حبائل الشيطان ومكائده، لأنه لا سبيل له إلا على ضعف إخلاصه واختلطت نيته، يقول اللّه تعالى في الآية الكريمة:

﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ**﴾[٤٠]

ولكن اللّه يعتق المخلصين من عذاب جهنم، ويبشرهم بقوله:

﴿**إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِيْنَ**﴾[٤١] فالمخلصون مستثنون من العذاب.

إن العمل المؤدّى بالإخلاص ولو كان قليلا يكفي لتخليص صاحبه والنجاة به من العذاب، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام:

---

٣٦ البيهقي، شعب الإيمان، بيروت١٩٩٠، ٥، ٣٤٥.

٣٧ الأحزاب: ٨.

٣٨ الزمر: ٢.

٣٩ الزمر: ١١.

٤٠ الحجر: ٣٩ـ ٤٠.

٤١ الصافات: ٤٠.

«أخلِص دينك، يكفِكَ القليلُ من العمل»[٤٢]

ويقول عليه الصلاة والسلام:

«إنما تُنْصَرُ هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم».[٤٣]

ولابد أن نوقن أن الإخلاص هو الغالب، لأن الجهود التي فيها إخلاص تُحفَظ ولا تضيع أبداً، فكم من جيوش صغيرة تغلبت على جيوش أكبر منها في العدة والعتاد بإخلاص جنودها وثباتهم و صبرهم، فالإخلاص أساس النصر والظفر.



صور الفضائل

إنَّ حياة النبي عليه الصلاة والسلام مليئةٌ بأمثلة تصور لنا روعة الإخلاص، وتوضح لنا هذه الحادثة -التي وقعت في المراحل الأولى من التبليغ- هذه الحقيقة بأحسن ما يكون:

عرض المشركون على أبي طالب أن يمنع ابن أخيه محمداً ﷺ من الاستمرار في دعوته، فكان جواب النبي ﷺ لعمه بعد أن أبلغه رغبة قريش:

«واللّه يا عماه، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهره اللّه أو أموت دونه...».[٤٤]

ولما باءت محاولات المشركين -المنزعجين من بزوغ نور الإسلام- بالفشل تجرؤوا بأن عرضوا عليه مقابلاً فقام عتبة بن الوليد حتى جلس إلى رسول اللّه ﷺ، فقال:

---

٤٢ الحاكم، ٤، ٣٤١.

٤٣ النسائي، الجهاد، ٤٣.

٤٤ انظر: ابن الأثير، الكامل، ٢، ٦٤.

يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمتَ من السِّطَة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيتَ قومَك بأمر عظيم، فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرِض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، قال: فقال له رسول اللّه ﷺ:

«قل يا أبا الوليد، أسمع»

قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريدُ بما جئتَ به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا؛ وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا –أي من الجن– تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول اللّه عليه الصلاة والسلام يستمع منه، قال:

«أقد فرغت يا أبا الوليد؟»

قال: نعم، قال: «**فاسمع مني**»؛ قال: أفعلُ؛

فقال: **بسم اللّه الرحمن الرحيم ﴿حم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ .....﴾**

ثم مضى رسول اللّه ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه؛ ثم انتهى رسول اللّه ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال:

«قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك».[٤٥]

---

٤٥ انظر: ابن هشام، ١، ٢٣٦

لقد عاش النبي ﷺ حياته حريصا على تبليغ دين اللّه تعالى، ولم يطلب لنفسه شيئاً من الناس مستغنياً عن ذلك، لقد كرر نبيُّنا وسائرُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قول اللّه ﷻ:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِيْنَ﴾

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُم فَمَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللّهِ﴾

﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا على اللّهِ﴾ [٤٦]



وها هو حال موسى عليه السلام صورة رائعة للإخلاص:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [٤٧]

وكان قد أخرج سيدنا موسى عليه السلام لابنتي شعيبٍ عليه السلام الماءَ من البئر بمشقة وسقى بهائمهما على ما كان يعانيه من التعب والجوع، فشكرتاه وابتعدتا.

وبعد ذلك دعا شعيبُ عليه السلام موسى عليه السلام إلى بيته وأكرمه، وكان موسى عليه السلام متردداً في تناول الطعام مع كونه جائعاً، فسأله شعيب عليه السلام عن السبب، فردَّ عليه موسى عليه السلام بهذا الجواب:

«إنَّا –معشر قوم– لو أُعطيت لنا الدنيا بأكملها لَمَا أبدلناها بعمل من أعمال الآخرة، فأنا لم أساعدكم لهذا الطعام وإنما لرضا اللّه تعالى»

فسُرَّ شعيبٌ عليه السلام بهذا الجواب وقال:

---

٤٦ انظر: الشعراء، ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠؛ يونس، ٧٢؛ هود، ٢٩.

٤٧ القصص: ٢٣.



«إكرامنا هذا ليس مقابل مساعدتك لنا، بل لأنك ضيفنا، فكل على بركة اللّه»

ولذا فقد قبل موسى عليه السلام –التَعِبُ والجائع– الضيافةَ من شعيب عليه السلام.

وفي هذا المثال نرى أنه ينبغي عدم تشويه الإخلاص بانتظار المقابل الدنيوي كيلا يذهب أجر الأعمال الصالحة عبثا.



يروي لنا واثلة بن الأسقع حادثة في غزوة تبوك تصح مثالاً على الإخلاص:

«كان النبي عليه الصلاة والسلام يتجهز لغزوة تبوك، ولم يكن لواثلة ما يحمله فجعل ينادي: من يحملني وله سهمي؟ فدعاه كعب بن عجرة، وقال: أنا أحملك عقبة بالليل، ويدك أسوة يدي، ولي سهمك، فقال واثلة: نعم، قال واثلة: فجزاه اللّه خيراً، كان يحملني عقبى ويزيدني، وآكل معه ويرفع لي، حتى إذا بعث رسول اللّه خالد بن الوليد إلى أكيدر الكندي بدومة الجندل، خرج كعب وواثلة معه فغنموا، فأصاب واثلة ست قلائص، فأتى بها كعبَ بن عجرة، فقال: اخرج فانظر إلى قلائصك، فخرج كعب وهو يتبسم ويقول: بارك اللّه لك، ما حملتك وأنا أريد أن آخذ منك شيئاً».[٤٨]

إن الصحابة الكرام –الذين كانوا يصرفون بسرور كلَّ إمكاناتهم في سبيل رضا اللّه تعالى– يراعون سِرّ الإخلاص إلى أبعد الحدود في خروجهم في الغزو في سبيل اللّه وفي مساعدة كل مسلم، حتى لقد حرصوا على ألا يقع في قلبهم أي غرض دنيوي –مهما صغر– لأعمال الخير التي يقومون بها.



٤٨ أبو داوود، الجهاد، ١١٣/ ٢٦٧٦.

كانت السيدة عائشة ﵂ عندما تتصدق -فيدعو لها الفقير- تدعو له بالدعوة نفسها، فلّما سُئلت: لماذا تدعين للفقير؟ قالت: حتى تكون دعوتي مقابل دعوته، وتكون الصدقة خالصة للّه ﷿.[49]

يا له من نموذج رائع على الإخلاص! والذي يبين لنا كم حرص أولئك الناس المباركون على الإخلاص في كل عمل وقول صدر عنهم.



وفيما يلي حادثةٌ رائعة أخرى تعرض لنا إخلاص علي بن أبي طالب ﵁ العميق ومراعاته له:

«عندما جلس فوق صدر أحد المشركين في إحدى المعارك، يريد قتل هذا المشرك اللعين وهو كما في بعض الروايات عمرو بن ود، ولما هَمَّ بقتله ما كان من عمرو بن ود إلا أن بصق في وجه علي بن أبي طالب والسيف في الهواء يوشك أن يهوي، فغضب عليٌّ، ودار حوله ولم يقتله، فقال له عمرو: بصقت في وجهك لتعجل علي بقتلي!!، قال علي: عندما بصقتَ في وجهي غضبتُ، فإن قتلتك كان قتلي لك لغضبي لنفسي، فلما هدأت اقتلك للّه».

وهكذا نرى كيف أن أخلاق المؤمن الراقية منحت الحياة لعدو كان قد شارف على الموت آنفا، فإيمان سيدنا علي ﵁ شُرِّفَ بمقاومة النفس وتنزيه النيات والغايات عن كل شائبة وإخلاصها للّه تعالى.



لقد نشب حريق كبير في سوق النحاسين في بغداد، وعَلِقَ غلامان في إحدى الدكاكين المحروقة، مع صراخ الغلامين وهما يطلبان النجدة إلا أنه لم يكن بإمكان أحدٍ مساعدتهما وإخراجهما بسبب ألسنة اللهب المستعرة، وأما

---

٤٩ نجاتي يني أل ـ حسين كايابنار، سنن أبي داوود، ترجمة وشرح، اسطنبول، ١٩٨٨، ٦ ، ٣٠٤



صاحب الدكان فكان ينادي في الخارج وقد لفَّه اليأس: «من أنقذ الولدين فله ألف دينار».

وفي هذه الأثناء كان أبو الحسين النّوري يمرّ مصادفة من هناك، فلمّا رأى ما يحصل دخل في الحريق بدافع الرحمة والشفقة على صراخ الغلامين، فاقتحم النار دون وجل وكأنّ النّار تحوّلت روضة، وقد تمكّن وبعناية من اللّه تعالى ولطف من إخراج الولدين من الحريق أمام حيرة الجميع.

فقدَّم سيد الولدين –بامتنان غامر– الذهبَ (الدنانير) إلى أبي الحسين النوري، الذي قطَّب حاجبيه، وقال:

«خذ ذهبَك واشكُرْ ربَّك! فلو كنتُ قمتُ بهذا بغية الحصول على عَرَض من الدنيا قليل لما استطعتُ انتزاع الغلامينِ من بين ألسنةِ اللهب، ولكني فعلتُ ما فعلتُ بغية رضا اللّه تعالى!».

ووفق هذا المثال نرى كم من الحرائق تنقلب روضاتٍ ببركة الإخلاص، ونرى كذلك أن ولوج النار لا يكون إلا لمن كانت حاله كحال إبراهيم خليل اللّه عليه السلام، أي (الإبراهيمية)، لأن عدم خوف إبراهيم عليه السلام من النار إكرام استثنائي مَنَّ اللّه تعالى به مقابل استسلام إبراهيم عليه السلام للّه تعالى بحبّه وعشقه له النابعين من صميم فؤاده.

وإثر الإخلاص يظهر في كل عمل، فالصدقة حين ينفقها صاحبها بنية خالصة لوجه اللّه تعالى تكسبه أجراً عظيماً حتى لو أعطيت لمن لا يستحقها، وتُظهر في المنفق عليه ميولاً إيجابية نحو الخير، ويشير النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة بما يلي:

«قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّقَ الليلةَ على زانية! قال: اللهم لك الحمد، على زانية، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّقَ الليلة على غني! قال: اللهم لك الحمد، على غني، لأتصدقن بصدقة،

فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّقَ الليلة على سارق، فقال: اللهم لك الحمد، على زانية وعلى غني وعلى سارق، فأتي، فقيل له: أما صدقتك فقد قُبِلَت، أما الزانية، فلعلَّها تستعف بها عن زناها، ولعلَّ الغني يعتبر فينفق مما أعطاه اللّه، ولعلَّ السارقَ يستعفُّ بها عن سرقته».[50]

إذاً ففي بركة الإخلاص وتصفية النية في الحديث الشريف، إشارة إلى لزوم وجود الإخلاص في القلب أثناء الإنفاق، إضافة إلى ما أفادته من أن النية تكون خيرا من العمل، وللكن علينا أن نتنبه إلى مواطن دفع الصدقات وألا نظن أنه من الفضيلة إنفاق الصدقة عشوائياً، بل على العكس ينبغي على المؤمن أثناء إعطاء صدقته وزكاته التحرّي ضمن إمكانياته عمّن هو محتاج والتصدق بها على من يستحقها.

وفيما يلي حادثة مليئة بالعبر تعد مظهراً للحديث الشريف الذي ذكر آنفاً:

في أحد أسفار سامي أفندي في الأناضول طلب منه رجل –بعد أن أوقف سيارته– في مدينة أورجوب مالاً لشراء سجائر، فما كان من سامي أفندي إلا أن أعطى الرجلَ المال الذي طلبه وسْط حيرةِ مَن حوله وإزاء حيرتهم هذه قال لهم:

«طالما أنه يريد ذلك فيجب إعطاؤه».

وعلى الرّغم من الإنكار القلبي من بعض رفاق السفر، وأما الفقير فقد ابتعد من هناك فرحاً قائلاً:

«سأذهب وأشتري بهذه خبزاً ».

وهذا مثال واضح على ظهور أثر الخير حين يكون المال المنفق حلالاً وتكون النية نقية وخالصة.



٥٠ البخاري، الزكاة، ١٤.

في عهود الإسلام الأولى كان في المدينة المنورة رجل مجهول يترك جراب مُؤَنٍ أمام أبواب بعض الفقراء كل صباح حتى اعتاد الفقراء على ذلك دون أن يعرفوا من يفعل ذلك، وفي ذات صباح لم يجد الفقراء أكياس المؤن أمام أبوابهم، ووسط دهشتهم وتساؤلهم عن السبب تردد صدى نعي زين العابدين حفيد علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهما حيث تردد في أنحاء المدينة، فاجتمع أهل المدينة في بيت زين العابدين لتشييعه، ولكنهم لما غسَّلوه جعلوا ينظرون إلى آثارِ سَوادٍ في ظهره وعجبوا منه، فقالوا: ما هذا؟ فعرفوا حينئذ من خادمه أنه هو من كان يَحْمِلُ جُرُبَ الـمُـؤن ليلاً على ظهره يعطيه فقراءَ أهلِ المدينة.[٥١]

وهكذا حين يتجلى الإخلاص على قلب المؤمن فإنه يمتلئ بالرحمة والشفقة على عباد اللّه تعالى دون أن تشوهها إطراءات البشر ومدائحهم...



وكذلك نرى في حال السلطان ألب أرسلان المتعلق قلبه بربه في القصة التالية نموذجا رائعا على الإخلاص:

حين دنت ساعة اللقاء في معركة ملاذ كرد سنة ١٠٧١ لبس البياض وتحنَّط وقال: «إن قُتِلت فهذا كفني».

أي إنه هيّأ نفسه للشهادة بشوق الإيمان الخالص وليس للشهرة بين الناس، وقد حدث جنودَه قبل المعركة بهذه الكلمات الوجيزة:

«فإما أن أبلغ الغرض وإما أن أمضي شهيداً إلى الجنة، فمن أحب أن يتبعني منكم فليتبعني، ومن أحب أن ينصرف فليمضِ مصاحباً، فما هاهنا سلطان يأمر ولا عسكر يُؤمر، إنما أنا اليوم واحد منكم، وغاز معكم، فمن تبعني ووهب نفسه للّه تعالى فله الجنة أو الغنيمة، ومن مضى حقّت عليه النار والفضيحة».

---

٥١ انظر: ابن كثير، البداية، ٤ ، ١١٢، ١٢٢؛ أبو نعيم، الحلية، ٣، ١٣٦.



وبناء على ما أُوضِح سلفاً فلن يصل من الناس إلى الخلاص الحقيقي إلا المخلص، وهم لذلك يكونون عرضة للابتلاء والاختبار على الدوام، وقد تعرض قائد الإسلام العظيم ألب أرسلان إلى امتحان من هذا القبيل بمحاولة لاغتياله أودت بحياته:

فبعد معركة ملاذ كرد وفي سنة ١٠٧٢ خرج في سفر إلى بلاد ما وراء النهر مع أعداد كثيرة من الفرسان، وحاصر قلعة خانا المتواجدة على نهر أمودريا، ولما أدرك قائد القلعة يوسف الخوازمي المنسوب إلى فرقة منحرفة وهي الباطنية بأن القلعة لن تصمد أكثر أعلن استسلامه، وعندما مَثُلَ بين يدي ألب أرسلان انقض عليه وأصابه بخنجره، إلا أنه تم قتله مباشرة، لكن السلطان لم ينج من جراحه، فمات وهو في الرابعة والأربعين من عمره في ٢٥ من تشرين الأول عام ١٠٧٢م، ويحكى أنه قال لما عاين الموت بعينه:

«ما كنت قط في وجه قصدته ولا عدو أردته، إلا توكلت على اللّه في أمري، وطلبت منه نصري، وأما في هذه النوبة، فإني أشرفت من تل عال، فرأيت عسكري في أجمل حال، فقلت: أين من له قدرة على مصارعتي، أو معارضتي، وإني لأصل بهذا العسكر إلى أقصى الصين، فخرجت عليّ منيتي من الكمين»

وجاء في رواية:..

فقلت في نفسي: أنا ملك الدنيا وما يقدر أحد عليّ، فعجّزني اللّه تعالى بأضعف خلقه، وأنا أستغفر اللّه وأستقيله من ذلك الخاطر، وعلى القادة والحكام أن يستشعروا نعائم اللّه عليهم ويتذكروا فضله وإحسانه، وينسبوا الفضل للّه تعالى صاحب المنّ والعطاء والإحسان والإكرام.

ومِمَّا لا شكّ فيه أن هذه الحال هي محاسبة قلب طاهر وضمير مخلص.



قيل لأحد أولياء اللّه:

«يا مولاي، أحدثت لكم حادثة في الإخلاص أثرت فيكم؟»

فأجاب بنعم، وسرد قصته قائلاً:

«أضعت حزام نقودي في مكة المكرمة، وبت محتاجاً، وكنت أنتظر وصول نقود من البصرة، ولكن لم تصل، وقد طال شعري وساءت حالي، فقصدت حلاقاً قائلاً: هلا حسنت من شعري لوجه اللّه فليس لي مال، وفي تلك الأثناء كان الحلاق يحلق لرجل، فقال له: اجلس هنا –مشيراً إلى مكان فارغ–، وبدأ بحلق شعري تاركاً ذلك الرجل، فاعترض الرجل على هذا، فأجابه الحلاق: سامحني يا سيدي، فأنا أحلق لك شعرك مقابل مال، لكنه طلب مني حلق شعره لرضا اللّه تعالى، والأولوية للأعمال التي تكون للّه تعالى، وليس لها مقابل، فالأعمال المؤداة لرضا اللّه تعالى لا يقدر البشر على إيفاء عوضها. وبعد فراغه من الحلاقة وضع بإصرارٍ في جيبي بضعة دنانير، وقال لي: لا تؤاخذني، فهذا ما أقدر عليه، استعن بها على قضاء حوائجك. وبعد مرور أيام، وصلني المال الذي كنت أنتظره، فأخذت إلى الحلاق كيساً فيه دنانير، فقال: لا آخذها ألبتة! ليس بمقدور أحد تعويض عمل أدي لوجه اللّه تعالى، فلتمض في طريقك مصحوبا بالسلامة. فودّعته وافترقت، إلا أني ومنذ أربعين سنة أدعو له في صلاة الليل».

وبهذا فإنه تعالى سيكافئ الأعمال الخالصة المؤداة في سبيله لا غير على نحو يليق بذاته العلية ﷻ.



كان الكثير من الأغنياء في المجتمع العثماني عند حلول رمضان، يجولون في الأحياء بعد تغييرهم لباسهم، ويطلبون من البقالة وبائعي الخضار والفواكه

إخراج دفاتر السجل ويقومون باختيار عشوائي لأسماء من المقدمة والوسط والمؤخرة حيث يحصون الديون المرتبة على أصحاب الأسماء فيؤدونها عنهم، ويقولون:

«امسحوا هذه الديون، وليتقبل اللّه منا».

فلم يكن صاحب الدين يعلم بمن وفى له دينه، ولم يكن الذي أدى الدين يعلم بمن أدى عنه دينه، فكان هؤلاء الأشخاص -لمعرفتهم بفضيلة صدقة السر وفضلها على صدقة العلن- حريصين على القيام بمساعداتهم سرا، وقد كان أجدادنا يخفون ما ينفقونه بأيمانهم عن شمائلهم، وينسون على الفور ما قاموا به من أعمال الخير.

يأمر كبار أولياء اللّه تعالى بنسيان شيئين:

١. انس ما قمت به من حسنات حتى لا تولِّد الخيرات والحسنات فيك الغرور والعجب.

٢. وانس الإساءات التي مورست ضدك كيلا يتبرعم الحقد والغضب في قلبك.

وختاما فالإخلاص جوهر يشق الحصول عليه وتصعب المحافظة عليه، ولذا فما يعرفه ويطلع عليه إلا الرب سبحانه وتعالى، إذ إن نوافذ القلب لا تتكشف إلا أمام الحق تعالى، والإخلاص خصلة سنية ترقى بالعبد إلى أعلى الدرجات يوم القيامة وتقربه إلى اللّه تعالى، ولا يقبل اللّه تعالى الأعمال الخالية عن الإخلاص، وإنما يضرب -يوم القيامة- وجوههم بالأعمال التي تشوبها أمراض قلبية كالعجب والرياء وكأنها خرقة بالية، وأما الإخلاص فيبارك اللّه تعالى في القليل منه ليصبح كثيراً، فيطول عمره وتدوم فيوضاته.

٣ . التقوى

تأتي التقوى كمرآة تعكس التجليات الإلهية بصورة تحمي القلب من كل ما يبعد المرء عن اللّه تعالى، فالتقوى حماية المؤمن نفسه من الأشياء التي ستلحق به الضرر والألم يوم القيامة بالالتجاء إلى حفظ اللّه وحمايته، وتمسكه بالأعمال الصالحة باجتنابه المعاصي.

ويعلمنا فخر الكائنات النبي عليه الصلاة والسلام أن القيمة الوحيدة للمرء ومعيار تفاضل الخلق عند الحق إنما هي التقوى فيقول:

«**انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى**».[٥٢]

وكان عليه الصلاة والسلام يقول:

«**أنا أتقاكم وأعلمكم باللّه**».[٥٣]

ويعيش ذلك وقد كانت حركاته في كل مراحل حياته منبعثة من معين التقوى، ولذا كان من يتقيد بسنة النبي ﷺ ويقتفي أثره مؤمنا حقا ومتقيا للّه تعالى حق التقوى. وكم هو رائع قول عيسى عليه السلام يعرّف التقوى حين سأله أحدهم:

«يا معلم الخير، كيف لشخص أن يكون صاحب تقوى؟»

فأجابه عيسى عليه السلام:

«هذا عمل سهل، تحب اللّه تعالى من روحك وقلبك كما يستحق، وتعمل الصالح من الأعمال كلما استطعت، وترحم البشر جميعا كأنك الأم الشفوق بهم، وما لا ترغب بأن يُفْعَل بك فلا تفعله لغيرك، حينها تكون متقيا للّه تعالى كما يجب».[٥٤]

---

٥٢ أحمد، ٥، ١٥٨.

٥٣ البخاري، الإيمان، ١٣؛ مسلم، الصيام، ٧٤.

٥٤ أحمد، الزهد، ص: ٥٩.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبي بن كعب عن التقوى، فقال له:

«أما سلكت طريقاً ذا شوك، قال: بلى، قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى».[55]

ورأس التقوى أن تفر من الشرك والكفر فرارك من النار وجحيمها، ويتجلى ذلك بتأدية الفروض كما يجب واجتناب جميع المعاصي.

يقول عليه الصلاة والسلام:

«**اتق اللّه حيثما كنت، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالق الناس بخلق حسن**».[56]

وقمة التقوى حين يتوجه العبد بكل جزء منه إلى اللّه تعالى، وحين يحفظ قلبه عن كل ما يغفله عن اللّه تعالى، ولا نهاية لهذه المرتبة، وهذه هي المرحلة الأخيرة من التوكل الحقيقي التي أمرنا بها:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾[57]

ولبلوغ المرء كمال التقوى لا بدّ من اجتناب الشبهات، يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

«**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به بأس**».[58]

وينبهنا عبد اللّه بن عمر رضي الله عنه بما يلي:

«لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر».[59]

---

٥٥ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، بيروت ١٩٨٨، ١، ٤٢.

٥٦ الترمذي، البر، ٥٥/ ١٩٨٧.

٥٧ آل عمران: ١٠٢.

٥٨ الترمذي، القيامة، ١٩/ ٢٤٥١؛ ابن ماجة، الزهد، ٢٤.

٥٩ البخاري، الإيمان، ١.

فينبغي على العبد –حتى يكون صاحب تقوى– محاسبة نفسه على الدوام، إذ إن شهوات النفس الأمَّارة بالسوء عدو القلب اللدود، ولا يمكن التوقي من آفاتها إلا بتقوية شعور التقوى.

فيوسف ﷺ حين قال: «معاذ اللّه»–حتى لا يقع في شباك تلك المغريات المعروضة عليه– فقد بين لنا أن الخلاص منحصر في التقوى والالتجاء إلى اللّه تعالى.

وقد كان فخر الكائنات محمد عليه الصلاة والسلام يتضرع إلى اللّه تعالى في دعائه أن يمنحه التقوى فيدعو:

«رَبِّ أَعْطِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْر مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيّهَا وَمَوْلَاهَا».[٦٠]

«اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى».[٦١]

إن الأفضلية عند اللّه بين الناس لأكثرهم تقوى،[٦٢] يحب اللّه تعالى من عباده المتقين،[٦٣] وهو معهم في كل آنٍ،[٦٤] ويعِد اللّه تعالى المتقين بجنات عرضها السموات والأرض،[٦٥] وأيضاً فإنه تعالى يهب عبده المتقي نورا وحكمة يفرّق بها بين الخير والشر، ويعفو عن معاصيه،[٦٦] ويرشده إلى طريق الخلاص ويرزقه من حيث لا يحتسب، وييسّر أموره، ويعفو عن سيئاته ويكرمه بأجرٍ عظيم.[٦٧]

---

٦٠ مسلم، الذكر، ٧٣.

٦١ مسلم، الذكر، ٧٢.

٦٢ انظر: الحجرات، ١٣.

٦٣ انظر: آل عمران، ٧٦.

٦٤ انظر: النحل، ١٢٨.

٦٥ انظر: آل عمران، ١٣٣.

٦٦ انظر: الأنفال، ٢٩.

٦٧ انظر: الطلاق، ٢ ـ ٥.

وفيما روى أبو ذر رضي الله عنه قال رسول اللّه ﷺ:

«**إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم، فقالوا: أية آية هي يا رسول اللّه؟** فتلا:

﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**﴾[٦٨]».[٦٩]

ثم إن أقرب الناس لرسول اللّه ﷺ المتقون، يقول معاذ بن جبل:

«خرج معي رسول اللّه لما ولاني على اليمن يوصيني وأنا راكب ورسول اللّه يمشي تحت راحلتي، فلما فرغ قال:

«**يا معاذ إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبري**»

فبكى معاذ جشعاً لفراق رسول اللّه -ﷺ،

فقال: «**لا تبكِ يا معاذ، للبكاء أوان، البكاء من الشيطان**»

ثم التفت بوجهه نحو المدينة فقال:

«**إنَّ أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا**».[٧٠]

يقول عليه الصلاة والسلام أيضاً:

«**إنّما أوليائي المتقون**».[٧١]

والقلب الذي يبلغ كمال التقوى يرتقي بعد ذلك إلى الشهود الرباني، ويغدو موضعاً لنظر اللّه تعالى و يجلي أسراره.

---

٦٨ الطلاق: ٢.

٦٩ ابن ماجة، الزهد، ٢٤.

٧٠ أحمد، ٥، ٢٣٥؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، بيروت ١٩٨٨، ٩ ، ٢٢.

٧١ أبو داوود، الفتن، ١/ ٤٢٤٢.

صور الفضائل

إن أولياء اللّه تعالى العالمون بحق -أمثال الإمام الأعظم أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل- قضى جميعُهم حياتهم في ظلال التقوى، فقد روي عن أبي حنيفة أنه كان يمضي يوماً في السوق، فتطايرت نقطة من الطين على ردائه، فذهب إلى شاطئ دجلة، وغسلها، فقالوا له: أيها الإمام، إنك تسمح بمقدار معين من النجاسة على الرداء، وتغسل هذا القدر من الطين! قال: بلى، فتلك فتوى وهذه تقوى.

وبناء على ما تبين فإن التقوى هي إظهار المراعاة الشديدة لأوامر اللّه تعالى ونواهيه.



ويا لها من قصة مليئة بالعبرة قصة تلك المرأة التي لم تكن تتكلم إلا بالقرآن الكريم خوفاً من الوقوع في المعصية:

فروي أن الإمام عبد اللّه بن المبارك خرج ذات مرة للحج إلى بيت اللّه الحرام وزيارة قبر نبيه ﷺ يقول عبد اللّه بن المبارك:

وبينما أنا أسير في بعض الطريق إذا بي أرى سوادا، فتميزته فإذا بها امرأة عجوز عليها درع من صوف أسود وخمار من صوف، فلما اقتربتُ منها قلت لها: السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

فقالت: سلام قولا من رب رحيم،

فقلت: يرحمكِ اللّه يا أمةَ اللّه ماذا تصنعين في هذا المكان؟

فقالت: ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا،

قال: فعلمت من كلامها أنها ضلت الطريق،فقلت لها: فإلى أين تريدين؟

فقالت: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى،



قال: فعلمت من كلامها أنها قد قضت الحج وتريد أن تزور بيت المقدس،

فقلت لها: منذ كم وأنتِ في هذا المكان؟

فقالت: ثلاث ليالي سويا،

فقلت لها: أنا لا أرى معكِ طعاما ولا شرابا، فمن أين تأكلين؟

فقالت: هو الذي يطعمني ويسقين،

فقلت لها: فبماذا تتوضئين إذا حضرتك الصلاة؟

قالت: فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا،

فقلت لها: إنَّ معي بعض الطعام والشراب فهل أعطيكِ منه؟

فقالت: ثم أتمّوا الصيام إلى الليل،

فعلمت أنها صائمة، فقلت: لماذا لا تكلميني مثلما أكلمكِ؟

فقالت: ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد،

فقلت لها: هل لي أن أحملكِ على ناقتي هذه؟

فقالت: وما تفعلوا من خير فإن اللّه به عليم،

قال: فأنخت لها الناقة لتركب عليها فلما أنخت الناقة

قالت: قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم،

قال فغضضت بصري فلما ركبت

قالت: سبحان الذي سخَّر لنا هذا وما كنا له مقرنين إنا إلى ربنا لمنقلبون،

قال: فسِرْتُ بها قليلاً فقلت لها: يا أَمَةَ اللّه هل أنتِ متزوجة؟

فقالت: يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدَ لكم تسؤكم،

قال: فسكتُّ ولم أتحدث معها حتى أدركنا القافلة فقلت لها: هذه هي القافلة، فمن لكِ فيها؟ هل لكِ فيها أحد فأناديه؟



فقالت: المال والبنون زينة الحياة الدنيا،

قال: فعلمت من كلامها أن لها أولادا في القافلة، فقلت لها: وما شأنهم؟ ما عملهم؟ ماذا يفعلون في القافلة؟

فقالت: وعلامات وبالنجم هم يهتدون،

قال: فعلمت أنهم أدلاء الركب، قال: فتحركت بها إلى العمارات والقباب التي يجلس بها المسافرون فقلت لها: نحن أمام هذه العمارات فمن لكِ فيها؟ من أنادي؟

فقالت: واتخذ اللّه إبراهيم خليلا، وكلم موسى تكليما، يا يحيى خذ الكتاب بقوة،

قال فناديت: يا إبراهيم، يا موسى، يا يحيى، فأقبل ثلاثة من الشباب كأنهم الأقمار، فلما جلسوا بين يدي أمهم قالت: فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه، تريد أن تضيف عبد اللّه بن المبارك،

قال: فذهب أحدهم فجاءنا بطعام وشراب فوضعه أمامي، فقالت لنا العجوز: كلوا وشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية،

فقلت: طعامكم وشرابكم حرام علي حتى تخبروني ما شأن أمكم هذه؟ ما قصتها؟

فقالوا: إن أمنا هذه منذ أربعين سنة وهي لا تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن يزل لسانها فيسخط عليها الرحمن،

فقلت: ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء، واللّه ذو الفضل العظيم.[٧٢]



٧٢ م. عاصم كوكسال، الكتاب والسنة، اسطنبول ١٩٩٩، ٢١ ـ ٢٥.



ومن مقتضى التقوى اجتناب الأمور المشتبه فيها، بل حتى بعض الأشياء المباحة خوفاً من الوقوع في الحرام، ومن أمثلة ذلك:

كان السلطان عبد العزيز خان قد وصل بالجيش وسلاح البحرية إلى مستوى باهر، وتخلص من المشاكل الداخلية بسياسة حكيمة، وبدأ بالترقي بالدولة نحو موقعها القديم المرموق الذي كان قد شد انتباه الدنيا بأسرها، ولذا دُعي إلى فرنسا وانجلترا.

وكان قد اصطحب معه طهاةً من مدينة بولو لأنه يرى أن طعام الأوروبيين محظور شرعاً، حيث كان سلطاناً يراعي الجانب الديني إلى حدٍ كبير.

ثم إن السلطان عبد العزيز خان يُعرف عنه أنه كان رجلاً صالحاً يقضي حياة دينية ومنضبطة، وكان من التقوى بحيث كان يشرب طوال حياته ماء زمزم بدل الماء، ويروى عنه أنه كان يأخذ ماء وضوئه معه في أسفاره إلى أوروبا، إلى جانب حرصه على تأديته صلاته وقراءته القرآن الكريم كثيراً، وعندما قتل بوحشية وجد المصحف الكريم في غرفته مفتوحاً على صفحة سورة يوسف عليه السلام، ويحتفظ بهذا المصحف الشريف المصطبغ بلون دمه في قصر توب كابي في اسطانبول الآن.

يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف:

«**يموت العبد على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه**».[٧٣]



وأما الشخصية التاريخية الأخرى التي تحيا بناءً على مقاييس التقوى الحساسة فهي السلطان عبد الحميد خان، حيث كان يطلب إيقاظه في أي وقت كان بالليل إن طرأ أي أمر مستعجل، فلم يكن يرضيه تأجيل الأمر إلى غد، ويقول المدير العام للتشريفات الملكية السيد أسعد في مذكراته في هذا الشأن:

---

٧٣ انظر: مسلم، الجنة، ٨٣؛ المناوي، فيض القدير، بيروت ١٩٩٤، ٥، ٦٦٣



«ذات مرة طرقت باب السلطان منتصف الليل للتوقيع على أمر مهم، ولكن الباب لم يُفتح، وعاودت الطَّرْق بعدما انتظرت فترة، ولكنه لم يُفتح أيضاً، فراودني قلق على حياة السلطان؟، وبعد فترة قليلة طرقت الباب مجدداً، وفي هذه المرة فُتح الباب، وظهر السلطان وبيده منشفة، يجفف وجهه بها، فابتسم قائلاً: "يا بني! لقد عرفت مجيئك لأمر غاية في الأهمية في هذه الساعة، وكنت قد استيقظت في طرقكم الباب لأول مرة، إلا أني تأخرت بسبب الوضوء، إذ إني لم أوقِّع ورقة من الأوراق الخاصة بالدولة من غير وضوء ... أعطنيها أوقعها! ...» ووقعها بعد أن سمى باللّه.

وقد نقلت زوجة السلطان عبد الحميد خان لنا ما يلي فيما يتعلق بمراعاته لهذا الأمر:

«كان عبد الحميد يضع أعلى سريره لَبِنَةً نظيفة على الدوام، حيث كان يتيمم بها عندما يستيقظ كيلا يضع قدمه على الأرض من دون وضوء إلى حين ذهابه إلى مكان الوضوء، وعندما سألته مرة عن السبب في ذلك أجابني: إن لم نراع نحن –باعتبارنا خليفة لكل المسلمين– مقاييس السنة، لَلَحِقَ الضرر بأمة محمد ﷺ».

فحياة التقوى أوصلته في السياسة أيضاً إلى الدهاء، حيث سطرت فراسته في تاريخ الدنيا بإدارته الدولة في أصعب وأخطر السنوات.



وختاما فإن التقوى جوهر الدين ورأس المحامد كلها في الحياة، والتقوى أعظم رأس مال لسعادة الدار الآخرة، وحياة من غير تقوى تحفّها المخاطر من كل جانب، وحياة لم تعش بالتقوى تتسبب بسوء الخاتمة، والخسران الأبدي بمقتضى قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**يموت العبد على ما عاش عليه**»، ولذا من الضروري تمضية الحياة باعتناء ودقة في هذه الدنيا الفانية للوقاية من شر الشهوات النفسية كحال الماشي في أرض ملغومة.



تجري الحروب في أزمان وأمكنة معلومة ثم ما تلبث أن تنتهي، وأما الذي يجاهد نفسه فعليه الاستمرار في جهاد التقوى طوال الحياة دون انقطاع، يقول تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِيْنُ﴾ [٧٤]. أي الموت.

أكرمنا اللّه تعالى وإياكم باليقظة الدائمة التي تحجب عنا غفلات النفس ومكائدها، ومَنَّ علينا جميعا بإقامة عبوديتنا على أساس التقوى. آمين.

٤ . التوبة والاستغفار

يميل الإنسان إلى الذنوب حين تغلبه شهوات نفسه ويفقد روحانية الإيمان، فعندما يضعف تأثير الأخلاق في الوجدان يضيع التفكير الدقيق والتعمّق الروحي، وتظهر ذاتٌ جديدة في سبيل التحلي بالاستقامة، تبدو المعاصي للوهلة الأولى كموسيقا رائعة ولكن ما يلبث أن يتغلغل وبالها في النفس دون أن يشعر بها صاحبها.

إن ابن آدم يأتي إلى الوجود طاهراً نقيا كمرآة صقيلة، ثم يأتي الدين تجلِّيا رحمانيا ليحفظ النقاء الفطري من قبل الله تعالى إلى البشرية، وبالتالي فإن العبد يمكنه المحافظة على صفاء فطرته وكشف حجب الغفلة مستفيداً من روحانية الدين، وبحسب بشريته فإنه يشعر بثقل الخطأ الذي يرتكبه في ضميره، إذ تصحو مشاعر الفضائل المكنوزة في عالمه الداخلي بعد أن تتوتر، ويكتوي قلبُه بنار الندامة، ويضرع قلبه لربه تعالى بدموعه الحرَّى، هذا الاكتواء وهذه الندامة هي التوبة، وهذا التضرع النابع من القلب طلباً للعفو هو الاستغفار.

---

٧٤ الحجر: ٩٩.

ثم إن المعاصي -كما إنها موانع من دخول الجنة- إلا أن التوبة عنها والمؤيَّدة بالأعمال الصالحة مع ما يرافقها من حرقة الفؤاد وضارعته لله تعالى تكون وسيلة للنجاة من النار. يقول عليه الصلاة والسلام:

«**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر اللّه ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**»[٧٥] .[٧٦]

وفي حديث آخر:

«**ألا أدلكم على دائكم ودوائكم، ألا إن داءكم الذنوب، ودواءكم الاستغفار**»[٧٧]

فلذا يلزمنا الالتجاء إلى التوبة والاستغفار على الفور، والتوجه إلى الله تعالى إثر الوقوع بأية معصية يسوقنا إليها ضعفنا البشري، فالله تعالى يثني على عباده المتقين الذين رضي عنهم فيقول:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٧٨]

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٧٩]

ثم إنه تعالى يبين في أكثر من آية أنه سيعفو عن عباده التّائبين بصدق، بل إنه سيبدل سيئاتهم حسنات إن أقبلوا إليه بتوبة نصوح:

---

٧٥ المطففين: ١٤.

٧٦ الترمذي، التفسير، ٨٣/ ٣٣٣٤.

٧٧ الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب، بيروت ١، ١٣٦.

٧٨ آل عمران: ١٣٥.

٧٩ الذاريات: ١٧ ـ ١٨.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا﴾[٨٠]

ويقول النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام:

«إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».[٨١]

إلا أن أهمَّ شرط في التوبة الإخلاصُ والصدقُ، فالذي ينكث توبته على الدوام يستهزء الشيطان به، يقول الحق تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾[٨٢]

ومن جانب آخر فإن التوبة والاستغفار وسيلة للوقاية من العذاب في الدارين، يقول عليه الصلاة والسلام:

«أنزل الله علي أمانين لأمتي ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٨٣] فإذا مضيتُ تركت فيهم الاستغفارَ إلى يوم القيامة».[٨٤]

---

٨٠ الفرقان: ٧٠.

٨١ مسلم، التوبة، ٣١

٨٢ لقمان: ٣٣.

٨٣ الأنفال: ٣٣.

٨٤ الترمذي، التفسير، ٨/ ٣٠٨٢.

ثم إن كلاً من التوبة والاستغفار تعتبر من أشد الوسائل المؤثرة في التقرب من الله تعالى على اعتبار أنها في طبيعتها ندم عميق والتجاء صادق، إضافة إلى أن الاستغفار الذي يحتل مكاناً هاماً في التوجه إلى الله ﷻ والارتقاء بالقلب مرتقى عليا، يعد الوسيلة الوحيدة للتطهر من الملوثات المعنوية، والتوبة المقبولة ترفع الحواجز والحجب المصطنعة بين العبد وربه تعالى، وتكون مظهراً لحبه تعالى، يقول الحق ﷻ:

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِيْنَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِيْنَ﴾[٨٥]

ويضرب لنا النبي ﷺ مثالاً على مدى فرح الله تعالى بتوبة عباده، فيقول:

«لله أشد فرحا بتوبة عبده –حين يتوب إليه– من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشراب، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».[٨٦]

ويبين عليه الصلاة والسلام فوائد التوبة في حديث آخر، فيقول:

«من لزم الاستغفار، جعل الله له من كل ضيق مخرجا، ومن كل هم فرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب».[٨٧]

لكن أهم مسألة تخص العباد هي تزكية النفس وتصفية القلب، وكل ما ذكرناه من الحديث عن التوبة والاستغفار ما هو إلا بمثابة باب لبلوغ هذه الحال، ومن الضروري بعد ولوج هذا الباب القيام بالأعمال الصالحة، بعد تأدية الفرض والواجب والسنن كما يجب، وخاصة التمتع بالخصال الحميدة كالاعتناء بحقوق

---

٨٥ البقرة: ٢٢٢.

٨٦ مسلم، التوبة ٧؛ الترمذي، القيامة ٤٩، الدعوات ٩٩.

٨٧ أبو داوود، الوتر، ٢٦/ ١٥١٨

العباد ورعاية حقوق الوالدين، والتصدق لوجه الله تعالى، والتعامل مع جميع المخلوقات بالرحمة والشفقة والصفح.

صور الفضائل

يقول فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام:

«يا أيها الناس استغفروا ربكم وتوبوا إليه، فإني أستغفر الله وأتوب إليه في كل يوم مئة مرة أو أكثر من مئة مرة».[٨٨]

ولكن علينا أن نعرف أن توبة النبي واستغفاره على الدوام مع أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، بقدر ما هو شكر لله تعالى على نعمه فإنه في الوقت نفسه درس عال في الأدب. فقد كان النبي الأكرم ﷺ -لعلمه بأن أعظم وظيفة العبد هي ذكر الله تعالى وعبادته على الدوام- يلتجئ إلى التوبة والاستغفار في كل فرصة سانحة انطلاقاً من علمه بوجوب زيادة العبادة، وهو في الوقت نفسه يستغفر عن الأمة.



يقول ابن عمر رضي الله عنهما:

«إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة: «رب اغفر لي، وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم» [٨٩].

ثم إن توبة النبي عليه الصلاة والسلام واستغفارَه لم يكن عن خطأ من قبله، بل للتقرب من الله تعالى والفوز برضاه، فقد كان عليه الصلاة والسلام يستغفر من اللحظة والحالة السابقة لأنه في ترق معنوي دائم.



---

٨٨ مسلم، الذكر، ٤٢

٨٩ أبو داوود، الوتر، ٢٦/ ١٥١٦؛ الترمذي، الدعوات، ٣٨/ ٣٤٣٤



كان النبي عليه الصلاة والسلام يكثر من قول: «**سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه**» في أيامه الأخيرة، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، أراك تكثر من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه؟»، فقال:

«**خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتُها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها،**

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[٩٠]».[٩١]

لقد علّم رسول الله ﷺ أمته أساليب الاستغفار المتنوعة وعلى رأسها سيد الاستغفار، والذي يوضحه لنا النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الآتي:

«**سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**».

ثم قال:

«**من قالها من النهار موقناً بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل، موقنا بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة**».[٩٢]



و لا بد من تقوية التوبة والاستغفار بالأعمال الصالحة بعدهما، يقول ابن عمر رضي الله عنه:

---

٩٠ النصر: ١-٣.

٩١ مسلم، الصلاة، ٢٢٠

٩٢ البخاري، الدعوات، ٢، ١٦؛ أبو داوود، الأدب، ١٠٠-١٠١.



«أن رجلا أتى النبي عليه الصلاة والسلام، فقال: يا رسول الله إني أصبت ذنبا عظيما فهل لي توبةٌ؟ قال: **هل لك من أم؟** قال: لا، قال: **هل لك من خالة؟** قال: نعم، قال: **فبرها**».[93]

فقد أوصى النبي ﷺ هنا الصحابي -التائب من ذنبه والمكتوي بنار الندامة عليه- بتأييد توبته بالأعمال الصالحة، مبيناً أن الحسنات والخيرات تذهب السيئات وتكفرها.



رأى فخر الكائنات ﷺ ليلةً في منامه بلالاً، فطلبه في الصباح وقال له:

«**يا بلال إني لأسمع قرع نعليك في الجنة فما تصنع؟!** فقال بلال: يا رسول الله، ما توضأت وضوءً إلا وصليت بعده ركعتين، فقال ﷺ: **ذلك بفضل هذا**».[94]

وبناء على ما ذكر فعلينا المسارعة إلى التوبة بعد كل تقصير -من غير تضييع للوقت- إضافة إلى التوسل بالأعمال الصالحة.



فلقد سارع كعب بن مالك رضي الله عنه إلى التوبة والاستغفار بسبب تأخره عن الجيش في غزوة تبوك وعدم تمكّنه من اللّحاق بها لإهماله، وقد بلغ به الندم حداً ضاقت فيه الأرض عليه بما رحبت، ولكنه ما إن بلغه نبأ قبول توبته حتى خرّ ساجداً.[95] وبعد ذلك قام بالتصدق بماله أجمع لله ورسوله، إلا أن الرسول ﷺ أوصاه بإنفاق نصفه وإبقاء النصف الآخر لأهله.[96]

---

٩٣ الترمذي، البر ٦، أحمد ٢، ١٣-١٤.

٩٤ ابن خزيمة، الصحيح، بيروت ١٩٧٠، ٢، ٢١٣/ ١٢٠٩.

٩٥ ابن ماجة، الصلاة، ١٩٢.

٩٦ البخاري، المغازي، ٧٩.



مع العلم بأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقبل إنفاق كل أحد بما يتناسب ووضعه المعنوي، لأنه لم يرد أن يضيع أجر إنفاق المتصدق إن ندم.



وكذلك فإن الله تعالى يخلص عباده التائبين والمستغفرين من كل أنواع الهموم، ويمنُّ عليهم بالكثير من اللطائف.

«شكا رجل إلى الحسن الجدوبة، فقال له: استغفر الله. وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولداً، فقال له: استغفر الله. وشكا إليه آخر جفاف بستانه، فقال له: استغفر الله. فقال له الربيع بن صبيح: أتاك رجال يشكون أنواعاً من الهموم فأمرتهم كلهم بالاستغفار! فقال: ما قلت من عندي شيئاً! إن الله ﷻ يقول في سورة نوح:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [٩٧]». [٩٨]



وأعظم الإسراف إسراف العمر بتأخير التوبة خضوعاً لإغواء الشيطان، فالمؤمن العاقل عليه الإسراع إلى التوبة، والتهيّؤ لساعة الموت.

ووفق رواية وردت عن خياط يقول لأحد أولياء الله تعالى:

ما قولك في حديث رسول الله ﷺ: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**» [٩٩] فأجابه: نعم، الأمر هكذا، ولكن ما هي مهنتك؟ فقال: أنا حائك، أخيط الملابس، فسأله: ما أسهل أمر في الحياكة؟ فأجاب: أن تمسك المقص وتقصّ القماش، فسأله

٩٧ نوح: ١٠ ـ ١٢.

٩٨ ابن حجر، فتح الباري، ٤، ٩٨؛ العيني، عمدة القاري، بيروت، ٢٢، ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

٩٩ الترمذي، الدعوة، ٩٨/ ٣٥٣٧.



كم مضى على قيامك بهذه المهنة؟ فرد عليه: منذ ثلاثين سنة، فقال له: إن بلغت روحك الحلقوم فهل ستكون قادراً على قص القماش حينها؟ فأجاب بلا، فقال له الولي: أيها الخياط، إنك حينها ستعجز عن القيام بعمل أمضيت فترة في تعلمه وقضيت ثلاثين سنة تؤدي ذلك بسهولة، فأنَّى لك القدرة على التوبة حينئذ ولم تقم بها أبداً في حياتك، فعجِلْ بالتوبة الآن وأنت قادرٌ عليها وإلا لن تحظى بالاستغفار وحسن الخاتمة في اللحظة الأخيرة، ألم تسمع قولهم: «عجلوا بالتوبة قبل الموت»؟، فتاب الحائك إثر هذا وأصبح من الصالحين».وقد أخبر النبي عليه الصلاة السلام أن الإنسان يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه. [100]



وقد وردت قصة عن أبي يزيد البسطامي مفادها أنه صادف طبيباً يجهز دواء فسأله: أيها الحكيم أعندك علاج لدائي؟ فرد الحكيم: وما داؤك؟ فأجاب الحكيم: مرض الذنوب، فقال الحكيم مظهرا عجزه: لا أعرف علاج الذنوب، وفي تلك الأثناء بادره مجنون كان هناك: يا عماه، أنا أعلم دواء لمرضك، فقال أبو يزيد البسطامي مستبشراً: أخبرنا أيها الشاب، فكان وصف الدواء من قبل الشاب الذي يراه الناس مختلاً لكنه في الحقيقة عارف على النحو التالي:

خذ عشرة دراهم من جذور التوبة مع عشرة دراهم من أوراق الاستغفار وضعها في هاون القلب واطحنها بمطرقة التوحيد، وانخلها بمصفاة العدل واعجنها بالدموع واطهها في فرن العشق والندامة، ومن هذا الدواء خذ خمس ملاعق كل يوم، عندها لن يبقى لمرضك أثر، فتنهد أبو يزيد البسطامي عند سماعه هذا، وقال: ويح من يظن نفسه عاقلاً ويدعي أنك مجنون.



١٠٠ انظر: مسلم، الجنة، ٨٣؛ المناوي، ٥، ٦٦٣.



وختاما فمما لا بد منه للإنسان -المجبول على اقتراف الأخطاء- التوبة والاستغفار على الدوام، وتوثيق وتقوية نياته بالأعمال الصالحة، فكل من الاستغفار والتوبة من مقتضى العبودية لله تعالى، يقول تعالى في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ [١٠١]

إن ترك التوبة إلى آخر العمر انسياقا إلى إغواء النفس ووساوس الشيطان انخداع واغترار كبير، ولذا يلزم الاستعجال بالتوبة والاستغفار والصدق فيهما والاستقامة بتأدية الأعمال الصالحة، فهذا الوضع كما أنه يقي العبد من البلاء والمصائب فإنه كذلك يمن عليه بلطف الله وكرمه.

٥ . طاعة أوامر الله ورسوله

إن السّوية المعنوية للمؤمن تتناسب وطاعته لله ورسوله، ويكتمل الإيمان بتزايد الدقة والحساسية والمحبة لأوامر الله والحرص على تطبيقها، والذين قطعوا شوطاً كبيراً في مرتبة حب الله ورسوله وطاعتهما يكونون تجليا للطائف الإلهية، يقول الحق ﷻ:

﴿مَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [١٠٢]

فطاعة أوامر الله تعالى وتأديتها بحب وإذعان تفيض على القلوب الراضية فيوضات الحكم والفتوحات وتجليات الحق ﷻ، وعلى العكس فالقلوب والأبدان التي لا تتقي المحرّمات والشبهات، تنقلب مأوى للشرّ ومستنقعا لسوء الأخلاق.

١٠١ فاطر: ٥.

١٠٢ النساء: ٦٩.

صور الفضائل

أراد النبي عليه الصلاة والسلام استشارة الصحابة فيما يتعلق بغزوة بدر قبل الإقدام عليها، فقام المقداد بن الأسود حينها وتكلم بما يلي:

«يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، والله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، بل نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرتَ بنا إلى برك الغماد[١٠٣] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله خيرًا، ودعا له».[١٠٤] [١٠٥]

وقام سعد بن معاذ رضي الله عنه بعد المقداد فقال:

«لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر، فخُضته لخضناه معك، ما تخلَّف منا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُر في الحرب، صُدُق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله». فسُرَّ النبي ﷺ عندما سمع كلام سعد، ثم قال:

«سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين،[١٠٦] والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم».[١٠٧]

---

١٠٣ تقع برك الغماد في مسافة تبعد عن مكة المكرمة خمسة أيام، وهي موضع قرب البحر الأحمر، ويروى أنها اسم مدينة في اليمن.

١٠٤ يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «لقد شهدت من المقداد مشهدا، لأن أكون صاحبه، أحبّ اليّ مما في الأرض جميعا»

١٠٥ البخاري، المغازي، ٤، التفسير ٥/ ٤؛ الواقدي، ١، ٤٨

١٠٦ إن إحدى الفئتين الموعودتين في الآية السابعة من الأنفال هم المشركين أنفسهم، أي هزيمتهم وأسرهم، والفئة الثانية قافلة قريش الكبيرة القادمة من الشام.

١٠٧ مسلم، الجهاد، ٨٣؛ الواقدي، ١، ٤٨ ـ ٤٩؛ ابن هشام، ٢، ٢٥٣ ـ ٢٥٤

وفي هذا أبلغ دلالة على تفاني الصحابة الكرام في محبة الله ورسوله وحرصهم على طاعتهما.



وينقل لنا أنس ﵁ حادثة تظهر لنا إخلاص وصدق واهتمام ومسارعة الصحابة ﵃ في مرضاة الله ورسوله:

«كنت أسقي أبا طلحة الأنصاري، وأبا عبيدة بن الجراح، وأبي بن كعب شرابا من فضيخ – وهو تمر –، فجاءهم آت فقال: إن الخمر قد حرمت، فقال أبو طلحة: يا أنس، قم إلى هذه الجرار فاكسرها، قال أنس: «فقمت إلى مهراس لنا فضربتها بأسفله حتى انكسرت»، وقد سال بعد ذلك الخمر في أزقة المدينة أنهارا».[١٠٨]

فالصحابة ﵃ لما سمعوا بتحريم الخمر امتثلوا للنهي على الفور من دون تسويف ولا مماطلة فلم يقل أحدهم: سأتركه بعد أن أنتهي من شرب ما في يدي، بل أظهروا حرصا على تنفيذ مراد الله تعالى حتى إنهم أهرقوا ما تبقى في القدح أيضاً مع كل جرار الخمر التي أريقت.



وروي أن فتى من أسلم قال:

«يا رسول الله إني أريد الغزو وليس معي ما أتجهز به، قال:

«ائت فلانا، فإنه قد كان تجهز فمرض»،

فأتاه فقال له: إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام، ويقول أعطني الذي تجهزت به، فقال، يا فلانة أعطيه الذي تجهزتُ به ولا تحبسي منه شيئا، فوالله لا تحبسين منه شيئا فيبارك لنا فيه».[١٠٩]

---

١٠٨ البخاري، التفسير، ٥/ ١١/ ٧٢٥٣

١٠٩ مسلم، الإمارة، ١٣٤

لقد لبى هذا الصحابي أمر النبي ﷺ بحب ووجد كبيرين، فأصرَّ على تنبيه زوجته أن تعطي كل ما يلزم ولا تدخر منه شيئاً، وبهذا أظهر حبه لرسول الله وتعلقه به وطاعته إياه إلى جانب مسارعته في أداء الأعمال الصالحة على أكمل وجه.



يقول ابن عمر رضي الله عنهما:

«أقبل رسول الله ﷺ عام الفتح على ناقة لأسامة بن زيد حتى أناخ بفناء الكعبة، ثم دعا عثمان بن طلحة [110] فقال: ائتني بالمفتاح، فذهب إلى أمه، فأبت أن تعطيه، فقال: والله لتعطينه أو ليخرجن هذا السيف من صلبي، قال: فأعطته إياه، فجاء به إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فدفعه إليه ففتح الباب.

ودخل رسول الله ﷺ البيت، ومعه أسامة وبلال وعثمان بن طلحة، فأجافوا عليهم الباب طويلاً ثم فُتح، فكنت أول من دخل، فلقيت بلالاً فقلت: أين صلى رسول الله ﷺ؟ فقال: بين العمودين المقدمين، فنسيت أن أسأله كم صلى النبي ﷺ؟». [111]

ففي هذا المثال تظهر الدقة الرائعة جلية في عزم عثمان رضي الله عنه الكبير في تلبية أمر رسول الله وإطاعته التي يجب تقديرها في اتباعه النبي عليه الصلاة والسلام.



يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه».

١١٠ وهو من حاجبي البيت، وتعني كلمة حاجب الشخص الذي تعهد بوظيفة حجابة الكعبة، وأما الحجابة فتعني القيام بوظائف هامة كالعناية بالمسجد وحفظ بابه ومفتاحه، وفتح بابه للزوار في أوقات محددة، وحماية مقام إبراهيم والبضائع القيمة، وستاره الداخلي والخارجي.

١١١ البخاري، الجهاد ١٢٧، الصلاة ٣٠، ٨١، ٩٦، التهجد ٢٥، الحج ٥١، ٥٢، المغازي ٧٧، ٤٨؛ مسلم، الحج ٣٨٩.



«لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالف إلى مقعده فيقعد فيه ولكن يقول افسحوا».

لقد طبق عبد الله بن عمر الذي تعلم هذا عن النبي عليه الصلاة والسلام طوال حياته، فلو قام أحدهم له يريد إعطاءه مكانه لا يجلس فيه أبداً.[112]



يقول الرسول ﷺ: «**إذا دعيتم فأجيبوا**».

وقد كان سيدنا ابن عمر رضي الله عنه بسماعه هذا يجيب الدعوات عرساً أوغيرها حتى لو كان صائماً.[113]

أي إنه ينقض صيامه عند تلبية دعوة ما إن كان صيامه نفلاً، ثم يقضيه، وإن كان صومه فرضاً أو واجباً، فإنه يلبي الدعوة استجابة لأمر النبي ﷺ من دون إفساد صومه.



يقول فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام: «**وجعلنا هذا الباب للنساء**».

وبعد هذا لم يدخل ابن عمر رضي الله عنهما هذا الباب حتى مات.[114]



وعن الطفيل بن أبي بن كعب أنه كان يأتي عبد الله بن عمر، فيغدو معه إلى السوق، قال: فإذا غدونا إلى السوق لم يمر عبد الله على سقاط ولا صاحب بيعة، ولا مسكين، ولا أحد إلا سلم عليه، قال الطفيل، فجئت عبد الله بن عمر يومًا، فاستتبعني إلى السوق فقلت له: ما تصنع بالسوق، وأنت لا تقف على البيع ولا تسأل عن السلع، ولا تسوم بها، ولا تجلس في مجالس السوق؟ وأقول: اجلس بنا

---

١١٢ البخاري، الاستئذان، ٣٢؛ مسلم، السلام، ٢٩

١١٣ البخاري، النكاح، ٧١، ٧٤؛ مسلم، النكاح، ١٠٣.

١١٤ أبو داوود، الصلاة، ٥٣/ ٥٧١.

هاهنا نتحدث، فقال يا أبا بطن -وكان الطفيل ذا بطن- إنما نغدو من أجل السلام، فنسلّم على من لقيناه.[115]

لقد كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين يتصرفون بحساسية شديدة فيما يتعلّق بطاعة أوامر الله تعالى ورسوله، حيث يحددون أرضية مشتركة يمكن تعايش القلوب المؤمنة فيها بالأخوة الإيمانية من خلال زيادة الحب عن طريق إفشاء السلام، إلا أن شوق وحماس ولهف عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في هذا الأمر عال إلى حد يجلب الانتباه، وما مر من الأمثلة السابقة يظهر هذا الأمر على نحو بارز



تقول الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[116]

لما نزلت هذه الآية يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي... الآية، جلس ثابت بن قيس رضي الله عنه في بيته وقال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي عليه الصلاة والسلام، فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ، فقال:

«يا أبا عمر، ما شأن ثابت، أشتكى؟»

فقال سعد: إنه جاري وما علمت له شكوى، قال: فأتاه سعد، فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أُنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ:

«بل هو من أهل الجنة».[117]

---

١١٥ الموطأ، السلام، ٦؛ البخاري، الأدب المفرد، ص: ٣٤٨.

١١٦ الحجرات: ٢.

١١٧ البخاري، المناقب ٢٥، التفسير، ٤٩/ ١؛ مسلم، الإيمان ١٨٧.



أصاب الصحابي ثابت ﷺ -والذي يتمتع بصوت جهوري- حزن عميق لظنه أنه عصى أمر الله تعالى، حيث اسودت الدنيا في عينيه، لكن بما أن صوته المرتفع من طبيعته وأصل خلقته وبما أن له قلباً صادقاً فقد كان أمره مستثنى، وقد بشره الصحابي الذي جاءه بالخبر فَسُرِّيَ عنه.

ثم إن الصحابي الذي سارع إلى معرفة ما سيؤول إليه أمر ثابت ﷺ لأنموذج رائع على استعداد الصحابة الكرام للتضحية بكل ما لديهم في سبيله بعد فهمهم الإشارة منه عليه الصلاة والسلام أمراً والمسارعة إلى تنفيذه.



تقول زوجة عبد الله بن رواحة ﷺ وعنه ﷺ:

«دخل عبد الله بن رواحة المسجد، ورسول الله يخطب في أصحابه، وسمع رسولَ الله يقول لأصحابه: اجلسوا، وكان عبد الله عند الباب، فجلس هناك، امتثالاً لأمر النبي الكريم، ولم يدخل ليكون مع الصحابة الكرام، ولما بلغ رسول الله ﷺ ذلك، شكر لعبد الله طاعته».[١١٨]



ويقول عبد الله بن عباس ﷺ:

«قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولا كانوا أو شبانا»، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: «فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر»، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ:

١١٨ علي المتقي الهندي، كنز العمال، بيروت ١٩٨٥، ١٣، ٤٥٠ / ٣٧١٧١، الهيثمي، ٩، ٣١٦.



﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[119]

وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافا عند كتاب الله».[120]

كان سيدنا عمر رضي الله عنه إن ذُكِّر بأمر الله تعالى يكظم غيظه ويسيطر على غضبه ويطيع أمر الله تعالى مباشرة تاركاً ما يريد فعله، وبهذا كان قد قدم حساسية المؤمن الكامل في طاعة الله تعالى.



روي أن أحد الصحابة وهو هشام بن حكيم كان في فلسطين، فرأى ناساً من أهل الذمة قياماً في الشمس، فقال: ما هؤلاء؟ فقالوا: من أهل الجزية، فدخل على عمير بن سعد، وكان على طائفة الشام، فقال هشام: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**من عذب الناس في الدنيا عذبه الله تبارك وتعالى**»، فقال عمير خلّوا عنه.[121]

ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا لا يترددون لحظة واحدة أمام ما يبينه النبي عليه الصلاة والسلام بل يلبونه على الفور.



قال بعضهم:

«أَمَّنَا عبد الله بن أبي أوفى على جنازة ابنته فمكث ساعة، حتى ظننا أنه سيكبر خمسا، ثم سلم عن يمينه وعن شماله، فلما انصرف قلنا له: ما هذا؟ قال: إني لا أزيدكم على ما رأيت رسول الله ﷺ يصنع، أو هكذا صنع رسول الله ﷺ».[122]

---

١١٩ الأعراف: ١٩٩.

١٢٠ البخاري، التفسير ٧/ ٥، الاعتصام ٢/ ٤٦٤٢

١٢١ مسلم، البر، ١١٧ ـ ١١٩؛ أبو داوود، الإمارة، ٣٢؛ أحمد، ٣، ٤٠٣، ٤٠٤.

١٢٢ الحاكم، ١، ٣٦٠؛ ابن ماجة، الجنائز، ٢٤.



إن جواب عبد الله بن أبي أوفى جليٌّ في إظهار حرص الصحابة على الاقتداء برسول الله، فعاشوا حياتهم وأقاموا أمورهم وفق القرآن الكريم وسنة النبي عليه الصلاة والسلام، ولذا كانت جميع أفعالهم وأقوالهم وحركاتهم تستند على أدلة الكتاب والسنة، وكذلك نحن بحاجة دوما إلى الأخذ بالسنة في كل أمورنا، وإلى إقامة حياتنا الفكرية والعلمية والروحية في ظلال القرآن والسنة، فسموُّ طباعنا ورقيُّ شخصياتنا وكمالُ إسلامنا يكون بقدر ارتباطنا بالقرآن الكريم والسنة.



وفي رواية قال النبي ﷺ لأصحابه في صلاة العشاء:

«اجتمعوا غداً لأداء الصلاة، فعندي أموراً أريد إخباركم بها، فقال أحد الصحابة لرفاقه: يا فلان خذ عن رسول الله ما يقوله أولاً وللثاني وأنت ما يقوله بعد ذلك وللثالث وأنت مايليه كيلا يفوتنا شيء من كلام رسول الله ﷺ».[١٢٣]

ومن المثير للإعجاب والتقدير هذا الحرص الذي يبديه الصحابة الكرام ﭫ فيما يتعلق بمعرفة أوامر النبي ﷺ وتطبيقها، ثم إنه وبفضل هذه الجهود العظيمة التي بذلها السلف الصالح صار بمقدورنا أن نتعرف عن كثب على جميع تصرفات النبي عليه الصلاة والسلام وأحواله.



وعن أبي بردة ﭬ قال:

أغمي على أبي موسى، فأقبلت امرأته أم عبد الله تصيح برنة، ثم أفاق فقال: ألم تعلمي؟ وكان يحدثها أن رسول الله ﷺ قال:

«أنا بريء ممن حلق وصلق وخرق».[١٢٤]

---

١٢٣ الهيثمي، ١، ٤٦.

١٢٤ البخاري، الجنائز، ٣٧، ٣٨، مسلم، الإيمان، ١٦٧؛ النسائي، الجنائز، ١٧.

يا لها من حساسية إيمانية عالية للإيمان، فحتى وهو يصارع الموت يحاول تطبيق أمر رسول ﷺ.



وقد روي أن دحية بن خليفة خرج من قريته المزة بدمشق إلى قدر قرية عقبة في رمضان، ثم أفطر وأفطر معه الناس وكره آخرون أن يفطروا، فلما رجع إلى قريته قال:

«والله لقد رأيت اليوم أمرا ما كنت أظنني أراه، إن قوما رغبوا عن هدي رسول الله ﷺ وأصحابه»، يقول ذلك للذين صاموا، ثم قال عند ذلك: «اللهم اقبضني إليك». [١٢٥]



يقول بِشْرٌ الحافي رحمه الله تعالى:

«رأيتُ النبي ﷺ في المنام، فقال لي: يا بِشْرُ! أتدري لم رفعك الله بين أقرانك؟ قلت: لا يا رسول الله، قال: باتباعك لسنتي وخدمتك للصالحين، ونصيحتك لإخوانك، ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي، هذا الذي بلغك منازل الأبرار» . [١٢٦]



ويبين سيدنا عبد الخالق الغجدواني العبودية الحقيقية على نحو رائع، حيث سئل يوماً: أنلبِّي ما ترغب به أنفسنا أم ما ترفضه؟ فأجاب حضرته السائل: إن من الصعوبة بمكان التفريق بين هذين الأمرين، إذ إن النفس تموه على الأكثرية من الناس فيما يتعلق بمعرفة أهي رغبات رحمانية أم شيطانية، ولذا فلا يُقْدِم الإنسان إلا على ما أمر الله تعالى به دون ما نهى عنه، وهذه هي العبودية الحقة.



---

١٢٥ أبو داوود، الصوم، ٤٧/ ٢٤١٣.

١٢٦ ماهر إز، التصوف، اسطنبول ١٩٦٩، ص: ١٨٤.



فينبغي على سالكي طريق الحق جعل إطاعة أوامر الله تعالى وخدمة إخوانهم المسلمين والنصح لهم دستورا لا يحيدون عنه، إضافة إلى وجوب بذل الجهود للحصول على رضا الحق تعالى من خلال وسائل السعادة الأبدية هذه، قال داوود الطائي يوماً لرجل صالح يداوم على حضور مجلسه وهو معروف الكرخي:

«إياك أن تترك العمل، فإن ذلك الذي يقرّبك إلى رضا مولاك، فقلت: وما ذلك العمل؟ فقال: دوام طاعة ربك، وخدمة المسلمين، والنصيحة لهم».



وخلاصة القول أن الطاعة أعظم علامة على حب الله تعالى، فالمؤمن الذي يحب ربه ﷻ يكون في طاعة دائمة مدفوعا بقانون «المحب لمن يحب مطيع»، فعبادة قليلة مؤداة بالطاعة والإذعان أفضل عند الحق من عبادة كالجبال خالية عن الطاعة والإذعان، ومن هذا المنظور فإن العبودية تبدأ بالطاعة والاستسلام، فطرد إبليس من الرحمة الإلهية الكبيرة كان لخللٍ في طاعته وانصياعه وليس لنقص في عبادته.

إن اجتهاد الصحابة الكرام ﷺ في حب الله ورسوله وطاعته جعلهم شخصيات خالدة ونماذج للأمة جمعاء يقتدى بها.

إن ما يقوله مولانا في مثنويه من إطاعة الجمادات للأوامر الربانية تعبير رائع:

«ألست ترى، أن السحاب والشمس والقمر والنجوم كلها تدور في فلك معلوم، وكل واحدة من هذه النجوم اللامعدودة تطلع في وقتها ولا تتأخر عن أوقات مغيبها ولا تسبقها.

كيف لم نعرف وندرك هذه الخوارق من معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ حيث إنهم حولوا الحجر والعصا إلى ذي عقل، فتأمل هذا وقس سائر الجمادات على العصا والحجر.



ثم إن طاعة قطع الحجر نبينا عليه الصلاة والسلام، وطاعة العصا موسى عليه السلام تشف عن مدى خضوع سائر المخلوقات التي نحسبها جمادات لأوامر الله تعالى.

فهي تقول بلسان حالها:

«نحن نعرف الله تعالى ونطيعه، ولسنا أشياء خلقت عبثاً، إننا جميعنا نشبه البحر الأحمر، حيث إنه مع كونه بحراً تمكن من منع فرعون عن بني إسرائيل».

«ألم تكن كل شجرة أو حجر يمر عليه المصطفى عليه الصلاة والسلام يسلم عليه، إذاً وبهذا اعلم أن كل ما تعرف أنه جمادٌ إنما هو ذو روح».

ما يعني أنه ليس الإنسان والجان فقط هما من يطيعان الله تعالى ورسوله بل الحيوانات والجمادات أيضاً تفعل ذلك، ومن المؤسف اختناق الإنسان في مستنقعات العصيان في حين أن جميع المخلوقات تسعى نحو الطاعة.

٦ . الدقة في العبادات

لقد خُلق الإنسان ليكون قمة الصنعة الإلهية في هذا العالم المعزز بالنقوش اللامتناهية لتدفقات العظمة والقدرة الإلهية، وكلفه بالعبادات ليقوم بشكره سبحانه على هذه الخلقة، وليوفر له سبل الترقي بصحبة الله تعالى، لقد أمره الحق تعالى بالالتجاء إلى الأعمال الصالحة في كثير من الآيات كي يتخلص من الخسران الأبدي، وينال السلامة والإنابة والطمأنينة في القلب.

لذلك كانت العبادات رمز وفاء من العبد لربه، يُظهر بها صدق عهده لربه عز وجل في الأزل، وهي حالة من الحب تُقرِّب المؤمن من الحق تعالى، ومن ناحية أخرى تسكب الرضا والسكينة في قلب المؤمن، وهي منهل فيض ضروري للموازنة القلبية وتأمين السلامة، والارتقاء بالعبودية مرتقا ساميا.

وبالتالي فلا بد أن تستأثر عباداتنا بعنايتنا الفائقة وتحتل في سلم أولوياتنا المكانة الأعلى والأهم.

صور الفضائل

وبناء على أهمية العبادات لابد أولا أن نتطرق إلى وجوب الدقة والتحري في مسألة الوضوء، لأن إهمالَ الوضوء وعدمَ الاعتناء به ينعكس سلبا على العبادات المترتبة عليه. وقد جاء في الحديث: صلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة فقرأ فيها سورة الروم فلبس بعضها قال:

«إنما لبس علينا الشيطان، القراءة من أجل أقوام يأتون الصلاة بغير وضوء، فإذا أتيتم الصلاة فأحسنوا الوضوء».[١٢٧]

ما يعني أن القيام بالطهارة والوضوء على أحسن وجه قبل الصلاة أمر غاية في الأهمية من وجهة صحة العبادات.

ومن الآداب المرعية أن يكون الإنسان على وضوء دائماً ما أمكن، فقد كان عليه الصلاة والسلام يحب القيام بأعماله كلها وهو متوضئ.

وحسب ما يرويه أبو جهيم رضي الله عنه أن النبيُّ ﷺ أقبل من نحو بئر جمل، فلقيه رجل، فسلم عليه، فلم يرد عليه، حتى أقبلَ على جدار، فمسح بوجهه ويديه، ثم رد عليه السلام.[١٢٨]

فقد حرص النبي ﷺ على أن يكون على شيء من طهارة مع عدم وجوبها عليه لرد السلام ولكنها فضيلة وأدب كان يراعيه عليه الصلاة والسلام.



يقول ابن عباس رضي الله عنه:

«كان رسول الله ﷺ يخرج يريد الماء، فيتمسح بالتراب، فأقول: يا رسول الله، إن الماء منك قريب، فيقول: وما يدريني لعلي لا أبلغه».[١٢٩]

---

١٢٧ أحمد، ٣، ٤٧١/ ١٥٨٧٢، النسائي؛ الافتتاح، ٤١؛ شرح المجتبى، ٢، ١٥٦.

١٢٨ البخاري، التيمم، ٣.

١٢٩ أحمد، ١، ٢٨٨، ٣٠٣، الهيثمي، ١، ٢٦٣.

ووفق رواية أخرى كان فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام إن وجب عليه الغسل يضرب يديه في الحائط للتيمم كيلا يبقى من غير طهارة حتى الغسل.[130]

هذا هو أفق الطهارة المادية والمعنوية التي علمنا إياها فخر الكائنات ﷺ.



خرج ذات يوم رسول الله ﷺ إلى المقبرة، فسلم على أهلها، وقال:

«**سلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أنَّا قد رأينا إخواننا**»

قالوا: أولسنا بإخوانك يا رسول الله!

قال: «**أنتم أصحابي، وإخواني قومٌ لم يأتوا بعد، وأنا فرطكم على الحوض**»

قالوا: وكيف تعرف مَنْ لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟

قال: «**أرأيتم لو أن رجلا له خيل غُرٌّ محجلة بين ظهري خيل بهم دهم، ألا يعرف خيله؟**»

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «**فإنهم يأتون غرا محجلين من أثر الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض، ألا لَيُذَادَنَّ رجالٌ عن حوضي كما يذاد البعيرُ الضالُّ، أناديهم: ألا هلم، فيقال: إنهم قد أحدثوا بعدك، وأقول: سحقا سحقا**».[131]

ما يعني أن المؤمنين الذين يعتنون بأمر الوضوء ويحسنونه ينالون حب رسول الله عليه الصلاة والسلام ويفوزون بالأخوة التي تحدث عنها، وأما من لم يهتم بشأن الوضوء والعبادات ويضِلُّ الطريق فسيطردون يوم القيامة كما تطرد البعير الضالة، ويشعرون بالمهانة من جراء إبعادهم عن النبي عليه الصلاة والسلام.



١٣٠ الهيثمي، ١، ٢٦٤.

١٣١ مسلم، الطهارة، ٣٩، الفضائل، ٢٦.



عن أبي حازم، قال:

«كنت خلف أبي هريرة، وهو يتوضأ للصلاة فكان يمد يده حتى تبلغ إبطه فقلت له: يا أبا هريرة ما هذا الوضوء؟ فقال: يا بني فروخ أنتم هاهنا؟ لو علمت أنكم هاهنا ما توضأت هذا الوضوء، سمعت خليلي ﷺ يقول:

«**تبلغ الحلية من المؤمن، حيث يبلغ الوضوء**» [١٣٢]

وكم تحمل كلمات علي رضي الله عنه الآتية في طياتها حرص النبي ﷺ وحبه للعبادة:

«ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت سمرة يُصلي ويبكي حتى أصبح». [١٣٣]

يا له من تعبد عظيم لا يشوبه الضعف في حضر ولا سفر. يقول الحق عز وجل:

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [١٣٤] **﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾** [١٣٥]



لقد أثنى النبي عليه الصلاة والسلام على عبد الله بن رواحة رضي الله عنه الذي كان شديد العناية بالصلاة، فخاطبه مثنيا عليه:

«**رحِمَ الله أخي عبد الله بن رواحة، كان أينما أدركته الصلاة أناخ**».[١٣٦]



وعن جرير بن عبد الله قال:

كنا جلوسا عند رسول اللهِ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فَقَالَ لَنَا:

---

١٣٢ مسلم، الطهارة، ٤٠/ ٢٥٠.

١٣٣ ابن خزيمة، الصحيح، بيروت ١٩٧٠، ٢، ص: ٥٢.

١٣٤ الحجر: ٩٩.

١٣٥ العلق: ١٩.

١٣٦ الهيثمي، ٩، ٣١٦.

«أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها» - يعني العصر والفجر - ثُمَّ قَرَأَ جرير:

﴿...وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضى﴾[137] .[138]

إذاً فعنايتنا واهتمامنا الفائق بالطاعاتوالعبادات وقيامنا بها على أحسن وجه وسيلة مهمة لرؤيتنا ربنا ﷻ. فينبغي أن يُنظَر إلى كل عبادة نؤديها على أنها تأشيرة دخول الجنة، وذلك حتى نفي حقها من الأداء وتنفعل بها -حبا بها وشوقا لها- أرواحنا وأفئدتنا.

يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«إذا أحسن الرجل صلاته فأتم ركوعها وسجودها قالت: حفظك الله كما حفظتني، فترفع، وإذا أساء الصلاة فلم يتم ركوعها ولا سجودها قالت: ضيعك الله كما ضيعتني، فتلف كما يلف الثوب الخَلِقُ فيضرب بها وجهه». [139]

تقول الآية الكريمة:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[140] . أي يؤدونها بغفلة.



إنَّ تأخيرَ الصلاة لآخر وقتها، وأداءَها على مَضَض، وتأديةَ الفرض فقط كأنما يريد التخلص منها خصلةٌ خبيثة تزرع في نفس الإنسانً النفاق، يقول علاء بن عبد

١٣٧ طه: ١٣.

١٣٨ البخاري، المواقيت، ١٦، ٢٦، التفسير ٥٠/ ١، التوحيد ٢٤؛ مسلم، المساجد، ٢١١/ ٦٣٣.

١٣٩ السيوطي، الجامع الصغير، مصر ١٣٢١، ١، ٥٨/ ٣٦٤.

١٤٠ الماعون: ٤-٥.



الرحمن: «دخلنا على أنس بن مالك بعد الظهر، فقام يصلي العصر، فلما فرغ من صلاته ذكرنا تعجيل الصلاة أو ذَكَرَها فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«تلك صلاة المنافقين، تلك صلاة المنافقين، تلك صلاة المنافقين[١٤١] **, يجلس أحدهم حتى إذا اصفرَّت الشمسُ وكانت بين قرني الشيطان –أو على قرن الشيطان– قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً».** [١٤٢]



كان عمر رضي الله عنه ينصح عماله فيقول:

«إن أهم أمركم الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيعُ ...». [١٤٣]



روي عن المسور بن مخرمة أنه دخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الليلة التي طعن فيها، فأيقظ عمر لصلاة الصبح، فقال عمر: نعم، ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، فصلى عمر وجرحه يثعب دماً. [١٤٤]



يقول علي رضي الله عنه على منبر الكوفة:

«إذا كان يومُ الجمعة غدت الشياطين براياتها إلى الأسواق فيرمون الناس بالترابيث أو الربائث، ويثبطونهم عن الجمعة، وتغدو الملائكة فيجلسون على أبواب المسجد، فيكتبون الرجل من ساعة والرجل من ساعتين حتى يخرج الإمام، فإذا

---

١٤١ النفاق المذكور في الحديث علامة على النفاق في العمل لا الاعتقاد.

١٤٢ الموطأ، القرآن الكريم، ٤٦؛ مسلم، المساجد، ١٩٥.

١٤٣ الموطأ، وقوت الصلاة، ٦.

١٤٤ الموطأ، الطهارة، ٥١؛ الهيثمي، ١، ٢٩٥؛ ابن سعد، ٣، ٣٥.

جلس الرجل مجلسا يستمكن فيه من الاستماع والنظر، فأنصت ولم يلغ كان له كفلان من أجر، فإن نأى وجلس حيث لا يسمع، فأنصت ولم يلغ له كفل من أجر، وإن جلس مجلسا يستمكن فيه من الاستماع والنظر، فلغا ولم ينصت كان له كفل من وزر، ومن قال يوم الجمعة لصاحبه: صه، فقد لغا، ومن لغا فليس له في جمعته تلك شيء، ثم يقول في آخر ذلك: سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك».[١٤٥]

ومما لا شك فيه أن من يبكر في الوصول إلى المسجد -لاهتمامه بصلاة الجمعة، فيتفكر أثناء استماعه للإمام ويجلس في مكان يسهّل عليه ذلك، بكل خشوع وتأدب- أفضل وأكثر ثواباً ممن لم يفعل مثل هذا.



يقول مجاهد من كبار التابعين وعالم التفسير والقراءات رحمه الله:

«ما كان باب من العبادة يعجز عنه الناس إلا تكلفه ابن الزبير، ولقد جاء سيل طبق البيت، فطاف سباحة».[١٤٦]



ثم إن هذه الذكرى التي كتبها الشيخ سعدي في أثره المسمى «كولستان»، تفيد عدم هدر العبادات بالأخطاء القلبية إذ يقول:

«كنت في صغري مولعا بالزهد والتقوى وعبادة الليل، وذات ليلة كنت جالساً بقرب والدي، لم أترك القرآن الكريم من يدي، وكان البعض من حولي نيام، فقلت لوالدي: لا يقوم أي منهم ليصلي ركعتين تهجداً، ينامون كأنهم موتى، فقطَّب أبي حاجبيه عقب قولي هذا، وقال: ولدي سعدي، لو أنك نمت أنت أيضاً عوضاً عن الثرثرة والتكلم في حق الغير، فهؤلاء الذين تنظر إليهم بعين الازدراء حتى لو باتوا

١٤٥ أبو داوود، الصلاة، ٢٠٩/ ١٠٥١.

١٤٦ علي المتقي، ١٣، ٤٧١/ ٣٧٢٢٨؛ الذهبي، السير، ٣، ٣٧٠.



في حرمان من الرحمة الإلهية الآن إلا أن الكتبة الحفظة لا تكتب عليهم شيئاً، في حين أنها كتبت في صحيفة عملك استصغارك إخوانك وغيبتك إياهم».



لقد كان المسلمون يعتنون ويهتمون بالعبادات حتى في أوقات الحروب، حتى أضحوا مظهراً لعون الله تعالى، يصور ترافيجاني البندقي جيش يلدرم بيازيد الباسل والمنتصر كما يلي:

«لا وجود للخمر والقمار والفحش في الجيش العثماني كما الحال عندنا، فهم -إلى جانب اجتهادهم في التدريبات العسكرية- في ذكر دائم لاسم ربهم الأعظم والأعلى، ويشتغلون بالعبادة ليلاً ونهاراً، لهذا ينتصرون على الدوام».



لقد تم افتتاح مسجد بيازيد ذات جمعة للعبادة وقد كان بيازيد خان الثاني ابن السلطان محمد الفاتح أول من صلى بالناس فيه، يذكر لنا هذه الحادثة المؤرخ أوليا شلبي فيقول:

«لما اكتمل بناء المسجد ذات جمعة فُتح للعبادة باحتفال كبير، فقال بيازيد: من لم يترك سنة العصر والعشاء القبلية طيلة حياته أبداً فليؤم الناس في هذا الوقت المبارك، ولما لم يظهر من الجماعة العظيمة أي أحد قال مضطراً: نحمد الله أنا ما تركنا هذه السنن لا في الحرب ولا في السلم أبدا، وتقدم فأَمَّ الناس».



وكان السلطان محمد رشاد الرابع من سلاطنة العثمانيين قد أمر السيدة صفية -معلمة السلاطين التي عينها لتربية وتنشئة أولاده- بما يلي:

«إني لا أحل الملح والخبز الذي أطعمه لمن لا يصلي ولا يصوم، لتُبَلَّغ رغبتي هذه من قبل السيدة المعلمة إلى التلامذة الأمراء والأميرات». [١٤٧]

١٤٧ صفية أونووار، (مذكراتي في القصر)، اسطنبول ١٩٦٤، ص: ٢١.



فلم تُنسِ المكانةُ والمقام الدنيوي هؤلاء الكبارَ الاعتناءَ بالعبادة، ولم تثنهم عن صرف الجهود التي ستضحو زاداً للآخرة في كل عمل يقومون به كالصلاة والصيام.



وأحد الأمثلة الحية على الدقة والاهتمام في العبادات يعود إلى مجاهد القفقاز المجيد الشيخ شامل، إذ إنه أُصيب بالكثير من جراح حربة وسيف ورصاص في مدافعة غيمري عام ١٨٢٩، حيث سحقت رئتَه حربة دخلت صدره وخرجت من ظهره، علاوة على كسر أضلاعه وعظمة الترقوة اليمنى لديه، ولم يتمكن من العودة إلى حالته الطبيعية إلا بعد مضي ستة أشهر بمعالجة من والد زوجته الذي كان طبيباً جراحاً، وبعد مضي خمسة وعشرين يوماً على إصابته -كان قد قضاها في غيبوبة- كان أول ما قاله لأمه التي وجدها عنده بعدما فتح عينيه في نهاية اليوم الخامس والعشرين: يا أماه هل فات وقت الصلاة؟.[١٤٨]



كان آخر أيام رمضان وكانت معركة «جاناك قلعه» على أشدها، حين استدعى قائد الجبهة وهيب باشا إمام الفرقة التاسعة للمثول بين يديه، وطلب إليه على كره منه والحزن يلفه:

«يا سيدي الإمام غداً عيد الفطر، وكما تعلم فإن الجنود يرغبون في أداء صلاة العيد جماعة، ومهما قلتُ لهم فلن يتراجعوا عن طلبهم، إلا أن أمرا كهذا فيه من الخطورة ما لا يخفى، أي إنها فرصة لإبادة جماعية لا تعوَّض للعدو، فهلا بينت أنت الأمر للجيوش بأسلوب مناسب، ولما خرج الإمام من مجلس الباشا لقي شخصاً ذا طلعة بهية، قال له: يا بني إياك والتحدث إليهم، فعسى أن يأتي يوم يكون فيه خيراً، يفعل الله ما يريد، «فيقضي الله أمراً كان مفعولاً».

١٤٨ إبراهيم رفيق، الأنفاس الأسطورية، اسطنبول ٢٠٠٢، ص: ٧٨.



وفي الصباح التالي شهد الجميع تجليا إلهيا أوقعهم في حيرة، حيث نزلت من السماء كتل عظيمة من السحب، وغطت الجنود المؤمنين الذين امتلأت قلوبهم شغفا بعبادة الله ﷻ وحرصا على مرضاته، فلم يكن بمقدور قوات الأعداء الذين يراقبوهم بالمناظير رؤية شيء غير السحب البيضاء، وقد كانت أصوات التكبير التي تتعالى في صلاة العيد حين أقيمت تبعث في نفوس الجنود شعورا معنويا فياضا ذلك الصباح وهي تهز الأرجاء وتملأ الفضاء وتبلغ صفوف العدو كصيحة رجل واحد فتبعث في نفوسهم الرعب والهلع.

وفي هذه الأثناء ظهرت حالة من الفوضى العارمة بين صفوف قوات الجيش البريطاني، حيث كان في الجيش البريطاني جنود مسلمون –من بعض الدول التي تحتلها بريطانيا– تم تضليلهم وضمهم في الجيش البريطاني، فلما سمعوا أصوات التكبير والتوحيد وأدركوا حقيقة الأمر ثاروا، فقام البريطانيون العاتون الواقعون في حيرة من هذا بقتل بعضهم وإرسال البعض الآخر إلى آخر الصفوف.

إن الإيمان الذي أضحى حصناً منيعاً في صدور جنود الإسلام وأسهم في أدائهم عباداتهم في ميادين الجهاد أنزل عليهم رحمة إلهية ونصرا منه تعالى شملهم أجمعين.



يبين النبي ﷺ أن سرعة اجتياز الناس للصراط المستقيم سيكون حسب اهتمامهم بالعبادات فيقول راوي الحديث: سألت مرة عن قوله ﷻ: ﴿**وإن منكم إلا واردها**﴾، فحدثني أن عبد الله بن مسعود حدثهم: أن رسول الله ﷺ، قال:

«**يَرِدُ الناسُ النارَ ثم يصدرون عنها بأعمالهم، فأولهم كلمح البرق، ثم كالريح، ثم كحضر الفرس، ثم كالراكب في رحله، ثم كشد الرجل، ثم كمشيه**».[١٤٩]



١٤٩ الترمذي، التفسير، ١٩/ ٣١٥٩.

والحاصل أن الغاية من العبادة والعبودية أن يكون العبد بقلبه مع الله تعالى على الدوام، أي معرفة الله ومحبته، فالعبادات تكسب الشخص اللطف وحسن الخلق وتجذر الإيمان في القلب، ثم إن العبادات المؤداة بحماس واشتياقٍ تعمِّق الروحَ وتقرِّب العبدَ من الرب تعالى، حتى يصير الحقُّ تعالى بصر هؤلاء العباد الذي به يبصرون، وسمعه الذي به يسمع، أي تضحو رؤاهم وأسماعهم وأفكارهم وتعابيرهم عبارة عن نور إلهي .

أكرمنا الله وإياكم بما أكرم به عباده المقربين!..

أ . العبادات المستحبة

يأتي أداء العبادات المستحبة سياجا يحمي العبادات المفروضة ويقويها، ويجعل الشيطان أكثر يأسا من الوسوسة للمسلم بتركها أو إهمالها، فمن كان على المستحبات حريصا كان على الفرائض أحرص، وتكون كذلك وسيلة تقرِّب العبد من ربه ﷻ، وتجبر ما يقع في الفرائض من نقص أو سهو أو خطأ، يخبرنا النبي عليه الصلاة والسلام عن ذلك فيقول:

«**إنَّ أوَّلَ ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاتُه، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيئاً، قال الرب تبارك وتعالى: انظروا، هل لعبدي من تطوُّع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك**».[١٥٠]

إلا أنه ينبغي التنبه إلى عدم الاشتغال بالنوافل عن الفرائض والواجبات، فلا يصح الاشتغال بالنوافل فقط وإهمال الفرائض، كما لا يليق الاستغناء بالفرائض عن السنن والنوافل، ولكن الصواب بذلُ الجهد لأداء العبادات النافلة في طمأنينة

١٥٠ الترمذي، الصلاة، ١٨٨/ ٤١٣.

إلى جانب إيفاء الفرائض حقها، ثم إن تطبيق النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه في حياتهم فريد في هذا الشأن.

ومن ناحية أخرى فمن غير اللائق بالمسلم ترك النوافل بحجة الاشتغال بقضاء الفرائض، إذ إن الفرائض يمكن قضاؤها على مدار اليوم عدا أوقات الكراهة[١٥١]، في حين أن بعض الصلوات المستحبة كالتهجد والضحى والأوَّابين ينبغي أن يكون المرء على بصيرة في أدائها لتعلقها بأوقات معينة.[١٥٢]

ولا يتقرب العبدُ إلى ربه بعملٍ كتقرُّبه إليه بالفرائض، لكنه لا ينال درجة المحبة بشيء كما يناله بمحافظته على النوافل، يقول عليه الصلاة والسلام:

«إن اللّه قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه».[١٥٣]

فالعبادات المستحبة تحافظ على شعور العبودية حياً، وتهفو بالروح دوما في ملكوت بارئها، وتكسب الوجه نوراً وملاحة، ومن يواصل أداء النوافل بالخشوع والسكينة وتيقُّظ القلب يقوى إيمانه بربه ويشتد شوقه إليه، ومما لا شك فيه أن السعادة والسرور في الآخرة تتحقق على حسبه.

---

١٥١ انظر: الهداية للمرغيناني فصل في الأوقات التي تكره فيها الصلاة ص ٥٠.

١٥٢ يؤكد مجتهدو مذهب الحنفية على عدم ترك السنن، لكن إن وصلت السن إلى حدٍ عجز معه عن أداء الفرائض والسنن، يمكن حينها أداء الفرائض بدل السنن.

١٥٣ انظر: البخاري، الرقاق، ٣٨، أحمد، ٥، ٢٥٦، الهيثمي، ٢، ٢٤٨.

صور الفضائل

كانت أيام النبي ﷺ ولياليه فياضة بأنواع العبادات المستحبة، كالسنن التي كان يصليها قبل وبعد الفرائض، وكصلاة التهجد التي يداوم عليها في الأسحار، وكالذكر والتفكر وقراءة القرآن الكريم كل يوم، وكصلوات الضحى والأوابين، وكصوم النافلة، وكالإنفاق في وجوه البر المتنوعة، فقد كانت كلها علامات على الحضور مع الله تعالى في كل آن، وكان عليه الصلاة والسلام إن فرح أو وصله ما يسره يخر ساجداً [١٥٤] ويصلي شكراً منه على منَّة الله تعالى،[١٥٥] وكان سرعان ما يقف للصلاة إن عرضت حوادث خارقة للعادة ككسوف الشمس وخسوف القمر أي أمام تجلي عظمة الله تعالى، [١٥٦] وكذلك يلجأ إلى الصلاة إن كانت له حاجة، ثم إن شهر رمضان الكريم يكتسب روحانية مختلفة بعبادات مخصوصة كصلاة التراويح والاعتكاف والإنفاق، إلى جانب حرصه على صيام النوافل بعد رمضان، وخاصة يومي الاثنين والخميس، وأما السبب فيوضحه في الحديث التالي:

«تُعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم».[١٥٧]

وقد اهتم بصيام الأيام البيض من كل شهر قمري وهي (١٣، ١٤، ١٥)، وأوصى أصحابه بصيامها، يذكر ابن عباس أن:

«رسول الله ﷺ كان لا يَدَعُ صومَ أيامِ البيض في سفرٍ ولا حَضَر».[١٥٨]

---

١٥٤ سجدة الشكر كسجدة التلاوة، فيشرع فيها بالنية متوضئاً، ويكبر بقول الله أكبر من غير رفع للأيدي، وينحني للسجود، وتكون السجدة طويلة قدر الإمكان، وبعدها يقوم.

١٥٥ ابن ماجة، الصلاة، ١٩٢.

١٥٦ البخاري، الكسوف، ٢ ـ ٤؛ ابن حبان، الصحيح، بيروت ١٩٩٣، ٧، ٦٨، ١٠٠.

١٥٧ الترمذي، الصوم، ٤٤/ ٧٤٧.

١٥٨ النسائي، الصوم، ٧٠

وكان عليه الصلاة والسلام يصوم ستة أيام من شوال،[١٥٩] ويصوم التاسع والعاشر من محرم أو العاشر والحادي عشرة وهو ما يسمى صيام عاشوراء.[١٦٠]

إلى جانب هذا كان النبي ﷺ في حالة ذكر دائمة لله تعالى، لا يفتر لسانه عن الحمد والتسبيح والاستغفار، ويذبح الأضاحي عن نفسه وعمن لا يطيق من أمته.[١٦١]

يقول ربيعة بن كعب رضي الله عنه:

«كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: **سَلْ**. فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: **أو غير ذلك؟** قلت: هو ذاك، قال: **فأعني على نفسك بكثرة السجود**».[١٦٢]

والمقصود من السجود الصلاة عامة، وبناء عليه يلزم من يريد مجاورة النبي ﷺ في الجنة أن يكثر من الصلاة، وزيادة السجود الذي يعتبر أوقات يتقرب العبد فيها من الله تعالى، ثم إن مكانة النبي ﷺ في الجنة مقامٌ عال يفوق مكانة الأنبياء عليهم السلام، وحسبما فُهم من الحديث يجب تأدية الوظائف التي ألزمتها السنة الشريفة وخاصة الإكثار من أداء الصلاة في خشوع للفوز بقرب النبي ﷺ في الجنة.



قالت أم حبيبة رضي الله عنها: قال ﷺ:

«**من صلى في يوم وليلة اثنتي عشرة ركعة بُني له بيت في الجنة** ».[١٦٣]

بعد أن سمعتها من رسول الله ﷺ ما تركتها.



١٥٩ مسلم، الصيام، ٢٠٤.

١٦٠ مسلم، الصيام، ١١٥.

١٦١ أبو داوود، ٣ـ ٤/ ٢٧٩٢، ابن سعد، ١، ٢٤٩.

١٦٢ مسلم، الصلاة، ٢٢٦.

١٦٣ مسلم، المسافرين، ١٠٣.

روي أَنّ رَجُلًا مِنْ أَصحاب النَّبِيِّ ﷺ قال:

«لما فتحنا خيبر أخرجوا غنائمهم من المتاع والسبي، فجعل الناس يتبايعون غنائمهم، فجاء رجل حين صلى رسول الله، فقال: يا رسول الله لقد ربحت ربحا ما ربح اليوم مثله أحد من أهل هذا الوادي. قال: «**ويحك، وما ربحت؟**» قال: ما زلت أبيع وأبتاع حتى ربحت ثلاث مائة أوقية [١٦٤]، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «**أنا أُنبئك بخير رجل ربح**» قال: ما هو يا رسول الله؟ قال: «**ركعتين بعد الصلاة**». [١٦٥]



وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد أرسل سرية فرجعوا بغنائم وفيرة في فترة قصير، فقال أحدهم إثر ذلك:

«بعث رسول اللَّهِ ﷺ بعثا فأعظموا الغنيمة وأسرعوا الكرة، فقال رجل: يا رسول اللّه، ما رأينا بعث قوم أسرع كرة، ولا أعظم غنيمة، من هذا البعث، ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«**ألا أخبركم بأسرع كرة وأعظم غنيمة من هذا البعث؟ رجل توضأ في بيته فأحسن وضوءه، ثم تحمل إلى المسجد، فصلى فيه الغداة، ثم عقب بصلاة الضحى، فقد أسرع الكرة، وأعظم الغنيمة**». [١٦٦]



يقول ابن عمر رضي الله عنه:

«قُلْتُ لأبي ذر: يا عمَّاه، أوْصِني. قالَ: سألْتني عمّا سألتُ عنْهُ رسُولَ الله عليه الصلاة والسلام، فقالَ:

---

١٦٤ أوقية: مقياس قديم للوزن والقيمة يقابل ١٢٨٣غراماً.

١٦٥ أبي داود، كِتَابُ سُجُودِ الْقُرْآنِ، بَاب تَفْرِيعِ أَبْوَابُ السُجُودِ وَكَمْ سَجْدَة رقم الحديث: ٢٤٠٧.

١٦٦ ابن حبان، ٦، ٢٧٦/ ٢٥٣٥.



«إن صليتَ الضُّحَى لَم تُكتَبْ مَن الغافِلينَ، وإنْ صليتَ أرْبعًا كُتبْتَ منَ العابِدينَ، وإن صليت سِتًا لَم يلْحقكَ ذَنب، وإنّ صلَّيتَ ثمانيًا كُتبتَ مِنَ القانِتين، وإنْ صلَّيتَ اِثنتي عَشرة ركعة بنُي لكَ بيت في الجنة، وما من يوم ولا ليلةٍ ولا سَاعةٍ إلا وللهِ فيه صدقةٌ يمنُّ بها على مَنْ يشاءُ من عبادِه، وما مَنَّ عَلى عبدٍ بِمثْلِ أنْ يُلهِمَهُ ذكرهْ». [١٦٧]



يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«إنَّ في الجنة باباً يقال له: الضحى، فإذا كان يوم القيامة، نادى منادٍ: أين الذين كانوا يديمون على صلاة الضحى؟ هذا بابكم، فادخلوه برحمة الله ﷻ». [١٦٨] . [١٦٩]



إنَّ صلاة ركعتين بعد كل وضوء أو غسل -شكرا للّه تعالى على نعمة الإسلام ومِنَّة الطهارة- فعلٌ حميد وحسن يثاب عليه المسلم ويؤجر. لقد قال سيدنا عثمان رضي الله عنه بعدما توضأ -وهو يعلم الناس-:

رأيت رسول الله عليه الصلاة والسلام يتوضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال:

«من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر الله له ما تقدم من ذنبه». [١٧٠]



---

١٦٧ المالكي، جمع الفوائد، ٢٢١١؛ الهيثمي، ٢، ٢٣٦؛ علي المتقي، ٧، ٨٠٩/ ٢١٥١١.

١٦٨ السيوطي، ١، ٣٥٥/ ٢٣٢٣.

١٦٩ يمكن تأدية صلاة الضحى من وقت إضاءة الشمس النهار بعد مرور ربع اليوم من أرباعه الأولى إلى أن تكون في وسط السماء وقت الزوال.

١٧٠ البخاري، الوضوء، ٢٤.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال لبلال رضي الله عنه عند صلاة الفجر:

«**يا بلال، حدثني بأرجى عمل عملتَه في الإسلام، فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة**».

قال: ما عملت عملا أرجى عندي من أني لم أتطهر طهورا، في ساعة من ليل أو نهار، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي».[١٧١]

فقد رأى النبي ﷺ أن بلالا يمشي أمامه في الجنة،[١٧٢] وقد أرى الله تعالى النبي عليه الصلاة والسلام هذه الرؤية تعليما لنا فضيلة صلاة النافلة.



قال أبو قتادة رضي الله عنه:

دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس بين ظهراني الناس، قال: فجلست، فقال رسول الله ﷺ: «**ما منعك أن تركع ركعتين قبل أن تجلس؟**»، قال: فقلت: يا رسول الله رأيتك جالسا والناس جلوس؟ قال:

«**فإذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين**».[١٧٣]



وكان الصحابة الكرام رضي الله عنهم يسارعون إلى صلاة النافلة إن عرضت حاجة أو أمر يهمُّهم، فعن ثابت، قال: كنت مع أنس رضي الله عنه فجاء قهرمانه، فقال: عطشت أرضنا، قال: فقام أنس فتوضأ، وخرج إلى البرية فصلى ركعتين ثم دعا، فرأيت السحاب تكتام، قال: ثم مطرت حتى ملأت كل شيء، فلما سكن المطر، بعث أنس بعض أهله فقال: انظروا أين بلغت الماء، فنظروا فلم تُعَدِّ أرضه إلا يسيرا..[١٧٤]

---

١٧١ البخاري، التهجد، ١٧، التوحيد، ٤٧؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٠٨.

١٧٢ انظر: البخاري، أصحاب النبي، ٦.

١٧٣ مسلم، المسافرين، ٧٠.

١٧٤ ابن سعد، ٥، ٢١ ـ ٢٢.



وقد انعكس اهتمام الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم- بالنوافل على أولادهم، تقول ربيعة بنت معوذ ﵂ عن صوم عاشوراء:

«فكنا نصومه بعد، ونصوم صبياننا، ونجعل لهم اللعبة من العهن، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار».[١٧٥]



وختاما فإن الفرائض عبادات يلزم العباد تأديتها كحد أدنى، إلا أنه ينبغي عليهم مواصلة المستحب من العبادات وزيادتها حسب إمكانياتهم سواء في اليسر أو العسر بقصد التقرب من ربهم تعالى وشكره على النعم التي مَنَّ بها عليهم، لأن العبادة في أصلها هي المثول بين يدي الله، وهذه العبادات تحلق بالمؤمن في العوالم الروحية وتملأ القلوب المؤمنة بالتجليات الربانية والمنح الإلهية.

فما يبذله العبد من جهد في أداء المستحب من العبادات يرتقي به إلى درجة الإحسان التي تجعل العبد يعيش مع ربه في كل آن.

إن أداء النوافل تعبير حقيقي عن حكمة خلق الإنسان والغاية من إيجاده ألا وهي العبادة، ولذلك كانت أهم زاد للآخرة.

ب . المداومة على الجماعة

إن التربية الاجتماعية من أهم أسس الإسلام، وتبدأ أول بذور التربية الاجتماعية للمسلم بصلاته مع الجماعة، فهي من أهمّ ما يثبت شعور الوحدة والتجمع في المجتمع الإسلامي المبني على أساس التوحيد، فأي مكان تؤدى فيه الصلاة جماعة تكون بنية الإسلام الروحية والاجتماعية قد بدأت تزدهر حقا.

---

١٧٥ البخاري، الصوم، ٤٧؛ مسلم، الصيام، ١٣٦.

الإسلام يأمر المؤمنين أن يحيوا بروح الجماعة، فيمدوا يد العون والمساعدة لبعضهم في كل أمر، ويبذلون الجهود في سبيل الله تعالى ضمن إطار من الوحدة والتوحد وكأنهم صف واحد، يقول الحق تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[١٧٦]

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام:

«...عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة...».[١٧٧]

ثم إننا عندما نقرأ سورة الفاتحة في كل ركعة من صلاتنا فإننا نعترف بين يدي ربنا في اليوم الواحد أربعين مرة على الأقل أننا أمة واحدة ومجتمع واحد، بقولنا:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

كان أول ما يقوم به النبي عليه الصلاة والسلام عند حضوره قباء أو المدينة المنورة، هو بناء مسجد فيها ليجتمع المسلمون فيه على طاعة الله تعالى، فوضع بذلك أول أسس الجماعة الإسلامية.

وقد احتذى أجدادنا حذو النبي عليه الصلاة والسلام في سنته هذه حيث قاموا بتشييد المساجد العظيمة في مركز كل مدينة يعمروها، ثم يكملون بناء المدن حول المساجد وكأنها هالات نور تبعث الهداية فيما حولها.

وبالتالي فإن تأدية الصلوات بالجماعة أنسب عمل يوافق غرض الإسلام، وأمر الله تعالى.

---

١٧٦ الصف: ٤.

١٧٧ الترمذي، الفتن، ٧/ ٢١٦٥.

يقول عليه الصلاة والسلام:

«ما توطن رجل مسلم المساجد للصلاة والذكر، إلا تبشبش الله له، كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم».[١٧٨]

وفي حديث آخر:

«لا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟»

قالوا: بلى يا رسول الله، قال:

«إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط».[١٧٩]

تقول عائشة ﵂: «من سمع النداء فلم يجب فلم يرد خيرا أو لم يُرَد به».[١٨٠]

ولذلك فقد تعامل النبي ﷺ مع من يهمل صلاة الجماعة بلا هوادة، حتى أنه قال يوماً:

«من سمع المنادي فلم يمنعه من اتباعه عذر لم تقبل منه الصلاة التي صلى»، قالوا: وما العذر؟ قال: **«خوف أو مرض».**[١٨١]

فترك الجماعة وإهمالها يتسبب بتفرق جماعة المسلمين، يتحدث الله تعالى عن الذين يشتتون الجماعة ذامّاً إياهم فيقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[١٨٢]

---

١٧٨ ابن ماجة، المساجد، ١٩/ ٨٠٠؛ ابن خزيمة، الصحيح، ٢/ ٣٧٤.

١٧٩ الترمذي، إسباغ الوضوء، ٥١.

١٨٠ البيهقي، السنن الكبرى، ٣، ٥٧.

١٨١ أبو داوود، الصلاة، ٤٦/ ٥٥١.

١٨٢ الأنعام: ١٥٩.

صور الفضائل

يقول أبو هريرة رضي الله عنه:

«نزل رسول الله عليه الصلاة والسلام بين ضجنان وعسفان فقال المشركون إن لهؤلاء صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم هي العصر، فأجمعوا أمركم فميلوا عليهم ميلة واحدة، وإن جبريل أتى النبي ﷺ فأمره أن يقسم أصحابه شطرين، فيصلي بهم وتقوم طائفة أخرى وراءهم وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم، ثم يأتي الآخرون ويصلون معه ركعة واحدة، ثم يأخذ هؤلاء حذرهم وأسلحتهم فتكون لهم ركعة ركعة، ولرسول الله عليه الصلاة والسلام ركعتان».[١٨٣]

أي إن أمر تأخير المسلمين الصلاة وتركهم الجماعة ليس موضوعاً قابلاً للبحث مهما كان السبب حتى ولو كان الوقت حرباً.



يروي جعفر بن عمرو عن أبيه قوله:

«رأيت رسول الله ﷺ يأكل ذراعا يحتز منها، فدعي إلى الصلاة، فقام فطرح السكين فصلى ولم يتوضأ».[١٨٤]

وقد كان ﷺ يترك طعامه ويقوم لأداء الصلاة في أول وقتها مع وجود وقت كاف لأدائها بعد فراغه من طعامه، وذلك لاهتمامه البالغ بالمداومة على صلاة الجماعة.



يقول يزيد بن عامر رضي الله عنه:

جئت والنبي ﷺ في الصلاة فجلست ولم أدخل معهم في الصلاة، قال: فانصرف علينا رسول الله ﷺ فرأى يزيد جالسا، فقال: «**ألم تسلم يا يزيد**» قال:

---

١٨٣ الترمذي، التفسير، ٤/ ٢١.

١٨٤ البخاري، الأذان، ٤٣.

بلى يا رسول الله قد أسلمت، قال: «**فما منعك أن تدخل مع الناس في صلاتهم؟**» قال: إني كنت قد صليت في منزلي وأنا أحسب أن قد صليتم، فقال:

«**إذا جئت إلى الصلاة فوجدت الناس فصل معهم وإن كنت قد صليت تكن لك نافلة وهذه مكتوبة**».[١٨٥]



وقد كانت الصلاة مع الجماعة من أهم الأمور التي اعتنى النبي ﷺ في مرض وفاته، ووفق ما يرويه لنا سيدنا أنس رضي الله عنه فإن رسول الله ﷺ لم يتخلف عن صلاة الجماعة إلا في الأيام الثلاث الأخيرة من مرضه قبل وفاته.[١٨٦]

قَالَ أحد الصحابة:

«دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: بلى، ثقل النبي ﷺ فقال: «**أصلى الناس؟**» قلنا: لا، هم ينتظرونك، قال: «**ضعوا لي ماء في المخضب**». قالت: ففعلنا، فاغتسل، فذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال ﷺ: «**أصلى الناس؟**» قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: «**ضعوا لي ماء في المخضب**» قالت: فقعد فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: «**أصلى الناس؟**» قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، فقال: «**ضعوا لي ماء في المخضب**»، فقعد، فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: «**أصلى الناس؟**» فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، والناس عكوف في المسجد، ينتظرون النبي عليه السلام لصلاة العشاء الآخرة، فأرسل النبي ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس، فقال أبو بكر – وكان رجلا رقيقا –: يا عمر صل بالناس، فقال له عمر: أنت أحق بذلك، فصلى أبو بكر تلك الأيام، ثم

---

١٨٥ أبو داوود، الصلاة، ٥٦/ ٥٧٧.

١٨٦ البخاري، الأذان، ٤٦.



إن النبي ﷺ وجد من نفسه خفة، فخرج بين رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه النبي ﷺ بأن لا يتأخر، قال: أجلساني إلى جنبه، فأجلساه إلى جنب أبي بكر، قال: فجعل أبو بكر يصلي وهو يأتم بصلاة النبي ﷺ، والناس بصلاة أبي بكر، والنبي ﷺ قاعد».[١٨٧]



يروي سيدنا أنس رضي الله عنه:

«أن أبا بكر كان يصلي لهم في وجع النبي ﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة، فكشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتموا صلاتكم وأرخى الستر فتوفي من يومه».[١٨٨]

لقد فرح النبي ﷺ لتركه خلفه مجتمعاً كالبنيان المرصوص صفوفه متحدة وأفراده يواصلون أداء صلواتهم مع الجماعة حتى بدا وجهه الكريم كروقة مصحف حين كان يشاهدهم، وأما تبسم سيد المخلوقات المضيء بنوره جميع الكائنات فقد بعث في الصحابة الكرام الأمل. إلا أنه كان متوجهاً إلى الرفيق الأعلى راضية نفسه منتظراً لحظة اللقاء.وأما كلماته الأخيرة في أنفاسه الأخيرة فكانت:

«الصلاةَ الصلاةَ، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم».[١٨٩] .



---

١٨٧ البخاري، الأذان، ٥١.

١٨٨ البخاري، الأذان، ٤٦/ ٦٨٠.

١٨٩ أبو داوود، الأدب، ١٢٣ ـ ١٢٤/ ٥١٥٦؛ ابن ماجة، الوصايا، ١.



يقول جابر بن عبد الله ﵁:

خَلَتِ البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال لهم:

«**إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد**»

قالوا: نعم، يا رسول الله! قد أردنا ذلك، فقال:

«**يا بني سلمة! ديارَكم تكتبْ آثارَكُم، ديارَكم تكتبْ آثارَكُم**».[١٩٠]



يقول عبد الله بن أم مكتوم ﵁:

يا رسول الله إن المدينة كثيرة الهوامِّ والسباع، فقال النبي ﷺ:

«**أتسمع حي على الصلاة حي على الفلاح، فحي هلاً**».[١٩١]

وكما يبدو فإن النبي ﷺ يسلط الضوء على أهمية الصلاة مع الجماعة، على الرغم من كل صعوبة الظروف المحيطة أحيانا.



ولذلك فقد أنذر النبي عليه الصلاة والسلام المتخلفين عن الجماعة بتحذيرات مختلفة، يقول أبي بن كعب ﵁: صلى بنا رسولُ الله ﷺ يوما الصبحَ، فقال: «**أشاهد فلان؟**» قالوا: لا، قال: «**أشاهد فلان؟**» قالوا: لا، قال:

«**إن هاتين الصلاتين أثقل الصلوات على المنافقين، ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حبْوا على الركب، وإن الصف الأول على مثل صف الملائكة، ولو علمتم ما فضيلته لابتدرتموه، وإن صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته**

١٩٠ مسلم، المساجد، ٢٨٠، ٢٨١؛ الترمذي، تفسير القرآن، ٣٦/ ١.

١٩١ أبو داوود، الصلاة، ٤٦/ ٥٥٣.

وحده، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل، وما كثر فهو أحب إلى الله ﷻ». [192]



قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق قد عُلم نفاقه أو مريض، إن كان المريض ليمشي بين رجلين حتى يأتي الصلاة، وقال: إن رسول الله ﷺ علَّمنا سُنن الهدى، وإن من سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه». [193]



كان عبد الله بن عمر رضي الله عنه في السوق فأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم فدخلوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نزلت:

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [194]. [195]



يروى عن الشفاء بنت عبد الله أنها قالت:

«دخل على بيتي عمر بن الخطاب فوجد عندي رجلين نائمين فقال: وما شأن هذين ما شهدا معنا الصلاة؟ قلت يا أمير المؤمنين صليا مع الناس، وكان ذلك في رمضان، فلم يزالا يصليان حتى أصبحا وصليا الصبح وناما فقال عمر رضي الله عنه: لأن أصلي الصبح في جماعة أحب إلي من أن أصلي ليلة حتى أصبح». [196]

---

١٩٢ أبو داوود، الصلاة، ٤٧/ ٥٥٤؛ النسائي، الإمامة، ٤٥.

١٩٣ مسلم، المساجد، ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

١٩٤ النور: ٣٧.

١٩٥ ابن كثير، التفسير، ٣، ٣٠٦؛ الهيثمي، ٧، ٨٣.

١٩٦ عبد الرزاق، المصنف، بيروت ١٩٧٠، ١، ٥٢٦؛ الموطأ، صلاة الجماعة، ٧؛ كنز العمال، ٢٢٧٩٧.



عن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري أنه قال:

«جاء عثمان بن عفان ﷺ إلى صلاة العشاء فرأى أهل المسجد قليلا، فاضطجع في مؤخر المسجد ينتظر الناس أن يكثروا، فأتاه ابن أبي عمرة فجلس إليه فسأله: من هو؟ فأخبره، فقال: ما معك من القرآن؟ فأخبره، فقال له عثمان ﷺ: من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة، ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة».[١٩٧]



وينقل لنا ثابت بن حجاج هذه الحادثة من الصحابة وهو ينظر إلى المتخلفين عن الجماعة:

«خرج عمر ﷺ إلى الصلاة فاستقبل الناس، فأمر المؤذن فأقام، وقال: لا ننتظر لصلاتنا أحدا، فلما قضى صلاته أقبل على الناس، ثم قال: ما بال أقوام يتخلف بتخلفهم آخرون، والله لقد هممت أن أرسل إليهم، فيجاء في أعناقهم ثم يقال: اشهدوا الصلاة».[١٩٨]



تقول أم الدرداء ﵂:

«دخل عليَّ أبو الدرداء وهو مغضب، فقلت: ما أغضبك، فقال: والله ما أعرف من أمة محمد ﷺ شيئا إلا إنهم يصلون جميعا».[١٩٩] فتعجب ﷺ كيف يهمل هؤلاء الناس أمر صلاة الجماعة.



١٩٧ انظر: الموطأ، صلاة الجماعة، ٧؛ مسلم، المساجد، ٢٦٠.

١٩٨ عبد الرزاق، ١، ٥١٩.

١٩٩ البخاري، الأذان، ٣١.

كان عبد الله بن عمر رضي الله عنه إن فاتته الصلاة مع الجماعة يشتغل بالعبادة حتى وقت الصلاة التالية، وهذا جارٍ على صلاة العشاء أيضاً، أي إنه يتعبد ربه حتى الصباح في هذه الحالة.[٢٠٠]



تزوج الحارث بن حسان وكانت له صحبة، وكان الرجل إذ ذاك إذا تزوج تخدر أياما، فلا يخرج لصلاة الغداة، فقيل له: أتخرج وإنما بنيت بأهلك في هذه الليلة؟ قال:

«والله إن امرأة تمنعني من صلاة الغداة في جماعة لامرأة سوء».[٢٠١]



سأل ابن جريج أحدَ المشهورين من التابعين وهو عطاء رحمه الله:

«إن سمع الإقامة أو الأذان وهو يصلي المكتوبة أيقطع صلاته ويأتي الجماعة؟ قال: إن ظن أنه يدرك من المكتوبة شيئا فنعم، وقد روي أن ابن عمر صلى ركعتين من المكتوبة في بيته فسمع الإقامة فخرج إليها».[٢٠٢]



لقد كان عامر بن عبد الله على فراش الموت يَعُدُ أنفاسَ الحياة، وأهله حوله يبكون، فبينما هو يصارع الموت سمع المؤذن ينادي لصلاة المغرب ونفسُهُ تُحشْرجُ في حلقه، وقد أشتدّ نزعُه وعظـُم كربه، فلما سمع النداء قال لمن حوله:خذوا بيدي... قالوا: إلى أين!؟ ..قال: إلى المسجد.. قالوا: وأنت على هذه الحال !!قال: سبحان الله .!! أسمع منادي الصلاة ولا أجيبه!! خذوا بيدي.. فحملوه بين رجلين فصلى ركعة مع الإمام ثمّ مات في سجوده.

---

٢٠٠ ابن حجر، الإصابة، ٢، ٣٤٩.

٢٠١ الهيثمي، ٢، ٤١.

٢٠٢ عبد الرزاق، ١، ٥١٤ ـ ٥١٥.



أن يفارق عبدٌ –واظب عمره كله على صلاة الجامعة– ويلفظ أنفاسه الأخيرة في السجود لتجلٍّ رائع لحديث النبي ﷺ: «**يموت العبد على ما عاش عليه**».



يقول عطاء بن ثابت رحمه الله تعالى:

عن عطاء بن السائب قال: دخلنا على أبي عبد الرحمن السلمي وهو يقضي –أي ينزع– في المسجد، فقلنا له: لو تحولت إلى الفراش، فإنه أوثر، قال: حدثني فلان أن النبي ﷺ قال:

«**لايزال أحدكم في صلاةٍ مادام في مصلّاه ينتظر الصلاة**»،

وفي رواية ابن سعد: «**والملائكة تقول اللهم اغفر له، اللهم ارحمه**»، قال أبو عبدالرحمن السلمي: فأريد أن أموت وأنا في مسجدي.



وقد قال عليه الصلاة والسلام:

«**إذا قال القارئ: غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقال من خلفه آمين فوافق قولُه قولَ أهل السماء غُفر له ما تقدم من ذنبه**».[٢٠٣]



وحسب إحدى الروايات:

«**إن الله تعالى ينادي يوم القيامة: أين جيراني؟ فتقول الملائكة: ربنا ومن ينبغي أن يجاورك!؟ فيقول: أين عمَّار المساجد**».[٢٠٤]

ويقول عليه الصلاة والسلام:

---

٢٠٣ البخاري، الأذان، ١١٣؛ مسلم، الصلاة، ٧٦.

٢٠٤ علي المتقي، ٤، ٥٧٨/ ٢٠٣٣٩.



«المسجد بيتُ كلِّ تقي، وقد ضمن الله لمن كانت المساجد بيوتهم الروحَ والرحمةَ والجَوَازَ على الصراط إلى رضوان الله ﷻ». [٢٠٥]

يقول عاشق باشازاده من الأوائل المؤرخين العثمانيين:

«نسب آل عثمان هذا نسب صادق، فهم لم يصدر عنهم أيُّ فعل غير مشروع، بل كانوا يجتنبون ما يكرهه العلماء من التصرفات والأعمال، حتى تجرأ شيخ الإسلام ملا فناري على رفض شهادة يلدرم بيازيد بسبب تركه للجماعة، وقال بشكل واضح للسلطان الذي سأله عن السبب في ذلك:

« يا مولاي، إني لا أراكم في الجماعة، في حين أنه عليكم أن تكونوا في الصف الأول، فأنتم قدوة هذه الأمة، فإذا لم تشاركوا في الجماعة غدوتم أمثلة لا يحتذى بها للأمة، وهذا يمنع قبول شهادتكم...».

وبعد هذا وحسب رواية أخرى بنى يلدرم بيازيد المسجد المشهور في بورصة المسمى ب«أولو جامع» شكرا لله على نصر نيغبولو، وداوم على صلاة الجماعة فيه.



والحاصل، إن الاستمرار في صلاة الجماعة صورةٌ لصدق الإيمان وإخلاصه، يقول عليه الصلاة والسلام:

«إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾» [٢٠٦]. [٢٠٧]

---

٢٠٥ الطبراني، المجمع الكبير، تحقيق. حمدي عبد المجيد السلفي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٦، ٢٥٤/ ٦١٤٣؛ علي المتقي، ٧، ٥٨٠/ ٢٠٣٤٩.

٢٠٦ التوبة: ١٨.

٢٠٧ الترمذي، الإيمان، ٨/ ٢٦١٧.



وقد رتب أولياء الله تعالى فوائد معينة رئيسية لتأدية الصلوات الخمس جماعة في المساجد منها:

ـ تأصل شعور الانتماء إلى الجماعة في قلب المؤمن بالاستفادة من الفيض والبركة التي يمن الله بها على المساجد.

ـ أداء الصلوات في أكثر أوقاتها قبولاً، أي أولها.

ـ التعرض لدعاء الملائكة واستغفارها وشهادتها.

ـ الابتعاد عن الشيطان.

ـ نيل ثواب عظيم بإدراك تكبيرة الافتتاح.

ـ التخلص من صفة النفاق في الأعمال.

ـ الاستفادة من فيض الأدعية والأذكار المؤداة جماعياً.

ـ المساهمة في ترسيخ الألفة بين المسلمين.

ـ التعاون في أمور الطاعة والعبادة.

ـ التعود على أحكام التلاوة وتعلمها في الصلوات الجهرية.

ـ التمكن من أداء الصلاة كاملة مع الخشوع.

وكما تبين ثمة الكثير من فوائد الصلاة مع الجماعة، ولذا فقد أمر الله تعالى وحبيبه الأكرم المؤمنين بالاستمرار في اعتياد المساجد والجماعة على نحو مؤكد.

ج . عبادة الليل

إن الخلوة مع الحق تعالى في أعماق الليل منبع سعادة لا يوصف للعبد، ووسيلة لرحمة ومغفرة ولطف ورضا إلهي لا حدود له، تقول الآية الكريمة:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[٢٠٨]

٢٠٨ السجدة: ١٦.

إن الأسرار والحكم والفيوض التي أودعها الله تعالى في اللَّيل يعاينها المرء على حسب استعداد قلبه وروحه، ومن أظهر الدلائل على أهمية هذا الوقت المبارك ما تحقق فيه من اللطائف الإلهية كالمعراج ونزول الوحي.

ولذا تعد الليالي وأوقات الأسحار فرصا استثنائية للمؤمنين العازمين على التقرب من الله، لسكون أعماقها وامتلائها بالفيوضات الإلهية.

وفي الحديث الشريف:

«**إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة**».[٢٠٩]

يقول الحاج علي الراميتاني قدس سره:

«حين تجتمع ثلاثة قلوب تتحقق أمنية العبد المؤمن، قلب المؤمن المخلص وقلب القرآن وهي سورة يس وقلب الليل وهو وقت السحر، [٢١٠]ومن يعرف لهذه الغنيمة قدرها يدرك أكثر الأجواء الممتلئة بالفيوض للدعاء والعبادة والتوجه إلى الله تعالى في وقت يلف العالم أجمع سكونٌ عميق، حيث تخلد فيه كل المخلوقات إلى الراحة، يقول الله تعالى مثنياً على عباده السعداء:

﴿**كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[٢١١]

إن الليالي الساكنة أنسب الأوقات لهيام الأرواح المؤمنة العاشقة للذات الإلهية في حضرة الحق تبارك وتعالى، فيترك العاشقون -في سبيل رضا الله

٢٠٩ مسلم، المسافرين، ١٦٦.

٢١٠ محمد برصة، مجالس حضرة محمد بهاء الدين، ترجمة. نجدت طوسون، اسطنبول ١٩٩٨، ص: ٦٠.

٢١١ الذاريات: ١٧.



تعالى– كل متع الدنيا من الأسرة الناعمة والنوم الهانئ وغيرها، ولذلك يكون للقرآن والذكر والصلوات في جوف الليل الساكن أهمية عظيمة في تقرب المؤمن من الله تعالى، فالعبادات المؤدَّاة ليلاً تبدو وكأنها خلوة مع الحبيب الأسمى، فالاستيقاظ –الجميع نيام– للدخول في مظلة رحمة المولى المتعالي يعني الانضمام إلى العباد الاستثنائيين الذين يشملهم مجلس الحب والرحمة.

إن الرغبة في عبادة الليل تكون على حسب شدة العشق والحب الإلهي في النفوس، وقد قال أحد العابدين الذين وجدوا حلاوة عبادة الليل المعنوية وفيضه:

«كنت لا أخاف الموت، إلا لأنه يحول بيني وبين قيام الليل».

وفي الحقيقة كيف يتصور ممن يدَّعي حبَّ ربه أن ينام –في غفلة عميقة– حتى الصباح، ولذا فإن إحياء الأسحار ليس إلا تعبيرا عن الحب والتعظيم الصادق الذي يكنه العبد لربه تعالى، فليلة يقضيها صاحبها غافلا في النوم هي أشبه بمطر هاطل على الحجر والبحر والصحراء لا فائدة له، وخسارة يتعذر تعويضها.

وقد كان النبي ﷺ أوصى عبد الله بن عمرو بن العاص بقوله:

«**يا عبد الله، لا تكن مثل فلان كان يقوم من الليل فترك قيام الليل**».[٢١٢]

ما يعني أن التساهل في التهجد سبب لمضيعة هامة وخسران كبير.

فالقدرة على أخذ نصيب من الليل يبدأ بالاستغفار ويستمر بالتوحيد والصلوات الشريفة والتعرض لروحانية الذكر، فالذكر في الأسحار –أي لقاء العبد مولاه– حاجة لا يُغَض الطرف عنها، وفرصة لا تُعوض لإحياء القلب، ثم إن أروحنا تحتاج إلى الغذاء المعنوي كحاجة أجسادنا إلى الغذاء المادي، وقد أولى الحق تعالى اهتماماً أكثر بالذكر في الأسحار مقارنة مع سائر الأوقات، تقول الآية الكريمة:

---

٢١٢ البخاري، التهجد، ١٩.



﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [٢١٣]

يقول عمرو بن عبسة رضي الله عنه:

قلت: يا رسول الله هل من ساعة أقرب من الأخرى؟ أو هل من ساعة يبتغى ذكرها؟ قال:

«**نعم، إن أقرب ما يكون الرب عز وجل من العبد جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله عز وجل في تلك الساعة فكن، فإن الصلاة محضورة مشهودة إلى طلوع الشمس**». [٢١٤]

والحاصل فالمؤمن إن قضى ليلته في ظلال هدي الله تعالى وهدي نبيه عليه الصلاة والسلام، وأخذ بحظ وافر من الذكر والصلوات والطاعات تغدو ليلته مشرقة أكثر من نهاره، وقد قال أبو يزيد البسطامي:

«لم ينكشف لي أيُّ سرٍ قبل أن تتحول الليالي إلى نهار».

وهكذا تنعكس روحانية الأسحار على حياة الذين تمكنوا بحق من إحياء تلك الأوقات المفعمة باللطائف العظيمة من خلال إدراكهم لقيمة الليالي، ولكن لابد لنا للاستفادة بحق من أجواء الليل المغمورة بالفيوض والروحانية أن نجتنب المعاصي في النهار، حتى يصبح حالنا في السحر هو حالنا في كل وقت من ليل أو نهار.

---

٢١٣ الإنسان، ٢٦ ـ ٢٧.

٢١٤ النسائي، مواقيت الصلاة، ٣٥.

صور الفضائل

كان الحق ﷻ يأمر الحبيب ﷺ كي يغتنم فيوضات الليل بما يلي:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾[٢١٥]

فلم يدع عليه الصلاة والسلام الصلاة والاستغفار وقراءة القرآن والدعاء في أوقات الليل المغمورة بالبركة والفيض بعد هذا الأمر الإلهي، وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعداً.[٢١٦]

إلى جانب أنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي ثلاث عشرة ركعة من الليل، ثم إنه صلى إحدى عشرة ركعة وترك ركعتين، ثم قبض حين قبض وهو يصلي من الليل تسع ركعات، وكان آخر صلاته من الليل الوتر.[٢١٧]



وتحكي لنا السيدة عائشة رضي الله عنها فتقول:

ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربع ركعات، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعا، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثا، فقلت: يا رسول الله تنام قبل أن توتر؟

قال: «**تنام عيني ولا ينام قلبي**».[٢١٨]

يفيد هذا الحديث الشريف أن قلب النبي ﷺ في تواصل دائم مع الله تعالى في كل الأحيان، وليس أثناء العبادة فحسب.



---

٢١٥ الإسراء، ٧٩.

٢١٦ أبو داوود، التطوع، ١٨/ ١٣٠٧.

٢١٧ أبو داوود، التطوع، ٢٦/ ١٣٦٣.

٢١٨ البخاري، التهجد، ١٦، التراويح ١؛ مسلم، المسافرين ١٢٥.



عن حذيفة رضي الله عنه، قال:

«صليت مع النبي عليه الصلاة والسلام ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسلا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع، فجعل يقول: «**سبحان ربي العظيم**»، فكان ركوعه نحوا من قيامه، ثم قال: «**سمع الله لمن حمده**»، ثم قام طويلا قريبا مما ركع، ثم سجد، فقال: «**سبحان ربي الأعلى**»، فكان سجوده قريبا من قيامه».[219]



عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«افتقدت النبي عليه الصلاة والسلام ذات ليلة، فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه، فتحسست ثم رجعت، فإذا هو راكع أو ساجد يقول:

«**سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت**» فقلت: بأبي أنت وأمي، إني لفي شأن وإنك لفي آخر».[220]



لقد أراد النبي عليه الصلاة والسلام من أمته تأدية صلاة التهجد والتي تعد أحد أهم وسائط التقدم المرحلي المعنوية، باعتناء واهتمام، وبدأ أولاً بأقربائه في التنبيه في هذا الأمر، وروي أنه كان يطرق فاطمة وعلياً ليلاً فيقول لهما: «**ألا تقومان فتصليان**»[221].

---

٢١٩ مسلم، المسافرين، ٢٠٣/ ٧٧٢.

٢٢٠ مسلم، الصلاة، ٢٢١/ ٤٨٥.

٢٢١ البخاري، التهجد، ٥.



ويوصيهم بالاستفادة من فيوضات الليل المعنوية، ويقول لسائر أصحابه:

«**عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قربة إلى الله، ومنهاة عن الإثم...**».[٢٢٢]



عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«**قالت أم سليمان بن داود: يا بُني لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيرا يوم القيامة**».[٢٢٣]



وعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ، قَالَ:

«كان الرجل في حياة النبي ﷺ، إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله ﷺ فتمنيت أن أرى رؤيا، فأقصها على رسول الله ﷺ، وكنت غلاما شابا، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني، فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطي البئر وإذا لها قرنان وإذا فيها أناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، قال: فلقينا ملك آخر فقال لي: لم ترع،، قَالَ: فقصصتها على حفصة فقصتها حفصة على رسول اللَّهِ ﷺ،فقال: «**نعم الرجل عبد الله، لو كان يصلي من الليل**» فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلا».[٢٢٤]



يقول عليه الصلاة والسلام في حديث قدسي عن ربه ﷻ مثنياً على المؤمنين الذين ينفقون في السر، ويقومون من الليل، ويجاهدون في سيل الله مخلصين له:

---

٢٢٢ الترمذي، الدعوات، ١٠١/ ٣٥٤٩.

٢٢٣ ابن ماجة، إقامة الصلاة، ١٧٤.

٢٢٤ البخاري، أصحاب النبي، ١٩/ ١١٢١/ ١١٢٢.



«ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يبغضهم الله، أما الثلاثة الذين يحبهم الله: فرجل أتى قوما فسألهم بالله، ولم يسألهم بقرابة بينهم وبينه، فتخلف رجل من أعقابهم فأعطاه سرا لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل به فنزلوا فوضعوا رؤوسهم، فقام رجل يتملقني، ويتلو آياتي، ورجل كان في سرية فلقي العدو فهزموا فأقبل بصدره حتى يقتل، أو يفتح له، والثلاثة الذين يبغضهم الله: الشيخ الزاني، والفقير المختال، والغني الظلوم».[٢٢٥]

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام وفق ما رواه علي رضي الله عنه:

«إن في الجنة غرفاً يُرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها، قالوا: لمن هي يا رسول الله؟ قال: لمن طيّب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام».[٢٢٦]



يذكر أستاذنا موسى أفندي لحظة من حال إحياء مرشده الفاضل سيدنا سلطان العارفين محمود سامي رمضان أوغلو الليالي في طريق معرفة الله والعبودية مع أخلاقه السامية على النّحو التّالي:

كان قلب سيدنا محمود سامي رمضان أوغلو على الرغم من بشاشة وجهه المبارك يبكي بشدة، وكانت عيونه تبكي لخلاص الأمة الإسلامية من يد الظالمين، وإنقاذ العصاة والصفح عنهم، فتنهمر دموعهم في فؤادهم، ويستمعون بخشوع أثناء تلاوة القرآن الكريم، فتسيل دموعه في بعض الأحيان على خديه، وبالأخص في الحج ورفاق السفر نيام في السيارة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، إذ

---

٢٢٥ الترمذي، الجنة، ٢٥/ ٢٥٦٨؛ النسائي، الزكاة، ٧٥.

٢٢٦ الترمذي، البر، ٥٣/ ١٩٨٤.



ترى دموعه تبدو كحبات اللؤلؤ تحت ضوء القمر وهي تنهمر على وجهه، وهذه الصورة الإلهية التي لا يسعنا تصويرها، كانت من الروعة بحيث يصعب وصفها على الشعراء والأدباء.



لقد كان شوق جدِّنا المرحوم موسى أفندي إلى عبادة الليل واهتمامه بها كتوق العاشق للحظة اللقاء بمعشوقه، وقد كان يحافظ على حاله هذه حتى في أيامه التي يكون فيها مريضاً وتعباً جسدياً، فلذا كان يحلق في أفق الحب الإلهي على الدوام، وقد كان أول ما سأل عنه مَن حوله –بعد أن زال أثر المخدر عقب عملية في العين خضع لها-: كم الساعة الآن؟ فأجابوا: سيدي، الساعة قاربت الثالثة، فتيمم بمساعدةٍ ممن حوله قائلاً: ليس كمثل صلاة الليل شيء من الصلوات في أهميتها، فينبغي ألا تهمل، وصلّى ركعتين تهجداً بالإيماء –وقد حلق بفؤاده في فضاءات الحب لله تلفه لذة معنوية وشوق مقيم- غائبا عن معاناته وأوجاعه، ثم قرأ ورده المعتاد، وكأنه يعلمنا تطبيق قوله تعالى بحاله:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [٢٢٧]



قال رجل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله: إني لا أقدر على قيام الليل فصف لي دواء؟!! فقال: لا تعصه بالنهار، وهو يقيمك بين يديه في الليل، فإن وقوفك بين يديه في الليل من أعظم الشرف، والعاصي لا يستحق ذلك الشرف.



---

٢٢٧ السجدة، ١٦.



ثم إن عبادة الليل من أهم المؤثرات التي توفر الصحة الروحية والبدنية، [٢٢٨] وتدفع الأمراض، وتهب الإنسانَ قوة مادية ومعنوية، ودراية وهيبة، وإليك بعض الحوادث الدالة على هذه الحقيقة:

دعا أحد قادة الروم رجلاً من نصارى العرب، فقال له: ادخل في معسكر هذا القوم، فانظر ما هديهم، وما حالهم، وما أعمالهم، وما يصنعون، ثم ائتني فأخبرني بما رأيت، وخرج الرجل من معسكر الروم حتى دخل معسكر المسلمين فلم يستنكروه؛ لأنه كان رجلا من العرب، لسانه عربي ووجهه عربي، فمكث في معسكرهم ليلة حتى أصبح فأقام عامة يومه، ثم رجع إلى قائده الرومي، وقال له: جئتك من عند قوم يقومون الليل، ويصومون النهار، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، رهبان بالليل فرسان بالنهار، لو يسرق مَلِكُهم لقطعوا يده، ولو زنا لرجموه؛ لإيثارهم الحق، واتباعهم إياه على الهوى، ولما انتهى الرجل العربي من كلامه قال القائد الرومي: لئن كان هؤلاء القوم كما تزعم، فوالله لبطنُ الأرض خير من ظهرها لمن يريد قتالهم.[٢٢٩]



وحادثة أخرى تشبه سابقتها:

عندما سأل هرقل ملك الروم جنوده عن سرِّ هزمتهم من المسلمين مع أن عددهم يفوق بكثير عدد المسلمين، ومعهم من العُدة والعتاد ما ليس للمسلمين، فأجابه أحدُهم: لأنهم يصومون النهار ويقيمون الليل، ويحبون الموت كما نحب نحن الحياة. [٢٣٠]



٢٢٨ انظر: الترمذي، الدعوات، ١٠١/ ٣٥٤٩.

٢٢٩ الطبري، التاريخ، مصر، ٣، ٤١٨.

٢٣٠ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢، ٩٧.

وختاما فإن الليالي أوقات استثنائية لصفاء الذهن والقلب، وحِدَّةِ الإدراك، وقوة الحافظة، وسرعة الترقي في المعارج المادية والمعنوية، وهي فرص لا تُفَوَّتُ لمن تنتظره وظائف عظيمة، والليل هبة سنية لمن يُعِدُّ نفسَه لإصلاح المجتمع ويحمل رؤية لنهضة المسلمين بما تربيه عليه هذه اللحظات من تقوى ووصلة بالله والتلقي من فيوضاته سبحانه، ولكن لا ينال بركة أسرار الليل هذه إلا المؤمن الصالح الذي يحيي هذه الأوقات بالعبادة والتعمق في التفكر، وأعمال قلوب أصحاب هذه الأسرار تتلقى التجليات الإلهية اللامحدودة من خلال تطوافها في ملكوت السموات والأرضين، لتتحلى بعد ذلك بحلية معرفة الله تعالى.

يا ربي احفظنا من خسارة الليل بالغفلة والإسراف والخسران، وأنعم علينا ببركة أسراره، واجعل نفوسنا متصلة بفيض الليالي العامرة بالذكر والطاعات، وبلغنا الآخرة عاشقين صادقين مخلصين، واجعل أرواحنا تتذوق لذة لقاك. آمين.

د . الدعاء والمناجاة

إن الدعاء والمناجاة طلب العبد عونَ الله تعالى ولطفه حين يعترف بعجزه أمام عظمة ربه، وبما أن المناجاة أي الالتجاء في الدعاء، عبارة عن العجز ورمز للتوجه إلى المقام الإلهي، فإنه يحمل أهمية عظيمة.

ينبغي على العبد حين يناجي ربه أن ينبض قلبه بصدق كبير وليس كلماته فحسب، وعليه حين يدعو ربه أن يمتلئ قلبُه بالخوف والرجاء، وأن يكون الدعاء نابعاً من قلب مضطر يصدق مع الله ولا يرجو غير الله ولا يثق إلا بالله، فدعاء التائب من معصيته يحمل في أعماقه صدق العهد ولوعة الندم وأمل المغفرة، يقول مولانا قدس سره:

«تب بقلبٍ امتلأ بنار الندامة، وعينٍ تَنَدَتْ بدموع التوبة، فالأزهار تتفتح في الأماكن الندية والمشمسة».

على المؤمن الذي يستشعر عبوديته لله تعالى أن يتقرب من ربه في كل آن، فالتربية الدينية الحقيقية تربي المؤمن على التذلل بين يدي الله ومد يد الافتقار إليه سبحانه من خلال التركيز على الدعاءوتكراره في كل موطن من مواطنه، ومن هنا كان الدعاء مفتاح أعظم باب يفتح من قلب المؤمن لله تعالى، يقول تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [٢٣١]

وكلما تكرر الدعاء يغدو منقوشاً في روح المؤمن نقوشاً عميقة، ولذا فإن الأرواح العلوية تعيش في حالة دائمة من الدعاء، فالدعاء خضوع مع استسلام بين يدي الله تعالى، حيث يتوجه العبد إلى الحق تعالى مستشعرا عظمته سبحانه ومدركا في الوقت نفسه عجزه وضعفه الذاتي، وفي الحقيقة فإن الشروع في الدعاء بالاعتراف بالخطأ والعجز له تأثيره الكبير في استمطار الرحمة الإلهية وقبول الدعاء.

وأعظم من علمنا آداب الدعاء هو رسول الله ﷺ الذي عاشه في كل لحظة من لحظات حياته، فقد كان عليه الصلاة والسلام في التجاء دائم إلى الله تعالى إضافة إلى صلواته التي أداها باكياً إلى أن تورمت قدماه الشريفتان عليه الصلاة والسلام، فكان يحب الدعاء الصادق النابع من الصميم ولا يدعو بدعاء لا إخلاص فيه. [٢٣٢]

عنْ أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«**أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**». [٢٣٣]

---

٢٣١ البقرة: ١٨٦.

٢٣٢ أبو داوود، الوتر، ٢٣/ ١٤٨٢.

٢٣٣ مسلم، الصلاة، ٢١٥/ ٤٨٢.

ولا بد للمؤمن من أن يكون حريصاً على كسب دعاء الفقراء والمحتاجين إلى جانب دعائه الدائم لنفسه، يقول عليه الصلاة والسلام:

«**ما دعوةٌ أسرع إجابة من دعوة غائبٍ لغائب**».[٢٣٤]

ويقول مولانا:

«جُدْ دوما بنفسك ومالك وملكك، واحرص على اكتساب قلب يكون دعاؤه نوراً لك في قبرك المظلم».

صور الفضائل

قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ:

«**ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم**»

فقال رجل من القوم: إذا نكثر، قال:

«**اللهُ أكثرُ**».[٢٣٥]

لا يرد الحق تعالى الأدعية الصادقة المخلصة، إلا أنّ بعض الأدعية لا تلقى القبول مع إخلاص صاحبها لمخالفتها القدر المطلق، لكن على العبد مواصلة الدعاء من غير سأم ولا ملل، وفي مثل هذه الأحوال فإن الإجابة تتحقق في الآخرة، لأن الله تعالى قال:

﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾[٢٣٦]



---

٢٣٤ الترمذي، البر، ١٩٨٠.

٢٣٥ الترمذي، الدعوات، ١١٥/ ٣٥٧٣؛ أحمد، ٣، ١٨.

٢٣٦ غافر: ٦٠.

قال عليه الصلاة والسلام:

«لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل»

قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال:

«يقول: دعوت فلم أر يستجاب لي، فيستحسر عند ذلك، ويدع الدعاء».[٢٣٧]

ثم إن دعاء النبي زكريا:

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ [٢٣٨]. لم يستجب إلا بعد أربعين سنة حيث أكرمه بابنه يحيى عليه السلام.[٢٣٩]



سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو في صلاته فلم يصل على النبي، فقال النبي ﷺ: **«عجل هذا!»**، ثم دعاه فقال له ولغيره:

«إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه، ثم يصلي على النبي، ثم لِيَدْعُ بعد بما يشاء».[٢٤٠]

عن ابن عمر رضي الله عنه:

أنه استأذن النبي ﷺ في العمرة فقال:

«أي أخي أشركنا في دعائك ولا تنسنا».[٢٤١]



---

٢٣٧ مسلم، الذكر، ٩٢.

٢٣٨ الأنبياء، ٨٩.

٢٣٩ انظر: مريم، ٧ـ٨، ابن علان، دليل الفالحين، ٤، ٣١١ـ٣١٢.

٢٤٠ الترمذي، الدعوات، ٦٤/ ٣٤٧٧.

٢٤١ الترمذي، الدعوات، ١٠٩/ ٣٥٦٢.



عن عمر رضي الله عنه قال:

«استأذنت النبي ﷺ في العمرة، فأذن لي، وقال: لا تنسنا يا أُخيَّ من دعائك، فقال كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا».[٢٤٢]

يقول رسول الله ﷺ:

«**دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل**».[٢٤٣]

ولذلك فعلينا الإكثار من الدعاء لإخواننا وطلب الدعاء منهم.



وبما أن التقوى أكثر خصلة نحتاجها في هذه الدار الفانية، فعلينا أن نطلبها في غالب أدعيتنا، جَاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أريد سفرا فزودني. قال: «**زودك الله التقوى**»، قال: زدني، قال: «**وغفر ذنبك**» قال: زدني بأبي أنت وأمي، قال: «**ويسر لك الخير حيثما كنت**».[٢٤٤]



عن عبد الله بن عمرو بن العاص:

«أن النبي ﷺ: تلا قول الله عز وجل في إبراهيم عليه السلام: ﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي**﴾[٢٤٥]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿**إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[٢٤٦]، فرفع يديه وقال: «**اللهم أمتي أمتي**»،

٢٤٢ الترمذي، الوتر، ٢٣/ ١٤٩٨.

٢٤٣ مسلم، الذكر، ٨٧، ٨٨؛ ابن ماجة، المناسك، ٥.

٢٤٤ الترمذي، الدعوات، ٤٤/ ٣٤٤٤.

٢٤٥ إبراهيم: ٣٦.

٢٤٦ المائدة: ١١٨.

وبكى، فقال الله ﷻ: «يا جبريل اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك؟» فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: «يا جبريل، اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوءك ».[247]

هكذا كان النبي عليه الصلاة والسلام غاية في الرحمة لأمته مُؤْثِرَاً إياهم، وعلينا بعد التفكر في هذا الحديث الشريف أن نحسب مقدار الحب الذي نكنه نحن له عليه الصلاة والسلام، يحملنا هذا الحب على تطبيق سنته الشريفة وتخلقنا بأخلاقه ﷺ برهانا منا على طاعته واتباعه.



وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت نبي الله ﷺ يقول ليلة حين فرغ من صلاته:

«اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلم بها شعثي، وتصلح بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وترد بها ألفتي، وتعصمني بها من كل سوء، اللهم أعطني إيمانا ويقينا ليس بعده كفر، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك الفوز في القضاء، ونزل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء، اللهم إني أنزل بك حاجتي، وإن قصر رأيي وضعف عملي، افتقرت إلى رحمتك، فأسألك يا قاضي الأمور، ويا شافي الصدور، كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، ومن فتنة القبور، اللهم ما قصر عنه رأيي، ولم تبلغه نيتي، ولم تبلغه مسألتي من خير وعدته أحدا من خلقك، أو خير أنت معطيه أحدا من عبادك، فإني أرغب إليك فيه، وأسألكه برحمتك رب العالمين،، اللهم ذا الحبل الشديد، والأمر الرشيد، أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع

247 مسلم، الإيمان، ٣٤٦.



المقربين الشهود الركع، السجود الموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، وإنك تفعل ما تريد، اللهم اجعلنا هادين مهتدين، غير ضالين ولا مضلين، سلما لأوليائك، وعدوا لأعدائك، نحب بحبك من أحبك، ونعادي بعداوتك من خالفك، اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان، اللهم اجعل لي نورا في قلبي، ونورا في قبري، ونورا من بين يدي، ونورا من خلفي، ونورا عن يميني، ونورا عن شمالي، ونورا من فوقي، ونورا من تحتي، ونورا في سمعي، ونورا في بصري، ونورا في شعري، ونورا في بشري، ونورا في لحمي، ونورا في دمي، ونورا في عظامي، اللهم أعظم لي نورا، وأعطني نورا، واجعل لي نورا، سبحان الذي تعطف العز وقال به، سبحان الذي لبس المجد وتكرم به، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان ذي الفضل والنعم، سبحان ذي المجد والكرم، سبحان ذي الجلال والإكرام».[٢٤٨]



شكا الناس إلى رسول الله ﷺ قحوط المطر، فأمر بمنبر فوضع له في المصلى، ووعد الناس يوما يخرجون فيه، قالت عائشة: فخرج رسول الله ﷺ حين بدا حاجب الشمس، فقعد على المنبر فكبر وحمد الله، ثم قال:

«إنكم شكوتم جدب دياركم، واستئخار المطر عن إبان زمانه عنكم، وقد أمركم الله عز وجل أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم»

ثم قال:

«الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين، لا إله إلا الله، يفعل ما يريد، اللهم أنت الله، لا إله إلا أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغا إلى حين»

٢٤٨ الترمذي، الدعوات، ٣٠/ ٣٤١٩.



ثم رفع يديه فلم يزل في الرفع حتى بدا بياض إبطيه، ثم حول إلى الناس ظهره، وقلب أو حول رداءه وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس، ونزل فصلى ركعتين، فأنشأ الله سحابا فرعدت وبرقت، ثم أمطرت بإذن الله، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكن ضحك حتى بدت نواجذه، فقال:

«**أشهد أن الله على كل شيء قدير، وأني عبد الله ورسوله**».[٢٤٩]

لقد صلى النبي عليه الصلاة والسلام صلاة الاستسقاء وتضرع لله تعالى طلبا للغيث ليعلمنا أن نسأل الله تعالى في كل حال.



عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه، وهو في المسجد، وهما منصوبتان، يقول: اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».[٢٥٠]



قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا[٢٥١]، فدخل العريش هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، واستقبل القبلة ومد يده، فجعل يهتف بربه عز وجل: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف

---

٢٤٩ أبو داوود، الاستسقاء، ٢/ ١١٧٣.

٢٥٠ مسلم، الصلاة، ٢٢٢؛ الترمذي، الدعوات، ٧٥/ ٣٤٩٣.

٢٥١ انظر: البخاري، المغازي، ٦؛ الترمذي، السير، ٣٨/ ١٥٩٨.



بربه ﷻ مادا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأخذ أبو بكر رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله ﷻ: ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم**﴾». [٢٥٢]



عن أنس رضي الله عنه قال:

«كان رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار يُكنى أبا معلق، وكان يتَّجر بمال له ولغيره، يضرب به في الآفاق، وكان ناسكا ورعا، فخرج مرة فلقيه لصٌّ مقنَّع بالسلاح، فقال له: ضع ما معك فإني قاتلك، قال: ما تريد إلا دمي؟ شأنك بالمال، قال: أما المال فلا فلست أريد إلا دمك، قال: أما إذ أبيت فذرني أصلِّ أربع ركعات، قال: صل ما بدا لك، فتوضأ ثم صلى أربع ركعات، وكان من دعائه في آخر سجدة أنه قال: يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعال لما تريد، أسألك بعزك الذي لا يرام، وملكك الذي لا يضام، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك أن تكفيني شر هذا اللص، يا مغيث أغثني، ثلاث مرات، قال: دعا بها ثلاث مرات، فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة واضعها بين أذني فرسه، فلما أبصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله، ثم أقبل إليه فقال: قم، قال: من أنت بأبي أنت وأمي؟! فقد أغاثني الله تعالى بك اليوم! قال: أنا ملك من أهل السماء الرابعة، دعوتَ اللهَ بدعائك الأول فسُمعت لأبواب السماء قعقعة، ثم دعوتَ بدعائك الثاني فسُمعت لأهل السماء ضجيجا، ثم دعوتَ بدعائك الثالث فقيل: دعاء مكروب، فسألتُ الله ﷻ أن يوليني قتله، قال أنس: فاعلم أنه من توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروبا كان أم غير مكروب». [٢٥٣]



---

٢٥٢ مسلم، الجهاد، ٥٨؛ البخاري، المغازي، ٤.

٢٥٣ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ٩ / ١٦٦، ١٦٧؛ ابن حجر، الإصابة، ٤، ١٨٢



وعن أحدهم قال قلت لأم سلمة رضي الله عنها:

«يا أم المؤمنين، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك، قالت: أكثر دعائه: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، ثم قال: يا أم سلمة، إنه ليس من آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، ما شاء أقام وما شاء أزاغ».[٢٥٤]



لقد كان يدعو النبي ﷺ كثيراً لهداية أمته، حيث دعا لأهل اليمن بقوله:

«**اللهم أقبل بقلوبهم**».[٢٥٥]

ودعا لأهل الطائف الذين رموه بالحجارة في بلدهم وحقروه بشتى أنواع الاستهزاء، وألحقوا بالمسلمين الكثير من الأضرار حتى السنة التاسعة من الهجرة، فدعا ربه ملتجئاً إليه:

«**اللهم اهد ثقيفاً وأقبل بقلوبهم**».[٢٥٦]



وعن علي رضي الله عنه قال: «بعثني رسول الله إلى اليمن قاضيا، فقلت: يا رسول الله ترسلني وأنا حديث السن، ولا علم لي بالقضاء؟ فقال:

«**إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنه حريٌّ أن يتبين لك القضاء**»

قال: فما زلت قاضيا أو ما شككت في قضاء بعد».[٢٥٧]



٢٥٤ الترمذي، الدعوات، ٨٩/ ٣٥٢٢؛ أحمد، ٤، ١٨٢، ٤، ٩١.

٢٥٥ الترمذي، المناقب، ٧١/ ٣٩٣٤.

٢٥٦ ابن هشام، ٤، ١٣٤؛ الترمذي، المناقب، ٧٣/ ٣٩٤٢.

٢٥٧ ابن ماجة، الأحكام، ١.



وهذه بعض من دعوات النبي ﷺ التي تنبض بعبوديته وتشف لنا عن حالته القلبية أثناء وقوفه في الحج، ماسكاً عنان دابته بيد ويرفع يده الأخرى:

«اللهم لك الحمد كالذي نقول وخيراً مما نقول، اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي وإليك مآبي، ولك ربى تُراثي، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ووسوسة الصدر، وشتات الأمر، اللهم إني أعوذ بك من شر ما تجيء به الريح.

اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمرى، وأنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المقرُّ المعترف بذنوبي، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، دعاء من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذلَّ لك جسده، ورَغِمَ لك أنفه، اللهم لا تجعلني بدعائك ربي شقيا وكن بي رؤوفا رحيماً يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي صدري نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، اللهم اشرح لي صدري، ويسر لي أمري.

اللهم أعوذ بك من وسواس الصدر، وشتات الأمر، وفتنة القبر، اللهم إني أعوذ بك من شر ما يلج في الليل، وشر ما يلج في النهار، وشر ما تهب به الرياح، وشر بوائق الدهر». [٢٥٨]

يا لها من دعوات حية تنبض بعبودية النبي ﷺ لربه وتظهر قوام فؤاد النبي عليه الصلاة والسلام المعصوم من الذنوب في حضرة الحق تعالى.



٢٥٨ انظر: ابن كثير، البداية، ٥، ١٦٦ ـ ١٦٨؛ الهيثمي، ٣، ٢٥٢؛ ابن القيم، زاد المعاد، بيروت ١٩٩٥، ٢، ٢٣٧.

وفيما يلي بعض من دعوات السلف الصالح في عرفة:

«إلهي، من مدح لك نفسه فإني لائم نفسي، إلهي، أخرست المعاصي لساني فما لي وسيلة من عمل ولا شفيع سوى الأمل، إلهي، إني أعلم أن ذنوبي لم تبق لي عندك جاها ولا للاعتذار وجها ولكنك أكرم الأكرمين، إلهي، إن لم أكن أهلا أن أبلغ رحمتك فإن رحمتك أهل أن تبلغني، ورحمتك وسعت كل شيء وأنا شيء، إلهي، إن ذنوبي وإن كانت عظاما ولكنها صغار في جنب عفوك، فاغفرها لي يا كريم، إلهي، أنت أنت وأنا أنا، أنا العوَّاد إلى الذنوب، وأنت العواد إلى المغفرة، إلهي، إن كنت لا ترحم إلا أهل طاعتك، فإلى من يفزع المذنبون، إلهي، تجنبت عن طاعتك عمدا وتوجهت إلى معصيتك قصدا، فسبحانك ما أعظم حجتك علي وأكرم عفوك عني، فبوجوب حجتك عليَّ، وانقطاع حجتي عنك، وفقري إليك، وغناك عني إلا غفرت لي، يا خير من دعاه داع، وأفضل من رجاه راج، بحرمة الإسلام وبذمة محمد ﷺ أتوسل إليك، فاغفر لي جميع ذنوبي، واصرفني من موقفي هذا مقضي الحوائج، وهب لي ما سألت، وحقِّق رجائي فيما تمنيت، إلهي، دعوتك بالدعاء الذي علمتنيه، فلا تحرمني الرجاء الذي عرفتنيه، إلهي، ما أنت صانع العشيةَ بعبدٍ مقرٍ لك بذنبه، خاشعٍ لك بذِلَّتِه، مستكينٍ بجُرمه، متضرعٍ إليك من عمله، تائبٍ إليك من اقترافه، مستغفرٍ لك من ظلمه، مبتهلٍ إليك في العفو عنه، طالبٍ إليك نجاح حوائجه، راجٍ إليك في موقفه مع كثرة ذنوبه، فيا ملجأ كل حي وولي كل مؤمن، من أحسن فبرحمتك يفوز، ومن أخطأ فبخطيئته يهلك، اللهم إليك خرجنا وبفنائك أنخنا، وإياك أملنا، وما عندك طلبنا، ولإحسانك تعرضنا، ورحمتك رجونا، ومن عذابك أشفقنا، وإليك بأثقال الذنوب هربنا، ولبيتك الحرام حججنا، يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمائر الصامتين، يا من ليس معه رب يُدعى، ويا من ليس فوقه خالق يُخشى، ويا من ليس له وزير يُؤتى، ولا حاجب يُرشى، يا من لا يزداد على كثرة السؤال إلا جودا وكرما، وعلى كثرة الحوائج إلا تفضُّلا وإحسانا، اللهم إنك جعلت لكل



ضيفٍ قرى، ونحن أضيافك فاجعل قرانا منك الجنة، اللهم إنَّ لكل وفد جائزةً، ولكل زائر كرامة، ولكل سائل عطية، ولكل راج ثوابا، ولكل ملتمس لما عندك جزاء، ولكل مسترحم عندك رحمة، ولكل راغب إليك زلفى، ولكل متوسل إليك عفوا، وقد وفدنا إلى بيتك الحرام، ووقفنا بهذه المشاعر العظام، وشهدنا هذه المشاهد الكرام رجاء لما عندك فلا تخيب رجاءنا». [٢٥٩]



عن أبي أمامة رضي الله عنه قال:

«دعا رسول الله ﷺ بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئا، فقلنا:يا رسول الله، دعوت بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئا، فقال: ألا أدلكم على ما يجمع ذلك كله؟ فقال:

«اللهم إنا نسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد ﷺ، ونعوذ بك من شرِّ ما استعاذ منه نبيك محمد ﷺ، وأنت المستعان، وعليك البلاغ، ولا حول ولا قوة إلا بالله». [٢٦٠]



عن أنس رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ عاد رجلا من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ:

«هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟»

قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنتَ معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ:

---

٢٥٩ انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، بيروت ١٩٩٠، ١، ٣٣٧ ـ ٣٣٨، البيهقي، شعب الإيمان، ٢، ٢٥، ٣٦.

٢٦٠ الترمذي، الدعوات، ٨٨/ ٣٥٢١.



«سبحان الله لا تطيقه -أو لا تستطيعه-، أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، قال: فدعا الله له فشفاه».[٢٦١]

لذلك علينا التنبه بعناية لما نطلبه من الله تعالى أثناء الدعاء وأن نراعي الأدب مع جنابه العظيم، إذ علينا أن نطلب من الحق سبحانه ما فيه خير وعافية على الدوام.



وعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه:

«أن مكاتبا جاءه فقال: إني قد عجزت عن مكاتبتي فأعني، قال: ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله عليه الصلاة والسلام لو كان عليك مثل جبل صير دينا أداه الله عنك، قال:

«قل: اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك».[٢٦٢]



صادف السلطان محمد هوداويندیغار عاصفة هوجاء لفت منطقة ساحة كوسوفا لما دخلها في الثامن من آب عام ١٣٨٩، ولم تكن الأعين ترى بعضها إذ ذاك، ووافق ذلك اليوم ليلة البراءة، فدعا مراد خان بعد أن صلى ركعتين نافلة، ودموعه تنهمر من عينيه، قائلاً:

يا ربي، إن كانت هذه العاصفة قد هبت من ذنوب عبدك العاجز مراد هذا، فلا تعاقب جنودي المساكين بسببي، يا ربي، هم لم يصلوا إلى هنا إلا لإعلاء كلمتك وتبليغ دينك.

٢٦١ مسلم، الذكر، ٢٣؛ الترمذي، الدعوات، ٧١/ ٣٤٨٧.

٢٦٢ الترمذي، الدعوات، ١١٠/ ٣٥٦٣.



إلهي! لم تحرمني من الغزو مرات عديدة، واستجبت دعائي على الدوام، فإني ألتجئ الآن إليك أيضاً، فاستجب دعائي! أغثنا، وأزل عنا سحابة الغبار هذه، نرَ الأعداء ونقاتلهم وجهاً لوجهٍ.

إلهي! لك الملك وهذا العبد، لستُ إلا عبداً عاجزاً، وما من أحد بأعلم منك لنيتي وسري، فلست بطالب مالاً ولا ملكاً، إنما رضاك ما أطلب.

يا ربي! لا تهلك هؤلاء الجند المؤمنين على يد الكفرة، واكتب لهم نصراً يكون عيداً لجميع المسلمين، وإن شئت فليكن عبدك مراد هذا أضحية ذلك العيد.

إلهي! لا تجعلني سبباً في هلاك هذا الجمع من جند المسلمين، وأعن هؤلاء وانصرهم، اجْعِلُ نفسي فداهم، يكفيني أن تتقبلني في زمرة الشهداء! ... فأنا مستعد للتضحية بروحي من أجل جند الله ... جعلتني غازياً، فأكرمني وتلطف علي بالشهادة في الختام، آمين.

وبعد هذه المناجاة الصادقة، بدأ بتلاوة القرآن الكريم في جو من الطمأنينة غير المعتادة.

ولم يكد يمضي قليل من الوقت حتى بدت سحب الرحمة وأمطرت فوق سماء كوسوفا مطراً غزيراً، وتوقفت الريح، وزال الغبار.

وبعد هذه التجليات شن مراد خان هجمة على العدو وختمت المعركة التي دامت ثمان ساعات بنصره، وأثناء تجول مراد خان في ساحة المعركة متفقداً الجرحى والشهداء، إذ بجريح صربي ينهض من بين الموتى قائلاً: دعوني، سأقبل يدي السلطان وأدخل الإسلام، فمشى نحوه مقلداً مشية جريح، لكنه وقد انحنى ليقبل يد السلطان سرعان ما أخرج من تحت إبطه خنجراً كان قد خبأه، وطعن صدر السلطان، وعندها كان دعاء مراد خان الذي شرب من نبع الشهادة، قد تحقق كما أراد...

وختاما، فإن الدعاء جوهر العبودية والعبادة، إضافة أن أكثر الأمور التي ترضي الله تعالى هي إدراك العبد عجزَه وفقره بين يدي ربه تعالى عارضا عليه ضعفه متذللا على أعتابه، ولذا فإنه تعالى يعذب من لا تفيض نفسه بالدعاء ولا يطلب أي شيء منه تعالى.

قال تعالى:

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ ٢٦٣

إن الدعاء مفتاح أبواب الرحمة، وسلاح المؤمن وعمود الدين ونور السموات والأرض، فمن فتحت أبواب الدعاء له فُتحت له أبواب الخير والحكمة والرحمة، ومن أراد أن يستجيب الله له في الضراء فعليه الإكثار من الدعاء في السراء أيضاً، فذوو الأرواح العظيمة تحيا حياتها بحالة من الدعاء المتواصل.

هـ . الخشوع

هو امتلاء القلب بحب الله تعالى وخوفه، واطمئنان الأعضاء والجوارح بهذه المشاعر.

فالخشوع له تجليان، أصله في القلب ومظاهره في الأعضاء، فأما الناحية القلبية فبجعل النفس تذعن لأمر الحق تعالى، وبالتخلق بآداب التعظيم والاحترام إلى أقصى الحدود من خلال إدراك الإنسان لعبوديته بين يدي عظمة الرب وجلاله، وأما ناحيته المتعلقة بالمظهر الخارجي فتسربل أعضاء الجسم -بتأثير هذه المشاعر- بالسكينة والوقار، فعلى سبيل المثال، إذا خشع قلب المؤمن في الصلاة اطمأنت أعضاؤه وثبَّت نظرَه على موضع سجوده ولم يلتفت يمنة أو يسرة.

---

٢٦٣ الفرقان: ٧٧.



ثم إننا نلقى أروع الأمثلة على الحياة وأداء العبادات بخشوع وإخبات في حياة النبي ﷺ وصحبه الكرام والتي تعد قدوة لنا، حيث إنه عليه الصلاة والسلام –إذ لم تغيب الآخرة عن أي لحظة من لحظات حياته– شد انتباهنا إلى لزوم تذكر الموت والدخول في عوالمه الروحية.

ثم إنه ذات صباح جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال:

يارسول الله، عِظْني وأوجز، فقال:

«**إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودِّع، ولاتَكَلم بكلام تعتذر منه غداً، واجمع اليأس مما في أيدي الناس**».[٢٦٤]

إن العبادات إنما تكتسب قيمتها إلا عندما تؤدى بيقظة القلب وخشوعه، وأهم خصلة للصحب الكرام وتابعيهم بإحسان إنما كانت الحصول على هذا الرقي المعنوي، وقد كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول لأصحابه:

«أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهادا من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم كانوا أفضل منكم، قيل له: بأي شيء؟

قال: إنهم كانوا أزهد في الدنيا، وأرغب في الآخرة منكم».[٢٦٥]

إن الخشوع في الصلاة من الأهمية بحيث يكون بمثابة قنطرة خلاص العبد ونجاته، يقول اللّه عز وجل في سورة المؤمنون:

﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِم خَاشِعُونَ**﴾[٢٦٦]

وقد أخبر النبي ﷺ بأن العبد سيلقى معاملة على حسب اهتمامه بالصلاة بقوله:

---

٢٦٤ ابن ماجة، الزهد، ١٥؛ أحمد، ٥، ٤١٢.

٢٦٥ ابن الجوزي، صفة الصفوة، بيروت ١٩٧٩، ١، ٤٢٠.

٢٦٦ المؤمنون: ١–٢.

«إن الرجل لينصرفُ، وما كُتب له إلا عُشرُ صلاتِه، تُسعُها ثُمُنُها، سُبْعُها سُدُسُها، خُمُسُها، رُبُعُها، ثُلُثها، نصفُها».[٢٦٧]

أي إن الصلاة الخاشعة هي التي يؤجر العبد عليها وينال ثوابها. ويوضح ربنا ﷻ كيفية تأدية الصلاة بخشوع على النحو التالي:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ. الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[٢٦٨]

أي إن الصلاة الخاشعة هي تلك التي يستشعر فيها العبد كأنه يقف بين يدي ربه ﷻ يوم القيامة للعرض والحساب

ثم إن حالة الخشوع هذه حين تستمر خارج الصلاة تصير سلوكا يؤطر حياة المؤمن كلها، ولذا يقول مولانا رحمه الله:

«ينبغي أن تكون حالتك بعد الصلاة كما كانت في الصلاة»، في تفسير له لآية:

﴿الّذِين هُمْ على صلاتِهِمْ دائِمُون﴾[٢٦٩]

ولبلوغ هذه الحالة لابد لنا من التشبه بالنبي والتخلق بأخلاقه السنية، من خلال رابطة الفؤاد الصادقة والعميقة، وقد قال ﷺ:

«...ويحب كل قلب خاشع حزين يعلم الناس الخير، ويدعو إلى طاعة الله، ويبغض كلَّ قلبٍ قاسٍ لاهٍ ينام الليل كله، ولا يذكر الله، فلا يدري يرد الله روحه أم لا؟».[٢٧٠]

---

٢٦٧ أبو داوود، الصلاة، ١٢٣ ـ ١٢٤/ ٧٩٦.

٢٦٨ البقرة، ٤٥ ـ ٤٦.

٢٦٩ المعارج، ٢٣.

٢٧٠ الديلمي، ١، ١٥٨.

صور الفضائل

عن عبد الله بن الشخير قال:

«رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء».[٢٧١]

ومع أهمية إقامة الصلاة فقهيا وفق أركانها الصحيحة، إلا أنه يلزمنا أيضا الاعتناء بروح الصلاة وإقامتها وفق مراد الله منها كما أوضح النبي ﷺ في أحاديثه الشريفة، فحين يهيء الفقه المؤمن للصلاة بالطهارة والوضوء يهيئه الخشوع إلى نيل الطمأنينة والسكينة للوقوف بين يدي الله تعالى ولقائه سبحانه.



يفيد النبي ﷺ وجوب أداء الصلاة ضمن حالة روحية من الخشوع والتضرع إلى الله تعالى بهذه الرواية: فعن الفضل بن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ:

«الصلاة مثنى مثنى، تشهد في ركعتين، وتخشع وتضرع وتمسكن، ثم تقنع يديك -يقول: ترفعهما- إلى ربك مستقبلا ببطونهما وجهك، وتقول يا رب! يا رب! ومن لم يفعل ذلك فهو كذا وكذا»، وفي رواية: «فهو خداج».[٢٧٢]



عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ صلى في خميصة لها أعلام فنظر إلى أعلامها نظرة، فلما انصرف قال:

«اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم، وأتوني بأنبجانية أبي جهم، فإنها ألهتني آنفا عن صلاتي».[٢٧٣]



---

٢٧١ أبو داوود، الصلاة، ١٥٦ ـ ١٥٧/ ٩٠٤؛ أحمد، ٤، ٢٥، ٢٦.

٢٧٢ الترمذي، الصلاة، ١٦٦/ ٣٨٥.

٢٧٣ الموطأ، الصلاة، ٦٧؛ البخاري، الصلاة، ١٤.

ولما قام النبي عليه الصلاة والسلام بتعليم أمته أركان الحج عمليا في حجة الوداع بين لهم في الوقت نفسه لزوم الخشوع فيه كما هو الحال في باقي العبادات:

عن ابن عباس ﵄: أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة، فسمع النبي ﷺ وراءه زجرا شديدا، وضربا وصوتا للإبل، فأشار بسوطه إليهم، وقال:

«أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالإيضاعِ».[٢٧٤]



ولما رأى النبي عليه الصلاة والسلام رجلاً يعبث في الصلاة بلحيته قال:

«لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه».[٢٧٥]



كان سيدنا سليمان ﵇ على ما أكرمه الله من غنى كبير وملك عظيم يعيش حياة عبودية يملؤها الخشوع والتواضع، وبقلب مستغن عن الدنيا، وفي هذا الصدد: روي أن سليمان ﵇ لم يرفع بصره قط إلى السماء حتى مات خشوعاً منه لربه تعالى على ما آتاه الله تعالى من ملك عظيم.[٢٧٦]



وروي أن أبا طلحة الأنصاري ﵁ كان يصلي في حائط له، فطار دبسي، فطفق يتردد يلتمس مخرجا، فأعجبه ذلك، فجعل يُتْبِعُه بصرَه ساعة، ثم رجع إلى صلاته، فإذا هو لا يدري كم صلى، فقال: لقد أصابني في مالي هذا فتنة،

٢٧٤ البخاري، الحج، ٩٤/ ١٦٧١؛ مسلم، الحج، ٢٦٨.

٢٧٥ علي المتقي، ٧، ١٩٧/ ٢٢٥٣٠.

٢٧٦ ابن أبي شيبة، المصنف، بيروت، دار الفكر ١٩٨٩، ٧، ١١٨.



فجاء إلى رسول الله ﷺ، فذكر له الذي أصابه في حائطه من الفتنة، وقال: يا رسول الله هو صدقة لله، فضعه حيث شئت.[٢٧٧]



وثمة حادثة رائعة في خشوع الصحابة الكرام في الصلاة، فعن جابر قال:

«خرجنا مع رسول الله ﷺ -يعني في غزوة ذات الرقاع- فأصاب رجلٌ امرأةَ رجلٍ من المشركين، فحلف أن لا أنتهي حتى أهريق دما في أصحاب محمد، فخرج يتبع أثر النبي ﷺ، فنزل النبي ﷺ منزلا، فقال: **من رجلٌ يكلؤنا؟** فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فقال: كونا بفم الشعب، قال: فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب اضطجع المهاجري، وقام الأنصاري يصلي، وأتى الرجل، فلما رأى شخصه عرف أنه ربيئة للقوم، فرماه بسهم فوضعه فيه، فنزعه، حتى رماه بثلاثة أسهم، ثم ركع وسجد، ثم انتبه صاحبه، فلما عرف أنهم قد نذروا به هرب، ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدم قال: سبحان الله: ألا أنبهتني أول ما رمى، قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها».[٢٧٨]



قال عبدالله بن عروة بن الزبير:

«قلت لجدتي أسماء: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا القرآن؟ قالت: تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم كما نعتهم الله. قال: قلت: فإن ناسا هاهنا إذا سمع أحدهم القرآن خر مغشيا عليه، قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».[٢٧٩]

---

٢٧٧ الموطأ، الصلاة، ٦٩.

٢٧٨ أبو داوود، الطهارة، ٧٨/ ١٩٨؛ أحمد، ٣، ٣٤٤؛ ابن هشام، ٣، ٢١٩؛ الواقدي، ١، ٣٩٧.

٢٧٩ البيهقي، شعب الإيمان، ٢، ٣٦٥.

يصف الله تعالى عباده الخاشعين أثناء تلاوة القرآن الكريم فيقول:

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [280]

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [281]



أصابت سهم قدم سيدنا علي رضي الله عنه في إحدى الغزوات، ولم يتمكنوا من إخراجها بسبب ألمه الشديد، فقال رضي الله عنه: أخرجوه بعد أن أقوم بالصلاة وفعلوا مثل ما قال، فنزع السهم من دون أية صعوبة، وبعد أن سلم سيدنا علي –وقد غاب في صلاة فلم يشعر بأي ألم– قال: ماذا فعلتم؟، فأجابوم بأنهم نزعوا السهم.



قالت أم أويس القرني له:

«يا بني، كيف تقوى على التعبد طوال الليل؟، فأجابها التابعي الجليل قائلا: يا أماه، أقيم صلاتي على أتم حال، وأغيب بخشوع جوارحي عن كل ما حولي، ولعظيم سروري ما أشعر بالصباح إلا قد طلع، فسألته: وما الخشوع يا أويس؟ فأجابها: الخشوع أن يغيب المرء بروحه عن كل ما حوله حتى لو انغرز في جسده رمح لم يشعر به».



وقد روي عن سيدنا زين العابدين أنه كان يذهبُ لونه عند قيامه للوضوء، وترتعش قدماه عند الصلاة، ولما سئل عن السبب قال:

---

٢٨٠ الإسراء: ١٠٩.

٢٨١ الزمر: ٢٣.



«أولستم تعلمون بين يدي مَنْ سأقف؟». [٢٨٢]

وذات مرة نشب حريق في بيته وهو يصلي، لكنه لم يعلم بذلك، فأخبروه بما حصل بعد فراغه من صلاته، وسألوه: كيف لم تلحظ احتراق بيتك، فقال سيدنا زين العابدين: إن نار الآخرة التي تنتظر الناس أنستني نار الدنيا الصغيرة.

وقد كانت صلاة مسلم بن يسار على هذا النحو أيضاً، فكان يصلي ذات مرة في مسجد بالبصرة، فانهار المسجد محدثا ضجة كبيرة، إلا أن مسلم بن يسار كان يواصل صلاته غير مدرك ما حدث، فسألوه بعد فراغه من الصلاة: لقد انهار المسجد ولم تحرك ساكناً، ما هذه الحال التي أنت عليها؟ فأجابهم –والحيرة تلفه–: وهل انهار المسجد!، مبيناً بذلك أنه لم يدرك شيئاً ما حدث.



ويقول ولي من أولياء الحق:

«صليت خلف ذي النون المصري العصر،فلما أراد أن يكبر رفع يديه وقال: الله، ثم بهت، وبقي كأنه جسد لا روح فيه إعظاماً لربه جل وعلا، ثم قال: الله أكبر، فظننت أن قلبي انخلع من هيبة تكبيره».



كان عامر بن عبد الله إذا صلى انقطع عن العالم من حوله، ولم يكن أي شيء مما سوى الله تعالى يفسد خشوعه في صلاته، وقد قال:

«أرجح أن يصيب رمحٌ جسدي على أن ألاحظ كلام وحركات من حولي في الصلاة».



٢٨٢ أبو نعيم، الحلية، ٣، ١٣٣.



سئل بهاء الدين النقشبندي، كيف يصل العبد إلى الخشوع في الصلاة؟ فأجاب: بأربع:

- اللقمة الحلال،
- واستحضار عظمة الوقوف بين يدي الله وهو يتوضأ،
- وأن يستشعر الطمأنينة عند التكبيرة الأولى،
- وألا يغيب عن الحق تعالى خارج الصلاة مطلقاً،

فالخشوع هو القدرة على الاستمرار في حالة الطمأنينة والسكينة والبعد عن المعصية بعد الصلاة أيضاً.



وأخيراً فإن الخشوع هو تلبية أوامر الله تعالى عن طوعية ورضا، والحرص على اجتناب ما نهى عنه مهما صغر، إن كلاً من الخشوع والتقوى والإخلاص أحوال متقاربة في معانيها، ومصدر هذه الأحوال حبُّ الله تعالى، وحبُّ الله مؤشر على مستوى المؤمن القلبي، وأما هذه السوية المعنوية فتظهر في العبادات حين تؤدى بخشوع وسكينة.

فينبغي أن يملأ الخشوع قلوبنا في العبادات جميعها -وعلى رأسها الصلاة- بل في كل لحظة من لحظات حياتنا، وأن ينعكس من أعضائنا على ما حولنا بحال من الطمأنينة والسكون.

٧ . الاشتغال بالقرآن الكريم

إن القرآن الكريم هادٍ يرشد الخلق إلى طريق الحق، ورحمة للمؤمنين، وشفاء للصدور من أدوائها، وهو في الوقت نفسه مرشد إلهي يخرج الناس من الظلمات إلى النور ويأخذ بأيديهم إلى الله تعالى.



والقرآن الكريم مرسوم إلهي يأمرنا بحياة تتسق مع النظام الإلهي في الكون من خلال بيان الغاية من خلق الكائنات والحكمة من وجود الإنسان، يقول الحق تعالى:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [٢٨٣]

فتوضح هذه الآية الكريمة العلاقة القلبية التي ينبغي علينا أن نكون عليها مع القرآن الكريم.

وعبارة مستوى التقوى تعني ثقافتنا القرآنية، والتي تظهر من خلال أخلاق القرآن كالإخلاص في العبادات وحسن الخلق والتعمق الروحي.

ثم إن القرآن الكريم هو الحبل المتين الذي مده الله تعالى إلى عباده الراغبين في النجاة من العذاب الأبدي، والحصول على رضا الله، فمن تمسك به ينجو ويسمو ويحصل على العز، ومن تخلى عنه يذل ويخزى وينأى عن الطريق السوي.

والقرآن الكريم مائدة ضيافة أعدها الله تعالى لإكرام عباده بها، فالمنضمين إلى هذه الضيافة بإجابة دعوة ربنا يتمتعون بنعم من الطمأنينة والسرور لا نهاية لها.

إن كلاً من كرامة الإنسان وشرفه الحقيقي يتناسب مع كونه عاملاً بأحكام القرآن وكاملاً في أخلاقه، أي إن الإنسان إنما يصل إلى العز والكرامة بحسب طاعته لأوامر الله تعالى والتفافه بفيض وروحانية القرآن، ثم إن الحق تعالى يأمرنا بأن نعي القرآن الكريم ونتفكر فيه، وأن ننظر إلى الحياة من حولنا وفق منطق القرآن الكريم، إذ علينا توجيه عقلنا الذي يعد وسيلة للسعادة والتعاسة بتوجيهات الوحي.

---

٢٨٣ الزمر: ٢٣.



ولولا باب التفكر الذي فتحه القرآن الكريم لنا لحُرِمنا من الإدراك والتعبير عن الكثير من الحقائق، وفي هذا الصدد فإن تفعيل العقل في مضمون القرآن -الذي لا ينضب- يساهم في اغتنام كثير من أبواب الخير، فالاشتغال بالقرآن الكريم يحمل النفس على التخلق بمحاسن الأخلاق الإسلامية.

وقد ورد في الأحاديث التالية:

«إذا أحب أحدُكُمْ أنْ يُحدث ربهُ فلْيقْرأ الْقُرْآن».[٢٨٤]

«اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه».[٢٨٥]

«من قرأ القرآن وعمل بما فيه، ألبس والداه تاجا يوم القيامة، ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا لو كانت فيكم، فما ظنكم بالذي عمل بهذا؟».[٢٨٦]

«ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن، يجهر به».[٢٨٧]

«ما أذن الله لعبد في شيء أفضل من ركعتين يصليهما، وإن البر ليذر على رأس العبد مادام في صلاته، وماتقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه».[٢٨٨]

وقد بين أن من نسي السور التي يحفظها من القرآن الكريم لعدم اشتغاله بالقرآن يرتكب إثماً كبيراً.[٢٨٩] وأما من كان قلبه خاوياً من القرآن فكالبيت الخرب.[٢٩٠]

---

٢٨٤ الألباني، ضعيف الجامع، ٢٩٣.

٢٨٥ مسلم، المسافرين، ٢٥٢، ٢٥٣؛ أحمد، ٥، ٢٤٩، ٢٥١.

٢٨٦ أبو داوود، الوتر، ١٤/ ١٤٥٣.

٢٨٧ البخاري، فضائل القرآن، ١٩، التوحيد، ٣٢؛ مسلم، المسافرين، ٢٣٢ ـ ٢٣٤.

٢٨٨ الترمذي، فضائل القرآن، ١٧/ ٢٩١١.

٢٨٩ أبو داوود، الصلاة، ١٦/ ٤٦١.

٢٩٠ الترمذي، فضائل القرآن، ١٨/ ٢٩١٣؛ الدارمي، فضائل القرآن، ١.



«**إنّ هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد**» قيل يا رسول الله فما جلاؤها؟ قال: «**تلاوة القرآن**».[٢٩١]

وفي حديث آخر يقول النبي ﷺ لأصحابه:

«**أعطوا أعينكم حظها من العبادة النظر في المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه**».[٢٩٢]

يقول عليه الصلاة والسلام أيضاً:

«**إن لله أهلين من الناس**»

قالوا: يا رسول الله، من هم؟ قال:

«**هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته**».[٢٩٣]

كان فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام يفرح باجتماع الناس لقراءة القرآن الكريم وتدارسه والاجتهاد في فهمه، ولذا قال في مثل هؤلاء:

«**... وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه**».[٢٩٤]

إذن ينبغي علينا أن نزيد من علاقتنا القلبية مع القرآن الكريم لنيل السعادة في الدارين، كما أن علينا أن نكثر من تلاوته وفهمه وإدراكه بقلوبنا وأن نبذل الجهد في تطبيق أحكامه بإخلاص.

---

٢٩١ علي المتقي، كنز العمال، ٢، ٢٤١/ ٢٤٤١.

٢٩٢ علي المتقي، كنز العمال، ١، ٥١٠/ ٢٢٦٢، السيوطي، ١، ٣٩.

٢٩٣ ابن ماجة، المقدمة، ١٦/ ٢١٥.

٢٩٤ مسلم، الذكر، ٣٨؛ ابن ماجة، المقدمة، ١٧.

صور الفضائل

كان عليه الصلاة والسلام يتلو القرآن بكل جوارحه، ويتفكر ملياً في معانيه، ويحرص على تطبيق أوامره، فكأنه يقرأه بقلبه من خلال إحساسه به وإحيائه له، فإذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر تعوذ.[٢٩٥]

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقرأ القرآن كلَّ يوم دون انقطاع، فعن أوس بن حذيفة قال:

«كنت في الوفد الذين أتوا رسول الله ﷺ -أسلموا من ثقيف من بني مالك- فأنزلنا في قبة له، فكان يختلف إلينا بين بيوته وبين المسجد، فإذا صلى العشاء الآخرة انصرف إلينا، فلا يبرح يحدثنا ويشتكي قريشا ويشتكي أهل مكة، ثم يقول لا سواء كنا بمكة مستذلين أو مستضعفين فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب علينا ولنا، فمكث عنا ليلة لم يأتنا حتى طال ذلك علينا بعد العشاء، قال: قلنا: ما أمكثك عنا يا رسول الله! قال: طرأ عني حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه، فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا، قال: قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ست سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشرة سورة وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من ق حتى تختم».[٢٩٦]



عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

قال لي رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**اقرأ علي القرآن**» قال: فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك؟ وعليك أنزل؟ قال: «**إني أشتهي أن أسمعه من غيري**»،

٢٩٥ ـ مسلم، المسافرين، ٢٠٣؛ النسائي، قيام الليل، ٢٥.

٢٩٦ أحمد، ٤، ٩؛ ابن ماجة، الصلاة، ١٧٨.

فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ [النساء: ٤١] رفعت رأسي، أو غمزني رجل إلى جنبي، فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل.[٢٩٧]

يا لها من صورة رائعة تعرض لنا رحمة النبي ﷺ بنا نحن أمته.



أبطأت السيدة عائشة رضي الله عنها على رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء، ثم جاءت فقال: «**أين كنت؟**»، قلت: كنت أسمع قراءة رجل من أصحابك، لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد، قالت: فقام فقمت معه حتى استمع له ثم التفت إلي، فقال:

«**هذا سالم مولى أبي حذيفة، الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا**».[٢٩٨]



عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

قال رجل: يارسول الله، أي العمل أحب إلى الله قال: «**الحال المرتحل**»

قال: ما الحال المرتحل؟ قال:

«**الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حلا ارتحل**».[٢٩٩]

وبناء على حكمة الوصول إلى الفضائل التي بينها هذا الحديث الشريف، فإن سورة الفاتحة والآيات الخمس الأولى من سورة البقرة تتلى في دعاء ختم القرآن بعد قراءة الإخلاص والمعوذتين السور الأخيرة في القرآن الكريم، وبهذا يكون قد تم تطبيق عمل صالح مقبول من قبل الله تعالى بافتتاح ختمة جديدة للقرآن الكريم.



---

٢٩٧ البخاري، التفسير، ٤، ٩؛ مسلم، المسافرين، ٢٤٧.

٢٩٨ ابن ماجة، الإقامة، ١٧٦؛ أحمد، ٦، ١٦٥؛ الحاكم، ٣، ٢٥٠/ ٥٠٠١.

٢٩٩ الترمذي، القراءات، ١١/ ٢٩٤٨.



عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذو عدد، فاستقرأهم، فاستقرأ كلَّ رجلٍ منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سنا، فقال: «**ما معك يا فلان؟**» قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: «**أمعك سورة البقرة!**» فقال: نعم، قال: «**فاذهب فأنت أميرهم**»، فقال رجل من أشرافهم: والله يا رسول الله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها، فقال رسول الله ﷺ:

«**تعلموا القرآن واقرءوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جرابٍ محشوٍ مسكا يفوح ريحه في كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جِرابٍ وكئ على مسك**».[300]

يعرض لنا هذا الحديث الشريف في هذه الحادثة المكانة التي يبلغها المرء الذي يقرأ القرآن ويعمل بما فيه، وقد بين عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث ضرورة الاشتغال بالقرآن الكريم، ومسؤولية المؤمنين فيما يتعلق بتعلمه وتعليمه.



كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم إذا تعلموا من النبي عليه الصلاة والسلام عشر آيات لم ينتقلوا إلى غيرها حتى يحكموا ما فيها من الأوامر والنواهي والأحكام فهما وعملا، وبهذا أضحوا عالمين بالقرآن عاملين به.[301]

يروي ابن عمر رضي الله عنهما أن أباه:

«تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزورا». [302]

---

٣٠٠ الترمذي، فضائل القرآن، ٢/ ٢٨٧٦.

٣٠١ أحمد، ٥، ٤١٠.

٣٠٢ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، بيروت ١٩٨٥، ١، ٤٠.



وفي رواية:

«أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها».[٣٠٣]



ثم إن وفد ثقيف كانوا إذا أتوا رسول الله عليه الصلاة والسلام خلفوا عثمان بن أبي العاص في رحالهم فإذا رجعوا وسط النهار جاء هو إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فسأله عن العلم فاستقرأه القرآن فإن وجده نائما ذهب إلى أبي بكر الصديق، فلم يزل دأبه حتى فقه في الإسلام وأحبه رسول الله عليه الصلاة والسلام حبا شديدا، ولما أراد وفد ثقيف العودة إلى ديارهم بعد إسلامهم، سألوا رسول الله أن يختار لهم إماماً من بينهم، فأمر عثمان بن أبي العاص أن يؤمهم، على الرغم من كونه أصغرهم سناً.[٣٠٤]



لقد كانت آيات القرآن الكريم التي تنزل تباعا حسب أسباب الحوادث والمناسبات تغمر النبي عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام بسرور لا يوصف، وتزيد من عزمهم، وتجدد الرابطة القلبية بينهم وبين ربهم تعالى، وقد كانوا منشغلون بالوحي إلى درجة أن انقطاعه بوفاة النبي عليه الصلاة والسلام ضاعف حزنهم وأساهم، وفيما يلي حادثة نرى فيها المثال الأكثر لفتاً للانتباه في المحبة:

قال أبو بكر رضي الله عنه، بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر رضي الله عنه:

«انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ؟ فقالت: ما أبكي أن

٣٠٣ الموطأ، القرآن، ١١.

٣٠٤ ابن سعد، ٥، ٥٠٨؛ ابن هشام، ٤، ١٨٥؛ أحمد، ٤، ٢١٨.

لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء. فجعلا يبكيان معها».[٣٠٥]



كان صحابة النبي عليه الصلاة والسلام يقرؤون القرآن الكريم بكثرة، فلا يمر يوم عليهم من دون أن يقرؤوه وكانوا يبدؤون نهارهم به، ويكثرون من النظر فيه، ويوصون من يعاني من علة في بصره بالنظر إلى المصحف الشريف.[٣٠٦]

وقد كان عثمان رضي الله عنه الذي أثني عليه بلقب جامع القرآن لخدمته العظيمة للقرآن من شدة اشتغاله بالقرآن الكريم قد أبلى مصحفين.[٣٠٧]



وروي:

أن أسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ في مربده، إذ جالت فرسه، فقرأ، ثم جالت أخرى، فقرأ، ثم جالت أيضا، قال أسيد: فخشيت أن تطأ يحيى، فقمت إليها، فإذا مثل الظلة فوق رأسي فيها أمثال السرج، عرجت في الجو حتى ما أراها، قال: فغدوت على رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقلت: يا رسول الله بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدي، إذ جالت فرسي، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**اقرأ ابن حضير**» قال: فقرأت، ثم جالت أيضا، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**اقرأ ابن حضير**» قال: فقرأت، ثم جالت أيضا، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**اقرأ ابن حضير**» قال: فانصرفت، وكان يحيى

٣٠٥ مسلم، فضائل الصحابة، ١٠٣.

٣٠٦ الهيثمي، ٧، ١٦٥.

٣٠٧ القطاني، نظام الحكومة النبوية (التراتيب الإدارية)، بيروت ١٩٩٦، ٢، ١٩٧.



قريبا منها، خشيت أن تطأه، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج، عرجت في الجو حتى ما أراها، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«**تلك الملائكة كانت تستمع لك، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم**».[٣٠٨]



قال النبي ﷺ لأبي بن كعب الذي كان شغوفا بالقران:

«**إن الله أمرني أن أقرأ عليك: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب، قال: وسماني؟! قال: نعم، فبكى**».[٣٠٩]

كان أبي بن كعب رضي الله عنه على رأس من حفظ القرآن الكريم كاملا من الصحابة، فهو من الأربعة الذين نالوا حظاً وافراً إذ أُثْنِيَ عليهم بقول النبي ﷺ: «**تعلموا القرآن من أربع**»، وهو أحسن الصحابة قراءة للقرآن الكريم وأكثرهم تلاوة له،[٣١٠] ولذلك نال أُبَيٌّ رضي الله عنه -باشتغاله بالقرآن الكريم على هذا النحو- كلَّ هذا اللطف والتشريف من الله تعالى، والتي لا ينالها إلا صفوة الخلق بعد الأنبياء، وغدا مظهراً للمديح والثناء الرباني، يا لها من عزة كبيرة وسعادة عظيمة! ..



كان الصحابة الكرام يحذون حذو النبي عليه الصلاة والسلام في الولاء للقرآن والحياة في ظلاله، من خلال ادراك مضامينه والعمل بأحكامه، فكانوا يحلقون بأفئدتهم في فضاء القرآن الكريم وأسراره، يقول كنانة العدوي رحمه الله تعالى:

---

٣٠٨ البخاري، فضائل القرآن، ١٥، المناقب ٢٥؛ مسلم، المسافرين ٢٤١، ٢٤٢/ ٧٩٦.

٣٠٩ البخاري، مناقب الأنصار ١٦، التفسير ٩٨/ ١، ٣؛ مسلم، المسافرين ٢٤٦

٣١٠ البخاري، فضائل القرآن، ٨.



«كتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد أن ارفعوا إلى كل من حمل القرآن، حتى ألحقهم فى الشرف من العطاء وأرسلهم فى الآفاق، يعلمون الناس، فكتب إليه الأشعرى إنه بلغ من قبلى ممن حمل القرآن ثلثمائة وبضع رجال، فكتب عمر إليهم بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر إلى عبد الله بن قيس ومن معه من حملة القرآن [٣١١]، سلام عليكم، أما بعد فإن هذا القرآن كائن لكم أجرا وكائن لكم شرفا وذخرا، فاتبعوه ولا يتبعنكم، فإنه من اتبعه القرآن زخ فى قفاه حتى يقذفه فى النار، ومن تبع القرآن ورد به القرآن جنات الفردوس، فليكونن لكم شافعا إن استطعتم، ولا يكونن بكم ماحلا فإنه من شفع له القرآن دخل الجنة، ومن محل به القرآن دخل النار واعلموا أن هذا القرآن ينابيع الهدى، وزهرة العلم، وهو أحدث الكتب عهدا بالرحمن به يفتح الله أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا ...».[٣١٢]



كان أنس بن مالك رضي الله عنه خادم النبي عليه الصلاة والسلام المتطوع والعاقل، عندما يختم القرآن يجمع أهل بيته ويدعو معهم دعاء الختم. [٣١٣]



كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى أبا موسى قال: «ذكرنا يا أبا موسى»، فيقرأ عنده القرآن، وقال عمر لأبي موسى: «شوقنا إلى ربنا»، فقرأ القرآن، فقالوا: الصلاة! فقال عمر: «أولسنا في صلاة!»، وقال عمر لأبي موسى: «ذكرنا ربنا»، فقرأ عليه أبوموسى، وكان حسن الصوت بالقرآن.[٣١٤]



---

٣١١ كانت عبارة حملة القرآن آنذاك تعني حفظته، المشتغلين بلفظه ومحتواه.

٣١٢ علي المتقي، ٢، ٢٨٥ ـ ٢٨٦/ ٤٠١٩.

٣١٣ ابن أبي شيبة، المصنف (حوت)، الرياض ١٤٠٩، ٦، ١٢٨.

٣١٤ ابن سعد، ٤، ١٠٩.



سئل نافع ما كان عمل ابن عمر؟ قال: كان عمله أن يتوضأ ما بين الوقت والآخر، ويفتح المصحف ويقرأ القرآن بين هذين الوقتين.[٣١٥]



ينال المشتغلون بالقرآن الكريم وحَمَلَته بحقٍّ الكثير من الفضل الإلهي في الدارين، وقد نُقل أنّ أحد أولياء الله تعالى وهو محمود سامي رمضان أوغلو قدس سِرُّه توفي في أضنة وهو معروف بلقب حامل القرآن، تم فتح قبره بعد ثلاثين سنة لضرورة فتح الطريق، فوُجِدَ جسدُه طرياً كما هو، لم يفسد وكفنه غاية في النظافة.

وفي الحديث الشريف:

«**إذا مات حامل القرآن، أوحى الله إلى الأرض أن لا تأكلي لحمه، قالت: إلهي كيف آكل لحمه وكلامك في جوفه؟...**».[٣١٦]



وينبغي علينا أن نتنبه جيدا فيما للتصرف بأدب واحترام تام أمام القرآن الكريم الذي هو كلام الله تعالى، لأننا في زمن نحن أحوج ما نكون فيه إلى فضيلة وروحانية القرآن الكريم.

فعلى سبيل المثال:

ليس من الصواب قراءة القرآن الكريم وتعليمه من غير وضوء، إذ أن الآية الكريمة واضحة وقاطعة في هذا: ﴿**لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾ [٣١٧]. أي الطاهرون النظيفون.

---

٣١٥ ابن سعد، ٤، ١٧٠.

٣١٦ الديلمي، ١، ٢٨٤/ ١١١٢؛ علي المتقي، ١، ٥٥٥/ ٢٤٨٨.

٣١٧ الواقعة: ٧٩.



وأما الوضوء من الحدث الأصغر والغسل وأحوال النساء (من الحيض والنفاس) فكلها مواضيع خاضعة للبحث، وقد اتفقت المذاهب الأربعة على حرمة مس المصحف من غير وضوء.[318]

ثم إن هذا الحكم قد طبق على هذا النحو منذ عصر النبي ﷺ وحتى الآن، وقد ورد في الأحاديث الشريفة:

«لا تقرأ الحائضُ ولا الجنبُ شيئاً من القرآن». [319]

«لا يمسّ المصحف إلا طاهر».[320]

وقد كتب النبي عليه الصلاة والسلام لعمرو بن حزم رضي الله عنه لما أرسله إلى اليمن كتاباً بين فيه الفرائض والسنن والحقوق، موضحاً في كتابه أمره عمرواً بتعليم الناس القرآن الكريم وتبليغه إياهم أوامره وحكمها، إضافة إلى نهيه عن مس المصحف إلا طاهرا[321]

قال مالك: «ولا يحمل أحد المصحف بعلاقته ولا على وسادة إلا وهو طاهر.... ولم يكره ذلك لأن يكون في يدي الذي يحمله شيء يدنس به المصحف ولكن إنما كره ذلك لمن يحمله وهو غير طاهر إكراما للقرآن وتعظيما له». [322]

ومن ناحية أخرى فإنه يلزم –تعبدا– إظهار جميع أنواع الاحترام والأدب للقرآن الكريم، كالإمساك به فوق منطقة أسفل الظهر وما تحتها، وعدم مد القدمين في جهته، وعدم وضع شيء أو أي كتاب غيره فوقه، وعدم إدخاله إلى

---

٣١٨ الموسوعة الفقهية، ١٨، ٣٢٢.

٣١٩ الترمذي، الطهارة، ٩٨/ ١٣١.

٣٢٠ الحاكم، ١، ٥٥٣/ ١٤٤٧.

٣٢١ الموطأ، القرآن، ١، القطاني، ١، ٢١٦.

٣٢٢ الموطأ، القرآن، ١.



أماكن قضاء الحاجة، مع إيصال هذه الدقة والاعتناء إلى الأجيال الناشئة، مع العلم بأن القرآن الكريم من أهم شعائر الإسلام، أي يترأس قائمة معالم الإسلام، تقول الآية الكريمة:

﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[٣٢٣]

والحاصل فالقرآن الكريم كتاب سماوي مرسل لهداية الناس إلى الطريق الحق، وتعليمهم ما يعجزون عن معرفته بجهودهم الذاتية، وللحصول على الآخرة، وعليه فإن التمسك به وحفظ حقه أسلم طريق يتمسك به عقلاً.

وقد بين الحديث فضيلة الاشتغال بالقرآن الكريم على النحو التالي:

«كتاب الله، هوحبل الله الممدود من السماء إلى الأرض».[٣٢٤]

فكلما رشفنا من روحانية القرآن الكريم وفيضه ارتقى إيماننا درجة، ومن يتعمق في القرآن الكريم يَحصل على اللطائف الربانية غير المدركة، من خلال اكتساب رضا الله ورسوله، أكرمنا الله تعالى وإياكم بهذا الحال وييسره لنا. آمين.

٨ . ذكر الله والصلاة على الرسول ﷺ

تتفرّع كلمة «الإنسان» من الجذر عينه الذي تأتي منه كلمة «النسيان» وفق رأي البعض، والنسيان ضد الذكر، وتفيد معنى عدم تذكر شيء، حيث إنه يعد واحداً من أكبر خصائصه الضعيفة، وقبل كل شيء فالإنسان بحاجة إلى الذكر كي يتلافى أضرار النسيان الموجود في فطرته للمحافظة على حيوية شعور العبودية لله وعبادته على الدوام، إذ إن التكرار يقوي إدراك المرء للشيء المكرر وانصباغه به.

٣٢٣ الحج، ٣٢.

٣٢٤ الهيثمي، ٩، ١٦٤.

وترد كلمة الذكر في القرآن الكريم مائتين وخمسمائة مرة لأهميتها الخاصة في وظيفة العبودية، إذ إن القيام بالعبودية الحقة لله تعالى والوصول إلى معرفته تعالى يتحقق وفق مقام الذكر المحاز في القلب والتعمق المحسوس فيه، ولذا قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [٣٢٥]

﴿... وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [٣٢٦] أي أكبر عبادة

ولما وصف الله تعالى أولي الألباب، أصحاب العقول التامة الزكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون، قال فيهم:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [٣٢٧]

إن القلب –الذي بمثابة السلطان للجسد– حين يصل إلى النور الذي يميّز بين الحق والباطل من خلال إحيائه بذكر الله تعالى، يغدو بوصلة توجه الجسد إلى الحق والخير، ويرشد الأعضاء التي تحت إمرته، وبالنتيجة يوصلها إلى مقام عبودية يرضي الله تعالى.

يبين رسول الله ﷺ فضيلة الذكر على النحو التالي:

«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت».[٣٢٨]

---

٣٢٥ الأعراف، ٢٠٥.

٣٢٦ العنكبوت، ٤٥.

٣٢٧ آل عمران، ١٩١.

٣٢٨ البخاري، الدعوات، ٦٦.

وانطلاقاً من هذا فبما أن الغافلين عن ذكر الله تعالى بعيدون عن حبه تعالى فهم ضمن وعيد إلهي، تقول الآيات الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَاَ أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [٣٢٩]

﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٣٣٠]

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [٣٣١]

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى﴾ [٣٣٢]

ولقد حذرنا الله تعالى في كثير من مواضع القرآن من مخاطر الغفلة الجسيمة عن ذكر الله تعالى، وفي إحدى هذه المواضع يقول الله تعالى فيها:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [٣٣٣]

نزلت هذه الآية لإيقاظ بعض الصحابة ممن ظهر فيهم التراجع والتهاون بعد الهجرة إلى المدينة، حيث حصلوا على نِعَمٍ وفيرة بعد أن عانوا في مكة المحن والضوائق.[٣٣٤]

٣٢٩ المنافقون، ٩.

٣٣٠ الزمر، ٢٢.

٣٣١ الزخرف، ٣٦.

٣٣٢ طه، ١٢٤.

٣٣٣ الحديد، ١٦.

٣٣٤ انظر: السيوطي، اللباب، ٢، ١٥١ ـ ١٥٢

ثم إنه تعالى لما أرسل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال لهما:

﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [٣٣٥]

على الرغم من كونهما نبيَّان. وبهذا قد أراد أن يكونا مثالاً وعبرة لنا بتحذيره حتى الأنبياء من الابتعاد عن الذكر.

يقول النبي ﷺ في وجوب لزوم ذكر الله تعالى ومراقبته في كل حال:

«**لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي**». [٣٣٦]

ثم إن بلوغ الأفئدة المؤمنة مقام رضا الله تعالى لا يكون إلا بالتخلص من قساوة الغفلةواليقظة المعنوية الدائمة عبر "الذكر الدائم"، وهذا لا يتحقق بذكر مؤقت بمدة أو محدود بفترة، بل بحمل شعور ذكر الله تعالى في كل نَفَس طوال الحياة.

وقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها:

«كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه».[٣٣٧] .

يقول ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [٣٣٨]، لم يفرض الله تعالى فريضة إلا جعل لها حدا معلوما، ثم عذر أهلها في حال العذر، أما الذكر فإنه لم يجعل له حدا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبا على عقله وأمرهم به. [٣٣٩]

---

٣٣٥ طه، ٤٢.

٣٣٦ الترمذي، الزهد، ٦٢/ ٢٤١١.

٣٣٧ مسلم، الحيض، ١١٧.

٣٣٨ الأحزاب، ٤١.

٣٣٩ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت ١٩٩٥، ٢٢، ٢٢، القرطبي، ١٤، ١٩٧.

ويقول فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام في صدد الحث على الذكر والتواجد في مجالسه:

«لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من صلاة الغداة، حتى تطلع الشمس أحب إلي، من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل عليه السلام **... ».**[٣٤٠]

ومن ناحية أخرى فإن الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام من جملة الذكر، يقول الحق تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٣٤١]

يبين سيد الكون قيمة الصلاة عليه على الدوام على هذا النحو:

«من صلى علي مرة صلى الله عليه بها عشرا وفي رواية من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات[٣٤٢]**ويحط عنه عشر سيئات ورفعه بها عشر درجات».**[٣٤٣]

«أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة».[٣٤٤]

ومن ضمن الذكر تلاوة القرآن الكريم والتفكر بآياته إلى جانب عبادات كثيرة كالصلاة والتسبيح والحمد والتكبير والتهليل والاستغفار.

---

٣٤٠ أبو داوود، العلم، ١٣/ ٣٦٦٧.

٣٤١ الأحزاب، ٥٦.

٣٤٢ مسلم، الصلاة، ٧٠.

٣٤٣ النسائي، السهو، ٥٥.

٣٤٤ الترمذي، الوتر، ٢١/ ٤٨٤.

صور الفضائل

قال أحدهم دخلت على عائشة ﵂، فسألتها: بم كان رسول الله ﷺ يفتتح إذا هب من الليل؟ فقالت: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، كان إذا هب من الليل كبر عشرا، وحمد عشرا، وقال: «**سبحان الله وبحمده عشرا**» وقال: «**سبحان الملك القدوس عشرا**» واستغفر عشرا، وهلل عشرا، ثم قال: «**اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا، وضيق يوم القيامة عشرا**» ثم يفتتح الصلاة.[٣٤٥]



وكان النبي ﷺ يحبّذ من الذكر والدعاء ما قلّ لفظه وكثر معناه، فعن جويرية: أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال:

«**ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟**»

قالت: نعم، قال النبي ﷺ:

«**لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته**».[٣٤٦]



وقد قال رسول الله ﷺ:

«**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم** ».[٣٤٧]

٣٤٥ أبو داوود، الأدب، ١٠١/ ٥٠٨٥.

٣٤٦ مسلم، الذكر، ٧٩.

٣٤٧ البخاري، الدعوات، ٦٥، الأيمان، ١٩، التوحيد، ٥٨؛ مسلم، الذكر، ٣١/ ٢٦٩٤.



يريد الحق تعالى أن يكون فؤاد عبده معه في كل لحظة، ويقول في الآية الكريمة:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[٣٤٨]

أي يذكرون الله في كل وقت، وتفيد الأحاديث الشريفة الآنفة الذكر فضل التسبيح وعِظَمَ أجره، أي إنها من جهة للترغيب والتشويق، وفي هذا الصدد فيكون من الضروري عدم حصر ذكر الله تعالى بالتسبيح فقط وملازمة الذكر الدائم بمقتضى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.



قال عبد الله بن بسر ﵁:

جاء أعرابيان إلى النبي ﷺ فقال أحدهما: يا رسول الله أي الناس خير قال:

«**من طال عمره وحسن عمله**»

وقال الآخر: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فمرني بأمر أتثبت به فقال:

«**لا يزال لسانك رطبا بذكر الله** ﷻ» .[٣٤٩]

وبناء على ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام فبقاء الإنسان في حالة دائمة من الذكر يحفظه من الغفلة والنسيان، ويساهم في زيادة طاعته وانقياده لأوامر الله تعالى ونواهيه، أي إن الذكر يعد وسيلة تقوية معنوية وباعثا روحيا يزيد من رغبة المؤمنين في تطبيق الأحكام الدينية.



---

٣٤٨ آل عمران، ١٩١.

٣٤٩ أحمد، ٤، ١٨٨.

وقد روي أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال:

أي الجهاد أعظم أجرا؟

قال: «**أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكرا**»

قال: فأي الصائمين أعظم أجرا؟

قال: «**أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكرا**»

ثم ذكر لنا الصلاة، والزكاة، والحج، والصدقة كل ذلك رسول الله ﷺ.

يقول: «**أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكرا**»

فقال أبو بكر لعمر: يا أبا حفص ذهب الذاكرون بكل خير،

فقال رسول الله ﷺ: «**أجل**».[٣٥٠]

ما يعني أن تعويد النفس على الذكر في كل الأحوال، سيكون أكبر مكسب لنا.



عن معاذ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أوصني، فقال:

«**عليك بتقوى الله ما استطعت، واذكر الله عند كل حجر وشجر، وما عملت من سوء فأحدث لله فيه توبة: السر بالسر، والعلانية بالعلانية**».[٣٥١]



قال النبي ﷺ يوماً لأصحابه مبيناً فضل مجالس الذكر:

«**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة قال حلق الذكر**».[٣٥٢]



٣٥٠ أحمد، ٣، ٤٣٨/ ١٥٦١٤؛ الهيثمي، ٥، ٧٤.

٣٥١ الهيثمي، ٥، ٧٤.

٣٥٢ الترمذي، الدعوات، ٨٢/ ٣٥١٠.



روي عن عبد الله بن رواحة أنه كان إذا لقى رجلا من أصحابه قال له:

تعال نؤمن بربنا ساعة. وذات مرة سمعه أحد الصحابة يقول ذلك، فذهب إلى النبي، وقال: يا رسول الله، ألا ترى ابن رواحة، يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة؟! فقال له النبي ﷺ:

«**رحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة**».[٣٥٣]



يقول عبد الله بن شداد:

أن نفرا من بني عذرة ثلاثة، أتوا النبي ﷺ فأسلموا، قال: فقال النبي ﷺ: «**من يكفينيهم؟**» قال طلحة: أنا. قال: فكانوا عند طلحة، فبعث النبي ﷺ بعثا فخرج فيه أحدهم فاستشهد، قال: ثم بعث بعثا فخرج فيه آخر فاستشهد، قال: ثم مات الثالث على فراشه، قال طلحة: فرأيت هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنة، فرأيت الميت على فراشه أمامهم، ورأيت الذي استشهد أخيرا يليه، ورأيت الذي استشهد أولهم آخرهم، قال: فدخلني من ذلك، قال: فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، قال: فقال رسول الله ﷺ:

«**وما أنكرت من ذلك ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن يعمر في الإسلام لتسبيحه وتكبيره وتهليله**».[٣٥٤]



خرج الشيخ أفتادة يوماً مع تلامذته في نزهة، فأحضر كل واحد منهم مجموعة أزهار امتثالاً لأوامره حين تجولهم في مكان جميل، إلا أن محمود أفندي القاضي القديم لبورصة والمعروف فيما بعد بعزيز محمود هدايي أتى وفي يده زهرة ذابلة

٣٥٣ أحمد، ٣، ٢٦٥.

٣٥٤ أحمد، ١، ١٦٣/ ١٤٠١.

ساقُها مكسور، فبعد أن قدم الطلاب ما في حوزتهم من الأزهار إلى أستاذهم وهم فرحون مسروروون، قام محمود أفندي بتقديم زهرته الذابلة والمكسورة إلى سيدنا أفتادة، فسأل -وسط دهشة المريدين-: يا بني، لم أحضرت زهرة ذابلة مكسور ساقها، في حين أن الجميع أحضر مجموعة من أجمل الورود؟ فأجاب محمود أفندي في غاية الأدب مطأطئاً رأسه: يا سيدي، كلما أقدمه إليك قليل، إلا أني كلما مددت يدي لقطف زهرة رأيتها تذكر ربها قائلة: «الله» «الله»، فلم يرض قلبي أن أمنعها من هذا الذكر، فاضطررت حينئذ أن أقطف هذه الزهرة الذابلة العاجزة عن مواصلة ذكرها، إن كل ذرة في الكائنات مظاهر العبر، لكل ذي قلب رقيق. إذ إن جميع المخلوقات من ذوات الروح أوْلَا تذكر الله، تقول الآية الكريمة:

﴿سَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [٣٥٥]

وعليه فإن الإنسان ينبغي عليه إدراك الوظيفة المكلف بها، وعدم الغفلة عن ذكر ربه تعالى باتعاظه من هذه الصورة العظيمة للكائنات.



ثم إن إحدى أفضل أذكارنا الصلوات الشريفة، فكلما أكثر المسلم من الصلاة والسلام على النبي ﷺ كانت الفائدة المعنوية التي يجنيها الذاكر بقدر ذلك، لأن شأن النبي ﷺ عظيم وعال عند ربه.

وقبل كل شيء فإن ربنا تعالى رفع نبيه وأجلّه برحمته ورضاه وقبوله من خلال صلاته عليه، وأمرنا أن نقوم بذلك أيضاً.

٣٥٥ الإسراء، ٤٤.



عن عبد الله رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن:

«التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله».[٣٥٦]



عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، قال:

كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال:

«يا أيها الناس اذكروا الله اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه جاء الموت بما فيه»

قال أبي: قلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: «**ما شئت**». قال: قلت: الربع، قال: «**ما شئت فإن زدت فهو خير لك**»، قلت: النصف، قال: «**ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**»، قال: قلت: فالثلثين، قال: «**ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**»، قلت: أجعل لك صلاتي كلها قال: «**إذا تكفى همك، ويغفر لك ذنبك**».[٣٥٧]



عن فضالة بن عبيد، قال:

بينا رسول الله ﷺ قاعد إذ دخل رجل فصلى فقال: اللهم اغفر لي وارحمني، فقال رسول الله ﷺ:

«عجلت أيها المصلي، إذا صليت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله، وصل علي ثم ادعه».

---

٣٥٦ مسند ابن أبي شيبة، ٢٠٥، ٢٠٦.

٣٥٧ الترمذي، القيامة، ٢٣/ ٢٤٥٧.

قال: ثم صلى رجل آخر بعد ذلك فحمد الله وصلى على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ:

«**أيها المصلي ادع تجب**».[358]



عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

«إنّ الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء، حتى تصلي على نبيك ﷺ».[359]



عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال:

لقيني كعب بن عجرة، فقال: ألا أهدي لك هدية؟ إن النبي ﷺ خرج علينا، فقلنا: يا رسول الله، قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال:

«**فقولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد**».[360]



عن أوس بن أوس، قال: قال رسول الله ﷺ:

«**إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي**»

---

٣٥٨ الترمذي، الدعوات، ٦٤/ ٣٤٧٦.

٣٥٩ الترمذي، الوتر، ٢١/ ٤٨٦.

٣٦٠ البخاري، الدعوات، ٣٢؛ الترمذي، الوتر، ٢٠؛ ابن ماجة، الإقامة، ٢٥.



قال: قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت – يقولون: بليت –؟ فقال:

«**إن الله ﷻ حرم على الأرض أجساد الأنبياء**». [٣٦١]



وفي رواية تتعلق بفضيلة الصلاة والسلام الدائمة على النبي ﷺ يوم الجمعة قال سيدنا علي رضي الله عنه:

«من صلى على النبي يوم الجمعة مائة مرة جاء يوم القيامة وعلى وجهه من النور نور يقول الناس أي شيء كان يعمل هذا؟». [٣٦٢]



وفي الحديث:

«**إن جبريل صعد قبلي العتبة الأولى فقال: يا محمد فقلت: لبيك وسعديك فقال: من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يغفر له فأبعده الله قل: آمين فقلت: آمين فلما صعد العتبة الثانية فقال: يا محمد قلت: لبيك وسعديك قال: من أدرك شهر رمضان فصام نهاره وقام ليله ثم مات ولم يغفر له فدخل النار فأبعده الله قل: آمين فقلت آمين فلما صعد العتبة الثالثة قال: يا محمد قلت: لبيك وسعديك قال: من ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات ولم يغفر له فدخل النار فأبعده الله قل: آمين فقلت آمين**». [٣٦٣]



ويروى عن أحد الصالحين قوله:

---

٣٦١ أبو داوود، الصلاة ٢٠١/ ١٠٤٧، الوتر ٢٦.

٣٦٢ البيهقي، شعب الإيمان، ٣، ٢١٢.

٣٦٣ الحاكم، ٤، ١٧٠/ ٧٢٥٦؛ الترمذي، الدعوات، ١٠٠/ ٣٥٤٥.



«كان لي جار، ينسخ الكتب التي صنفها العلماء، رأيته في المنام لما توفي، فسألته: كيف لاقاك الله تعالى؟ فأجاب: قد غفر لي، فسألته: بأي عمل غفر لك؟ فقال: كنت حين أكتب اسم النبي ﷺ في الكتب أصلي عليه دائماً، ولذا فقد أكرمني الله تعالى بنِعَم لم ترها عيٌ ولم تسمع بها أذنٌ ولم تخطر على قلب أحدٍ».[٣٦٤]



ويروى:

«أن أحداً من الذين لم يتخلقوا بخلق النبي عليه الصلاة والسلام رأى سيد الكون في منامه ذات ليلة، فلم يكن يلتفت إليه ولا يظهر له أي اهتمام، فسأله وهو حزين: يا رسول الله أمستاء مني؟ أجابه: لا، فسأله مستغربا: إذاً لم لا تبدي أي اهتمام بي؟، فقال: لا أعرفك، فسأله: كيف ذلك يا رسول الله؟ أنا من أمتك، وقد أخبرنا العلماء أنك تعرف أمتك كما تعرف الأمُّ أولادها، فأجابه: صدقت، إلا أني لا أرى فيك علامة من أخلاقي الحسنة، ولم تصلني منك صلاة علي، ولتعلم أني إنما أعرف من أمتي بقدر تخلقه بأخلاقي، فاستيقظ ذلك المؤمن من نومه والحزن يلفه، ثم تاب عما كان عليه وتجمل بأخلاق النبي عليه الصلاة والسلام الحميدة، وبعد فترة رأى النبيَّ عليه الصلاة والسلام في منامه مجدداً وقال له: أنا الآن أعرفك وسأشفع لك».



وخلاصة القول فإن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

«**يحشر المرء مع من أحب**».[٣٦٥]

---

٣٦٤ النبهاني، سعادة الدارين، ص: ١٠١.

٣٦٥ البخاري، الأدب، ٩٦.



واتباع النبي ﷺ في أحوالنا وأفعالنا شرط وفق قانون «المحب يحب كل ما يتعلق بحبيبه»، ومثل هذا العشق والحب والاتباع يكون بحيث يكوِّن عَظْمَ العجز للحب الإلهي، وكل حب غير هذا غير معتبر في طريق القرآن والسنة، فالطريق الوحيدة التي يمكن الوصول منها إلى الحق تعالى «طريق الوصول» مرهونة بحب رسوله عليه الصلاة والسلام.

ثم إن ذكر الله تعالى والصلوات الشريفة غذاء وجودنا المعنوي، وضمان سعادتنا الأبدية، إذ نرتقي في عالمنا القلبي والروحي إلى الكمال بالذكر، ولهذا فقد قال الله تعالى:

﴿... أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [٣٦٦]

وأما الطريق إلى العبودية الحقَّة فتمر من الذكر الدائم، فحينها فقط تكتسب حياتنا لذة وحلاوة معنوية، **أكرمنا الله جميعاً**، آمين.

٩ . الخوف من لحظة الموت والاستعداد لها.

عندما ينظر الإنسان إلى منظومة الكائنات بعين الاعتبار والاتعاظ يدرك أن حقيقة الموت هي من أكثر الأمور التي ينبغي عليه اليقين بها، وقد قال تعالى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ...﴾ [٣٦٧]

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [٣٦٨]

وكم هو غريب الإنسان عندما يخدع نفسه في هذه الدنيا –التي ما هو فيها إلا كعابر سبيل ليوم أو يومين– حيث يظن الموت بعيداً عنه مع أنه يرى الجنائز

٣٦٦ الرعد: ٢٨.

٣٦٧ الرحمن: ٢٦.

٣٦٨ الأنبياء، ٣٥.

تمر أمام ناظريه كل يوم، ظاناً نفسه مالكاً حقيقياً لدنياه الفانية، بينما هو فيها مسافر دخلها من باب حين أودعت روحه في جسده، ليستعد لذلك الطريق إلا أنه لا يتذكر ذلك، وإذا بيوم يأتي تفارق الروح فيه الجسد، فيُوَدَّع لسفر آخر عظيم ويخرج من الدنيا من باب الموت ليجد نفسه في القبر الذي هو باب الآخرة، يقول الله تعالى:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [٣٦٩]

فألا يدركون هذا السفر المليء بالعبرة.

إن المقصد الأساسي من الحياة الدنيا للإنسان إنما هو الفوز بالسعادة في الدار الآخرة حين يحيى عبودية ترضي الله تعالى، يقول رسول الله ﷺ:

«**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ...**». [٣٧٠]

ويا له من تعبير رائع لهذا في كلام نجيب فاضل إذ يقول:

أيها الصراف اصنع لنفسك كيساً آخر

واجمع فيه الدراهم المقبولة في القبر

الحياة كقطرات الماء التي تملئ الكوب، وأما لمعان الماء الموجود في الكوب مرهون بلمعان وصفاء القطرات، والقطرة الأخيرة في الكوب هي بمثابة النفس الأخير.

وفي الحديث الشريف:

«**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**». [٣٧١]

---

٣٦٩ يس: ٦٨.

٣٧٠ الترمذي، القيامة، ٢٥/ ٢٤٥٩.

٣٧١ أبو داوود، الجنائز، ١٥ ـ ١٦/ ٣١١٦؛ الحاكم، ١، ٥٠٣.

فإن عاش المرء حياة بملء فؤاده بالله تعالى والقضاء على آلهة الهوى والرغبات النفسية غير الضرورية في القلب، واستمر على هذا المنوال بعيشه حياة روحانية، يرجى رحيله بإيمان وفوزه بالجنة، ثم إن إتيان الشهادتين أثناء خروج روح من عاش حياة مختلفة أمر غَايةٌ في الصعوبة، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام:

«يموت المرء على ما عاش عليه، ويُبعث على ما مات عليه».[٣٧٢]

إن النَفَسَ الأخير كمرآة صافية براقة، حيث إنه الوقت الذي يكون فيه الإنسان مدركاً وعارفاً لنفسه أكثر من أي وقت آخر، فتُعرض محاسبة الحياة أمام قلبه وعينيه، ولذا فما من مشهد أشد عبرة للإنسان من لحظة الموت.

يقول عليه الصلاة والسلام:

«إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار».[٣٧٣]

فلا بد من الاستعداد لتوديع هذا العالم الفاني بعبودية حقة، وتجهيز الأنفاس المعدودة للنفس الأخير، أي من الواجب واللازم لحياة سعيدة في الآخرة، قضاء حياة مزينة بالأعمال الصالحة وقائمة على الاستقامة، يقول الحق تعالى:

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[٣٧٤]

فعلى هذا النحو يرحل العباد الخواص الذين يقضون حياتهم في حب الله تعالى وحب رسوله ويزينونها بالأعمال الصالحة، فيرحلون عن هذه الدار بطمأنينة معنوية ويقين تام بكلمة التوحيد في لحظاتهم الأخيرة، وأما الخاسرين ممن انخدع بالإغواءات النفسية الفانية والمتع الدنيوية الزائلة، ومن وهت صلاته

---

٣٧٢ انظر: مسلم، الجنة، ٨٣؛ المناوي، ٥، ٦٦٣.

٣٧٣ الترمذي، القيامة، ٢٦/ ٢٤٦٠.

٣٧٤ الحجر: ٩٩.

بربه وساءت أخلاقه وصفاته الروحية فإنهم يموتون على ما كانوا يعيشون عليه فوق التراب، ليبؤوا بالذلة والخسران تحت التراب.

قال رسول الله ﷺ:

«ما من أحد يموت إلا ندم»

قالوا: وما ندامته يا رسول الله؟ قال:

«إن كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع».[٣٧٥]

ويحذر الله ﷻ عباده من هذه العاقبة قائلاً لهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣٧٦]

والحاصل فإن موتتنا وحياتنا البرزخية المستمرة إلى يوم القيامة ستتشكل وفق ما كنّا عليه في الدنيا وما كانت عليه أعمالنا.

وما أجمل ما يقوله مولانا:

«أي بني، تكون ميتة كل أحد من لونه، ومن ينفر من الموت ويعاديه -ممن لا يدرك أنه وسيلة للقاء ربه تعالى- يبدو له الموت كعدو مهيب، في حين أنه يظهر كصديق ودود لمن يصادقه».

«أيتها النفس الخائفة الهاربة من الموت، ما تخافينه في الحقيقة هو نفسك وليس الموت، لأن ما أذهلك وأخافك في مرآة الموت ليس وجه الموت وإنما

٣٧٥ الترمذي، الزهد، ٥٩/ ٢٤٠٣.

٣٧٦ المنافقون: ٩ ـ ١١.

وجهك القبيح أنت، روحك كشجرة، وأما الموت فأوراق تلك الشجر، وكل ورقة تلائم نوع الشجرة ...».

ما يعني أن حسن الموت مرتبط بتحسين الحياة بالأعمال الصالحة.

صور الفضائل والعبر

عن عبد الله بن عمر ﵄ قال:

كنت مع رسول الله ﷺ فجاءه رجل من الأنصار، فسلم على النبي ﷺ، ثم قال: يا رسول الله! أي المؤمنين أفضل؟

قال: «**أحسنهم خلقا**»، قال: فأي المؤمنين أكيس؟

قال:

«**أكثرهم للموت ذكرا، وأحسنهم لما بعده استعدادا، أولئك الأكياس**».[٣٧٧]



عن البراء بن عازب ﵁ قال:

«كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فجلس على شفير القبر، فبكى حتى بل الثرى، ثم قال: يا إخواني لمثل هذا فأعدوا».[٣٧٨]

كان عمر ﵁ قد طلب من خادم له أن يكرر عليه كل يوم مقولة: يا عمر لا تنس الموت، إلا أنه لما بدى الشيب في لحيته قال له: يكفي، فإن شيب لحيتي يذكرني كل لحظة بالموت.

وفي الحقيقة فإن علينا لكبح شهوات نفوسنا عدم نسيان الفناء والموت.



---

٣٧٧ ابن ماجة، الزهد، ٣١.

٣٧٨ ابن ماجة، الزهد، ١٩.

لقد نقل لنا فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام مشاهد من أحوال القبر والقيامة والآخرة كي نتفكر، فنتعظ ونستعد للنفس الأخير والموت وما وراءه، فقال عليه الصلاة والسلام:

«**إن المؤمن إذا احتضر أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون: اخرجي راضية مرضية عنك إلى روح الله، وريحان، ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك، حتى إنهم ليناوله بعضهم بعضا يشمونه، حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض، فكلما أتوا سماء قالوا ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، قال: فلهم أفرح به من أحدكم بغائبه إذا قدم عليه، قال: فيسألونه ما فعل فلان؟ قال: فيقولون: دعوه حتى يستريح فإنه كان في غم الدنيا، فإذا قال لهم: أما أتاكم؟ فإنه قد مات، قال: فيقولون ذهب به إلى أمه الهاوية، قال: وأما الكافر، فإن ملائكة العذاب تأتيه، فتقول: اخرجي ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله وسخطه، فيخرج كأنتن ريح جيفة، فينطلقون به إلى باب الأرض فيقولون: ما أنتن هذه الريح! كلما أتوا على الأرض قالوا ذلك حتى يأتوا به أرواح الكفار**».[٣٧٩]



وعن النبي ﷺ قال:

«**يُجاء بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج فيوقف بين يدي الله فيقول الله له: أعطيتك وخولتك وأنعمت عليك، فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب جمعته وثمرته فتركته أكثر ما كان فارجعني آتك به كله، فيقول له: أرني ما قدمت، فيقول: يا رب جمعته وثمرته فتركته أكثر ما كان، فارجعني آتك به كله، فإذا عبد لم يقدم خيرا، فيمضى به إلى النار**».[٣٨٠]

---

٣٧٩ النسائي، الجنائز، ٩.

٣٨٠ الترمذي، القيامة، ٦/ ٢٤٢٧.



هذا هو المآل البائس الذي سيحل بمن قضى حياته غافلاً في الدنيا، ولم يأخذ العدة للآخرة، يخبرنا الحق تعالى عن ذلك في كتابه على النحو الآتي:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾[٣٨١]

أي إنه كان في الدنيا بين أهله مسرورا بالدنيا بين يديه فأعماه ذلك عن الموت حتى ظن أنه لن يموت.

وأما المثال الآخر على من لحقته العاقبة الوخيمة باغتراره بثروته وجاهه وجبروته، فقارون، يبين لنا الحق تعالى قصته المليئة بالعبرة في القرآن الكريم كما يلي:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ. وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ. قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ. فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ. فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾[٣٨٢]

---

٣٨١ الانشقاق، ١٠ ـ ١٤.

٣٨٢ القصص، ٧٦ ـ ٨١.

إن حال قارون لمثال حي على عاقبة المتكبرين في الأرض باغترارهم بثروتهم وقوتهم حتى نسوا أن الموت لا بد وأن يتخطفهم يوماً ما.



عن أبي هريرة ﷺ، قال:

قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال:

«هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة، ليست في سحابة؟»

قالوا: لا، قال:

«فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر، ليس في سحابة؟»

قالوا: لا، قال:

«فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم، إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، قال: فيلقى العبد، فيقول: أي فل ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول: أي فل ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس، وتربع، فيقول: بلى، أي رب فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث، فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب آمنت بك، وبكتابك، وبرسلك، وصليت، وصمت، وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: هاهنا إذا، قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه».[٣٨٣]

٣٨٣ مسلم، الزهد، ١٦/ ٢٩٦٨.



فأنى للعبد إخفاء ذنوبه في يوم حساب تشهد فيه جميع أعضائه –وحتى الأرض التي من تحته– عليه؟ لذا علينا العيش بانتباه ودقة كيلا تَسْوَدَّ وجوهنا يوم العرض عليه سبحانه.



يقول عليه الصلاة والسلام:

«إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل لمحمد ﷺ، فأما المؤمن، فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة، فيراهما جميعا...»

قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعا، ويملأ عليه خضرا، إلى يوم يبعثون.....[٣٨٤]



يروى أن سليمان ابن داوود عليهما السلام كان قد مرَّ بالقرب من مزارع يحرث الأرض، فقال المزارع: ما من شك في أن عائلة داوود عليه السلام أوتيت ملكاً عظيماً، فنقلت الرياح مقولته إلى سليمان عليه السلام، فنزل من راحلته على الفور ووصل إلى المزارع مشياً، وقال: أتيتك ماشياً حتى لا تتمنى ما لا تقدر عليه، ثم أكمل قائلاً: إن تسبيحاً لله تعالى يلقى القبول منه لخير مما أعطي لداوود وأهله من مال وملك.[٣٨٥]

ثم إن الأعمال المؤداة بإخلاص في هذه الدنيا الزائلة، ستكون رأس مال السعادة في العالم الأبدي، وفي الآية الكريمة:

---

٣٨٤ البخاري، الجنائز، ٦٨، ٨٧؛ مسلم، الجنة، ٧٠.

٣٨٥ البرسوي، روح البيان، اسطنبول ١٩٦٩، ٦، ٣٣٢ـ ٣٣٣.



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [٣٨٦]



لا مفر من الموت، وما من دواء له إلا الاستعداد له، يقول عليه الصلاة والسلام:

«كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلق الأبواب، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع، قال: فخرج ذات يوم وغلقت الدار، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة؟ والله لنفتضحن بداود، فجاء داود فإذا الرجل قائم في وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجاب، فقال داود: أنت والله إذن ملك الموت، مرحباً بأمر الله، ثم مكث حتى قبض». [٣٨٧]

هكذا يكون استقبال من أخذوا عدتهم وتجهزوا للموت لعزرائيل عليه السلام ...

وما أروع ما يقوله نجيب فاضل:

تلك مرتبة تعلو الحجب فيها وتسدل

فيا سعد من قال حينها لعزرائيل: أهلا



فلا بد من الاستعداد ليوم الحساب، ذلك اليوم العسير والمليء بالمصائب، وإرسال نعم الله التي منَّ بها، إلى الآخرة ما دمنا قادرين على ذلك، وهذه الجمل التي قالها أبو ذر رضي الله عنه في وجوب الاستعداد للموت وما بعده، والطريق إلى ذلك لخصها بأروع ما يكون حيث قال:

---

٣٨٦ الحشر: ١٨.

٣٨٧ أحمد، ٢، ٤١٩.



«في المال شركاء ثلاثة: القَدَر لا يستأمرك أن يذهب بخيره وشره من هلاك أو موت، والشريك الثاني في المال الوارث، ينتظرك إلى أن تضع رأسك، ثم يستاقها وأنت قد سلبت بالموت كل ما تملك في الدنيا وأصبحت من غير أهلها، إن الوارث يقول لنفسه: فلأستمتع بما ترك لي، والثالث أنت، فإن استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكن أعجزها».

يقول الله تعالى:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٣٨٨]

أي لن تنالوا كمال الخير إلا بالإنفاق، وإن أحب أموالي إلي دابتي هذه، وحتى ألقاها في الآخرة، أرسلها قبلي، فأجعلها صدقة في سبيل الله تعالى.[٣٨٩]



كان في العصر العثماني عالم مشهور يدعى أوج باش[٣٩٠] نور الدين حمزة أفندي، قد جمع أمواله حرصاً منه عليها إذ لم ينفقها، ولم يكن يركب الفرس، ويكتفي بالألبسة القديمة والأحذية البالية، وهو بهذا يقتصد في ماله بزعمه، ولذا عرف بين الناس ب»الشيخ المحب للمال».

وقد بنى الشيخ بماله الذي جمعه مدرسة أوج باش في قارا غومروك الكائنة في منطقة فاتح في اسطنبول ثم مسجد أوج باش، وخصص الكثير من دور الوقف وعين غرفاً لسكن العلماء والفقراء، فقال له من يعرفه والحيرة تحيط بهم:

٣٨٨ آل عمران: ٩٢.

٣٨٩ أبو نعيم، الحلية، ١، ١٦٣

٣٩٠ لقب باسم القرية التي ولد فيها وهي تابعة لقاراصوي، وهو من الفئة العلمية والقضاة، توفي في تاريخ ٩٤٨/ ١٥٤١، ولمعرفة المزيد عن حياته وهذه الواقعة يمكن الاطلاع على: تاش كوبرو زاده، الشقائق النعمانية، (تح. أ. صبحي فرات)، ص: ٥٤٠ ـ ٥٤١.

«يا أستاذ، كيف تمكنت من إنفاق المال مع حبك الشديد له؟ فأجابهم الشيخ بجواب تملؤه العبرة والنكتة قائلاً: «أصحابي الأعزاء، أنتم محقون، حبي للمال كبير، فلم أرض أن يبقى مالي في الدنيا، لذا أرسلته قبلي إلى الآخرة».



وقال علي رضي الله عنه:

«ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل».[٣٩١]

كطالب خرج من قاعة الامتحان، لا يمكنه العودة إليها والإجابة على ما قصر فيه من الأسئلة وليرفع درجاته...

وقد قال بعض أولياء الله تعالى مستفيداً من قول علي رضي الله عنه:

«ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة إلينا، متجهة إلى المدبر ومدبرة عن المقبل إليها غير مشغولة به».



كان أبو الدرداء يقول:

«وإني أخاف عليكم شهوة خفية في نعمة ملهية، وذلك حين تشبعون من الطعام وتجوعون من العلم، إن خيركم الذي يقول لصاحبه: اذهب بنا نصوم قبل أن نموت، وإن شراركم الذي يقول لصاحبه: اذهب بنا نأكل ونشرب ونلهو قبل أن نموت».[٣٩٢]



٣٩١ البخاري، الرقاق، ٤.

٣٩٢ أبو نعيم، الحلية، ١، ٢١٨.



كان ظهر سفيان الثوري قد انحنى، فأجاب السائلين:

«كان لي شيخ تعلمت منه الكثير، فحضرته الوفاة، ولقنته كلمة التوحيد إلا أنه عجز عن قولها، فرؤية هذا الأمر أحنى ظهري».

ثم إنه ما من أحد معصوم عدا الأنبياء حتى إن التجاء يوسف عليه السلام إلى ربه قائلاً:

﴿...توَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [٣٩٣]

يفيد أن الأنبياء يعيشون حياتهم بقلق اللحظة الأخيرة، لذا على المؤمن العمل في مزيج من الشعور بالخوف والرجاء على الدوام، وتخزين زاد التقوى.



مر شقيق البلخي بجانب مقبرة، فقال وهو ينظر إليها بعين العبرة:

«أدركَ أكثرُ مَن هنا أنهم كانوا مغترين في الحياة الدنيا...، فسألوه: لم؟ فأجابهم: أولم يظنوا أن لهم مالاً وملكاً وبيتاً ومركباً وحديقة، إلا أنكم أنتم أيضاً ترون أن الأمر خلاف ذلك ...».



ومن الملفت للنظر حال ربعي بن هيثم أحد أولياء الله تعالى، فيما يتعلق بالاستعداد للموت والآخرة، إذ كان يحاسب نفسه على الدوام، حتى إنه حفر لنفسه قبراً في بستانه، يدخل فيه إن هو شعر بقساوة قلبه، ويمكث فيه مدة، يتفكر في مجيء اليوم الذي يودع فيه الدنيا ويغدو بحاجة إلى استغفار وصدقة، فيدخل في حالة من المحاسبة النفسية بتفكره في حساب الآخرة، ثم يتلو الآيات:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [٣٩٤]

٣٩٣ يوسف: ١٠١.

٣٩٤ المؤمنون، ٩٩ ـ ١٠٠.

ثم يقول لنفسه بعد خروجه من القبر:

«انظر يا ربعي، لقد رُددتَ اليوم ولكنه سيأتي عليك وقت يُرفض طلبك فيه ولا تُرد إلى الدنيا، فتجهز له وأكثر أعمالك الصالحة، وجهودك المبذولة في سبيل الله واستعداداتك للآخرة».



وكم هي رائعة نصائح الإمام الغزالي التي يقول فيها:

«فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعةً لمشارطة النفس، كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى شريك يفرغ المجلس لمشارطته، فيعيّن وقتا خاصا يتكلم فيه مع نفسه ويخاطبها وينبهها ويحثها ويؤنبها ويوبخها بما يلي:

ما لي بضاعة إلا العمر، ومهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنسأ في أجلي وأنعم عليَّ به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يُرجعني إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا، فاحسبي أنك قد توفيت ثم قد رددتِّ، فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم، فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة.

واعلمي يا نفسُ أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وقد ورد في الخبر: أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نورا من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الإحساس بألم النار، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح منها نتنها ويغشاه ظلامها، وهي الساعة التي عصى فيها، فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسؤه، وهي الساعة



التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته وناهيك به حسرة وغبنا، وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره، فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك، ولا تميلي إلى الكسل والدعه والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة، فألم الغبن وحسرته لا يطاق وإن كان دون ألم النار».



وقد قضى خالد البغدادي –وقد بلغ ذروة العلوم الظاهرية والباطنية– حياته بالخوف من اللحظة الأخيرة، فنجد مثل هذه الجمل كثيرا في رسائله:

«... أقسم بالله تعالى، أني لا أؤمن بأني عملت ولو عملاً واحداً لاقى القبول والاعتبار من قبل الله تعالى، ولن أحاسب عليه منذ ولدتني أمي وحتى الآن، (إلا أنني ألتجئ إلى رحمة الله تعالى) فإن أقصى حد في الجهالة أن تنظر إلى نفسك أنها قد أفلست في جميع أعمال الخير...» [٣٩٥]

وفيما يلي عبارات نجدها في رسالته إلى صديق له، تعكس لنا قلقه فيما يتعلق بالاستعداد للخاتمة إذ يقول:

«... أذكركم بأن لا تنسوا الاشتغال بما يلزم للنفس الأخير، والعمل بما يتوافق والسنة السنية، وعدم الالتفات إلى محاسن الدنيا الخادعة، والدعاء لهذا العبد الفقير (قاصداً نفسه) بحسن الخاتمة، (أي العيش بحياة ترضي الله تعالى، والتمكن من الموت بإيمان)».[٣٩٦]

---

٣٩٥ خالد البغدادي، المكتوبات، مولانا خالد، اسطنبول ١٩٩٣، ص: ١٧٨.

٣٩٦ المكتوبات، مولانا خالد، ص: ١٧٥



إذاً هذا ما كان عليه صفوة أولياء الله تعالى، حيث أنهم لم يعولوا على أعمالهم إطلاقاً، وإنما كانوا يلتجؤون إلى الله تعالى في أمر لحظة الموت، وعليه يلزمنا طلب حسن الخاتمة من الحق تعالى على الدوام.

كان ثمة بائع بُقُولٍ يقع دكانه على باب الخروج من البلد، فكان كلما مرت جنازة من باب المدينة وضع بذرة فاكهة في إبريق عنده وبعد شهر يحصيها ويقول: «لقد وقع هذا الشهر هذا القدر من الأشخاص في الإبريق، وفي إحدى الأيام، مات هو، وبعد مضي فترة طويلة، زاره صديق له جاهلاً خبر موته، فسأل جيرانه عنه، ماذا حصل لصاحب هذا الدكان الذي كان يقيم هنا؟ فقالوا: لقد وقع هو أيضاً في الإبريق».

ويا لها من نكتة ذات عبرة ... ولنكن على علم بأن كل واحد منا لا بد وأن يقع في إبريق الأجل يوماً ما، إلا أن الإنسان يشاهد رحيل الناس من حوله واحداً تلو الآخر إلى الحياة الباقية، لكنه ولغفلته يظن نفسه بعيداً عن الموت.



يقول حسن جان نديم السلطان يافوز سليم خان:

«ظهرت بثرة كبيرة في ظهر السلطان يطلق عليها «شيربانجة»، وقد نمت في فترة قصيرة حتى بدت كثقب، إلى درجة أننا كنا نرى رئتيه، وكان يعاني بشدة، وكأنه أسد جريح، فلم يكن يتقبل حالته هذه، بل يواصل إعطاءه الأوامر التكتيكية لجنده، فدنوت منه مرة، فقال لي مشيراً إلى نفسه: ما هذه الحال ياحسن جان؟

فقلت له وقد استشعرت بلوغه آخر الحياة الزائلة وأول الحياة الباقية، وألم الفراق يعتصر قلبي: يا مولاي، يبدو أن الوقت قد حان للقائكم الله تعالى، فالتفت نحوي ونظر إلي بحيرة: حسن، حسن! مع من كنت تحسبني حتى الآن؟.. أرأيت فيَّ تقصيراً في توجهي للحق تعالى؟. فقلت وقد استحييت من قوله هذا: حاشاك،



أيها السلطان، لم أقصد ذلك، وإنما تجرأت فيما قلت لبيان أن ما أنتم عليه الآن في وقتكم هذا يختلف عن سائر أحوالكم، وقد بات السلطان غارقاً في عوالم مختلفة تماماً، قال لي أثناء ذلك: اقرأ سورة يس يا حسن، فبدأت القراءة بعينين مبللتين، ولما بلغت آية السلام سلم روحه إلى بارئها.

لا يتمكن الكثير ممن لم يكن مع الله تعالى في حياته من نيل هذه النعمة في لحظاتهم الأخيرة، ولذا لابد من استخدام الحياة لخدمة الغايات السامية للفوز بموت ونهاية جيدة».



كان السلطان مراد خان الثاني شخصية لا تفكر في راحة نفسها وإنما برضا الله تعالى، فكان من العزم والمتانة إلى حدٍّ جعله لا يتوانى عن التضحية بنفسه، وأما أكبر همه، فحسن الخاتمة والموت على الإيمان، والمثول بين يدي الله تعالى يوم الحشر مرفوع الجبين خالياً عن الآثام، كما أنه قال لوزيره الباشا إبراهيم جاندارْلي بعدما زوج ابنه وبناته:

«يا جاندارلي، أحمد الله أننا أدينا ما يجب علينا تجاه أولادنا في هذه الدنيا، وبقي انتقالنا عن هذه الدار بإيمان».



كان الضابط مظفر الذي قدم نجاحاً كبيراً في معارك «جناق قلعة»، قد حارب ببسالة في جبهة الشرق التي ذهب إليها فيما بعد، فأصيب بجراح ثقيلة أثناء تصادم دام، ووصلت به الحال إلى عجزه عن التكلم أو الإيماء بعينيه لبيان أمر ما، فأخرج ظرفاً من جيبه، وتناول واحدة من القش من الأرض وغمسها في الدم وبدأ يكتب: أين القبلة؟ فلبوا طلبه بجعله يستدير ناحية القبلة على الفور، فكتب إلى جنده الأباة في مجادلة أخيرة منه، ووجهه مستبشر باللقاء من ناحية ومن ناحية أخرى مهتماً بالدفاع العظيم للغاية المقدسة:



«لتستمر الفرقة في الجهاد في سبيل الله تعالى، كيلا يذهب دمي هباء»، وقد أراد كتابة رسالة أخرى إلا أن أجله لم يسمح بذلك، حيث سلم روحه إلى بارئها مستشهداً.

يا لها من دقة وحساسية رائعتين، تجعله يبلِّغ مقصده بسحبه دماً من عرقه لإظهار رغبته في تسليم روحه مواجهاً للقبلة في نَفَسِه الأخير، إذ عجز لسانه عن التعبير عن أي شيء، هذه هي اللحظة الأخيرة للعمر المنقضي في سبيل الله تعالى، حيث تكون مباركة مقدسة.



ثم إن حالة أحد أولياء الله تعالى محمود سامي رمضان أوغلو في أنفاسه الأخيرة من حياته لأنموذج رائع لنا، وأما سامي أفندي فقد كان ولياً لله تعالى ممتلئاً فؤاده بحب رسول الله ﷺ، فكما أن الإنسان يجد طريقه بتعقبه آثاراً في الثلج أحدثها ماش قبله، فإن سامي أفندي كان في اتباع آثار النبي عليه الصلاة والسلام صادقاً مخلصاً كهذا تماماً، حيث قضى عمره مشغولا بذلك، وقد لفظ أنفاسه الأخيرة بجوار النبي عليه الصلاة والسلام الذي قضى حياته مشتغلاً -بعشق وهيجان- في تعقب أثره وأثناء أذان التهجد، فكان مَن حوله قد سمعوا أن ما نطق به لسانه في لحظاته الأخيرة لم يكن إلا: الله، الله، الله. وفي الحقيقة فلم يكن لسانه ينطق بذلك فقط، بل جسده أيضاً بكل خلاياه وروحه تقول: الله...



والحاصل فإن العبد كي يُسلم روحَه على أحسن حال من الإيمان عليه أن يزكي نفسه أولاً وينقي روحه، بتطهيرها من الميول الخبيثة، وتجميلها بالخصال السنية، لينال تجليات أسماء الله الحسنى، إذ إن بلوغ القلب قوام التقوى بهذه الطريقة أغلى شعلة هداية في طريق الهداية، وكلمات مولانا التالية توضح ماهية التزكية إذ يقول:



«ليس القبر بالحجارة والخشب والجوخ، وإنما يلزمك حفر قبر لك في قلبك الخالي عن أي لوثة، وفي عالم طهارتك الروحية، ولذا لا بد من القضاء على غرورك وذاتيتك في مواجهة وجود الله تعالى العظيم».

وبعد ذلك يجب الاستعداد للعالم الأبدي على أحسن وجه من خلال العبادة والطاعة والإنفاق بنفس مزكاة.

كما أن الحق تعالى يبشر عبده الذي زين حياته بالأعمال الصالحة، ولم يغفل عنه أبداً ببشرى جميلة في آخر حياته فيقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٣٩٧]

أكرمنا ربنا جميعاً بالانتساب إلى من ذكرهم في هذه الآية، آمين!..

٣٩٧ فصلت: ٣٠.

القسم الثاني



الشخصية والسوية القلبية

١ . المحبة

إن المحبة هي متعة حياتنا وفرحها وطمأنينتها وسرورها، وقد عجنت عجينة الوجود بخميرة المحبة، حتى باتت صفة المحبة من أكبر النعم التي أنعم ربنا بها على عباده، ومن هذا المنظور فيجب استخدام المحبة في الأفئدة المدركة حقيقة الصحبة، لكن وللأسف فإن أكثر الناس يضيّعون المحبة -التي هي لطف إلهي- في سبيل شهوات ورغبات فانية ونفسية، وأيُّ قيمة وشرف لقلب قد قَسى إلى حدٍّ لا يشعر فيه بحاجة إلى محبة الله تعالى؟

ويذكر مولانا مثالاً يشتمل على عبرة لمن يضيع رأس مال المحبة في سبيل المخلوقات الزائلة والأغيار، ويحرم من عشق الله تعالى:

«مثل المتعلقين بالدنيا كمثل من يتصيد ظلاً، أنى لظل أن يكون مالاً؟ كصياد أبله ظن ظل العصفور صيداً ثمينا فأراد اصطياده، لكن حماقته قد دُهش منها حتى الطائر القابع فوق الغصن».

ثم إن نسيان «لقاء الحق» -والتي هي الغاية والمقصد الأخير الذي يمكن بلوغه-، والتعلق بإحدى مراحل الحب الزائل من مال وملك ومكانة وثروة وعائلة وأولاد، ما هذا كله إلا تشويه لفطرة الفؤاد ونقاء الروح، وقد ذكر شاعرٌ هذه الحقيقة على النحو التالي:

أخرج الأغيار من فؤادك حتى يتجلى الحق

فالسلطان لا يدخل القصر قبل إعماره



كل ما يطلبه المجنون في الطريق المؤدية إلى المولى عدم تعلقه بليلى التي ذهبت بعقله، أي عدم جعلها المرحلة الأخيرة في مواقف المحبة، وليلى في هذا الطريق الصعب والمؤلم هي إما امرأة لدى بعضهم أو مالاً لدى آخرين أو مكانة ومقاماً عند غيرهم، وهذا -الذي يسمى مجازاً- الحب لا بد أن يكون جسراً للحب الحقيقي.

أ . حب الله ﷻ ومحبته

إن الإنسان حين يعلق قلبه بحب أحد ما فإن ما يناله من هذه المحبة يتوافق مع طبيعة من يحبه، فمن أحب الله تعالى و تعلق قلبه به بلغ الكمال لأنه علق قلبه بمنبع الكمال كله، إذ إن الذات الوحيدة المستحقة للحب الحقيقي هي ذات الله تعالى، منبع كل الحب والمحبة، لأنه:

- هو وحده صاحب القدرة والكمال المطلق الخالق لكل شيء، والمتفضل بالرزق على جميع الأحياء، الذي يحميهم ويراقبهم.
- هو يحب عباده كالأم الرؤوم تحب ابنها، إذ خلق آدم عليه السلام في الجنة بأحسن تقويم وأعظم اعتناء، وهو تعالى يريد دخول عباده جنته، وما جزاء المحبة إلا المحبة. [٣٩٨]
- سهل ويسر لعباده طرق لقائه ومحبته جل وعلا.
- هو وحده من له ملك الدنيا والآخرة.
- سيمثل الإنسان بين يدي الله تعالى في النهاية، ولن يجد ملجأً ولا مأوى وعوناً له سواه سبحانه، فالله رب العالمين نعم المولى ونعم النصير.
- وشكر الله تعالى لا ينتهي، فقد جعلنا من أمة أحب أنبيائه إليه النبي ﷺ وخصَّنا بأكمل كتبه القرآن الكريم، إضافة إلى كل هذه النعم الإلهية التي نتقلب بها.

---

٣٩٨ انظر: المائدة، ٥٤.

وبالتالي فمن مقتضى عبوديتنا توجُّهنا بالحب إلى الله تعالى.

وما من شك في أن المحبة، يختلف تجلّيها من ولي عاشق وعارف إلى آخر، وبسبب هذه التجليات المختلفة نقش مولانا في محيط الكلام الواسع المليء بنار الحب الذي يكوي القلوب، منبعاً للحكمة والمعنى تتدفق من لسانه الحكم وينثر الدرر النفيسة، وقد نال حلاج المنصوري اللقاء الإلهي في إقليم العشق اللاهوتي الذي يفنى فيه المحب في حبيبه، وأما بهاء الدين النقشبندي فقد فني في الله تعالى وبات بحر همة واسعة في التصوف، ومعرفة الله تعالى في طرق الخدمة من خلال اعتنائه بالحيوانات الجريحة والمتألمة، واشتغاله بتنظيف الشوارع، واهتمامه بالمرضى المنبوذين وقضائه لحوائجهم لسنوات طويلة، فالطرق كما نرى مختلفة لكن غاية القلب واحدة لا تختلف، ألا وهو أن يفيض بعشق الله تعالى وحبه...

لقد جعل الحق تعالى جميع أوليائه -الذين نالوا تجليات مختلفة- هدايا للبشرية جمعاء، كبراعم استثنائية في إقليم المحبة بتزويدهم بالعشق وعلم معرفة الله تعالى.

والحاصل، فعلى المؤمن المحب للحق تعالى أن يدرك دوما ويستشعر أنه في الحقيقة لا يملك شيئا، إذ إن الحب لاستلزامه التضحية ينافي الملكية، أي يلزم المحب التخلي عن كل شيء في سبيل الحبيب، ثم إن المحبة تولِّد في الفؤاد ميولاً للإكرام المادي والمعنوي بطبيعة الحال، وهذا يتحقق بحسب شدة المحبة، ولذا فإن الناس يبذلون أثمن الأعواض مقابل حبهم، ويظهر لنا هذا البذل أقصى حدوده في صورة التضحية بالنفس والتخلي عن نعمة الحياة في سبيل المحبوب، تَبَعَاً لشدة الحب.

فطوبى للمؤمنين الذين يجعلون حب الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام فوق كل شيء، ولا يغترون بأزهار الحدائق البرية المزيفة!..



صور الفضيلة

ما من شك في أن الشخصية التي تأتي في القمة حب الله تعالى هي شخصية الرسول ﷺ، حيث كان يكرر مناجاة سيدنا داوود عليه السلام بطلبه لحب الله تعالى في دعائه فيقول:

«اللهم إني أسألك حُبَّك وحُب من يُحبك، والعملَ الذي يبلغني حبَّك، اللهم اجعل حُبَّك أحبَّ إليَّ من نفسي وأهلي ومن الماء البارد»

وكان رسول الله ﷺ إذا ذكر داوود عليه السلام يحدث عنه قال: «**كان أعبد البشر**».[٣٩٩]

وثمة دعاء للنبي ﷺ في هذا الشأن هو على النحو التالي:

«اللَّهُمَّ ارزقني حُبَّكَ وَحُبَّ من ينفعني حُبُّهُ عندك، اللَّهُمَّ ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، اللَّهُمَّ وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغا لي فيما تُحِبُّ».[٤٠٠]

كان عليه الصلاة والسلام في حالة دائمة من ذكر الله تعالى والدعاء في كل أحواله من خلال تفكره في صفاته وتجليات قدرته وعظمته ونعمه التي مَنَّ بها، أخذاً بقاعدة: «المحب لا يفتأ يذكر محبوبه، ويفكر فيه»، فقد بلغت أدعيته التي كان يدعو بها في مختلف الأزمنة والأمكنة من دخوله مكاناً ما، وخروجه منه، وأثناء جلوسه، وقيامه، وشروعه في عمل ما، وعند الفراغ منه، حداً عجز معه الصحابة الكرام عن حفظه كله لكثرته، مما جعلهم يطلبون منه عليه الصلاة والسلام أدعية مختصرة موجزة.



٣٩٩ الترمذي، الدعوات، ٧٢/ ٣٤٩٠.

٤٠٠ الترمذي، الدعوات، ٧٣/ ٣٤٩١.

لقد كان النبي ﷺ الذي قضى حياته كلها في حب الله تعالى وشوق للحظة لقاء ربه تعالى، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

كان رسول اللَّه ﷺ يعوذ بهذه الكلمات:

«**أذهب الباس رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما**»

قالت: فلمّا ثقُل رسول اللَّه ﷺ في مرضه الذي مات فيه أخذْتُ بِيده، فَجعلت أمسحها وأقولهَا، قالت: فَنزعَ يده من يدي وقال:

«**اللهم اغفر لي، وألحقني بالرفيق الأعلى**».[٤٠١]

وفي رواية أخرى:

كان رسول الله ﷺ، وهو صحيح يقول:

«**إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يحيا أو يخير**»

فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت، ثمَّ قال:

«**اللّهم في الرفيق الأعلى**»، قالت عائشة رضي الله عنها: فقلتُ: إذا لا يجاورنا.[٤٠٢]



وفي الحديث:

دخل جبريل على النبي ﷺ، وقال: ملك الموت بالباب، ويستأذن أن يدخل عليك، وما استأذن من أحد قبلك، فقال له:

«**ائذن له يا جبريل**»

---

٤٠١ أحمد، ٦، ١٠٨، ٢٣١/ ٢٤٢٢٨.

٤٠٢ البخاري، المغازي، ٨٤/ ٤٤٣٧؛ أحمد، ٦، ٨٩.



فدخل ملك الموت وقال: السلام عليك يا رسول الله، أرسلني الله أخيِّرك بين البقاء في الدنيا وبين أن تلحق بالله تعالى، فقال النبي ﷺ:

«بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى»

فوقف ملك الموت عند رأس النبي ﷺ وقال: أيتها الروح الطيبة، روح محمد بن عبد الله، اخرجي إلى رضى من الله ورضوان ورب راضٍ غير غضبان. [٤٠٣]

وثمة الكثير من الأمثلة فيما يتعلق بموضوع محبة الله ﷻ من حياة سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فنسرد بعضا منها على وجه التمثيل:

لقد أكرم الله تعالى إبراهيم عليه السلام بقطعان من الغنم لا تحصى، فجاءه جبريل عليه السلام على هيئة البشر، وسأله: لمن هذه القطعان؟ فقال إبراهيم عليه السلام: هي لربي، وهي عندي أمانة، إن ذكرتَ الله مرة لك ثلثُها، وإن ذكرته ثلاثاً هي لك كلها فخذها، فقال جبريل عليه السلام: سبوح قدوس ربنا ورب الملائكة والروح، قالها ثلاثاً، فقال له إبراهيم عليه السلام: خذها فهي لك، فقال جبريل عليه السلام: لستُ بشراً إنما أنا ملك لا آخذها، فقال إبراهيم عليه السلام: أنت ملك، وأنا خليل، لا يليق بي أن أسترجع ما قد أعطيت، وفي نهاية المطاف كان إبراهيم عليه السلام قد باع كل قطعانه، واشترى ملكاً وجعله وقفاً.

أصاب إبراهيم عليه السلام بلاءٌ شديد في نفسه وأولاده وماله، فانقطع في جميعها لربه بإذعان وحب عظيمين، حتى بلغ ذروة العبودية فصار خليل الله.



وفيما يلي حكاية صحابي يظهر الحب الإلهي المركوز في قلبه من خلال كلام الله تعالى:

---

٤٠٣ ابن سعد، ٢، ٢٥٩؛ الهيثمي، ٩، ٣٤ ـ ٣٥؛ البلاذوري، أنساب الأشراف، مصر ١٩٥٩، ١، ٥٦٥.

روي أنّ النبي عليه الصلاة والسلام بعث رجلا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام، فقال:

«سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟»

فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«أخبروه أن الله يُحبّه»[٤٠٤]



قال عمار بن ياسر رضي الله عنه أثناء سيره على ساحل الفرات -وهو على وشك الاشتراك في معركة- مبيناً حُبه لله تعالى:

«اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته، اللهم إنك تعلم لو أني أعلم أن رضاك في أن أضع ظبة سيفي في بطني، ثم أنحني عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت، وإني لا أعلم اليوم عملاً أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين».[٤٠٥]



كان عبد الله بن عمر رضي الله عنه من أغنى أغنياء الصحابة الكرام، لا يفتح مجالاً لتراكم ثروته، بل يوزع ما يحصل عليه إلى المحتاجين والمساكين، وكان يختار أكثر ما يعجبه مما يمتلكه فيضعه كي يُنفق في سبيل الله تعالى، وكان قد بدأ بإعتاق من رآه جيداً من عبيده وبالأخص من علم أنه يصلي منهم، فنبهه أحد أصحابه بأن بعض عبيده يقصدون المسجد كي يُعتقوا، لا يريدون بذلك وجه

٤٠٤ البخاري، التوحيد، ١/ ٧٣٧٥.

٤٠٥ ابن سعد، ٣، ٢٥٨.



الله تعالى، فرد عليه عبد الله بجواب حسن يعكس حبه لله تعالى قائلاً: «من خدعنا بالله انخدعنا له».[٤٠٦]



كان الفضيل بن عياض شخصاً عارفاً فاضلاً، يبكي كثيراً خوفا من الله تعالى، وكان في الوقت ذاته راوياً موثوقاً في رواية الحديث، فالتقى رحمه الله تعالى مرة بالسيدة العابدة الزاهدة شعوانة التي كانت تبكي كثيراً أيضاً حبا لله تعالى وخوفا منه، فسألها الفضيل أن تدعو الله بدعاء، فقالت شعوانة: يا فضيل، أما بينك وبين الله ما إن دعوته استجاب؟ قال: فشهق الفضيل شهقة فخر مغشيا عليه، قال: وقال الفضيل: أعزنا بعز الطاعة ولا تذلنا بذل المعصية.[٤٠٧]



وحسب ما روي فإن الدعاء الذي قاله الحلاج قبل إعدامه، يقدم لنا مدى حبه وإخلاصه لله تعالى إذ يقول:

«يا رب، قد اجتمع عبادك –تقربا لك وإقامة لدينك– كي يقتلوني، فاعف عنهم، لأنك لو أكرمتهم بالأسرار التي مَنَنْت عليَّ بها لَمَا حكموا عليَّ بهذا، فلو أنك أخفيت عني ما أخفيته عنهم لما أفشيت ذلك على هذا النحو، يا ربي، اصفح عنهم! لأنهم يوصلونني إليك».

وينقل من شاهد حالة الحلاج في عالم المعنى، أنه لما وضعوه في المشنقة أتاه إبليس فسأله: كلانا قال «أنا»، فلمَ تتنزل عليك الرحمة وعلي الغضب؟ فأجابه: إنك بقولك «أنا» جعلت نفسك فوق آدم وأظهرت تكبرك، لكنني بقولي: «أنا الحق» أفنيت ذاتي في الحق، وأنانيتك نابعة من الكبر والعجب فهوت بك في

---

٤٠٦ ابن الأثير، أسد الغابة، ٣، ٣٤٣.

٤٠٧ ابن الجوزي، صفات الصفوة، ٤، ٥٦.

جهنم، وأما أنانيتي فهي نابعة من الفناء في الحق لتعبر عن أني صرت لاشيء، لذا نزلت الرحمة فوقي واللعنة والغضب فوقك.

ويروى أن إبراهيم بن فاتكة زار الحلاج فقال له:

«يا بني، يظن بعض الناس أني واقع في الكفر، والبعض الآخر على أني ولي، وأحسب أن من يعلن كفري هم أحب عندي وعند الله ممن يقول بولايتي، ولما سئل عن ذلك قال: يبني المتيقنون من ولايتي ظنهم على حسن الظن بي، وأما الذين يكفرونني فبسبب حميتهم لدينهم، ومن يخلص في دينه أحبُّ عند الله تعالى من الظّانّ خيراً».



ويا له من تعبير رائع ما يقوله مولانا في الاكتواء بالعشق الإلهي والفناء بالله سبحانه وتعالى، وأن النار الملتهبة في روحه لن تنطفئ حتى بالموت:

«افتح قبري بعد موتي وانظر إلى الدخان المتصاعد من كفني بسبب حرارة جوفي! إن ما يجعل الموت مخيفاً هو قفص هذا الجلد، فإن كسرت هذا الجلد -كصدفة- بالعشق، سترى أنت أيضاً شَبَهَ الموت بالدُّرَّة!..» .

وأهم ما يميّز أولياء الله تعالى، احتراقهم بالعشق الإلهي واكتواؤهم به، لقد بحث مولانا أيضاً عن العشاق الحقيقيين الذين اكتووا على هذا النحو طوال حياتهم وهو في حالة العشق التي بينها سابقاً، وينقل لنا رغبته هذه على النحو التالي:

«إني في حاجة إلى عشق تقوم من لهيبه القيامة بداخلي، ويجعل النار رماداً باشتعال فؤادي!..».





قال أحد صحب معروف الكرخي له:

«يا معروف، ما الذي يحملك على كل هذه العبادة، فصمت، فأصرَّ صاحبه على السؤال بقوله: أهو تذكر الموت؟

فأجاب معروف الكرخي: وما الموت؟

فسأله: أهو التفكر بالقبر وحياة البرزخ؟

فأجابه: وما القبر؟

وسأله صاحبه مُصِرَّاً: أهو الخوف من جهنم، أو الطمع في الجنة، فأجابه معروف الكرخي بهذا الجواب الرائع إذ قال: إنها كلها ليست بشيء، إن الذات العظيمة التي في يدها كل ما ذكرته لرب كبير، فإن قدرت أن تُكِنَّ له حباً عميقاً وشوقاً كبيراً، ينسيك ذلك كلَّ ما ذكرته، إذ تظهر محبة بينك وبين الله تعالى، وبهذا يخلصك من كل ما عددت». [٤٠٨]



ومن الملفت للانتباه حال مجنون ليلى التالي من حيث عكسه بوضوح حال من نال محبة الله تعالى:

اغتم مجنون ليلى ذات يوم لبقائه بعيداً عن ليلاه، فجعله المرض طريح الفراش، فطلبوا طبيباً لمعالجته، فقال الطبيب: ليس لنا إلا بأخذ دم من عرقه، وربط يده للحجامة، وكان قد تناول المبضع فقال له مجنون: أيها الطبيب، دع الحجامة، وخذ أجرك وارحل، فما من ضرر إن مت من هذه العلة، ليمت هذا البدن المتصلب، فما من أمر يحصل إن مات.

فسأل الطبيب مجنوناً وهو في حيرة: كيف تخاف من سحب دم، وأنت الذي لا تخشى الأسود المزمجرة في الصحارى؟ فكان جواب مجنون ليلى:

---

٤٠٨ بابان زادة أحمد نعيم، أسس الأخلاق الإسلامية، اسطنبول ١٩٦٣، ص: ٦٦.



ليس خوفي من المبضع ... فالكل يعلم أن صبري وتحملي أكبر من جبل صلب، فأنا لست أخشى أيَّ شيء ولا أملك شيئاً يعلقني بالدنيا ولو إصطبلاً، فإن جلدي الفاني هذا لا يلقى الراحة إن لم يجرح، فالجراح مراهم لعشقي، ولذا آتيها مسرعاً...

إلا أن جسدي يفيض بليلى فما من وجود لشيء غير ليلى في داخلي، وبدني هذا الذي يبدو كصدف، محشو بصفات تلك اللؤلؤة، ولذا أيها الطبيب: فإني أخشى أن يصيب المبضع ليلى فجأة وأنت تحجمني، فتجرحها أو تؤذيها...

ثم إن أولياء الله الخاصة يعلمون أنه ما من فرق بيني وبين ليلى.

وبعد انقضاء سنوات تأتي ليلى مجنوناً، لكنه لا يهتم بها، فتقول ليلى: ألست أنت مَن تاه في الصحارى لأجلي؟ فأجابها المجنون: لقد ذابت ليلى التي كانت ظلاً وتبعاً وزالت.

فأضحت ليلى التي كانت فيما مضى غاية مجنون في حياته خطوة في المحبة الإلهية، ولما وجد مجنون مكانه في عالم المحبة الإلهية الذي بحث عن حقيقته، كان دور ليلى قد انتهى.

فإن ليلى المذكورة في حكايا المثنوي هي رمز العشق الإلهي الذي تفنى فيه الذات في الحق، وبعبارة أخرى فإن ليلى أفق عشق إلهي يجعل القلوب مجنونة ويمحو الإرادة البدنية، وانطلاقاً من هذا فإن مغامرات المحبة التي تتفتح بأمثال ليلى إن نالت السكون في المولى، تكتسب قيمة عليا.



هامَ المجنون على وجهه في الصحراء من حبه لليلاه، فرأى في البيداء كلباً تساقط وبره وسال لعابه، فلاعبه ولاطفه، وقبّل ما بين عينيه، فلامه من رآه قائلاً: أيها المجنون! ما هذا الجنون الذي تفعله؟ لم تحتضن هذا الحيوان وتقبله؟ فأجاب المجنون قائلاً:



إن فؤاداً يكتوي بنار الحب الإلهي، يحب بهذا الحب جميع مخلوقاته، فكل ما يذكّره بالله تعالى يقدم له قيمة لا تقدر بثمن حسب قربه منه.



وينقل لنا ولي من أولياء الله تعالى هذه الحادثة التي تظهر ثمرة محبة الله تعالى فيقول:

كنت أمر بسهل واسع وموحش، فصادفت راعياً غريباً، فرأيته يصلي في خشوع عميق، والذئاب تحرس قطيعه، فتعجبت لأمره، ومكثت انتظر بفضول فراغه من صلاته، وقلت له: أيها الراعي، كيف للذئاب أن تغدو مسالمة للغنم؟ وماذا حلَّ بروح العداوة والافتراس فيها حتى تبدلت إلى الصلح والمحبة؟

فأجاب الراعي المنوَّر من أثر السجود: يا أخي إن السرّ في هذه الصداقة بين الذئاب والخراف، مرتبط بالصحبة بين الراعي والمالك الحقيقي للقطيع والذئاب، أي إن هذه الحال سرٌّ في المحبة.



المحب يضحي بكل ما لديه في سبيل الحبيب، والحادثة التي يذكرها ملا جامع قدّس سرّه من هذا القبيل:

«كان ثمة شاب يحضر حلقة مجلس شيخنا مولانا سعد الدين قشغري، وكان هذا الشاب قد بلغ أقصى درجات الزهد والعشق، وحاله كحالي إذ وقع وتعلق بجمال فان، وبهذا فقد كان حول القيم التي جمعها في فؤاده في لحظة إلى تلك المحبة، وقد كان اشترى هدية أثمن من الذهب والماس ووضعها في طريق ذلك الجميل وخبأها في مكان بحيث لا يأخذها أحد من المارة، فكان في ظنه أن الحبيب سيمر من هناك ويرى الهدية ويأخذها، لكنه سيجهل ممن وكيف، ولما علمت بالأمر قلت له: يا لغرابة أمرك، تترك ما حصلت عليه بمشقة في طريقه، فلو هو وجده ورآه وأخذه فإنه لن يعلم ممن ولم أبداً، فهلا فعلت أمراً يوضح أنها منك.



فأجاب الشاب وقد اهتز والدموع تنهمر من عينيه: ما الذي تقوله أنت، أوتظن أني أجهل غرابة ما أقوم به، إلا أني لا أنتظر أي مقابل لما أفعله، إذ إني لا أريد أن أجعله ممتناً لي لأجل الهدايا».

فأصابتني رعشة من هذا الجواب، فإن قدّم حبٌ فانٍ مثل هذا العمق والدقة والسماح، فمي يدري التجليات العلوية التي ستظهر فيمن نال محبة الذات.



وفي النتيجة فإن النبي عليه الصلاة والسلام قد قال:

«إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ...»[٤٠٩]

وعليه فإن الله تعالى صاحب كل الحسن يعتبر أيضاً منبع الحب الحقيقي، لأنه ودود، [٤١٠] وهذ الاسم الشريف كما أنه في معنى المحب كثيراً فهو أيضاً في معنى الْمُحَبِّ بشدة، ولذا وظيفة المؤمن في أن يكون باب رحمة بزرعه المحبة في قلوب المؤمنين، لأن المؤمن طالما لم يجعل حبه لله فوق كل حب وتعلُّق بما سواه تعالى، لا يصل إلى الصراط المستقيم بحقه، يقول الحق ﷻ:

﴿... وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ...﴾[٤١١]

وثمة آية أخرى تفيد لزوم هذه الحال للمسلمين، إذ يقول:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٤١٢]

٤٠٩ أحمد، مسند، جـ ٦، ٣٣٨/ ٣٧٨٩.

٤١٠ انظر: مسلم، تحريم الكبر، ١٤٧/ ٩١.

٤١١ البقرة: ١٦٥.

٤١٢ التوبة: ٢٤.



ومما لابد منه معرفة الله بالقلب أي التمكن من الحصول على تجليات أسماء الله الحسنى، لتأمين محبة الله تعالى. ثم إن ذكر الحق تعالى يكون وسيلة للترقي في استقامة محبة الله تعالى، إلا أن هذا الترقي يتحقق بحسب كيفية هذا الذكر أي سويته المحسوسة في القلب. يقول عليه الصلاة والسلام:

«من علامة حب الله تعالى ذكره، ومن علامة بغض الله بغض ذكره».[٤١٣]

وللتقدم في استقامة محبة الله تعالى، ينبغي على القلب أن يكتسب جدارة وكفاءة بإمكانه تحمّلها، وأما هذا فيمكن الحصول عليه بتمارين المحبة البشرية،ولذا يُنظر إلى العشق البشري الذي هو ضمن إطار المقاييس المشروعة بعين الرضا والسماح لأنه يعد تجهيزاً للقلب، ويكون ذلك باسم "العشق المجازي"، وهو كالحب الذي يكنّه الشخص لعائلته...

والوصول إلى محبة الله تعالى بالاستمرار في هذا الحال يعني تحقيق الإنسان لغاية خلقه، وبالتالي نيل رضا الله تعالى، إذ إن ذروة التكاليف الإلهية المْمنوحة للبشر والمقصد النهائي في الإسلام هو أن يكون الإنسان «واصلاً إلى الله»، وأهم رأس مال هذا المحبة، وأما سائر الأعمال فليست إلا مظاهر لهذه المحبة.

فالمؤمن الواصل إلى معرفة الله تعالى ومحبته، يبتعد عن شر نفسه ومكائد الشيطان، ويعيش طالباً رضا الحق تعالى لا غير، وتتباعد صفحات كتاب المخلوقات له فيغدو صاحباً لها كلها، أي يكتسب النظر إلى الخلق بعين الخالق، فيغوص في تأمّل تدفقات الحكمة الإلهية والأسرار في الكون، ويحاول زيادة العبادات النافلة وأعمال الخير بكمال الأدب والتعظيم والشوق على الرغم من عدم إلزاميتها ولا يحمله على ذلك سوى العشق والمحبة النابعين من القلب، بعدما أوفى الحد الأدنى لما كلفه الله به من وظائف العبودية الملزمة والضرورية بخشوع كبير، ويصل بقضائه على جملة اللذائذ النفسية إلى أن سر اللذة الحقيقية هو الإيمان.

---

٤١٣ السيوطي، ٢، ٥٢.



ب . محبة رسول الله ﷺ

الصلاة والسلام على سيد الكونين محمد المصطفى!..

الصلاة والسلام على نبي الثقلين محمد المصطفى!..

الصلاة والسلام على إمام الحرمين محمد المصطفى!..

الصلاة والسلام على جدّ الحسنين محمد المصطفى!..

إن أعظم ذروة في مراحل الحب البشري هي المحبة المكنونة لرسول الله ﷺ، فلا يتصور وجود إنسان أحق بالمحبة منه، إذ إن:

- جميع المخلوقات تدين في إيجادها للمحبة التي يخصّه الله تعالى بها.
- رسول الله ﷺ وسيلة لخلاص عالَمي الإنس والجن من العذاب الأبدي في الآخرة، بتعريفه إياهم بالحقيقة الأزلية والأبدية.
- الله تعالى قدم نعم القرآن والإسلام لعباده في قلبه الطاهر.
- ما تعرض له النبي عليه الصلاة والسلام من معاناة وبلاء في سبيل هداية الخلق لم يتعرض له أي بشر.
- النبي ﷺ مفعم بشفقة ورحمة واسعتين للمؤمنين، فهو منبع رحمة لا ينقطع، يهتم لأمته عظيم الاهتمام، ويثقل عليه ما قد يصيبهم من المحن.[٤١٤]
- النبي ﷺ شخصية نموذجية ومثالية في العبودية.
- وهو أيضاً أعظم وسيلة توصِل العباد إلى معرفة الله تعالى.
- وهو الوحيد الذي أقسم الله تعالى بحياته من بين جميع الأنبياء عليهم السلام، إذ قال: «لعمرك»، وبهذا يكون قد ركّز كل اهتمام أمته بحياة النبي النموذجية عليه الصلاة والسلام.

---

٤١٤ انظر: التوبة، ١٢٨.

- لقد علّق الله تعالى محبته ومغفرته بإطاعة حبيبه الأكرم، تقول الآية الكريمة على لسان النبي ﷺ:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٤١٥]

- حبنا للنبي ﷺ وسيلة لإنقاذنا من العذاب الإلهي، إذ يقول الحق ﷻ:

﴿وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٤١٦]

فحياة النبي ﷺ بين المؤمنين وقاية وحماية وأمان لهم من سخط الله تعالى وعذابه.

- أهم شيء أن الحق تعالى أحبه وناداه بحبيبي،[٤١٧] وحب حبيب الله تعالى شرف ما بعده شرف.

وبعد ذلك فعلينا نقش اسم ذلك السلطان الفريد والصلاة عليه في قلوبنا بخط محبة لا يمحى، حتى تبدأ قلوبنا باكتساب مكانة تليق بالقيمة العلية المعطاة إليه.

ثم إنه لا بد من التذكير بأمر ألا وهو أنه حتى النبي عليه الصلاة والسلام ليس بهدف نهائي للمحبة، فالذات الوحيدة التي ينبغي أن تخصص بالمحبة هو خالق الكائنات كلها، وأما حبنا للحبيب الأكرم فهو أهم وسيلة وواسطة تبلغنا معرفة الله تعالى ومحبته.

---

٤١٥ آل عمران: ٣١.

٤١٦ الأنفال: ٣٣.

٤١٧ انظر: الترمذي، المناقب، ١/ ٣٦١٦؛ الدارمي، المقدمة، ٨؛ أحمد، ٦، ٢٤١.

صور الفضيلة

كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين يلتفون حول النبي عليه الصلاة والسلام، ويبادرونه بقولهم بأبي أنت وأمي يا رسول الله فداك مالي ونفسي، في كل ما يقوله ويأمر به حتى ولو أومأ إيماءة بسيطة، وكان من يتمكن من لمس جلده يفتخر بذلك. ويقول: «بايعت النبي بيدي هاتين».[418]

وأبو أسماء الشامي، واحد من أمثلة هذا الموضوع: كان قد قَدِمَ على النبي عليه الصلاة والسلام رسولاً، وبعد أن تعلّم بعض الأمور من مواضيع الإسلام الأساسية والتي ينبغي عليه تبليغها لقبيلته التي جاء ممثلاً لها، بايع رسول الله، يقول رضي الله عنه:

«وفدت على رسول الله ﷺ فبايعته، وصافحني رسول الله ﷺ، فآليت على نفسي ألا أصافح أحداً بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام، قال: فلم يكن أبو أسماء يصافح أحداً»[419]



وقد كانت محبة الصحابة الكرام للرسول عليه الصلاة والسلام بالغة حداً يجعل الصحابيات رضوان الله عليهن يوبخن أولادهن إن هم غابوا عن النبي مدة طويلة، فعن حذيفة رضي الله عنه قال:

«سألتني أمي متى عهدك -تعني بالنبي ﷺ- فقلت ما لي به عهد منذ كذا وكذا، فنالت مني، فقلت لها دعيني آتي النبي ﷺ فأصلي معه المغرب، وأسأله أن يستغفر لي ولك ...»[420]

---

418 ابن سعد، ٤، ٣٠٦؛ الهيثمي، ٩، ٤٢.

419 ابن حجر، الإصابة، ٤، ٧.

420 الترمذي، المناقب، ٣٧٨؛ أحمد، ٥، ٣٩١، ٢.



وعن جبلة بن حارثة ﵁ قال:

قدمت على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله! ابعث معي أخي زيداً، قال: «**هو ذا، فإن انطلق معك لم أمنعه**» قال زيد: يا رسول الله، والله لا أختار عليك أحداً، قال: فرأيت رأي أخي أفضل من رأيي.[٤٢١]



قصد مصعب بن عمير ﵁ الذي كان على رأس القافلة في بيعة العقبة الثانية النبي ﷺ قبل ذهابه إلى بيته، وأخبره بسرعة قبول أهل المدينة للإسلام، فسرّ النبي عليه الصلاة والسلام للأخبار التي جاء بها مصعب ﵁.

وقدوم مصعب بن عمير إلى النبي عليه الصلاة والسلام أولاً قبل بيته أغضب أمه، إلا أنه قال ﵁:

«إني لا آتي أحداً قبل رسول الله ﷺ، فلا أقدم أحداً عليه»، ثم استأذن النبي عليه الصلاة والسلام في الذهاب إلى أمه حتى جاءها ودعاها إلى الإسلام.[٤٢٢]



جعل أبو بكر ﵁ يمشى مرة أمام النبي ﷺ، ومرة خلفه، ومرة عن يمينه، ومرة عن شماله أثناء الهجرة إلى المدينة، فسأله الرسول عليه الصلاة والسلام عن ذلك، فقال: يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك، فلما انتهيا إلى فم الغار قال أبو بكر: والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله قبلك، فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك، فدخله فجعل يلتمس بيده، فجعل كلما دخل جحرا قام إلى ثوبه

---

٤٢١ الترمذي، المناقب، ٣٩/ ٣٨١٥.

٤٢٢ ابن سعد، ٣، ١١٩.

فشقه ثم ألقمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع، فبقي جحر فوضع عقبيه عليه، ثم دخل رسول الله عليه الصلاة والسلام فجعلت الحيات يلسعن أبا بكر ﵁ وجعلت دموعه تنحدر، ولما أصبح رسول الله عليه الصلاة والسلام قال لأبي بكر أين ثوبك؟ فأخبره بالذي صنع فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال:

«**اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي في الجنة**». [٤٢٣]

وجدَّتْ قريش في طلبهما، وأخذوا معهم القافلة، حتى انتهوا إلى باب الغار فوقفوا عليه، فقال أبو بكر ﵁، يا رسول الله: لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا، فقال رسول الله ﷺ:

«**يا أبو بكر ما ظنك باثنين، الله ثالثهما**»، وفي رواية: «**يا أبا بكر لا تحزن، إن الله معنا**». [٤٢٤]

وفي الغار وضع رأس النبي عليه الصلاة والسلام رأسه الشريفة على رجل أبي بكر ونام، أما أبو بكر فقد لدغه شيء في رجله فتألم لكنه ما تحرك حتى لا يوقظ النبي ﷺ، فدمعت عين أبي بكر فسقطت على وجه النبي عليه الصلاة والسلام، فاستيقظ قال: «**مالك يا أبا بكر**»، قال: لا شيء يا رسول الله، قال: «**مالك؟**» [٤٢٥] قال: لَدَغَنِي شيء في رجلي، قال: «**أرني إيَّاها**»، فرآها فدعا الله وَنَفَثَ على قدمه فَبَرِئ ﵁.[٤٢٦]



---

٤٢٣ انظر: الحاكم، ٣، ٧/ ٤٢٦٨؛ ابن كثير، البداية، ٣، ٢٢٢ ـ ٢٢٣؛ علي القاري، المرقاة، بيروت، ١٩٩٢، ١٠، ٣٨١ـ٣٨٢/ ٦٠٣٤.

٤٢٤ ابن كثير، البداية، ٣، ٢٢٣ ـ ٢٢٤؛ ديار بكري، التاريخ الخامس، بيروت، ١، ٣٢٨ـ٣٢٩.

٤٢٥ البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تعليق: عبد المعطي قلعجي، بيروت ١٩٨٥، ٢، ٤٧٧؛ ابن كثير، البداية، ٣، ٢٢٣.

٤٢٦ علي القاري، المرقاة، ١٠، ٣٨١ـ٣٨٢/ ٦٠٣٤.



ذكرَ رجال على عهد عمر رضي الله عنه فكأنهم فضَّلوا عمر على أبي بكر رضي الله عنهما، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فقال:

«والله لَلَيْلَةٌ من أبي بكر خير من آل عمر، وليومٌ من أبي بكر خيرٌ من آل عمر، لقد خرج رسول الله ﷺ لينطلق إلى الغار ومعه أبو بكر،...»[٤٢٧]



يوضح البراء رغبة أبيه الدائمة لسماع أية حادثة لرسول الله في كل فرصة فيقول:

«اشترى أبو بكر رضي الله عنه من عازب رحلاً بثلاثة عشر درهماً، فقال أبو بكر لعازب: مُرِ البراء فليحمل إليَّ رحلي، فقال عازب: لا، حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حين خرجتما من مكة والمشركون يطلبونكم...»

فسرد أبو بكر رضي الله عنه حادثة الهجرة مطولاً.[٤٢٨]



تكلم سيدنا سعد بن معاذ مع النبي ﷺ يوم بدر بعدما استقر جيش الإسلام في مكانه، فقال له كلاماً يبين مدى محبته له عليه الصلاة والسلام واهتمامه به، إذ قال:

«يا نبي الله، ألا نبني لك عريشا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام –يا نبي الله– ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرا، ودعا له بخير، ثم بني لرسول الله ﷺ عريش، فكان فيه»[٤٢٩]



٤٢٧ الحاكم، المستدرك، ٣، ٧/ ٤٢٦٨.

٤٢٨ البخاري، أصحاب النبي، ٢؛ أحمد، ١، ٢.

٤٢٩ ابن هشام، ٢، ٢٦٠؛ الواقدي، ١، ٤٩.



وفيما يلي حادثة ذات عبرة يسردها لنا سيدنا عبد الرحمن بن عوف ﵁ تبين أن أصحاب النبي ﷺ قد عجنوا كلهم صغارا وكبارا بحبه، فيقول:

«بَيْنَمَا أنا واقف في الصف يوم بدر، فنظرت عن يميني وعن شمالي، فإذا أنا بغلامين من الأنصار - حديثة أسنانهما، تمنيت أن أكون بين أضلع منهما - فغمزني أحدهما فقال: يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم، ما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أخبرت أنه يسب النبي ﷺ، والذي نفسي بيده، لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر، فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، قلت: ألا إن هذا صاحبكما الذي سألتماني، فابتدراه بسيفيهما، فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى النبي ﷺ، فأخبراه فقال: «**أيكما قتله؟**»، قال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: «**هل مسحتما سيفيكما؟**»، قالا: لا، فنظر في السيفين، فقال: «**كلاكما قتله، سلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح**»، وكانا معاذ ابن عفراء، ومعاذ بن عمرو بن الجموح».[٤٣٠]



قال نور الوجود ﷺ في غزوة أحد لما جرح وجه الشريف:

«**أشتد غضب الله على من دمىّ وجه نبيه...**»

والذي قد أصاب وجه رسول الله ﷺ، هو عتبة بن أبي وقاص، وقد حرص الصحابي سعد أبن أبي وقاص على قتل عتبة بن أبي وقاص، وقال: والله ما حرصت على قتل رجل قط، كحرصي على قتل عتبة بن أبي وقاص،.. ولقد كفاني رسول الله ﷺ في قوله : أشتدّ غضب الله على من أدمّى وجه نبيه.... [٤٣١]



٤٣٠ البخاري، المغازي، ١٠/ ٣١٤١؛ مسلم، الجهاد، ٤٢.

٤٣١ الواقدي، ١، ٢٤٥.



أبصر طلحة بن عبيد الله ﷺ جانب المعركة التي يقف فيها النبي ﷺ، فألفاه قد صار هدفا لقوى الشرك والوثنية، فسارع نحو الرسول وراح ﷺ يجتاز طريقا ما أطوله على قصره..! طريقا تعترض كلَّ شبر منه عشرات السيوف المسعورة والرماح المجنونة، ورأى النبي ﷺ من بعيد يسيل من وجنته الدم ويتحامل على نفسه، فجنّ جنونه، وقطع طريق الهول في قفزة أو قفزتين وأمام الرسول وجد ما يخشاه.. سيوف المشركين تلهث نحوه، وتحيط به تريد أن تناله بسوء، ووقف طلحة كالجيش اللجب، يضرب بسيفه البتار يمينا وشمالا،ورأى دم الرسول الكريم ينزف، وآلامه تئن، فسانده وحمله بعيدا عن الحفرة التي زلت فيها قدمه، كان يساند النبي ﷺ بيسراه وصدره، متأخرا به إلى مكان آمن، بينما بيمينه، بارك الله يمينه، تضرب بالسيف وتقاتل المشركين الذين أحاطوا بالرسول. [٤٣٢]



«وحين رمى مالك بن زهير الرسول ﷺ «يوم أُحد» اتقى طلحة بجسمه السهام عن الرسول الكريم ﷺ، وكان يتقي النبل عنه بيده حتى شلت يده». [٤٣٣]



عن أنس ﷺ، قال:

«لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مجوب عليه بحجفة له، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثا، وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل، فيقول: «انثرها لأبي طلحة» قال: ويشرف النبي عليه الصلاة والسلام ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي، لا تشرف، يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك، ولقد رأيت

---

٤٣٢ الواقدي، ١، ٢٤٥.

٤٣٣ ابن سعد، ٣، ٢١٧.



عائشة وأم سليم ﵄، وإنهما لمشمرتان، أرى خدم سوقهما تنقزان القرب على متونهما تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم، ولقد وقع السيف من يدي أبي طلحة إما مرتين وإما ثلاثا». [٤٣٤]



وقد روي أن قتادة بن النعمان وقف أمام رسول الله ﷺ يوم أحد يرمي السهام دونه، فأصيبت عينه حتى سالت على خده، فردها رسول الله ﷺ مكانها، فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى. [٤٣٥]



وهذه أم عمارة من الصحابيات -رضوان الله عليهن أجمعين- لما رأت تغير الظروف رمت السقاء واستلت السيف، فقاتلت به دون الحبيب المصطفى ﷺ، حتى قال عليه الصلاة والسلام عنها:

«ألتفت يميناً فإذا بـأم عمارة تذود عني، ألتفت يساراً فإذا بـأم عمارة تذود عني»[٤٣٦]



ثم إن أم عمارة لما سمعت صوت النبي ﷺ وهو يدعو لها والدم ينفجر منها صاحت: ادع الله أن نرافقك في الجنة، فأتاها الجواب منه ﷺ:

«اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة»،

فهتفت ﵂: والله ما أبالي ما أصابني من الدنيا بعد اليوم» [٤٣٧]



٤٣٤ البخاري، المغازي، ١٨.

٤٣٥ الحاكم، ٣، ٣٣٤/ ٥٢٨١؛ الهيثمي، ٦، ١١٣؛ ابن سعدو ٣، ٤٥٣.

٤٣٦ ابن حجر، الإصابة، ٤، ٤٧٩.

٤٣٧ الواقدي، ١، ٢٧٣؛ ابن سعد، ٨، ٤١٥.



مر أنس بن النضر ﷺ بقوم من المسلمين ألقوا أيديهم وانكسرت نفوسهم فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: قُتل رسول الله ﷺ، فقال: وما تصنعون بالحياة بعده؟. قوموا، فموتوا على ما مات عليه، ثم استقبل المشركين فما زال يقاتلهم حتى قتل.[٤٣٨]



لمَّا كان يوم أُحد قال رسول الله ﷺ:

«من يأتيني بخبر سعد بن الربيع الأنصاري»

فقال رجل: أنا يا رسول الله. فذهب الرجل يطوف بين القتلى، فقال له سعد بن الربيع: ما شأنك؟ فقال له الرجل: بعثني إليك رسول الله ﷺ لآتيه بخبرك، قال: فاذهب إليه فاقرأه مني السلام. وأخبره أني قد طعنت اثنتي عشرة طعنة. وأني قد أنفذت مقاتلي. وأخبر قومك أنه لا عذر لهم عند الله، إن قتل رسول الله ﷺ وواحد منهم حي.[٤٣٩]



وروي:

أنّ عائشة ﷺ خرجت من المدينة تتطلّع لأخبار معركة أُحد، ومعها نسوة من المدينة، فالتقت بهند بنت عمرو بن حرام تسوق بعيراً لها عليه جثّة زوجها عمرو ابن الجموح، وابنها خلاّد بن عمرو، وأخوها عبد الله بن عمرو بن حرام، أبو جابر ابن عبد الله الانصاري، فقالت لها عائشة: فما وراءك؟ قالت هند: أمّا رسول الله فهو بخير، وكلّ مصيبة بعده جلل... .[٤٤٠]



٤٣٨ أحمد، ٣، ٢٥٣؛ ابن هشام، ٣، ٣١.

٤٣٩ الموطأ، الجهاد، ٤١؛ الحاكم، ٣، ٢٢١/ ٤٩٠٦؛ ابن هشام، ٣، ٤٧.

٤٤٠ الواقدي، ١، ٢٦٥؛ ابن حجر، فتح الباري، دار الفكر، ٣، ٢١٦؛ ابن عبد البر، الإصابة، القاهرة، ٣، ١١٦٨.

وثمة صورة أخرى ذات عبرة في أحد وهي: اهتزت المدينة بخبر قتل محمد، فعلا الصراخ في أنحاء المدينة، وبلغ النحيب العرش، وقصد الجميع الطرق، طالبين للخبر، فلما لاح للسميراء الأنصارية فارس يقترب نهضت إليه تستوقفه، وتسأله عن أخبار المعركة، فعرفها الفارس فنعى إليها ولديها النعمان وسليم، فما زادت أن قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، وعادت إلى الرجل تقول: يا أخا الإسلام، ما عنهما سألتك، أخبرني ما فعل رسول الله ﷺ؟ قال الرجل: خيراً إن شاء الله، هو بحمد الله على خير ما تُحبين، قالت: أرنيه انظر إليه، فأشار إليه، فقالت -وقد تهلل وجهها، ونسيت مصيبتها بولديها-: كلُّ مصيبة بعدك جلل يا رسول الله.[٤٤١]

هذه هي قمة المحبة التي كان الصحابة يُكِنُّوها للرسول عليه الصلاة والسلام، وهذه هي التضحيات ونماذج الفضيلة التي كانت قلوب المؤمنين الفائضة بهذا الحب تقدمها...



مر رسول الله ﷺ بشهداء أحد فقال: «**هؤلاء أشهد عليهم**»

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ألسنا يا رسول الله بإخوانهم، أسلمنا كما أسلموا، وجاهدنا كما جاهدوا؟

فقال رسول الله ﷺ: «**بلى، ولكن لا أدري ما تُحدثون بعدي؟**»

قال: فبكى أبو بكر رضي الله عنه -وكان لا يحتمل فراق النبي ﷺ ولو للحظة-، وقال: أئنا لكائنون بعدك؟. -معبراً بذلك عن قلقه وحزنه في شأن الحياة بعده ﷺ-».[٤٤٢]



---

٤٤١ الواقدي، ١، ٢٩٢؛ الهيثمي، ٦، ١١٥.

٤٤٢ الموطأ، الجهاد، ٣٢.



وقد روي أن قبيلتي عضل وقارة بعثوا بمجموعة إلى المدينة وطلبوا من الرسول الله أن يبعث معهم من يعلمهم وكانت مكونة من ١٠ صحابة عليهم عاصم بن ثابت، فلما وصلوا إلى منطقة الرجيع أغارو عليهم بنو لحيان وكانوا متفقين مع قبيلة عضل وقارة على الخيانة، فمات ٧ من المسلمين وبقي ثلاثة فأعطوهم الأمان، وأما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة، فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة، فقال له أبو سفيان حين قَدِمَ ليُقتل: أنشدك بالله يا زيد، أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحبُّ أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وإني جالس في أهلي، قال: يقول أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمدا، وقد كانت لخبيب بن عدي ﵁ رغبة واحدة قبل موته، وهي إرسال سلام إلى النبي عليه الصلاة والسلام، لكن أنى له ذلك، ومع من؟ فتوجه ببصره نحو السماء قائلاً: اللهم إني قد بلَّغت رسالة رسولك، فبلغ عنا نبيك فإني أحب أن يبلغه مني السلام قبل الموت، فينزل جبريل من السماء: يا رسول الله، خبيب بن عدي يقرئك السلام، وسيقتلونه الآن.[٤٤٣]



كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يهتاجون أحياناً في حب الرسول ﷺ إلى درجة أنهم يعجزون عن تقاسم النبي بينهم، قال كعب بن عجرة ﵁:

«جلسنا يوما أمام بيوت رسول الله ﷺ في المسجد في رهط منا معاشر الأنصاري ورهط من المهاجرين ورهط من بني هاشم، فاختصمنا في رسول الله ﷺ أينا أولى به وأحب إليه؟ قلنا: نحن معاشر الأنصار آمنا به واتبعناه، وقاتلنا معه، وكتيبته في نحر عدوه، فنحن أولى برسول الله ﷺ وأحبهم إليه، وقال إخواننا المهاجرون: نحن الذين هاجرنا إلى الله ورسوله، فارقنا العشائر والأهلين

٤٤٣ انظر: البخاري، الجهاد، ١٧٠، المغازي، ١٠، ٢٨؛ الواقدي، ١، ٣٥٤ ـ ٣٦٣.



والأموال، وقد حضرنا ما حضرتم وشهدنا ما شاهدتم، فنحن أولى الناس برسول الله ﷺ وأحبهم إليه، فقال إخواننا من بني هاشم: نحن عشيرة رسول الله ﷺ، قد حضرنا الذي حضرتم وشهدنا الذي شهدتم، فنحن أولى برسول الله ﷺ وأحبهم إليه، فخرج إلينا رسول الله ﷺ، فأقبل علينا فقال: «**إنكم لتقولون شيئا؟**» فقلنا مثل مقالتنا، فقال للأنصار: «**صدقتم من يرد هذا عليكم**»، وأخبرناه بما قال إخواننا المهاجرون، فقال: «**صدقوا وبروا من يرد هذا عليهم**»، وأخبرناه بما قال بنو هاشم: فقال: "**صدقوا وبروا من يرد هذا عليهم**"، ثم قال: «**ألا أقضي بينكم؟**» قلنا: بلى بأبينا وأمنا أنت يا رسول الله، فقال: «**أما أنتم يا معشر الأنصار فإنما أنا أخوكم**»، فقالوا: الله أكبر ذهبنا به ورب الكعبة، «**وأما أنتم معشر المهاجرين فإنما أنا منكم**»، فقالوا: الله أكبر ذهبنا به ورب الكعبة، «**وأما أنتم بنو هاشم فأنتم مني وإلي**»، فقمنا وكلنا راض مغتبط برسول الله عليه الصلاة والسلام».[٤٤٤]



وقد كان حب ما يحبه عليه الصلاة والسلام من دواعي سرور الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فعن أنس رضي الله عنه:

«إن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس: فذهبت مع رسول الله ﷺ إلى ذلك الطعام، فقرب إليه خبزا من شعير ومرقا فيه دباء، قال أنس: فرأيت رسول الله ﷺ يتتبع الدباء من حول القصعة، فلم أزل أحب الدباء بعد ذلك اليوم».[٤٤٥]

ومن أوضح علامات الحب حب ما يحبه الحبيب.



---

٤٤٤ الهيثمي، ١٠، ١٤.

٤٤٥ البخاري، الأطعمة، ٣٣، السحر، ٣٠؛ مسلم، الأشربة، ١٤٤.



وأما حال أبي بكر ﷺ فيما سيأتي فأثرٌ لا مثيل له في المحبة والحساسية البالغة، حيث أتى أبو بكر في فتح مكة بأبيه أبي قحافة إلى النبي ليُسْلِمَ على يديه ﷺ، وكان أبو قحافة ضريرا وذا شيبة، فلما أتى به قال له النبي ﷺ: «**ألا تركت الشيخ حتى نأتيه**»، قال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله أردتُّ أن يأجره الله ﷻ، وفي رواية هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه، ثم قال أبو بكر للنبي ﷺ: أما والذي بعثك بالحق لأنا كنت أشد فرحا بإسلام أبي طالب مني بإسلام أبي، ألتمس بذلك قرة عينك ..... [٤٤٦]



كان عليه الصلاة والسلام يؤمّ المسلمين للصلاة في كل مكان يمر به أثناء ذهابه للحج، فأراد المسلمون بعد ذلك بقصد المحبة والوفاء بناء مساجد في تلك الأماكن إحياء لذكراه عليه الصلاة والسلام على الدوام.[٤٤٧]



وقد قدم الصحابة ﷺ الكثير من نماذج الفضيلة فيما يتعلق بالتبرك بأي شيء يخصّ فخر الكائنات ﷺ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما:

«أن سيدنا أبا القاسم رسول الله ﷺ لما حلق شعره في حجّة الوداع أمر بتقسيم شعره الشريف بين الصحابة».

وروي عن خالد بن الوليد ﷺ:

«اعتمرنا مع النبي ﷺ في عمرة اعتمرها فحلق شعره، فسبقتُ إلى الناصية، فاتخذت قلنسوة فجعلتها في مقدمة القلنسوة، فما وجهت في وجه إلا فتح لي».[٤٤٨]



٤٤٦ الهيثمي، ٦، ١٧٤؛ ابن سعد، ٥، ٤٥١.

٤٤٧ ابن سعد، ٢، ١٧٣.

٤٤٨ الواقدي، ٣، ١١٠٨؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٢، ١١١.



وقد روي:

«أن امرأة جاءت النبي ﷺ ببردة منسوجة فيها حاشيتها، قالت: نسجتُها بيدي فجئت لأكسوكها، فأخذها النبي ﷺ محتاجا إليها، فخرج إلينا وإنها إزاره، فحسنها فلان فقال: اكسنيها ما أحسنها، قال القوم: ما أحسنت، لبسها النبي ﷺ محتاجا إليها، ثم سألتَه وعلمتَ أنه لا يرد، قال: إني والله ما سألته لألبسه إنما سألته لتكون كفني، قال سهل فكانت كفنه».[٤٤٩]



وعن سهل بن سعد الساعدي:

«أن رسول الله ﷺ أُتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: «**أتأذن لي أن أعطي هؤلاء**»، فقال: لا والله يا رسول الله، لا أوثر بنصيبي منك أحدا، قال: فتلَّه رسولُ الله ﷺ في يده».[٤٥٠]



كان رحيل النبي ﷺ عن الصحابة –الذين كانوا يؤثرونه على أنفسهم ويحبونه أكثر من أنفسهم– مؤلماً وثقيلاً جداً عليهم، فعن أنس ﵁ قال:

«لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة: واكرب أباه، فقال لها: «**ليس على أبيك كرب بعد اليوم**»، فلما مات قالت: يا أبتاه! أجاب ربا دعاه، يا أبتاه! من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه! إلى جبرئيل ننعاه، فلما دفن قالت فاطمة: يا أنس! أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب».[٤٥١]



---

٤٤٩ البخاري، الجنائز، ٢٨، السحر، ٣١، اللباس ١٨.

٤٥٠ البخاري، الأشربة، ١٩.

٤٥١ البخاري، المغازي، ٨٣/ ٤٤٦٢؛ الدارمي، المقدمة، ١٤.



جاء عبد الله بن زيد ﵁ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إليَّ من نفسي، وأحب إليَّ من أهلي، وأحب إليَّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أجد حتى أتيك فانظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين، وإن دخلتُ الجنة خشيت ألا أراك، فلم يرد عليه حتى نزلت:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [٤٥٢]

وروي أن عبد الله بن زيد كان يعمل في بستانه، فأتاه ابنه فأخبره بوفاة النبي عليه الصلاة والسلام، فقال:

«اللهم أذهب بصري حتى لا أرى، فعمي مكانه». [٤٥٣]



ولم يختلف شعور صحابي آخر فقد بصره بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، عن عبد الله بن زيد، إذ عاده أصحابه بعدما عمي، في حين أنه لم يكن ذهاب بصره يهمّه ويحزنه، فقال لمن أتاه يروّح عنه:

«كنت أريدهما لأنظر إلى النبي ﷺ ،فأما إذا قبض النبي ﷺ فو الله ما يسرني أن بهما بظبي من ظباء تبالة». [٤٥٤]

لقد كانت حال أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام لما توفي أشبه بشمعة تحترق وتذوب من الحزن، حيث اكتوت الأفئدة يومئذ فجأة بنيران الحسرة ودخلوا في حال غير التي كانوا فيها، حتى عمر ﵁ أصابه الذهول، وثقل على أبي

٤٥٢ النساء: ٦٩.

٤٥٣ انظر: القرطبي، ٥، ٢٧١.

٤٥٤ ابن سعد، ٢، ٣١٣.



بكر ﷺ بَعْثُ السكينة في الناس، إذ إنه كان على تلك القلوب التي لم تكن تطيق فراقه يوماً واحداً أن تعلم أنها لن تراه مجدداً في هذه الدنيا الزائلة.



عندما توفي الرسول ﷺ حزن بلال ﷺ حزناً شديداً، ومن حزنه توقف عن الأذان، وترك المدينة المنورة، ورحل الى بلاد الشام، مرت سنين على وفاة الرسول ﷺ، ثم إن بلالا ﷺ رأى الرسول ﷺ في المنام، يقول له الرسول ﷺ: ما هذه الجفوة يا بلال، أما آن لك أن تزورنا؟ ، فانتبه من نومه حزيناً، وركب إلى المدينة، وأتى قبر النبي ﷺ وجعل يبكي عنده ويتمرّغ عليه، فأقبل الحسن والحسين فجعل يقبلهما ويضمهما إليه، فقالا له: نشتهي أن تؤذن في السحر، فقام بلال إلى سطح المسجد وأذّن: الله أكبر الله أكبر، فارتجّت المدينة كلها، فلمّا قال: أشهد أن لا إله إلا الله زادت رجّتها، فلمّا قال: أشهد أن محمداً رسول الله خرجت النساء من خدورهنّ، فما رؤي يومٌ أكثر باكياً وباكية من ذلك اليوم.[٤٥٥]

ولما حضرت الوفاة هذا الصحابي –عاشق رسول الله عليه الصلاة والسلام– كانت امرأته تبكي وتقول: واحزناه! فنظر بلال إليها وقال: بل، واطرباه.. غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه، فتوفي في دمشق وهو ابن بضع وستين سنة ﷺ وأرضاه.[٤٥٦]

فكانوا رضوان الله عليهم يتمسكون بقوله عليه الصلاة والسلام: «**إنك مع من أحببت**»[٤٥٧]، ويحاولون زيادة حبه عليه الصلاة والسلام ومضاعفته في قلوبهم، فهو أعظم رأس مال في أيديهم، والمنبع الوحيد للسَّلْوَى.

٤٥٥ ابن الأثير، أسد الغابة، ١، ٢٤٤ ـ ٢٤٥؛ الذهبي، السير، ١، ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

٤٥٦ الذهبي، السير، ١، ٣٥٩.

٤٥٧ البخاري، جـ٨، ص ٣٩/ ٦١٦٧؛ أحمد، مسند، جـ ٢١، ص ٧٦/ ١٣٣٧١.



وعن أنس رضي الله عنه قال:

«جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «**وما أعددت للساعة؟**»، قال: حبُّ الله ورسوله، قال: «**فإنك مع من أحببت**»، قال أنس فما فرحنا بعد الإسلام فرحا أشد من قول النبي عليه الصلاة والسلام فإنك مع من أحببت، قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم».[٤٥٨]



«خرج عمر رضي الله عنه ليلةً يحرس، فرأى مصباحاً في بيتٍ، فدنا فإذا عجوز تطرق شعرا لها لتغزله أي تنفشه بقدح وهي تقول:

على محمد صلاة الأبرار

صلى عليك المصطفون الأخيار

قد كنت قواما بكي الأسحار

يا ليت شعري والمنايا أطوار

هل تجمعني وحبيبي الدار

تعني النبي صلى الله عليه وسلم، فجلس عمر يبكي، فما زال يبكي حتى قرع الباب عليها، فقالت: من هذا؟ قال: عمر بن الخطاب، قالت: ما لي ولعمر؟ وما يأتي بعمر هذه الساعة؟ قال: افتحي رحمك الله فلا بأس عليك، ففتحت له فدخل فقال: ردي علي الكلمات التي قلت آنفا، فردتها عليه، فملا بلغت آخرها قال: أسألك أن تدخليني معكما، قالت: وعمر فاغفر له يا غفار، فرضى ورجع».[٤٥٩]



٤٥٨ مسلم، البر، ١٦٣.

٤٥٩ علي المتقي، ١٢، ٥٦٢/ ٣٥٧٦٢.



لم تُر فاطمة رضي الله عنها تضحك أبداً بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام.[٤٦٠]

ولم يكن يمضي يوم دون أن يتذكر فيه عبد الله بن عمر رضي الله عنه النبي ﷺ، ويبكي.[٤٦١]

يقول أنس رضي الله عنه:

«ما مِن ليلة إلاَّ وأَنا أرى فيها حبيبي -يعني رسول الله ﷺ- في المنام بعد وفاته، ثمَّ يبكِي».[٤٦٢]

كان أنس رضي الله عنه يعيش كما كان عليه الصلاة والسلام يعيش، ويصلي مثله تماماً، لمعرفته الجيدة به من ملازمته الدائمة له عليه الصلاة والسلام، وكان يحتفظ بعصا النبي عليه الصلاة والسلام وشعرة من شعراته الشريفة لا تفارقانه أبداً، فلما مات وضعت العصا جانبه في قبره والشعرة تحت لسانه حسبما أوصى رضي الله عنه.



كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين إذا ذكروا النبي ﷺ أو تحدثوا عنه، يسرّهم البدء بكلمات تفيد حبهم الجيّاش له عليه الصلاة والسلام، كأن يقولوا «حبيبي» و«خليلي».[٤٦٣]

وما كان من شيء على وجه الأرض إلا ويذكِّرهم بصاحبهم الحبيب، وقد قال أبو ذر رضي الله عنه:

«لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يتقلب في السماء طائر الا ذَكَّرَنَا منه علماً»[٤٦٤]



---

٤٦٠ ابن سعد، ٢، ٣١٢.

٤٦١ ابن سعد، ٢، ٣١٢.

٤٦٢ ابن سعد، ٧، ٢٠.

٤٦٣ البخاري، التهجد ٣٣، الصوم ٦٠؛ مسلم، ٨٥، ٨٦؛ ابن سعد، ٦، ٢٢٩.

٤٦٤ أحمد، ٥، ١٥٣، ١٦٢/ ٢١٤٧٧؛ الهيثمي، ٨، ٢٦٣.



يقول عقبة بن الحارث:

«صلى أبو بكر العصر ثم خرج يمشي ومعه علي، فرأى الحسن يلعب مع الصبيان، فحمله على عاتقه وقال: بأبي، شبيه بالنبي ﷺ ليس شبيهاً بعلي، وعلي يضحك».[٤٦٥]



أظهر الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين حساسية شديدة واهتماماً كبيراً أثناء نقلهم وتبليغهم أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، خشية اختلاطه بما ليس من كلامه، يقول عمرو بن ميمون:

«ما أخطأني ابن مسعود عشية خميس إلا أتيته فيه، قال: فما سمعته يقول بشيء قط قال النبي ﷺ، فلما كان ذات عشية قال: قال رسول الله قال ﷺ، فنكس، قال: فنظرت إليه فهو قائم محللة أزرار قميصه قد اغرورقت عيناه وانتفخت أوداجه، قال: أو دون ذلك أو فوق ذلك أو قريبا من ذلك أو شبيها بذلك».[٤٦٦]



كان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه إن أراد التحديث بعد وفاته عليه الصلاة والسلام بحديثه، يبكي كلما تذكر النبي عليه الصلاة والسلام، ويصعب عليه الكلام، يصف لنا أبو هريرة رضي الله عنه حاله تلك فيقول:

قام أبو بكر رضي الله عنه على المنبر ثم بكى، فقال: قام فينا رسول الله ﷺ عام أول على المنبر ثم بكى، فقال:

«**سلوا الله العفو والعافية، فإن أحدا لم يُعط بعد اليقين خيرا من العافية**».[٤٦٧]



---

٤٦٥ البخاري، المناقب، ٢٣.

٤٦٦ ابن ماجة، المقدمة، ٣.

٤٦٧ انظر: الترمذي، الدعوات، ١٠٥.

وتصف لنا عائشة ﵂ شوق أبيها أبي بكر ﵁ إلى لقاء خليله الوحيد النبي عليه الصلاة والسلام لحظة وفاته، فتقول:

«لما ثقل أبو بكر قال: أي يوم هذا؟ قلنا يوم الاثنين، قال: فإني أرجو ما بيني وبين الليل، قالت: وكان عليه ثوب عليه ردع من مشق، فقال: إذا أنا مِتُّ فاغسلوا ثوبي هذا، وضموا إليه ثوبين جديدين، وكفنوني في ثلاثة أثواب، فقلنا: أفلا نجعلها جدداً كلها؟ قال: لا، إنما هو للمهلة فمات ليلة الثلاثاء».[٤٦٨]

كان أبو بكر ﵁ يشعر وكأنه في الغربة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، فلما حان وقت الرحيل عن الدنيا دخل في حالة من الهيجان لهجرة ثانية إلى الله ورسوله عليه الصلاة والسلام.



ثم إن بعض الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يغبطون المرضى منهم الذين يعشقون النبي عليه الصلاة والسلام ويأملون لقاءه في أسرع وقت ممكن، لدنوِّ لحظة الوصال بالله ورسوله عليه الصلاة والسلام، فيبعثون معهم إلى النبي ﷺ سلامهم المفعم بالحب، فعلى سبيل المثال: قال محمد بن المنكدر:

«دخلت على جابر بن عبد الله وهو يموت، فقلت: اقرأ على رسول الله ﷺ السلام».[٤٦٩]



وقد كان حب أقرباء وأحباب رسول الله ﷺ شعارهم في حياتهم، فعلى سبيل المثال:

---

٤٦٨ أخرجه البخاري، أحمد، ١، ٨.

٤٦٩ ابن ماجة، الجنائز، ٤.



«كَانَ عِنْدَ عمر بن الخطاب ﷺ صحاف تسع. فلا تكون فاكهة ولا طريفة إلا جعل منها في تلك الصحاف. فبعث بها إلى أزواج النبي ﷺ. ويكون الذي يبعث به إلى حفصة ابنته، من آخر ذلك. فإن كان فيه نقصان، كان في حظ حفصة».[٤٧٠]



وعن عمر ﷺ:

«أنه فرض لأسامة بن زيد في ثلاثة آلاف وخمس مائة، وفرض لعبد الله بن عمر في ثلاثة آلاف، قال عبد الله بن عمر لأبيه: لم فضَّلتَ أسامة عليَّ، فوالله ما سبقني إلى مشهد، قال: لأن زيدا كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وكان أسامة أحب إلى رسول الله ﷺ منك، فآثرت حِبَّ رسول الله ﷺ على حبي».[٤٧١]



وعن أَنس بن مالك ﷺ قَالَ:

«صحبت جرير بن عبد الله، فكان يخدمني وهو أكبر من أنس قال جرير: إني رأيت الأنصار يصنعون شيئا، لا أجد أحدا منهم إلا أكرمته».[٤٧٢]

يا له من حب عظيم!..



كان الكثير من الصحابة يعيشون بذكرى رسول الله ﷺ، ومنهم أبو محذورة: «فكان لا يجزّ ناصيته ولا يفرقها لأن النبي ﷺ مسح عليها».[٤٧٣]



٤٧٠ الموطأ، الزكاة، ٤٤.

٤٧١ الترمذي، المناقب، ٣٩/ ٣٨١٣.

٤٧٢ البخاري، الجهاد، ٧١/ ٢٨٨٨؛ مسلم، فضائل الصحابة، ١٨١.

٤٧٣ أبو داوود، الصلاة، ٢٨/ ٥٠١.

وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال لامرأة من غفار:

«... خذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحا، ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدم، ثم عودي لمركبك»

ففعلت، وكانت لا تطهر إلا جعلت في طهرها ملحاً، وأوصت أن يجعل في غسلها ملح حين غسلت.[٤٧٤]

يا لها من محبة مذهلة لا تضيع شيئاً من قوة العمر، بل تتضاعف بزيادتها!..



قال عبد الرحمن بن سعد:

«خدرت رجل ابن عمر رضي الله عنهما، فقلت: ما لرجلك؟ قال: اجتمع عصبها، قلت: ادع أحب الناس إليك، قال: يا محمد، فبسطها».[٤٧٥]



يقول فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام مشيراً إلى الحب العظيم الذي تُكنّه له أمته:

«مِن أشد أمتي لي حُبا، ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله».[٤٧٦]

ولذا فقد مر الكثير من أولياء الحق -منذ عصر الرسالة وحتى يومنا هذا- اكتووا بنار حب الله ورسوله ﷺ، وفيما يلي بعض من الأمثلة على ذلك:

«قال عبدالله بن المبارك: كنت عند مالك وهو يحدث حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام، فلدغته عقرب ستة عشرة مرة، ومالك يتغير ويصفر ولا

---

٤٧٤ أبو داوود، الطهارة، ١٢٢/ ٣١٣.

٤٧٥ ابن سعد، ٤، ١٥٤.

٤٧٦ مسلم، الجنة، ١٢/ ٢٨٣٢؛ الحاكم، ٤، ٩٥.



يقطع حديث رسول الله ﷺ، فلما فرغ من المجلس، قلت له: يا أبا عبد الله لقد رأيت اليوم منك عجباً، فقال: نعم إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ».[٤٧٧]

كان الإمام مالك رحمه الله تعالى يعيش بنشوة محبة القرب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، شديد الحب لرسول الله فلا يركب على ظهر دابة في المدينة المنورة، ولا يخرج لقضاء الحاجة، ويتكلم بصوت منخفض عندما يؤم في الروضة، احتراماً لحرمة ساكنها، ويقول للخليفة المنصور: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله تعالى أدّب قوماً فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[٤٧٨]



كان الإمام مالك منذ شبابه شديد التعظيم لحديث رسول الله ﷺ، إلى جانب اهتمامه بالسماع بكل سكون ووقار لكي يتعلمها على الوجه الحسن، ولذا كان لا يستمع إلى الحديث الشريف وهو قائم، أو منزعج لأمر ما، أو حزين، ولا يحضر درساً للحديث وهو متوتر، حيث يخشى الوقوع في الخطأ في الأحاديث الشريفة، حتى سئل يوماً: أسمعت عن عمرو بن دينار؟ فقال: رأيته يحدث والناس قيام يكتبون، فكرهت أن أكتب حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم، وكان رجلاً مهيباً نبيلاً، وفي الوقت نفسه ذا أخلاق حسنة في أحواله كلها وكذا مجالسه، وكان وجهه مستبشراً ومشرقاً سواء كان يفتي في المسائل أو يحدث بأحاديث الرسول ﷺ، وكان مالك إذا جلس للحديث توضأ، وتهيأ ولبس ثيابه، ولم يكن يجلس على المنصة إلا إذا حدّث عن رسول الله ﷺ، وكان مالك إذا أتاه الناس خرجت إليهم

---

٤٧٧ المناوي، ٣، ٣٣٣؛ السيوطي، مفتاح الجنة، ص: ٥٢.

٤٧٨ الحجرات: ٢.



الجارية، فتقول لهم: يقول لكم الشيخ: تريدون الحديث أو المسائل، فإن قالوا: المسائل، خرج إليهم، فأتاهم، وإن قالوا: الحديث، قال لهم: اجلسوا، ودخل مغتسله، فاغتسل، وتطيب، ولبس ثياباً جدداً، ولبس ساجه، وتعمم، ووضع على رأسه طويلة، وتلقى له المنصة، فيخرج إليهم وقد لبس وتطيّب، وعليه الخشوع، ويوضع عود فلا يزال يُبَخّر حتى يفرغ من حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام.



يُعَدُّ عبيدة السلماني واحداً من أوائل فقيهي ومحدثي التابعين، وقد أسلم قبل وفاة النبي بسنتين إلا أنه لم يحظ برؤيته، وقوله:

«لأن يكون عندي منه شعرة أحب إلي من كل صفراء وبيضاء على ظهر الأرض».[٤٧٩] يذكرنا وبوضح لنا حب أوائل المسلمين لرسول الله ﷺ.

يقول الإمام الذهبي في قول عبيدة السلماني الذي مر آنفاً:

«هذا القول من عبيدة هو معيار كمال الحب، وهو أن يؤثر شعرة نبوية على كل ذهب وفضة بأيدي الناس؛ ومثل هذا يقوله هذا الإمام بعد النبي ﷺ بخمسين سنة، فما الذي نقوله نحن في وقتنا لو وجدنا بعض شعره بإسناد ثابت، أو شسع نعل كان له، أو قلامة ظفر، أو شقفة من إناء شرب فيه، فلو بذل الغني معظم أمواله في تحصيل شيء من ذلك عنده أكنت تعده مبذرا أو سفيهاً؟ كلا فابذل مالك في زورة مسجده الذي بنى فيه بيده، والسلام عليه عند حجرته في بلده، والتذَّ بالنظر إلى أُحُده وأحبَّه، فقد كان نبيك ﷺ يحبه، وتملى بالحلول في روضته ومقعده، فلن تكون مؤمناً حتى يكون هذا السيد أحبَّ إليك من نفسك وولدك وأموالك والناس كلهم».[٤٨٠]



---

٤٧٩ أحمد، ٣، ٢٥٦.

٤٨٠ الذهبي، السير، ٤، ٤٢ ـ ٤٣.



قال الربيع بن سليمان أحد تلامذة الإمام الشافعي:

«إن الشافعي خرج إلى مصر وأنا معه، فقال لي: يا ربيع، خذ كتابي هذا فامض به وسلمه إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل وائتني بالجواب، قال الربيع: فدخلت بغداد ومعي الكتاب، فلقيت أحمد بن حنبل صلاة الصبح فصليت معه الفجر، فلما انفتل من المحراب، سلمت إليه الكتاب وقلت له: هذا كتاب أخيك الشافعي من مصر، فقال: أحمد: نظرتَ فيه؟ قلت: لا، فكسر أبو عبد الله الختم، وقرأ الكتاب وتغرغرت عيناه بالدموع، فقلت: إي شيء فيه يا أبا عبد الله؟، قال: يذكر أنه رأى النبي عليه الصلاة والسلام في النوم، فقال له: اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل، واقرأ عليه مني السلام، وقل: إنك ستمتحن وتدعى إلى خلق القرآن فلا تجبهم، فسيرفع الله لك علماً إلى يوم القيامة، قال الربيع: فقلت: البشارة، فخلع أحد قميصيه الذي يلي جلده ودفعه إلي، فأخذته وخرجت إلى مصر، وأخذت جواب الكتاب فسلمته إلى الشافعي، فقال لي الشافعي: يا ربيع إي شيء الذي دفع إليك؟ قلت: القميص الذي يلي جلده، قال الشافعي: ليس نفجعك به، ولكن بلّه وادفع إليَّ الماء حتى أشركك فيه». [٤٨١]

وقد وقف الإمام النووي –عالم الحديث والمجتهد الكبير– حياته على اتباع النبي ﷺ ونشر سنته، وقد بلغ به القرب الشديد من الرسول ﷺ تقليده إياه إلى حدٍّ امتنع معه عن أكل البطيخ طوال حياته لعدم علمه أأكله النبي ﷺ بكسره أو تقطيعه.



ومن الجدير بالذكر حب الإمام البوصيري لرسول الله ﷺ:

«لقي الإمامَ البوصيري –صاحب قصيدة البردة في مدح النبي ﷺ– شخصٌ مشرق الوجه في طريقه إلى بيته، فقال للشيخ: يا بوصيري، أرأيت رسول الله ﷺ

٤٨١ انظر: ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد بن حنبل، «تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي»، القاهرة ١٤٠٩، ص: ٦٠٩ ـ ٦١٠.

في منامك الليلة، فأجاب الإمام: لا لم أر، فيفترق الشيخ عنه بعد هذه المحادثة القصيرة دون أن يقول شيئاً آخر، إلا أن كلماته تلك هيجت مشاعر العشق والمحبة لرسول الله ﷺ في قلب الإمام، وفي تلك الليلة يرى الإمام رسول الله في منامه، فيستيقظ وفؤاده طرب مطمئن، فيبدأ بنظم أشعار في مدح النبي ﷺ، والكثير من قصائد الثناء على الرسول ﷺ التي أغرقت عاشقيه في بحار حبه.

ثم إنه قد أصيب بالشلل النصفي ولزم الفراش، فبدأ ينظم هذه القصيدة وفي منامه رأى الرسول ﷺ يطلب إليه أن يُنشِد ما نظمه، واستمع إليه ومنحه بردته –أي عباءته– وبسطها عليه، فأصبح وقد بَرِئَ من الشلل، يقول البوصيري: فلقيني أبو الرجا، فقال لي: أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله ﷺ، فقلت: أيّها؟ فقال: التي أنشأتها في مرضك، وذكر أولّها، وقال: والله لقد سمعتها البارحة وهي تُنْشَد بين يدي رسول الله ﷺ، فرأيت رسول الله ﷺ أعجبته، وألقى على من أنشدها بردة، فدهش البوصيري لعلمه بأنه ما من أحد يعلم بأمر القصيدة بعد».



لما بلغ الولي الكبير سيد أحمد يسوي –الذي تسبب بتفتح نور الإسلام وفيضه في الأفئدة من آسيا الوسطى وحتى البلقان– الثالثة والستين من عمره، حفر لنفسه مكاناً كالقبر تحت الأرض، وقال: «لا يلزمني العيش فوق التراب بعدما بلغ مني العمر ما بلغ»، وأمضى حسب ما روي السنوات العشر المتبقية من عمر العبادة والإرشاد بأمل اتباع النبي ﷺ ومماثلته في كل أموره في ذلك القبر الذي جعله تحت الأرض.



كان لفاتح الهند محمود الغزنوي خادماً يُكِنُّ له شديد الحب اسمه "محمود"، فكان يناديه باسمه دائماً، فناداه مرة باسم أبيه، فحزن الخادم من تصرف السلطان محمود وانكسر قلبه، ولما سأله عن السبب في مخاطبته بذلك، أجابه محمود الغزنوي بما يلي:



«يا بني، كنت أناديك باسمك كل يوم، إذ أكون متوضئاً، إلا أنني الآن لست كذلك، فاستحييت أن أخاطبك باسمك، وناديتك باسم أبيك».



لقد كانت الدولة العثمانية دولة متميزة بحب شعبها للنبي عليه الصلاة والسلام من حاكمها إلى راعيها، إذ إنها جعلت صور الاحترام غير المحصاة من وضع اليد على القلب يرافقه إظهار الاحترام كلما ذكر اسمه عليه الصلاة والسلام إضافة إلى الصلاة والسلام عليه، والقيام جميعاً أثناء الاستماع إلى الأبيات المتعلقة بلحظة ولادته عليه الصلاة والسلام في الاحتفال بمولده الشريف جعلته عرفاً لديها، ولا تجد سلطاناً عثمانياً يسمح بقراءة بريد المدينة المنورة، قبل أن يجدد وضوءه ويقبل الرسائل القادمة من هناك ويمسح بها عينيه، ويقف أثناء قراءتها.

إضافة إلى أن قدموا نموذجاً لا مثيل له في التأدب بحضرة النبي عليه الصلاة والسلام، برفع الحجارة في ترميم المسجد النبوي على وضوء والإتيان بالبسملة عند وضع كل حجر في مكانه، وفي الوقت نفسه بربطهم الجوخ على مطارقهم حذراً من الإزعاج في روحانية رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وأيضاً فإن موكب «الصُّرَّة» الذي كان يبعث إلى المدينة المنورة في عهد العثمانيين، [٤٨٢] لم يكن ليدخلها قبل المبيت في موضع قريب منها، ويهيؤون أنفسهم لجو المدينة المعنوي، وبعد الاستخارة يصِلُون إلى حضرة النبي عليه الصلاة والسلام بإشارة معنوية، فيزورونه، وفي عودتهم يجلبون معهم إلى أوطانهم تراب المدينة المنورة المبارك للتبرك به.

---

٤٨٢ وهو المال والذهب والهدايا المرسلة مِن قِبل السلطنة في موكب قبل موسم الحج في رجب من اسطنبول إلى المدينة، بقصد توزيعها على الأشراف والمحتاجين، من خلال تنظيم احتفال خاص. (انظر: منير أطالار، سرائي هومايون وسرا آلايلاري، أنقرة ١٩٩١، ص: ٢).



ثم إن العَرف الموجود على طرف العمائم في المنمنمات «المصغرات» والتي كانت تعد صوراً في زمانهم، للسلاطنة العثمانية، لسيت إلا بقايا مقشات، وهم بذلك يشيرون إلى أنهم كانسي الحرمين الشريفين ويعتبرون أنهم كذلك، ويعطون نفقات وأجرة الأشخاص المتعهدين بخدمات نظافة الحرمين الشريفين من مالهم الخاص.



وكذلك فإن شعر وشعرات لحية النبي ﷺ، باعتبارها ذكرى ثمينة، حفظت داخل أربعين حزمة في منابر المسجد تحت اسم «اللحية الشريفة»، تبركاً بها ورحمة للأمة منذ عصور يا له من رمز محبة عظيمة.



فتح السلطان يافوز سليم مصر، وسلمت إدارة منطقة الحجاز إليه، ولما خاطبه خطيب مسجد الملك المؤيد في ٢٠ شباط، بقوله: «حاكم الحرمين الشريفين»، قاطعه السلطان على الفور بعيون دامعة قائلاً: لا، بل على العكس، قل: «خادم الحرمين الشريفين»، وبعدها شكر ربه تعالى بسجوده على تراب الأرض بعد إزاحته الحصير منها، ولكي يثبت أنه خادم الحرمين الشريفين وضع على عمامته تميمة على شكل مقشة.

وهذه الكلمات التي قالها لبيري باشا بعد توليته رئاسة حراس هذه البلاد المباركة، تعد صورة صادقة ومخلصة على حبه لرسول الله ﷺ:

«يا أيها الباشا، إن بين يديك سلطنة مكة والمدينة والأبناء الكرام لثروة العالم، لم أفتح تلك البلاد بالجيش، وإنما أطاعوني في سبيل الوحدة الإسلامية بكمالهم وحسن أدبهم وإحسانهم، ويلزمني مكافأة هذه العزة، وأنا على شكر دائم في الليل والنهار لله تعالى، على ذكر اسمي في الخطب المترددة في تلك البلاد، ولست أبدل هذه السعادة بحكم العالم! وفي هذا الصدد فلا تحجب ما



هو لازم لناس الحرمين الشريفين! واحذر من التدخل في شؤون تلك البلدتين المباركتين».



لقد أظهر أجدادنا المباركون على مدى العصور احتراماً وتعظيماً ومحبة يمتنع وصفها لأشيائه عليه الصلاة والسلام وأماناته المقدسة، وسيكون كافياً للاطلاع على بعض من هذه الأمثلة الرائعة إلقاءُ نظرة على تاريخ الأمانات المقدسة، والتي اعتبر ما قدمه أجدادنا لها من خدمة أعظم شرف.

كان السلاطين العثمانيون الذين لا يريدون مفارقة بردته الشريفة عليه الصلاة والسلام ولا للحظة يصحبونها معهم أينما ذهبوا بأي وسيلة كانت، لذا تم إنشاء صالة بردة النبي عليه الصلاة والسلام في قصر إستافروز وقصر أدرنة القديم الموجودين في المكان الموجود فيه قصر بيلاربي، كم هو الحال أيضاً في قصر طوب كابي.

وقد يكون أخذها معه إلى الحروب، ومن الملفت للانتباه منمنمة تم تصوير إحدى المعارك فيها، تظهر إحداها حسب ما يفهم منها أن البردة الشريفة تُحمَل على رأس حراس مكلفين طوال الطريق.

كان محمد الثالث من سلاطنة العثمانيين، شخصية ممتلئة بحب الرسول عليه الصلاة والسلام، على الرغم من أنه كان سلطاناً عصبياً ذا مزاج عصبي وطباع قاسية، فلو ذكرت أسماء الرسول ﷺ الشريفة سرعان ما يقوم مُبدياً بذلك محبة منه وإجلالاً وتعظيماً له عليه الصلاة والسلام، وقد كان أخذ عند ذهابه في حملة أغري، الراية الشريفة والبردة جنباً إلى جنب، ولما ظهرت أمارات الهزيمة في صفوف الجند المسلمين قال سعد الدين معلم السلطان: «يا مولاي! إنه لمن لحريٌّ بسلطان آل عثمان، وخليفة رسول الله ارتداء البردة الشريفة والالتجاء إلى الله تعالى بالدعاء في وقت كهذا»، وهو بهذا أفتى بارتداء السلطان للبردة الشريفة،



وبهذا يكون السلطان محمد الثالث قد هيَّج جند الإسلام بارتدائه للبردة الشريفة بالصلاة والسلام على النبي عليه الصلاة والسلام وأصوات التكبير، وبالنتيجة وُفِّقَ لظفرٍ أكيد.



وأما السلطان أحمد خان الأول فقد أتى بآثار قدم رسول الله ﷺ المباركة، المعروفة ب"نقش القدم" التي عثر عليها في مزار سلطان كاييت باي في مصر، ووضعها في مزار أيوب سلطان، وذلك أثناء قيامه بإنشاء مسجد باسمه، ولما فرغ بناء المسجد أحضرها إليه، إلا أنه وفي الليلة التي تم فيها هذا النقل رأى في منامه:

«مجلساً عظيماً قد أقيم اجتمع فيه جميع السلاطين، وكان النبي عليه الصلاة والسلام في موقع القاضي من المجلس، وثمة شبه محكمة قائمة، يدعي فيها السلطان كاييت باي على السلطان أحمد خان لأخذه القدم الشريفة من مزاره والتي كانت سبباً في زيارته وإرسالها إلى اسطنبول، وقد حكم النبي عليه الصلاة والسلام بصفة القاضي برد القدم الشريفة فوراً ...»

فأفاق السلطان أحمد خان وهو حائر خائف، وأطلع بعض العلماء والشيوخ وفيهم عزيز محمود هُدائي على الرؤيا ليعبروها له، فقالوا له:

«يا مولاي، إن الرؤيا واضحة للغاية، ما من حاجة إلى التفسير فيها، لا بد من رد الأمانة على الفور...».

فما كان من السلطان أحمد خان الأول -عاشق النبي عليه الصلاة والسلام- إلا أن أطاع الحكم ورد الأمانة بكل اعتناء والحزنُ يعتصره، ثم إنه قام بصنع نموذج لآثار قدم النبي عليه الصلاة والسلام المباركة الموجودة على الرخام، ووضعه على عمامته محاولاً الحصول على البركة منها.





أرسل السلطان عبد العزيز خان الذي كان يحب الرسول الله ﷺ حباً جماً، رسالة صميمية إلى المدينة المنورة على أن توضع على الروضة الشريفة مخاطباً بالرسالة روحانية الرسول ﷺ، [٤٨٣] نعرض بعضاً من هذه الرسالة:

«بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الأحد

والصلاة والسلام عليك يا رسول الله

الصلاة والسلام عليك يا حبيب الله

الصلاة والسلام عليك يا نبي الله

يا سيدي يا رسول الله الراعي لحق الصحبة، والشعار الأبدي للإحسان والكرم، وصاحب الكلام العظيم، ومنبع فخر الكائنات، سيد الأسياد، شفيعنا، وملجؤنا، يا من حسن كل فعله وكل ما فيه، حتى غبار قدميه يبرق ويلمع، أيها المربي الأعظم لعالم المخلوقات، صاحب الآثار الممتلئة بالفيض الذي ينثر عطره، والكافي حبه جميع المخلوقات، إمام الأنبياء وملجأهم، سيد يوم الدين، وشفيع المذنبين من أمته، وزينة مجلس الوحدة، وزينة إيوان النبوة، وحاكم عرش النبوة، نبي كل حليم سالك طريق الله تعالى، حبيب الله تعالى الرحيم!

سيدي محمد ﷺ المقصود بكل هذه الصفات...

لقد تجرأت بترغيم وجهي المسْوَدِّ العاجز بشبكة نوره، وقبره المتألق، وترابه البراق الطاهر كالماء، في توسل وأدب بالكثير من مشاعر الخجل والحياء، وقد تجرّأت بتقديم هذا الالتماس الذي يعبّر عن الحزن المرصوف والذي كتبته بمشاعر الحياء والاحترام، على عتبته التي تنثر الروائح الزكية، بجبيني المذنب الذي يستحق العقاب...

٤٨٣ وهذه الرسالة موجودة اليوم في دائرة البردة الشريفة في قصر طوب كابي.

والحمد لله أن وفقني لأن أكون من أمة كاملة، بالولاء والإخلاص والشرف والوفاء لبدر الأقمار في عالم الملكوت، والشمس التي تستمد شمس الدنيا منها نورها وفيضها، وحبيب الله تعالى الذي يهب الدنيا كلها من كرمه وبركته، وخليل الله الرحيم الوهاب، وسطان المتقين المستحق لأكمل الحسن والخير.

وآمل بإذن الله أن أحصل على شفاعته عليه الصلاة والسلام العظيمة ﴿**يوم لا ينفع مال ولا بنون**﴾ [٤٨٤]، وسأقر وأعترف بكل ما ارتكبه هذا المذنب العاصي عبد العزيز خان غازي بن محمود خان من ذنوب ومعاص، والذي لم يكتسب شيئاً سوى العصيان في يوم الحساب، لأجل لقائك في جنة النعيم مع أول الداخلين، مع أمتكم التي لا تنفك تدعو متضرعةً، وقد سمحت لنفسي بتقديم هذا الالتماس المليء بالحزن إلى بابكم الذي يفيض بالرحمة، وطلباً لشفاعتكم يا رسول الله يوم الحساب والجزاء.

أستغفر الله من كل ذنوبي! أستغفر الله أستغفر الله !..

الأمان الأمان يا رسول الله! لا تردني محروماً !..

يا أبا الزهراء فاطمة رضي الله عنها، عليك صلاة الله وسلامه!

يا جد الحسنين عليك صلاة الله وسلامه!

يا سيد الأولين والآخرين! عليك صلاة الله وسلامه! [٤٨٥]



وقد أمر السلطان عبد العزيز خان الثاني، الذي أنشأ خط السكك الحديدية، كي يسهل للمسلمين الذهاب للحج والعودة منه، ببناء محطات في الأماكن نفسها

٤٨٤ الشعراء: ٨٨.

٤٨٥ حلمي آيدن، صالة البردة الشريفة والأمانات المقدسة، اسطنبول ٢٠٠٤، ص: ٢٧٢ ـ ٢٧٥.



التي كان النبي عليه الصلاة والسلام قد استراح فيها في أسفاره، كي تكون السكة الحديدية هذه ملائمة للسنة السنية، وبهذا يكون قد أوصل السكك الحديدية إلى المدينة في إطار من تدفقات المحبة.



ثم إن النعوت والقصائد التي بين الشعراء فيها حبهم لرسول الله ﷺ، من الكثرة حيث كونت المجلدات، وكم هو جميل ما يقوله الشاعر نبي في هذا الشأن: إن تجرأت في مديحك فلأن الكثير من المخلوقات –حتى الجمادات منها كالشجر والحجر والنبات والجماد– تكلمت بين يدي حضرتك.



وفي الحقيقة فإنه حتى الحيوانات والنباتات ظهر عليها حب النبي عليه الصلاة والسلام بين الحين والآخر، وإحدى الأمثلة على ذلك ما رواه لنا سفينة مولى النبي عليه الصلاة والسلام: قال:

«كنت في البحر فانكسرت سفينتنا فلم نعرف الطريق، فإذا أنا بالأسد قد عرض لنا، فتأخر أصحابي فدنوت منه، فقلت: أنا سفينة صاحب رسول الله ﷺ، وقد ضللنا الطريق، فمشى بين يدي حتى أوقعنا على الطريق، ثم تنحى ودفعني كأنه يريني الطريق، ثم جعل يهمهم فظننت أنه يودعنا».[٤٨٦]



وباختصار، فثمة الكثير من الكلام الذي يقال والأمثلة التي لا تنتهي حول محبة أمة رسول الله ﷺ، نحن لم نعرض إلا بعض النماذج التي هي كقطرة في بحر.

وثمة شيء نعلمه حق المعرفة ألا وهو أن الروحانية في العبادات، والنزاهة في المعاملات، والسماح في الأخلاق، واللطف في القلوب، والملاحة النورانية في الوجوه، والسلاسة في الألسنة، والدقة في العواطف، والعمق في النظرات،

٤٨٦ الحاكم، ٣، ٧٠٢/ ٦٥٥٠؛ عبد الرزاق، ١١، ٢٨١ ـ ٢٨٢؛ الطبراني، ٧، ٩٤.



وكل المحاسن، ما هي إلا بريق منعكس على القلوب من نور محبة خير الخلق سيدنا محمد ﷺ، فهو نبع الرحمة والمحبة الوحيد الذي سيوصلنا إلى بحر محبة الله تعالى، وهذا بحيث يكون حب النبي حباً لربه تعالى، وطاعته طاعة لله تعالى، وعصيانه عصيان لله تعالى.

تفضل الحق تعالى على قلوبنا بحظ عَلِيٍّ من روح سيدنا محمد المرشد الوحيد للصراط المستقيم، وأكرمنا سبحانه بندى الفيض لقلوبنا من روحانيته الواسعة، وجعل قلوبنا منزلاً أبدياً لحب الله ورسوله، وأكرمنا الحق تعالى جميعاً بشفاعته العظيمة! آمين!..

عبد دخيلك على أعتابك يا رسول الله!..

يرجو مددك يا رسول الله!..

ويأمل شفاعتك يا رسول الله!..

ج . محبة المسلم لأخيه المسلم.

عندما يفيض قلب العبد بحب الله تعالى فإنه يحب كل من يحبُّه الله تعالى، فيحب خير خلق الله سيدنا محمد ﷺ، ويحب أولياء الله تعالى، ويحب كل مخلوق بقدر حب الله تعالى له، من خلال اشتمال الحب لهم جميعا بتوسعه على مراحل، وحلقة حب كهذه في التوجه إلى الله تعالى تكون منبع شفاء ورحمة للأرواح، وعلى هذا فيلزم المؤمنين عدم الخروج عن حلقة الرحمة والمحبة في مناسباتهم فيما بينهم، إذ أن هذا هو طريق ونتيجة حب الله تعالى والتمكن من التقرب إليه.

يبين الحق تعالى في قرآنه الكريم أن المؤمنين إخوة، [٤٨٧] كما يعلمنا النبي عليه الصلاة والسلام أنه لن يكون هناك إيمان كامل دون أن يرتبط المؤمنون

٤٨٧ انظر: الحجرات، ١٠.

بإخوانهم في الدين برابط متين من المحبة، وقد أوصى عليه الصلاة والسلام أمته لتمكين هذه المحبة فيهم بإفشاء السلام بين بعضهم.[٤٨٨]

محبةٌ المؤمنين فيما بينهم خصلة حميدة ترضي الله تعالى، وسعادة الدارين مرتبطة بهذا الحب، يقول فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام:

«إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي».[٤٨٩]

ويقول تعالى أيضاً:

«المتحابون فيَّ جلالي لهم منابر من نور، يغبطهم النبيُّون والشهداء [٤٩٠]».[٤٩١]

وفي حديث آخر يخبرنا الحق تعالى أنه سيظل في ظله يوم القيامة إذ لا ظل إلا ظله يومها المتحابين في الله يلتقون فيه ويفترقون عليه، فيقول في الحديث:

«...ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه...»[٤٩٢]

ومما لا شك فيه أن الأخوة هنا تشمل الأوقات العصيبة الصعبة.

وأما خصام المؤمنين وهجر بعضهم بعضا فهو سلوك سيء لا يوصى به في أي حال من الأحوال، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

«لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمنا فوق ثلاث، فإن مرت به ثلاث فليلقه فليسلم عليه، فإن رد عليه السلام فقد اشتركا في الأجر، وإن لم يردَّ عليه فقد باء بالإثم».[٤٩٣]

---

٤٨٨ انظر: مسلم، الإيمان، ٩٣ ـ ٩٤.

٤٨٩ مسلم، البر، ٣٧/ ٢٥٦٦.

٤٩٠ وحسب شروح الحديث فإن الغبطة هنا لا تعني أفضلية هذه الفئة على الأنبياء والشهداء، وإنما بيان فضل المتحابين فيه تعالى وعلو حالهم ومنزلتهم بأسلوب يفيد التأكيد.

٤٩١ الترمذي، الزهد، ٥٣/ ٢٣٩٠.

٤٩٢ البخاري، الأذان، ٣٦/ ٦٦٠.

٤٩٣ أبو داوود، الأدب، ٤٧/ ٤٩١٢.

«من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه».[٤٩٤]

«تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين، ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا».[٤٩٥]

صور الفضيلة

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال:

«أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال: إني لأحبك يا معاذ، فقلت: وأنا أحبك يا رسول الله، فقال: فلا تدع أن تقول في دبر كل صلاة: رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك». [٤٩٦]

يا لها من صورة حب رائعة!.. يحب النبي عليه الصلاة والسلام معاذاً أخاً في الدين رضي الله عنه، ويقدم له وصية تفيده علامة على حبه له.



قال عليه الصلاة والسلام:

«يا أيّها النّاس، اسْمعوا واعْقلوا واعْلموا أَنَّ لِلَّهِ عِبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النَّبيُّونَ والشّهداء على مَجالِسهمْ وقُرْبهمْ مِنَ اللَّهِ»

فجثى رجل من الأعراب من قاصية الناس، وألوى بيده إلى نبي الله ﷺ فقال: يا نبي الله ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله انعتهم لنا حلمهم لنا، يعني صفهم لنا، شكلهم لنا فَسُرَّ وجه رسول الله ﷺ، لسؤال الأعرابي فقال رسول الله ﷺ:

---

٤٩٤ أبو داوود، الأدب، ٤٧/ ٤٩١٥.

٤٩٥ مسلم، البر، ٣٥ـ٣٦/ ٢٥٦٥؛ أبو داوود، الأدب، ٤٧/ ٤٩١٦.

٤٩٦ أحمد، ٥، ٢٤٤ ـ ٢٤٥؛ أبو داوود، الوتر، ٢٦؛ النسائي، السهو، ٦٠؛ الترمذي، الزهد، ٣٠



«هم ناس من أفناء الناس ونوازع القبائل لم تصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا في الله وتصافوا، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها فيجعل وجوههم نورا، وثيابهم نورا، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»، ثم تلا هذه الآية:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٤٩٧]». [٤٩٨]



وعن أبي إدريس الْخولانيِّ، أنّه قال:

دخلت مسجد دمشق فإذا فتى شاب براق الثنايا، وإذا الناس معه إذا اختلفوا في شيء أسندوا إليه، وصدروا عن قوله، فسألت عنه، فقيل هذا معاذ بن جبل، فلما كان الغد هجرت فوجدته قد سبقني بالتهجير، ووجدته يصلي، قال: فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته من قبل وجهه، فسلمت عليه، ثم قلت: والله إني لأحبك لله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله، فقال: آلله؟ فقلت: آلله. قال: فأخذ بحبوة ردائي فجبذني إليه، وقال: أبشر فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول:

«قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين في، والمتجالسين في، والمتزاورين في، والمتباذلين فِيَّ». [٤٩٩]



---

٤٩٧ يونس، ٦٢ ـ ٦٤.

٤٩٨ أحمد، مسند، جـ٣٧، ص ٥٤١، أبو داوود، السحر، ٧٦/ ٣٥٢٧.

٤٩٩ الموطأ، الشعر، ١٦.



وينقل لنا النبي ﷺ حديثاً في صدد بيان أن المحبة في الله تجعل صاحبها ينال محبة الله تعالى فيقول:

«أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد الله له، على مدرجته، ملكا فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله ﷻ، قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه».[500]



وعَنْ أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

«كُنَّا جُلوسا مع رسول الله ﷺ فقال: «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**» فطلع رجل من الأنصار، تنطف لحيته من وضوئه، قد تعلق نعليه في يده الشمال، فلما كان الغد، قال النبي ﷺ، مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى. فلما كان اليوم الثالث، قال النبي ﷺ، مثل مقالته أيضا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت؟ قال: نعم. قال أنس: وكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئا، غير أنه إذا تعار وتقلب على فراشه ذكر الله ﷻ وكبر، حتى يقوم لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرا، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحقر عمله، قلت: يا عبد الله إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر ثم، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار: "**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**" فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك، فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ، فقال: ما هو إلا ما رأيت، قال: فلما وليت دعاني، فقال: ما هو إلا

500 مسلم، البر، ٣٨/ ٢٥٦٧؛ أحمد، ٢، ٢٩٢.



ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشا، ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق».[٥٠١]

هذا هو فؤاد مؤمن ينظر إلى جميع المؤمنين بعين الأخوة الحقة، ويعاملهم بالفضيلة...



ويوضح لنا الزبير بن العوام رضي الله عنه صورة للأخوة في أحد يتعذر بلوغها فيقول:

«أنه لما كان يوم أحد أقبلت أمي صفية وأخرجت ثوبين معها، فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة فقد بلغني مقتله، فكفنوه فيهما، قال: فجئنا بالثوبين لنكفن فيهما حمزة، فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيل قد فعل به كما فعل بحمزة، قال: فوجدنا غضاضة وحياء أن نكفِّن حمزة في ثوبين والأنصاري لا كفن له، فقلنا: لحمزة ثوب وللأنصاري ثوب، فقدرناهما فكان أحدهما أكبر من الآخر فأقرعنا بينهما فكفّنا كل واحد منهما في الثوب الذي صار له».[٥٠٢]

يا لها من صورة رائعة تعرض لنا تجاوز الأخوة الإسلامية كل تعصب لقرابة أو نسب...



ثم إن ابن عمر رضي الله عنه يبين لنا في كلماته التالية رقي أخلاق الصحابة في عصر النبوة إذ يقول:

«أتى علينا زمان وما يرى أحد منا أنه أحق بالدينار والدرهم من أخيه المسلم، أتى علينا زمان الدينار والدرهم أحب إلينا من أخينا المسلم».[٥٠٣]



٥٠١ أحمد، ٣، ١٦٦/ ١٢٦٩٧.

٥٠٢ أحمد، ١، ١٦٥.

٥٠٣ الهيثمي، ١٠، ٢٨٥.

فعلى المؤمن أن يكون مهتماً بإخوانه المسلمين، يفكر فيهم، ويشاركهم همومهم، حتى إنه يلزمه التفكير بهم أولاً قبل نفسه، وقضاء حوائجهم، ويمكن مشاهدة إحدى أجمل صور ذلك في سلوك داوود الطائي، حيث قالت له جاريته يومًا: يا داود، لو طبخت لك دسمًا، فقال لها: افعلي، فطبخت له طعامًا شهيًا، ثم جاءته به، فقال لها: ما فعل أيتام بني فلان؟ قالت: هم على حالهم، قال: اذهبي بهذا الطعام إليهم، لأنني اذا أكلته استحال قمامة، أما اذا أكله هؤلاء الأيتام فيكون عند الله مذخورًا.



فمن كان صاحباً لله تعالى يكون صاحباً لجميع المخلوقات، وبالأخص إخوانه في الدين، فعلى المؤمن النظر إلى إخوانه بعين الشفقة والرحمة الإلهية، حيث يقدم لهم حباً عميقاً، ويعظم هذا الحب في قلوبهم حتى إنه يوقعهم في همّ إنقاذ البشرية جمعاء، وقد كان المثل الأعلى للصحبة فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام، يدعو لأهل الطائف بالخير وهم يرمونه بالحجارة.

وقد قال حبيب النجار الذي تتحدث عنه سورة يس في الصفحة الثانية منها، بعدما رفعت له الحجب الإلهية وأغلقت دونه الحجب الدنيوية، مشفقاً على الذين يرجمونه بالحجارة:

﴿...قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [٥٠٤]

وهذا يعرض لنا شفقة ورحمة مؤمن يريد الخلاص حتى لقومه الذين قتلوه.



يقول أبو الحسن الخرقاني، من قبيل التحدث بالنعمة أثناء التعبير عن شعوره حيال الأخوة الإسلامية:

---

٥٠٤ يس: ٢٦ ـ ٢٧.



«لو وغزت شوكة أحد في الأرض الواقعة بين تركمنستان والشام فكأنها وخزت إصبعي أنا، ولو أصاب حجرٌ قدمَه فكأنه أصاب قدمي، إذ أشعر بألمه فيّ، وأي قلب حزن فهو قلبي».



وقال سهل بن إبراهيم:

«صحبت إبراهيم بن أدهم، فمرضت فأنفق عَلِي نفقته، فاشتهيت شهوة، فباع حماره، وأنفق عليَّ ثمنه، فلما تماثلت، قُلْت: يا إبراهيم، أين الحمار؟ فَقَال: بعناه، فقلت: فعلى ماذا أركب؟ فقال: يا أخي على عنقي، فحملني ثلاث منازل».



سأل السلطان محمد الفاتح بعد فتح اسطنبول بعض رجال دين المسيحية النزهاء المحتجزين في السجون منذ حكم البيزنطيين، عن رأيهم وملاحظاتهم في الدولة العثمانية، فأفادوه أنهم سيعلموه بآرائهم بعد فترة من التحقق والبحث.

فتجول رجال الدين أينما شاؤوا بالفرمان المعطى إليهم، وقصدوا في الصباح الباكر بائع خضرة لشراء بعض الحاجيات، فقال لهم:

«يا أيها السادة، لقد استفتحت، اشتروا من جاري الذي لم يستفتح بعد».

فأوقعتهم صورة الأخوة الإسلامية في حيرة شديدة ... ومهما غُبِطَ هذا الفؤاد العليُّ الخالي من المصلحة الشخصية، المهتم لأخيه بقدر اهتمامه بنفسه فإنه قليل.



والحاصل، يرغب الإسلام من المتآخين في الإسلام أن يكونوا كاليدين تغسل إحداهما الأخرى، فالصداقة الحقيقية التي تكون لله تعالى، تعني أن يحيا المؤمنان روحا واحدة في جسدين، وهكذا تستمر حياة الذين يحرصون على إيفاء مسؤولية الأخوة في الدين من خلال خدمة دقيقة وتضحية بعد حياتهم الفانية في



الدنيا، وهم يذكرون بالرحمة على الدوام، كالمهاجرين والأنصار والمؤمنين الذين جعلوا عوالم قلوبهم وقفاً ...

ثم إن إظهار شفقتنا ورحمتنا ضمن إطار أخوة إيمانية مفعمة بالمحبة، للباحثين عن سبل الهداية في ظروف عصرنا، وللضعاف واليتامى لَمِن أهمِّ وظائف الأخوة الدينية التي تستجلب رضا الله تعالى.

د . حب جميع المخلوقات

لقد وجدت المخلوقات كلها خدمةً للإنسان وعبرة له، إضافة لكونها أمانة بين يديه في حياة الدنيا هذه، ولذا فإن معاملة الإنسان للمخلوقات كلها بحب ليس إلا وفاء لدين الوجدان والضمير.

فيعيش النحل لكي يقدم للإنسان العسل، ويفني الغنم حياته في سبيل إعطاء الإنسان اللحم والحليب والجلد وولدها، وكذا الكلب والقطة كلاهما مسخران للإنسان طوع أمره، ثم إن مخلوقات كالحية التي هي صورة لتجلي جلال الحق تعالى، ودودة الحريش، والعقرب، هي من جملة النعم التي أكرم بها الإنسان، لتذكيره بالعذاب الإلهي ولما تقوم به من شتى الوظائف المكلفة بها في الطبيعة، وقد وجد كل من الحجر والتراب والشجر والسحاب والجبل والسهل ومازال لأجل الإنسان...

تقول الآية الكريمة تذكر ما تفضل به الله تعالى على الخلق:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٥٠٥]

وظلم المخلوقات المستعدة لخدمتنا حمقٌ سيلحقنا ضرره، وإيذاء الحيوانات على وجه الظلم وبالٌ ثقيل يلحقنا في الآخرة، يقول في الآية الكريمة:

٥٠٥ الجاثية: ١٣.



﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[٥٠٦]

ومن ناحية أخرى فمن إحدى وظائف العبودية محبة المخلوقات لأجل الخالق، فلسائر المخلوقات حق في الدنيا ونعمها، وغصبها حقها يستوجب حساباً عظيماً يوم القيامة.

وكم هو جميل ما يقوله الشاعر الفردوسي في أثره «شيهنامه»:

«لا تؤذ حتى نملة تسحب حبة قوت، لأنها ذات روح أيضاً، وأما الروح فإنه حلو ثمين».

وقد حظر النبي عليه الصلاة والسلام قتل الحيوان عبثاً لغير فائدة، لأنه ذو روح، يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث:

«**من قتل عصفورا عبثاً عَجَّ إلى الله ﷻ يوم القيامة يقول: يا رَبِّ، إنّ فلاناً قتلني عبثاً، ولم يقتلني لمنفعة**».[٥٠٧]

صور الفضيلة

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرَةً معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش، وفي رواية ترفرف على رأس رسول الله ورأس أصحابه، فقال ﷺ: «**من فجع هذه بولدها؟ ردُّوا ولدها إليها**».[٥٠٨]



٥٠٦ الأنعام، ٣٨.

٥٠٧ النسائي، الضحايا، / ٤٤٤٦٤٢.

٥٠٨ أبو داوود، الجهاد ١١٢/ ٢٦٧٥؛ الأدب ١٦٣ ـ ١٦٤.

وفي الحديث:

كان عليه الصلاة والسلام جالساً، وقد اجتمع إليه أصحابه فبينا نحن عنده إذ أقبل رجل عليه كساء وفي يده شيء قد التف عليه فقال يا رسول الله إني لما رأيتك أقبلت إليك، فمررت بغيضة شجر، فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن فوضعتهن في كسائي، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي فكشفت لها عنهن فوقعت عليهن معهن فلففتهن بكسائي فهن أولاء معي، قال: ضعهن عنك فوضعتهن وأبت أمهن إلا لزومهن، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه:

«**أتعجبون لرحم أم الأفراخ فراخها؟**»،

قالوا: نعم يا رسول الله، قال:

«**فوالذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها، ارجع بهن حتى تضعهن من حيث أخذتهن وأمهن معهن**»، فرجع بهن.[٥٠٩]



ركبت عائشة ﵂ بعيراً، فكانت فيه صعوبة، فجعلت تردده، فقال لها رسول اللّه ﷺ:

«**عليك بالرفق، فإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**».[٥١٠]



ويبين عليه الصلاة والسلام في المثال الآتي أنه بالإمكان اكتساب رضا الله تعالى بأمور صغيرة نفعلها:

«**بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا**

٥٠٩ أبو داوود، الجنائز، ١/ ٣٠٨٩.

٥١٠ مسلم، البر، ٧٨ـ ٧٩؛ أحمد، ٢٤٩٣٨.



الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له».

قالوا: يا رسول الله: وإن لنا في البهائم أجرا؟ فقال:

«**نعم، في كل ذات كبد رطبة أجر**».[٥١١]



وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه، قال:

«أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم، فأسر إلي حديثا لا أحدث به أحدا الناس، وكان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدفا، أو حائش نخل، قال: فدخل حائطا لرجل الأنصار فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حن وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه فسكت، فقال:

«**من رب هذا الجمل؟، لمن هذا الجمل؟**»

فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله. فقال:

«**أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟، فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه**».[٥١٢]



ثم إنه عليه الصلاة والسلام يحذر من إيذاء الحيوانات بالتكلم لهواً بلا فائدة أثناء الجلوس عليها، فيقول:

«**إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجتكم**».[٥١٣]



---

٥١١ البخاري، الشرب، ٩/ ٦٠٠٩؛ مسلم، السلام، ١٥٣/ ٢٢٤٤.

٥١٢ أبو داوود، الجهاد، ٤٤/ ٢٥٤٩.

٥١٣ أبو داوود، الجهاد، ٥٥/ ٢٥٦٧.



وقد روي:

أن رسول الله ﷺ صلى الظهر فوجد ناقة معقولة، فقال:

«أين صاحب هذه الراحلة؟»

فلم يستجيب له أحد، فدخل المسجد فصلى حتى فرغ، وخرج فوجد الراحلة كما هي، فقال:

«أين صاحب هذه الراحلة؟»

فاستجاب له، فقال: أنا يا نبى الله، فقال:

«ألا تتقى الله ﷻ فيها؟ إما أن تعقلها، وإما أن ترسلها حتى تبتغى لنفسها».[٥١٤]

وفي رواية:

«اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة».[٥١٥]



وعن سهل بن الحنظلية بن عمرو قال:

مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهرُه ببطنه، فقال:

«اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة».[٥١٦]



وروي أن رجلاً أضجع شاةً وهو يحدّ شفرته، فقال له النبي ﷺ:

«أتريد أن تميتها موتات؟ هل حددت شفرتك قبل أن تضجعها».[٥١٧]



---

٥١٤ الطبراني، ١٣٧٤٦.

٥١٥ أحمد،٤، ١٨١.

٥١٦ أبو داوود، الجهاد، ٤٤/ ٢٥٤٨.

٥١٧ الحاكم، المستدرك، ٤، ٢٥٧، ٢٦٠/ ٢٥٧٠/ ٧٥٧٠.



عن جابر ﵁، أن النبي ﷺ مرّ عليه حمار قد وسم في وجهه فقال: «**لعن اللّه الذي وسمه**»[٥١٨]، فنهى عنْ ذلك.



خرج رسول اللّه ﷺ يريد مكة، وهو محرم. حتى إذا كان بالروحاء، إذا حمار وحشي عقير. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال:

«**دعوه، فإنه يوشك أن يأتي صاحبه**»

فجاء البهزي، وهو صاحبه، إلى النبي ﷺ. فقال يا رسول الله: شأنكم بهذا الحمار؟، فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر فقسمه بين الرفاق، ثم مضى، حتى إذا كان بالأثابة بين الرويثة والعرج إذا ظبي حاقف في ظل فيه سهم. فزعم أن النبي ﷺ أمر رجلاً أن يقف عنده لا يريبه أحد من الناس، حتى يجاوزه.[٥١٩]



يقدم النبي عليه الصلاة والسلام لنا صورة رائعة عن معاملة الحيوان بالرفق، وهذا السلوك ليس إلا عبارة عن نمط لمشاهدة المخلوقات بعين الخالق، فيروى أنه لما سار رسول الله عليه الصلاة والسلام بجيشه العظيم –والبالغ عشرة آلاف– من المدينة إلى مكة في عام الفتح، نظر في منتصف الطريق كلبة تهر على أولادها، وهم حولها يرضعون منها، فأمر النبي عليه الصلاة والسلام رجلا من أصحابه، يقال له جعيل بن سراقة، أن يقوم عندها، حتى لا يتعرض لها ولجرائها أحدٌ من الجيش.[٥٢٠]



---

٥١٨ مسلم، اللباس، ١٠٧/ ٢١١٧

٥١٩ الموطأ، الحج، ٧٩؛ النسائي، الحج، ٧٨/ ٢٨١٨.

٥٢٠ الواقدي، ٢، ٨٠٤.



وثمة مثال آخر على الاهتمام بالحيوانات والرفق بها، فيقول أنس بن مالك ﵁ الذي نشأ بتربية رسول الله ﷺ:

«كنا إذا نزلنا منزلاً لا نسبح حتى نحل الرحال».[٥٢١]

ويفيد علماء المسلمين أنه من المستحب إعطاء الحيوانات علفها وطعامها في السفر إن أقام المرء قبل أن يطعم هو إذ يلزمه ذلك.[٥٢٢]



مر ابن عمر ﵄ بنفر قد نصبوا دجاجة يترامونها، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا عنها، فقال ابن عمر:

«من فعل هذا؟ إن رسول الله ﷺ لعن من فعل هذا».[٥٢٣]



كانت روح أبي يزيد البسطامي تدق وتَرِقُّ من شدة حب الله تعالى، إلى درجة أنه يشعر بألم ومعاناة كل مخلوق مما سوى الله تعالى في قلبه، ويتألم لذلك. فرأى ولي الله هذا يوماً حماراً قد أدميت مؤخرته من الضرب، فبدأ الدم يتسرب من ساقي أبي يزيد البسطامي.

وذات مرة استراح هذا الولي العظيم تحت شجرة أثناء سفره ثم ما لبث أن واصل مسيره، فانتبه لبعض النمل الماشية في الأكياس علقت بها من المكان الذي جلس فيه للاستراحة، فعاد إلى حيث جلس كيلا يفرقها عن موطنها، فوصل المكان ووضع النملات فيه.



---

٥٢١ أبو داوود، الجهاد، ٤٤/ ٢٥٥١.

٥٢٢ أبو داوود، السنن، ٣، ٥١.

٥٢٣ البخاري، الذبائح، ٢٥؛ مسلم، الصيد، ٥٩/ ١٩٥٨.



يبين نقشبندي الشاه لنا معاملة للحيوانات لا مثيل لها تعتبر المثل الأعلى على النحو التالي:

«لقيت في أيامي الأولى التي كنت في بحث فيها، أمير كول آل وهو من أحباء الله تعالى، وقد كانت حالة الجذب لدي متقدمة، فقال لي: احرص على كسب القلب، واسع في خدمة من الضعفاء، واحم الضعاف ومكسوري القلب، فإنه ليس لهم أي دخل من الخلق، وعلى الرغم من ذلك فإنهم يعيشون ضمن حالة من الطمأنينة القلبية، والتواضع، والضيق، فابحث عنهم وجِدْهُم. فامتثلت لأمر هذه الذات عالية المقام، وعملت لفترة طويلة في الطريق الذي تكلم عنه، ومن ثم أمرني ولي الله ذاك بالاعتناء بالحيوان، كما طلب مني معالجة أمراضها، ولف جراحها وتنظيفها لوحدي، إلى جانب توصيتي بإيجاد النية الحسنة والإخلاص في هذه الأعمال كلها.

وفيت بهذه الخدمة، كما طلب مني تماماً، وقد وصلت الذاتية عندي حداً صرت أقف معه في الطريق، فلو رأيت كلباً أقف حيث أنا، وأنتظر مروره، إذ لا أخطو ولا خطوة واحدة. وبعد هذا أمرني بالاعتناء بالحيوانات بكل محبة واحترام، ومحاولة البلوغ إلى العناية الإلهية من خلال وسيلة الخدمة هذه، إذ قال: ستشعر بسعادة كبيرة عندما تقضي حاجة إحدى تلك الكلاب.

فاتخذت أمره غنيمة لي، ولم أتخلَ عن أي جهد، وفهمت المعنى المتضمن في إشارته، وانتظرت البشرى التي قدمها، وذهبت إلى إحدى هذه الكلاب، وقد بدا علي حَال عظيم، فوقفت أمامه، وقد انفلتت عيناي في البكاء، وكأن ذاك الكلب، كقطمير الذي أخذ تأثّر بأصحاب الكهف.

وفيما أنا أبكي نام هو على ظهره، ومد رجليه قبل السماء، وبدأ بعدها بإظهار أصوات حزينة، يرافقه بكاء مع حزن وأنين، ففتحت يدي أنا، وقلت: "آمين"، وهو صمت وأدار وجهه.

وذات يوم من تلك الأيام، خرجت من البيت قاصداً بعض الأماكن، ورأيت في الطريق حيواناً يغير لونه حسب لون الشمس، وقد كان انطوى في حظ معنوي، فأتاني منه حالة من الوجد عظيمة، أوقفتني أمامه بكل أدب واحترام، وقد هممت برفع يدي، فإذا بذلك الحيوان المبارك، ينتقل من حال إلى حال في عالمه الذي غاص فيه، واستقبل بوجهه السماء مستلقياً على ظهره. فكنت أقول وهو على هذه الحالة: "آمين"». [٥٢٤]

طلب السلطان سليمان القانوني يوماً من شيخ الإسلام أبي السعود أفندي فتوى في قتل النمل الذي يقضي على أشجار الكمثرى في حديقته، فرد أبو السعود أفندي على طلب الفتوى من قبل السلطان، ببيت واحد قائلاً:

غداً لما تحضر بين يدي الحق   تطالب النمل من السلطان بالحق

فرجل -كالسلطان سليمان القانوني القائد الفطن والسياسي المحنك والعالم والأديب- نشأ في تربية معنوية كاملة يفكر حتى في النملة خشية إيذائها.



لما توفيت زوجة السلطان برتونيال التي بنت مسجد الوالدة في آك صاراي في اسطنبول، رآها أحد الصالحين في منامه وقد نالت مقاماً حسناً، وسألها: أجعلك الله في هذا المقام لإعمارك بيتاً لله؟ فأجابته: لا، فقال الصالح مندهشا: فأي عمل بلّغك هذا المقام؟ فأجابت والدة السلطان بهذه الكلمات المعبرة: كان يوما ماطراً حين قصدنا مسجد السلطان أيوب للزيارة، فرأيتُ هرّة صغيرة ضعيفة ترتجف في بركة ماء صغيرة أحدثتها الأمطار على حافّة الرصيف، فأوقفت العربة

---

٥٢٤ عبد المجيد الخاني، الحدائق الوردية، ترجمة: عبد القادر آك جيجاك، اسطنبول ١٩٨٦، ص: ٥٤٥_٥٤٧.



وقلت للأخت التي بجانبي[٥٢٥]: اذهبي وهاتي هذه الهرّة المسكينة وإلّا فستختنق، لكن الخادمة لم ترد إحضار الهرة وقالت: لا يا مولاتي، ستتسخ ملابسنا، فنزلتُ من العربة، ودخلت في الطين وأنقذت الهرة، وكانت ترتجف، فآلمني حالها وضممتها إليّ أدفئها، فلم يكد يمضي وقت كثير حتى عادت إلى طبيعتها، فأكرمني الله تعالى بهذا المقام الرفيع لاعتنائي بتلك الهرة ورحمتي بها.

وهكذا فإن خيراً قد يبدو بسيطا وعاديا لكنه يستجلب رحمة الحق تعالى، ويكون سبباً في الكثير من الإكرام واللطائف، ولذا فعلى الإنسان أن لا يرى نفسه مستغنياً عن عمل الخير ولو كان ضئيلاً ظناً منه عدم أهميته، إذ إنه بحاجة مساعدة معنوية من كل خير كبيراً كان أو صغيراً في الدنيا والآخرة...



ويذكر لنا والدنا موسى أفندي هذه الحادثة التي عايشها فيما يتعلق بصحبة المخلوقات فيقول:

«كنا قد استأجرنا –والأستاذ المحترم سامي أفندي قُدّس سرّه– بيتاً في المدينة المنورة قبل أربعين سنة تقريباً، وكانت البيوت حينها من اللَّبِن، وقد رأينا في الغرفة التي أعددناها له حية ملتوية في زاوية البيت فأصابنا الهلع من غير اختيار منا، لكنه قال في سكون وطمأنينة: دعوا هذه الحية وشأنها، ولا تلمسوها، وبعد حين ذهبت الحية في سبيلها واختفت».



ويقول موسى أفندي رحمه الله تعالى أيضاً:

«كان الوقت موسم حج، وكنا مع الأستاذ المحترم سامي أفندي وأولادِه في منزل عبد الستار أفندي التركمنستاني في منطقة أجياد القريبة من بيت الله

٥٢٥ كانت نساء زنجيات تخدمن زوجات السلطان، فيقال لهن: «أخت»، وبما أن السودانيات كن معروفات بالنظافة والشرف والعفة فكن يُطْلَبن خاصة للخدمة في القصر من قِبل العثمانيين.



الحرام في مكّة المكرمة، وكانت غرفة سامي أفندي تطلّ على الشارع، وأما نحن -رفقاءه- فغرفنا واقعة في القسم الداخلي، وفي وقت صلاة الظهر قصد حضرته باب غرفتنا وقال: يبدو أن ثمة منْ بحاجة إلى الطعام في الخارج، فجهّزت من فوري بعض الطعام وخرجت فلم ألق أحداً، فعدت إلى الداخل ظناً مني أنه ذهب ولم ينتظر، ولم تمض سوى ثمان إلى عشر دقائق حتى رأينا حضْرته واقفاً على الباب ثانية، وقال: جاء ذاك المحتاج مرة أخرى، وهو ينظر إلى الداخل، فأخذت الطعام مجدداً وخرجت أمام الباب فإذا أنا بكلب جائع مسكين قد مد لسانه من فمه يلتمس منا الطعام، فوضعت الأطعمة أمامه على الفور، فأتى عليها كلّها من شدة جوعه.

هذا ما كان عليه تواضع ولطف الكبار، إذ لم يتحدث حضرة سامي أفندي عن الكلب الجائع باسم جنسه وإنما عبّر بكلمة الشخص، حتى إنه كان في كثير من الأحيان يطلق على الحيوانات اسم عباد الله عوضاً عن المخلوقات، لأنّ المعاملة الحسنة لخلق الله هي في الأصل للحق تعالى، وهذا من حسن القلب السليم».



لقد طلب منّا إسلامنا العظيم -في كل فرصة سانحة وبطرق شتى- معاملة جميع المخلوقات الحيّة وغير الحيّة منها بالحسنى، ومن جملة هذا تحريمه بعض الأمور من قطع للشجر وقلع للعشب والصيد، بل حتى الإشارة إلى الصيد لأجل الصيّاد في منطقة الحرم منٍ مكة، وأثناء الإحرام، حتى إنه قدّر بعض العقوبات المختلفة لمن يخالف ويرتكب المحظورات، وبهذا أراد أن يصل المؤمنون إلى حالة ومكانة روحية ورهافة في الشعور تمنعهم من إلحاق الأذى بالغير، من خلال اجتنابهم الذنوب الصغيرة في منطقة الحرم، فلا يلحقون الضرر بأي عشبة وذي روح.

يكتسب الإنسان بالعبادات في موسم الحج حساسية تسمو به إلى حدٍّ يزول معه الرفث والفسوق والجدال، فلن يقطع حتى عشبة، وسيكون محمياً من الرفث



أثناء الطواف والسعي رجالاً ونساءً، ويكون بريئاً من الفسق والجدال بنظره الدائم إلى أمامه حيث يغضّ من بصره ...

واعتناء الإسلام بهذا الأمر غير مختص بمنطقة الحرم وحالة الإحرام، إذ إن رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول:

«**من قطع سدرة صوّب الله رأسه في النار**».[٥٢٦]

ولما سئل أبو داود عن هذا الحديث أجاب بقوله:

«هو حديث مختصر، ومعناه: من قطع سدرة في فلاة -يستظل بها ابن السبيل- عبثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها صوّب الله رأسه في النار، أي: نكسه».



وفيما يلي حادثة مليئة بالعبرة تصلح مثالاً على اعتناء الإسلام بالمحبة الشاملة للإنسان والحيوان وحتى النباتات:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن رجلا، مر به وهو يغرس غرسا بدمشق، فقال له: أتفعل هذا وأنت صاحب رسول الله ﷺ؟، فقال: لا تعجل علي سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**مَنْ غرس غرسا لم يأكل منه آدمي، ولا خلق من خلق الله عز وجل إلا كان له صدقة**».[٥٢٧]

ومما لا شك فيه أن عكس هذا الأمر من إيذاء النباتات وسائر المخلوقات تصرّفٌ يستلزم وَبالاً، وقد قال أجدادنا: «من قطع رطباً فكأنما قطع رأساً.



---

٥٢٦ أبو داوود، الأدب، ١٥٨ ـ ١٥٩/ ٥٢٣٩.

٥٢٧ أحمد، ٦، ٢٧٥٠٦/٤٤٤.

وقد كان عليه الصلاة والسلام يحثّ الناس على غرس الأشجار والمساهمة في نقاء البيئة واخضرارها، وكان قدوة لأصحابه في هذا الشأن هو بذاته، إذ ينقل لنا ابن عباس رضي الله عنه ما يلي:

مرّ النبي ﷺ على قبرين فقال:

«**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله**»

قال: فدعا بعسيب رطب فشقه باثنين، ثم غرس على هذا واحدا، وعلى هذا واحدا، ثم قال:

«**لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا**».[٥٢٨]

فما من شيء إلا ويسبح له سبحانه، حتى الورقة الخضراء تذكر الله تعالى إلا أننا لا نفقه تسبيحها، تقول الآية الكريمة:

﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾[٥٢٩]



وباختصار فإن رضا الله تعالى قد يكون في عمل عظيم أو ضئيل، والأمر نفسه في العقاب، وبناء عليه يلزم معاملة جميع المخلوقات بالشفقة والرحمة والمحبة، والمسارعة إلى خدمتها وقضاء حوائجها إن لزم ذلك. فالإسلام يأمر الإنسان بمعاملة جميع الأحياء والناس والحيوانات حتى النباتات بالرحمة والمحبة، إذ على ابن آدم وظائف لكل تلك المخلوقات، فإذاً جمال الإسلام مكنوز في مفهوم هذه المحبة الشاملة للمخلوقات بأسرها والرحمة بها، فَمَثَلُ المسلم كنَهْرٍ جار

٥٢٨ مسلم، الطهارة، ١١١/ ٢٩٢.

٥٢٩ الإسراء: ٤٤.



فياض بالبركة، بخدمته لآلاف المخلوقات من حيوانات وشجر وزهر وطير، ولن يكونَ المقام الذي يناله آخرَ المطاف إلا منبع اللقاء والوصال الأبدي.

وكما أنه من المستحيل خلوّ الشمس عن الدفء والنور، فكذا من المستحيل خلو القلوب الكبيرة عن الرحمة للمخلوقات جميعها، فالرحمة درّة إلهية محيطة بالعالم بأسره، والحق تعالى هو مصدر تلك المحبة والشفقة، ومَن حُرِم الرحمة خسر أعظم الخزائن أي مفتاح باب السعادة.

إنّ أولياء الحق تعالى الواصلين إلى منبع المحبة –بفضل الله تعالى وباتباع رسوله عليه الصلاة والسلام– سيبقون أصحاباً لسائر المخلوقات إلى الأبد، إذ لا يغدون شيئاً من الماضي، فحياتهم ماضية حتى بعد وفاتهم، ويعبّر وليّ الله تعالى يونس إِمْرَه عن هذا بكلام رائع، فيقول:

يُنَادَى أن يونس قد مات   لا يموت العاشق بل الحي مات



٢ . الخوف والرجاء من الله ﷻ

إن إحدى الأوصاف الفارقة للمؤمنين الكُمَّل الخوف من الله ﷻ، والذي ينشأ عن تعظيمهم لله ﷻ ومحبتهم له، وفي الأصل فإن الخوف من الله تعالى هو القلق والحذر من فقداننا –نحن العباد– محبته الأبدية لنا ورضاه علينا، ولذا فإن قلوب المؤمنين اليَقِظَة ترتعد وترتجف خشية منه تعالى عند ذكره، وهذه الحال تستلزم الأحوال العليّة كالأدب والإخلاص والتقوى، يقول الحق ﷻ:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٥٣٠]

---

٥٣٠ الأنفال: ٢.

ويقول الله تعالى مخاطبا نبيه الكريم:

﴿...وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ. الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [٥٣١]

والخوف من الله تعالى يزيد كلما ازدادت معرفة العبد بربه تعالى ومحبته له، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

«أنا أعرفكم بالله، وأخوفكم منه».[٥٣٢]

إن الخائفين من الله تعالى بحق لا يخشون شيئاً غيره، إذ إن خوف الله تعالى هو نور سعادة قلوبهم.

والمؤمنون الذين يخشون ربهم هم الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، [٥٣٣] فوعدهم الحق تعالى بجنتين. [٥٣٤]

يقول عليه الصلاة والسلام:

«ما من مؤمن يخرج من عينيه مثل رأس الذبابة من الدموع، فيصيب حرَّ وجهه إلا حرّم الله عليه النار».[٥٣٥]

«لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنمَ».[٥٣٦]

---

٥٣١ الحج: ٣٤_٣٥.

٥٣٢ البخاري، الأدب، ٧٢؛ مسلم، الفضائل، ١٢٧.

٥٣٣ انظر: البينة، ٨.

٥٣٤ انظر: الرحمن، ٤٦.

٥٣٥ ابن ماجة، الزهد، ١٩.

٥٣٦ الترمذي، الزهد، ٨/ ٢٣١١.

ويقول عليه الصلاة والسلام:

«ليس شيء أحبَّ إلى الله من قطرتين وأثرين، قطرةٌ من دموع في خشية الله، وقطرة دم تهراق في سبيل الله، وأما الأثران، فأثر في سبيل الله، وأثر في فريضة من فرائض الله».[٥٣٧]

ثم إنّ دموع المؤمنين التي ذرفوها من خشية الله ، هي زينة في الليالي الفانية، ونور في القبور المظلمة، وندى في رياض الجنان.

حفظَنا الحق تعالى وإياكم من قلب لا يخشع أمام حكمة القرآن الكريم وأسراره، ومن عين لا تدمع من خشية الله تعالى.

وفي ذمّ القاسية قلوبهم، المحرومة من الخشوع، يقول الحق تعالى:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٥٣٨]

يقول الحبيب الأكرم عليه الصلاة والسلام:

«اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب، القبر اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها».[٥٣٩]

---

٥٣٧ الترمذي، فضائل الجهاد، ٢٦/ ١٦٦٩.

٥٣٨ البقرة، ٧٤.

٥٣٩ مسلم، الذكر، ٧٣/ ٢٧٢٢.

إنّ من لا يخش الله تعالى أقل رتبة عن الحيوانات والجمادات، وقد قال أجدادنا: «خفْ ممن لا يخاف الله تعالى»، ومما لا يخفى أن عاقبتهم يخشى منها، إذ إن قسوة قلوبهم وظلمة غفلتهم ولامبالاتهم تنزهت عنها الجمادات.

وقد أوضح لنا البيان الإلهي تحوّل الكائنات التي نحسبها جامدة من حال إلى حال من جراء خشية الله تعالى، فيقول في إحدى الآيات التي تبين هذه الحقيقة:

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٥٤٠]

فيجب أن يجتمع في قلب المؤمنين الخوف من الحرمان من محبة الله تعالى والوقوع في عذابه، مع الأمل في الحصول على رحمته الدائمة، أي إن على قلب المؤمن أن يرتجف بين مشاعر الخوف والرجاء، وهذه الموازنة بين مشاعر الخوف والرجاء يعبَّر عنها بـــ "**بين الخوف والرجاء**"، فعلى المؤمن المحافظة على هذا الانسجام القلبي حتى يأتي الموت، وذلك من خلال الدعاء الدائم والتضرع والالتجاء إليه سبحانه، تقول الآيات الكريمة:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٥٤١]

---

٥٤٠ الحشر، ٢١. والمقصود من التمثيل في هذه الآية، إبراز أهمية محتوى القرآن الكريم، والمسؤولية العظيمة الملقاة على عاتق الإنسان المخاطب به، ثم إنه من الممكن فهم هذا المعنى أيضاً هنا: لو أعطي الجبل حساً كالإنسان، لانحنى مثال الهيبة والعظمة هذا من خشية نتيجة معرفة صفات الله تعالى والشعور بالمسؤولية، أمام عظمة الحق تعالى وقدرته وحاكميته المطلقة على الكائنات بخشية وتعظيم لا متناهيان. ولا يكتف عند هذا القدر بل يتفتت ويتشقق في سبيل أن يكون عبداً لله تعالى، إلا أن الناس يقضون أعمارهم لكي لا يشعروا بالمسؤولية المهمة الملقاة على أكتافهم عموماً، وفي إفناء للعمر في الغفلة. ومن الضروري للإنسان كي يتمكن من أخذ نصيب من خشية الله ومحبته، تجنيب عالمه الداخلي من الفجور وتزيينه بحياة التقوى.

٥٤١ الأعراف: ٥٦.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [٥٤٢]

يقول نبينا عليه الصلاة والسلام:

«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من جنته أحد». [٥٤٣]

«الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك». [٥٤٤]

ومن هذا المنظور فإنّ طريق السعادة والسلامة الأبدية يمرُّ عبر المحافظة على توازن مشاعر الخوف من الله والرجاء له متناسقةً في القلب، كما أن المحبّ يعيش في خوف دائم من الإساءة لمحبوبه، وقلق مستمر من فقدان محبته له، فكذا المؤمن عليه أن يخشى من فقدان محبة الله تعالى، إلا أنه عليه ألا يقطع أمله في رحمته.

صور الفضيلة والعبر

يقول أنس رضي الله عنه:

كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول يا مقلِّب القلوب ثبت قلبي على دينك، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا، قال:

«نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله، يقلبها كيف يشاء». [٥٤٥]



٥٤٢ الإسراء: ٥٧.

٥٤٣ مسلم، التوبة، ٢٣/ ٢٧٥٥.

٥٤٤ البخاري، الرقاق، ٢٩/ ٦٤٨٨.

٥٤٥ الترمذي، القدر، ٧/ ٢١٤٠.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

لما نزلت آيات ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾[٥٤٦]

قلت: يا رسول الله، أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟

قال عليه الصلاة والسلام:

«**لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم**».[٥٤٧]

على المؤمن أن لا يثق بأعماله وما قام به من الخير، فما من مَخْلَص ولا منجى إلا بالالتجاء إلى رحمة الله تعالى.



كان سهيل بن عمرو خطيب قريش، وكان يعادي ويسب الإسلام على الدوام، فأُسِر في غزوة بدر، فقال عمر رضي الله عنه للرسول صلى الله عليه وسلم:

يا رسول الله، دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو، ويدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبدا، فأجابه رسول الله:

«**لا أمثِّل به، فيمثل الله بي، وإن كنت نبيا**»،

ثم أدنى عمر رضي الله عنه منه وقال صلى الله عليه وسلم:

«**إنّه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه**».[٥٤٨]

علّمنا النبي عليه الصلاة والسلام بفعله هذا أنه علينا الخوف من الله تعالى ومِنْ تصرُّفٍ يستجلب عذابه.

---

٥٤٦ المؤمنون: ٦٠-٦١.

٥٤٧ الترمذي، التفسير، ٢٣/ ٣١٧٥؛ ابن ماجة، الزهد، ٢٠.

٥٤٨ ابن هشام، ٢، ٢٩٣.



ولما توفي الرسول وقعت البلبلة في صفوف مسلمي مكة -لما رأت قريش من ارتداد العرب- فقام سهيل بن عمرو خطيباً ناصحاً لقومه ومذكراً لهم بوجوب الثبات على الإسلام، فقال:

«يا معشر قريش، لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتدّ، واللهِ إن هذا الدين ليمتد امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلى غروبهما في ظلام طويل....».

وبعدما فرغ من خطبته ثبتت قريش على الإسلام، ولما سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطبة سهيل قال:

«أشهد مرة أخرى أنك رسول الله يا رسول الله يا رسول الله، (فلم يزل يرددها)» [٥٤٩]



وعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت:

كان النبي ﷺ إذا كان يوم الريح والغيم عُرف ذلك في وجهه، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُرَّ به وذهب عنه ذلك، فسألته، فقال:

«**إني خشيت أن يكون عذاباً سُلّط على أمتي**». [٥٥٠]

إن رحمة النبي عليه الصلاة والسلام بأمته أكبر من رحمة الوالدين بأولادهما، يقول الحق تعالى:

﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [٥٥١]

---

٥٤٩ ابن هشام، ٤، ٣٤٦؛ الواقدي، ١، ١٠٧؛ البلاذوري، ١، ٣٠٣_٣٠٤؛ ابن عبد البر، ٢، ٦٦٩ _ ٦٧١؛ الحاكم، ٣، ٣١٨/ ٥٢٢٨.

٥٥٠ مسلم، الاستسقاء، ١٤ _ ١٦/ ٨٩٩.

٥٥١ التوبة: ١٢٨.



وقد بيّن النبي ﷺ أنه لم يتمّ تخويف أحد من الناس كمثله، ولم يتعرض أحدٌ إلى أذى ومشقة وجوع، [552] وقد تحمّل كل هذه المشاقّ في سبيل إرجاع عباد الله إلى طريق الله ﷻ، ولم يشتك النبي ﷺ من هذه الحال أبداً، بل إن خلاص إنسان واحد عنده كان خيرا له مما طلعت عليه الشمس وغربت، فلما رمي بالحجارة في الطائف وأدميت قدماه، حزن إلا أن بلوغ عبدٍ -وهو عداس- الهدايةَ أسرَّ قلبه.



يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

كنت عند رسول الله ﷺ فنزلت:

﴿... مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [553]، فقال رسول الله ﷺ:

«يا أبا بكر ألا أقرئك آية أنزلت عليّ»

قلت: بلى يا رسول الله، قال: فأقرأنيها، فلا أعلم إلا أني وجدت انقسامًا في ظهري فتمطيت لها، فقال رسول الله ﷺ:

«ما شانك يا أبا بكر؟»

قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي وأينا لم يعمل سوءًا! وإنا لمجزيون بأعمالنا؟ فقال رسول الله ﷺ:

«أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله وليس لكم ذنوب، وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة». [554]



---

٥٥٢ انظر: الترمذي، القيامة، ٣٤/ ٢٤٧٢.

٥٥٣ النساء: ١٢٣.

٥٥٤ الترمذي، التفسير، ٤/ ٣٠٣٩.



وفيما يلي مثال مليء بالعبرة يعكس خشية أبي بكر ﵁ لله تعالى، فقد خرج مرة ﵁ يتنسم الهواء اللطيف، فكان يشاهد آلاف تدفقات القدرة الإلهية التي يقدمها الله سبحانه وتعالى لعباده كي يتعظوا، فلمّا وقع نظره على طائر على شجرة قال:

«طُوبَى لك يا طائر، تأكل الثمر، وتقعُ على الشّجر، وما من حساب ولا عقاب عليك، لوددتُ أنّي شجرة على جانب الطريق، مرّ عَلَيّ جَمَلٌ فَأكلني، وأخرجني في بَعْره، ولم أكُنْ مِنَ البَشَرِ».[555]



وقد روي أيضاً عن أبي بكر ﵁ أنه ذكر ذات يوم القيامة والموازين والجنة والنار، فقال:

«وددت أني كنت خضراء من هذه الخضر، تأتي على بهيمة تأكلني، وأني لم أخلق، فنزلت:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[556]».[557]



ذات يوم أمر أبو بكر الصديق ﵁ بصدقات الإبل أن تقسم على الناس، فلما حضرت قال: لا يدخل علينا أحد إلا بإذن، وبينما هم كذلك، قالت امرأة لزوجها: خذ هذا الحبل واذهب إلى أبي بكر ﵁، لعل الله يرزقنا جملا، فأتى الرجلُ أبا بكر ﵁، فوجده قد دخل إلى الإبل، وبدأ في تقسيمها، فدخل إلى أبي بكر ﵁، فلما رأى أبو بكر ﵁ الرجلَ قال غاضباً: من أدخلك علينا؟ فأخذ منه

---

٥٥٥ ابن أبي شيبة، ٦٢، ١٤٤.

٥٥٦ الرحمن: ٤٦

٥٥٧ السيوطي، لباب النقول، ٢، ١٤٦؛ الآلوسي، ٢٧، ١١٧.



الحبل وضربه به، وعندما فرغ أبو بكر ﷺ من تقسيم الإبل دعا بالرجل فأعطاه الحبل، وقال: اقتص مني، فقال عم: والله لا يقتص، لا تجعلها سنة، فقال أبو بكر الصديق ﷺ: فمن لي من الله يوم القيامة؟ فقال عمر: أرضه . فأعطاه أبو بكر ﷺ راحلة وقطيفة وخمسة دنانير، وأرضاه بها، ورجع إلى امرأته سعيداً راضياً .[٥٥٨]

وروي أنذ فتى من الأنصار دخلته خشية من النار، فكان يبكي عند ذكر النار حتى حبسه ذلك في البيت، فذكر ذلك للنبي ﷺ فجاءه في البيت، فلما دخل عليه اعتنقه الفتى وخر ميتاً، فقال النَّبِيُّ عليه الصلاة والسلام:

«جَهِّزُوا صاحبكم فإن الْفَرَقَ من النّار فلذ كبده، والذي نفسي بيده لقد أعاذه الله منها، من رجا شيئا طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه» [٥٥٩]



يقول القاسم رحمه الله:

«كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة ﵂ فأسلِّم عليها، فغدوت يوماً، فإذا هي قائمة تسبح وتقرأ:

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [٥٦٠]

وتدعو وتبكي وترددها، فقمت حتى مللت القيام، فذهبت إلى السوق لحاجتي، ثم رجعت فإذا هي قائمة كما هي تصلي وتبكي».[٥٦١]



٥٥٨ علي المتقي،كنز العمال، ٥، ٥٩٥ـ٥٩٦/ ١٤٠٥٨.

٥٥٩ علي المتقي، كنز العمال، ٣، ٧٠٨/ ٨٥٢٦؛ الحاكم، ٢، ٥٣٦/ ٣٨٢٨.

٥٦٠ الطور: ٢٧.

٥٦١ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ٢، ٣١.



يقول ابن أبي مليكة رحمه الله:

«أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخشى على نفسه من النفاق، لا يقول إنه على مثل إيمان جبريل أو ميكائيل». [٥٦٢]



وعن حنظلة الأسيدي –وكان من كتاب رسول الله ﷺ– قال:

لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنها رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**وما ذاك؟**» قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنها رأي عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً، فقال رسول الله ﷺ:

«والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذِّكْر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعةً وساعةً" ثلاث مرات». [٥٦٣]

وكما اتضح فإن الصحابة الكرام كانوا على محاسبة دائمة للنفس، إذ كان قلقهم الأول –رغم مشاقّ الحياة كلها– أن يصيب قلوبهم مرض أو داء من أدواء الدنيا.



٥٦٢ البخاري، الإيمان، ٣٦.

٥٦٣ مسلم، التوبة، ١٢/ ٢٧٥٠.

كان عمر ﵁ يسير بجانب أحد بيوت الصحابة فسمع هذه الآية:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [564]

فسقط، فحملوه إلى البيت يعودونه شهراً لا يعلمون مابه.[565]



قال عمر بن الخطاب ﵁:

«لو نادى منادٍ من السماء: أيها الناس إنكم داخلون الجنة أجمعون إلا رجل واحد، لخفت أن أكون هو، ولو نادى منادٍ من السماء: أيها الناس إنكم داخلون النار أجمعون إلا رجل واحد لرجوت أن أكون هو». [566]

إن حالة المؤمنين الروحية من التوازن بين الخوف والرجاء، هي ما تصف به الآية الكريمة المتقين بأنهم:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [567]



وقد كان عمر ﵁ يندب نفسه، فقد روي أنه أخذَ ﵁ تِبْنَةً، فقال:

«ليتني كنت هذه التبنة، ليتني لم أخلق، ليت أمي لم تلدني، ليتني لم أك شيئا، ليتني كنت نسيا منسيا».[568]



٥٦٤ الطور،٧ ـ ٨.

٥٦٥ ابن رجب الحنبلي، التخويف من النار، دمشق ١٩٧٩، ص: ٣٠.

٥٦٦ علي المتقي،١٢، ٦٢٠/ ٣٥٩١٦؛ إضافة إلى هذا يمكنكم الاطلاع. ابن رجب الحنبلي، التخويف، ص: ١٥.

٥٦٧ السجدة، ١٦.

٥٦٨ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣، ٣٦٠ ـ ٣٦١.



وكان علي ﷺ إذا توضّأ ارتجف، فإذا سئل عن ذلك قال:

«الآن أحمل الأمانة التي عرضت على السماء والأرض والجبال فأبين أن يحملها وأشفقن منها .... وحملتها أنا».



وكان الحسن بن علي ﷺ إذا دخل في الصلاة -وفي رواية أثناء الوضوء- ارتعش واصفر لونه.. فإذا سُئل عن ذلك قال: أتدرون بين يدي من أقوم الآن؟.

وكان إذا أتى باب المسجد رفع رأسه، وقال: إلهي عبدُك ببابِك، يا محسنُ قد أتاك المسيء، وقد أمرتَ المحسنَ منّا أن يتجاوز عن المسيء، فأنت المحسن وأنا المسيء، فتجاوَزْ عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك يا كريم.



كان لأبي بكر الورّاق ولد صغير، يتلقى دروساً -عند أحد الشيوخ- في القرآن الكريم، وذات يوم رجع من الكُتّاب باكراً يرتجف، ووجهه شاحب مصفَّر، فسأله أبو بكر الوراق وقد وقع في حيرة مما رأى: خيراً يا ولدي، ما الذي أصابك، ولِمَ عدت باكراً من الكتّاب؟، فأجابه ولدُه بوجهٍ كورقة خريف من خشية الله التي عششت في قلبه الصغير: يا أبتي، لقد علّمني شيخي اليوم آية من القرآن الكريم، حين أدركت معناها أصابني ما ترى، فقال والده: يا بني، وما هي الآية الكريمة، فبدأ الولد الصغير بقراءتها:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [٥٦٩]

ثم ما لبث الفتى الصغير أن مرض من هيبة وعظمة هذه الآية الكريمة، ولازم الفراش، ولم يمض وقت كثير حتى فارق الحياة.

٥٦٩ المزمل: ١٧.

فتأثّر أبوه بهذه الحادثة أشدّ التأثر، حتى إنه كان كثيراً ما يذهب إلى قبر ولده ويحدث نفسه باكياً فيقول:

«يا أبا بكر، لقد تعلم ابنك آية من القرآن فارقت روحُه بعدها الحياة من خشية الله، وأنت منذ متى تقرأ القرآن لكن خوفك لم يبلغ خوف ولد صغير!».

ما من شكٍّ في أن هذه الحادثة تعرض لنا الحساسية الإيمانية لطفل صغير تفضّلَ الحقُّ ﷻ عليه بأن أكرمه بشفافية ورقة في قلبه، إلا أنها تُشير إلى خشية الله ﷻ التي ينبغي علينا التحلّي بها أمام العظمة الإلهية مع وجوب تلاوتنا لكلام الله ﷻ بتفكر ورقّة قلبية، ويبين الحق ﷻ سبيل الوصول إلى هذه الحالة في القرآن الكريم بقوله:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [٥٧٠]

وبناء على هذا فإن العلم الحقيقي عند الحق تعالى، هو الذي يجرّ صاحبه إلى مشاعر التقوى والخشية أمام الله تعالى، أي معرفة الله تعالى، وأما للوصول إلى هذا العلم فينبغي مراعاة الأمور التالية التي أوضحتها الآية الكريمة:

١. الخلوة مع الله تعالى في الليالي والأسحار بقيامها وكثرة السجود فيها.

٢. تذكر الموت والدار الآخرة والتفكر في أحوالهما وأهوالهما في كل لحظة.

٣. ملازمة الدعاء والالتجاء لله تعالى أملاً في رحمته، إذ إن الأرواح العظيمة لا تفتر عن الدعاء أبدا.

قال منصور بن عمّار رحمه الله:

«خرجت ليلة من الليالي وظننت أن النهار قد أضاء فإذا الصبح علا فقعدت إلى دهليز يشرف، فإذا أنا بصوت شاب يدعو ويبكي وهو يقول: اللهم وجلالك

---

٥٧٠ الزمر: ٩.

ما أردت بمعصيتي مخالفتك ولكن عصيتك إذ عصيتك بجهلي وما أنا بنكالك جاهل ولا لعقوبتك متعرض، ولا بنظرك مستخف ولكن سولت لي نفسي وأعانني عليها شقوتي وغرني سترك المرخي علي فقد عصيتك وخالفتك بجهلي فمن عذابك من يستنقذني، ومن أيدي زبانيتك من يخلصني، وبحبل من أتصل إن أنت قطعت حبلك عني، واسوأتاه إذا قيل للمخفين جوزوا وقيل للمثقلين حطوا، فيا ليت شعري مع المثقلين أحط أم مع المخفين أجوز، ويحي كلما طال عمري كثرت ذنوبي ويحي كلما كبر سني كثرت خطاياي فيا ويلي كم أتوب وكم أعود ولا أستحي من ربي. قال منصور: فلما سمعت كلام الشاب وضعت فمي على باب داره وقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: إن الله هو السميع العليم: ﴿**نارا وقودها الناس والحجارة**﴾[٥٧١]. قال منصور: ثم سمعت للصوت اضطرابا شديدا وسكن الصوت. فقلت: إن هناك بلية فعلمت على الباب علامة ومضيت لحاجتي، فلما رجعت من الغداة إذ أنا بجنازة منصوبة وعجوز تدخل وتخرج باكية، فقلت لها: يا أمة الله من هذا الميت منك؟ قالت: إليك عني لا تجدد علي أحزاني قلت: إني رجل غريب أخبريني. قالت: والله لولا أنك غريب ما خبرتك هذا ولدي من موالي رسول الله ﷺ، وكان إذا جن عليه الليل قام في محرابه يبكي على ذنوبه، وكان يعمل هذا الخوص فيقسم كسبه ثلاثا، فثلث يطعمني وثلث للمساكين وثلث يفطر عليه فمر علينا البارحة رجل لا جزاه الله خيرا فقرأ عند ولدي آيات فيها النار فلم يزل يضطرب ويبكي حتى مات رحمه الله. قال منصور: فهذه صفة الخائفين إذا خافوا السطوة، يقول منصور بن عمار فقلت: أيتها المرأة إن ولدك قد دخل الجنة، لأنه لا يدخل النار من يبكي من خشية الله تعالى، فهل يدخل النار من مات على هذه الحالة؟ احمدي الله تعالى».



---

٥٧١ التحريم: ٦.

كان السلطان يافوز سليم خان مشهورا بشدة غضبه إلى أقصى الحدود أمام الأخطاء، إلا أن جلاله هذا كما جماله يذوب في دائرة أوامر الله تعالى ويختفي، حيث كانت خشية الله لديه تطغى على كل شيء، وذات مرة أمر بقتل أربعين شخصا تقريباً بسبب السرقة التي حصلت نتيجة إهمالهم، فلما علم شيخ الإسلام زنبيللي علي أفندي بالأمر، قصد السلطان مسرعاً قبل تنفيذ القرار ومن دون طلب إذن الحضور بين يديه، بقصد أن يحوْل دون تنفيذ الأمر، واستمع إلى القصة من السلطان، فردّ عليه السلطان بجواب قاسٍ قائلاً:

«يا حضرة الأفندي، صحيح ما سمعتموه لكن ليس لكم الحق في التدخل بأمور الدولة...»

وبنفس الحدّة أجابه شيخ الإسلام زنبيللي علي:

«يا مولاي، إنما أتيتكم لأبيّن لكم الأحكام الشرعية، فنحن مكلفون بحماية آخرتكم...».

فسأل السلطان يافوز سليم وقد هدأ أمام أحكام الإسلام التي هي أدق من الشعرة وأحدّ من السيف:

«أمَا مِن جوازٍ لموت البعض في سبيل إصلاح الأحوال العامة؟، فأجابه الشيخ: ما من علاقة بين صلاح الناس وموت هؤلاء، وإنما يعاقبون حسب أخطائهم...».

فطأطأ السلطانُ -الذي أخضع الجيوش العظيمة- رأسَه، وتراجع عن قراره، وبينما كان زنبيللي الذي سعِد بهذا على وشك مفارقة مجلس السلطان إذا به يرجع ويقول للسلطان الذي ينظر إليه بفضول:

«يا مولاي، لم يكن طلبي الأول إلا تبليغ حكم ديننا، وثمة طلب ثان ليس إلا رجاء: مولاي! إن ذنوب هؤلاء المجرمين عليهم، فمن لعوائلهم المسكينة؟ ولذا



لي رجاء منكم أن تجعلوا نفقةً لأسر هؤلاء المجرمين حتى ينقضي الجزاء الذي سيلاقونه بالحبس». [٥٧٢]

وليس هناك أدنى شك في أن تحقيق السلطان للطلب الثاني أيضاً ما هو إلا القيام بموجب المسؤولية الإلهية التي كان مدركا لها.



وثمة حادثة أخرى حذّر فيها زنبيللي علي أفندي السلطانَ، فكان رد السلطان -الذي يعتقد أنه على صواب فيما قرره- على شيخ الإسلام أن قال له: «ليس من شأنكم التدخل في أمور الدولة»

فأجاب زنبيللي علي على هذا الخطاب المهدِّد بجرأة:

«مولاي! إن هذا من شؤون الآخرة، ولنا الحق في التدخل بها، وفي حال لم تتراجعوا عن القرار الخاطئ الذي اتخذتموه فاستعدّوا للعذاب الشديد في يوم المحشر!..».

وخرج شيخ الإسلام -بعدما قال ما قاله للسلطان- دون أن يسلّم عليه، فغضب السلطان يافوز سليم -وكان على أهبة السفر- من هذا التصرف الذي لم يلاقيه من أحد آخر، لكنه وبعد إدراكه الحقيقة قَبل تنبيهَ شيخ الإسلام، ووضع قراره بما يتناسب وقولَ الشيخ، وترك رسالة يعتذر فيها للشيخ زنبيللي علي.

إن هذا الخوف من الله تعالى المكنون في قلب السلطان منَعه -حتى ولو كان سلطان العالم- من التصرف وفق رغباته، وأما خوف الشيخ من الله تعالى فقد أعطاه شجاعة كبيرة، جعلته يحذر سلطاناً عظيماً كيافوز سليم آخذاً بعين الاعتبار كل شيء.



---

٥٧٢ انظر: مصطفى نوري باشا، نتائج الوقوعات، أنقرة ١٩٨٧، ج. ١ ـ ٢، ص: ٩٠ ـ ٩١.



لقي أحد الوزراء المتصوّفَ ذي النون المصري فقال له:

«أطلب عفوك، فأنا مشغول ليلاً ونهاراً بخدمة السلطان، أريد الخير له، إلا أنني أخشى أن يضيق بي ويوبخني»،فبكى ذو النون وقال: «لو كنتُ أخشى الله كخشيتك من السلطان لكنتُ في زمرة الصدّيقين».



وباختصارٍ ...

فإن محبة الله تعالى رأس كل خير، ورأس الحكمة الخوف منه تعالى. إنّ مَن يحب الله تعالى ويعرفه حق المعرفة يتصرّف بحذر على الدوام، خوفاً من أن لا يكون مستحقاً لحبه تعالى أو أن يصيبه عذابه، ويعيش حياته في مرتبة الإحسان.

إنْ خاف العبد ربَّه كما يجب فإنه يكرمه باستقامة متناسبة والإسلام، ويأمن كلَّ ما قد يخيفه من الدنيا والآخرة، وقد قال سيد الكائنات عليه الصلاة والسلام:

«**ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فأما المنجيات: فتقوى الله في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر، وأما المهلكات: فهوى متبع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه، وهي أشدهن**».[٥٧٣]

وللوصول إلى الطمـأنينة والسعادة في الدارين ينبغي علينا الخوف من الله تعالى، والتضرع بين يديه في ركوعنا وسجودنا ودعاءنا بدموع سخية حارة، كما علينا الالتجاء إلى الله تعالى على أملا في نيل رحمته وعفوه تعالى.

---

٥٧٣ شعب الإيمان، ٩، ٣٩٦/ ٦٨٦٥؛ المناوي، ٣، ٤٠٤/ ٣٤٧١.



٣ . التعظيم

إن التعظيم هو ثمرة المشاعر المرهفة والحساسيات القلبية، كالتقوى والمحبة والتواضع والتقدير والتي تنشأ عن الإيمان، ثم إن جوهر الإسلام يعرَّف بشكل مختصر في إطار هذين القياسين:

أ. «**التعظيم لأمر الله تعالى**»، أي تأدية أوامر الله تعالى بدقة واهتمام بالغين مع الاحترام.

ب. «**الشفقة على خلق الله تعالى**»، أي إظهار الشفقة والرحمة بالمخلوقات جميعها.

وأعظم الأدب تعظيم الحق سبحانه وتعالى، وأحسن صور هذا التعظيم وأشدّها ما ينعكس على العبادات، ومِن ثم التقرّب من سائر المخلوقات بمشاعر الاحترام حسب درجات قربها من الله تعالى.

تقول الآية الكريمة:

﴿... **ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ [٥٧٤]

وعليه فإن العبادات كالصلاة والقرآن الكريم والأذان والأضحية والمواضع المقدسة كالكعبة الشريفة والصفا والمروة كلها في حكم شعائر الله تعالى، فيلزم عدم التقصير في إظهار الاحترام لهذه الشعائر أثناء الحج والعمرة وإظهار التعظيم لها، ولا بدّ من اجتناب التصرفات غير اللائقة كالجلوس مادّاً رجليه في مواجهة الكعبة أو النوم أمامها، والتكلم بالكلام الفارغ واللهو في الأماكن المباركة، وبالأخص تلاوة القرآن الكريم أو الاستماع إليه على نحو فيه تقصير في الأدب والاحترام، أو القيام بما يُسيء إليه مِن وضْعه على الأرض.

---

٥٧٤ الحج: ٣٢.

لقد أكرم الله ﷻ مَن يعظّم الذات الإلهية العليّة وأنبياءه وأولياءه وأماناته المقدسة، وأنزل عليهم رحمته دائماً، وكما نعلم فإنه تعالى لم يعذّب حتى مشركي مكة المكرمة طالما النبي عليه الصلاة والسلام فيهم.[٥٧٥]

وقصة سحرة فرعون المليئة بالعبرة الموضحة في القرآن الكريم واحدة من أروع الأمثلة على آثار تعظيم شعائر الله تعالى في النفس، مع العلم أنّ فرعون لما عجز أمام معجزات موسى عليه السلام، جمع إليه سحرة مصر ووعدهم بمكافئات جزيلة، إلا أنّ السّحرة تركوا ترجيح الابتداء في المسابقة إلى نبي الله موسى عليه السلام لطفاً منهم مظهرين بذلك تعظيمه واحترامه، وهذا التّصرف اللّطيف لا بدّ وأنّه أرضى الحقّ تعالى حيث إن حبّ الهداية بدأ بالنشوء والنمو في أفئدة السحرة، والتجليات الإعجازية التي تلتها والتي عاينوها، كانت وسيلة لتذوقهم طعم شرف الإيمان على الصعيد القلبي، وهذا الإيمان من الكمال بحيث لا يقبل التنازل والتسوية حتى مقابل التضحية بالنفس...

ويبيّن مولانا تجليات سرّ تعظيم مشاعر الله تعالى المعروضة في هذه القصة فيقول:

«وصل السحرة إلى عقيدة التوحيد بإظهارهم اللطف والالتفات والاحترام من خلال عرضهم على نبيٍّ كبيرٍ وعبدٍ عالِ المقام قريبٍ من الله تعالى الأولوية في المنافسة، إلا أنهم تعرضوا للجزاء لخروجهم في منافسة ذاك النبي العظيم».

وإن قصة رؤيا عثمان غازي نتيجة احترامه وتعظيمه للقرآن الكريم وتزويج الشيخ إدابالي الذي عبّر الرؤيا ابنته منه لَمشهورة، فيكون إذاً من الممكن القول بأن إظهار الاحترام والتعظيم والمحبة واللطف والخدمة للقرآن الكريم كان من شيم العثمانيين.

---

٥٧٥ انظر: الأنفال، ٣٣.



ثم إن هذه الدولة العليّة التي استمدت قوتَها من احترامها الأسطوري للقرآن الكريم، أظهرت احتراماً لا مثيل له في التاريخ للأمانات المقدسة لَمَّا امتلكتها فيما بعد، إلى جانب خدمتها للحرمين الشريفين على النحو الذي يستحقانه من الاحترام والتقديس على مدى عصور طويلة.

صور الفضيلة والعبرة

روي عن أبي هريرة ﵁، أن رسول الله ﷺ رأى نخامة في قبلة المسجد، فأقبل على الناس، فقالَ:

«ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخع أمامه، أيحب أحدكم أن يُستقبل فيتنخع في وجهه؟...».[٥٧٦]



سمع الإمام الجنيد البغدادي عن رجل أنه من أهل التقوى فقصد زيارته، فلما رآه وقد بصق في ناحية القبلة، قال:

«هذا رج لا يؤتمن على سنة رسول الله ﷺ فكيف يكون تقيا». ثم رجع.



وعَنْ أَنَس ﵁:

«كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء وضع خاتمه»، تعظيماً لله تعالى، إذ كان مكتوباً عليه محمد رسول الله».[٥٧٧]



وقال عليه الصلاة والسلام عندما رأى الكعبة أثناء الحج:

---

٥٧٦ مسلم، المساجد، ٥٣/ ٥٥٠.

٥٧٧ أبو داوود، الطهارة، ١٠/ ١٩.

«اللهم زد هذا البيت تعظيماً وتشريفاً ومهابةً وبِرًّا، وزد مَن زاره -ممن حجّ أو اعتمر- تعظيماً وتشريفاً ومهابةً».[578]



وفي الآية الكريمة:

﴿والْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ...﴾ [579]

يبين لنا الحق ﷻ أن الأضاحي التي يراد تعظيم الله بها هي من شعائر الإسلام، ولذا وجب علينا احترام الأضحية والحيوانات المعَدة قرابين لأجل الله تعالى، فالأصل في الأضحية مشاعر التعظيم والتقوى كما هو الأمر بالنسبة لسائر العبادات، فإن الله تعالى يقول:

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [580]

وفيما يلي حادثة تصلح مثالاً على بيان تعظيم سيّد الكائنات لله تعالى بإهداء الأضحية:

خرج النبي ﷺ وخرج معه المسلمون حتى وصلوا إلى الحديبية قاصدين العمرة، إلا أن المشركين منعوهم من دخولهم مكة، وقد ساق الصحابة الكرام الهدي بين أيديهم، وكان جمل أبي جهل قد غنمه النبي ﷺ يوم بدر، فكان المسلمون يغزون عليه المغازي، وكان قد ضرب في لقاح النبي ﷺ التي استاق عيينة بن حصن ولقاحه التي كانت بذي الجدر التي كان ساقها العرنيون، وكان جمل أبي جهل نجيبا مهريا كان يرعى مع الهدي فشرد قبل القضية فلم يقف حتى

578 ابن سعد، ٢، ١٧٣.

579 الحج، ٣٦.

580 الحج، ٣٧.



انتهى إلى دار أبي جهل وعرفوه، وخرج في أثره عمرو بن عنمة السلمي فأبى أن يعطيه له سفهاء من سفهاء مكة، فقال سهيل بن عمرو: ادفعوه إليه، فأعطوا به مائة ناقة، فقال النبي ﷺ:

«**لولا أنا سمّيناه في الهدي فعلنا**».[٥٨١]

ونلاحظ هنا تعظيم النبي لله تعالى في حلمه وتسامحه، حيث كان عليه الصلاة والسلام ألطف الناس خلقاً، فلم يكن رَدُّ رغباتهم من شِيَمه، وقد كان سيلبّي طلب المشركين لولا حسّ التعظيم لله ولمشاعر دينه، والتي كانت تطغى على كل شيء كما تبين هنا.ولذا لم يستخدم هذا الجمل الذي سمي من الهدي والتي ستذبح لله تعالى في أمر آخر.



ومن العبرة بمكان ما يُبديه أولياء الله تعالى من تعظيمٍ الله تعالى في شأن الأضحية:

كان كلٌّ من سامي أفندي ووالدنا موسى أفندي رحمه الله تعالى بالغي الحساسية فيما يتعلق بذبح الأضحية، فلا يذبحان قربانين في حفرة واحدة، ويأمران بربط عيني القربان، ولا يدفعونه بشدة نحو المكان الذي يذبحونها فيه، وإذا كان القربان من الغنم يطلبان أن يساق إلى مكان الذبح محمولاً على الأكف برفق ورقة، وعلى السكين أن تكون حادة، بحيث لا تؤذي الحيوان، وأن يُترك الدم حتى يسيل عن آخره، ولا يجلسان أثناء ذبح الحيوان بل يظلّان واقفين إلى أن يسيل دمه كله.

فإنّ الأضحية عبادة ينبغي تأديتها بحسِّ العبادة كسائر العبادات، فهي عبارة عن تعظيم الله تعالى وشكره على نعمه التي مَنَّ بها والتضحية في سبيله، لقد

٥٨١ الواقدي، ٢، ٦١٤.



خلق الله تعالى الحيوان لكي ينتفع منه الإنسان وسخره له، ثم إن هذه النعمة التي ينتفع من لحمها ولبنها وجلدها وصوفها وبكل ما فيها إنما هي إكرام كبير لعباده. والشكر للمتفضل بكوب من الماء تصرّفٌ تستلزمه الإنسانية، وعليه فلا بدّ مِن شكر الله تعالى على الدوام لإكرامه إيانا بنعم لا تحصى، والتصرّف بلطف ورحمة وشفقة أثناء نحر هذه الحيوانات التي وُهِبْنَاها لمنفعتنا رعاية منا للتعظيم.



روي عن سيدنا عمر وسيدنا عثمان رضي الله عنهما أنهما كانا يقبّلان المصحف الشريف كل غداة تعظيماً له.

وروي عن سيدنا عمر رضي الله عنه أنّه:

«كان يأخذ المصحف كلّ غداة ويقبّله ويقول: عهد ربّي ومنشور ربّي عز وجل».[٥٨٢]

وكان عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه يأخذ المصحف فيضعه على وجهه ويبكي ويقول: «كلام ربي، كتاب ربي» معبراً بذلك عن تعظيمه لله تعالى ومحبته إياه.[٥٨٣]



كان فيما سبق يتم مسح ما كتب بالحبر عن طريق غسله بالماء، فيذكر أنس رضي الله عنه أن الطلبة في عهد الخلفاء الراشدين كانوا يجمعون الماء الذي يُغسل به ما كتبوه من القرآن الكريم في أوعية ويلقوه على جوانب القبور، أو في الآبار النظيفة الموجودة في الأماكن النظيفة التي لا تطؤها الأقدام،وقد يستخدمون هذه المياه للشفاء في نفس الوقت.[٥٨٤]



---

٥٨٢ الكتاني، ٢، ١٩٦ ـ ١٩٧.

٥٨٣ الحاكم، المستدرك، ٣، ٢٧٢/ ٥٠٦٢.

٥٨٤ الكتاني، ٢، ٢٠٠.



كان أهل مكة قبل نزول القرآن الكريم قد اعتادوا تعليق القصائد السبع المختارة -والتي يطلق عليها اسم المعلقات السبع على جدار الكعبة- وإحدى هذه القصائد تعود للبيد بن ربيعة، وقد بقيت هذه القصيدة معلّقة على جدار الكعبة زمناً طويلاً، ولَمَّا مَنَّ الله عليه بالإسلام، وأسلم ترك قول الشعر فلم يقل غير بيت واحد وهو قوله:

«الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالاً».[٥٨٥]



أرسل سليمان عليه السلام رسالة منه إلى بلقيس ملكة سبأ يدعوها فيها إلى الإيمان، وعندما قرأت بلقيس الرسالة وهي حينئذ وثنية قالت:

«يا أيها الملأ والأشراف، أُرْسلت إليَّ رسالة كريمة، وهي من سليمان، وتبدأ باسم الله الرحمن الرحيم».

فقال بعض العلماء في تعظيمها:

«أعز الله تعالى بلقيس بالإيمان لاحترامها وتقديرها رسالة سليمان عليه السلام».



كان بشر الحافي في بداية حياته يعيش حياة اللهو والغفلة، وكان سبب توبته أنه وجد رقعة فيها اسم الله عز وجل في أتون حمام فأخذها ورفع طرفه إلى السماء، وقال: سيدي اسمك ههنا ملقى يداس! ثم ذهب إلى عطار وطيبها وحفظها، فأحيا الله قلبه، فرأى فيما يرى النائم كأنّ قائلا يقول: يقول لك ربك: يا بشر، طيبت اسمي، لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة.[٥٨٦]



٥٨٥ ابن عبد البرّ، الاستيعاب، ٣، ١٣٣٥.

٥٨٦ عطار، تذكرة الأولياء، طهران ١٣٧٢، ص: ١٢٨.

نجد أجدادنا –الذين يعبّرون عن تعظيمهم واحترامهم لله تعالى ورسوله في كل فرصة، والذين جعلوا هذا الأمر دستوراً طبيعياً لهم في حياتهم– لا يكتبون لفظ الجلالة كما هو بل يرمزون إليها بحرفي «ا ه» خشية من أن تلقى على الأرض.

وقد مرَّ إبراهيم بن الأدهم يوماً بأبي حنيفة، فنظر تلامذة أبي حنيفة إليه باستصغار، فقال الإمام أبو حنيفة لما رآه: «تفضل يا سيدي، شرَّفت مجلسنا»، فسلم إبراهيم بن الأدهم وانصرف مستاء، ولما رحل قال تلامذة أبي حنيفة له:

«كيف لهذا الشخص أن يكون من أهل العلوّ؟ وكيف يخاطب واحدٌ مثلكم واحداً مثله بيا «سيدي»»،

فأجاب الإمام الأعظم أبو حنيفة مظهِراً مشاعر تعظيم أولياء الله تعالى وتواضعه السامي فقال:

«إنه منشغل بالله تعالى على الدوام، أما نحن فمشغولون بالقيل والقال...»».

كان الإمام الأعظم أبو حنيفة قد خاط لنفسه ثوباً قيما من قماش جميل، وكان يلبسه لصلاة التهجد خاصة، وذلك أدبا واحتراما واهتماما بالعبادات، بسبب تعظيمه لله تعالى.



كان أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يقصد الولي الكبير بشر الحافي على الدوام، ويقضي معه وقتا في صحبته، فقال له طلابه:

«يا إمام، كيف لمجتهد مثلك أن يجالس رجلا بسيطا كهذا»، فأجابهم الإمام الكبير:

«نعم، إنني أكثر علماً منه، لكنه أكثر معرفة بالله مني».



ويتضح من هذا أن الإمام الأعظم أبو حنيفة وأحمد بن حنبل رحمهما الله تعالى كانا يكنّان الاحترام لعباد الله تعالى العارفين به، ويستفيدان منهم بزيارتهم إياهم.



كانت صحراء سيناء مكاناً رهيباً لم يتمكن أحد من اجتيازها، لكن الجيش العثماني للسلطان يافوز سليم تمكن من دخول الصحراء بعزم وقرار قطعي منه، وبمضيّ بعض الوقت نزل السلطان عن حصانه، وبدأ المشي، فنزل الجند مِن على خيولهم وبدؤوا المشي أيضا، وأخذوا يتناجون فيما بينهم وهم في دهشة وحيرة:

«لماذا نزل السلطان من على حصانه وبدأ المشي في هذه الصحراء التي يصْعب المشي فيها حتى على الخيول التي لا تحتمل حرَّ هذه الصحراء».

فقال قادة الجيش لحسن جان صديق السلطان المقرّب:

«نتوسل إليك أن تسأل السلطان عن هذا الأمر»

ولما سأل حسن جان السلطان وقد استبد به الفضول عن هذه الحال، أجابه السلطان:

«يا حسن، أما ترى فخر الكائنات رسول الله ﷺ يمشي أمامنا، فكيف لنا أن نكون فوق الخيول وسلطان العالمين يمشي».



لم يكن التاج علامة السلطنة لدى السلاطنة العثمانيين، رغم ورود كلمة "تاج دار" في النصوص الرسمية، فإن سلطة السلطان إنما تتحقق بالبيعة وتقلده السيف، وقد استمر الأمر على هذا النحو حتى السلطان وحيد الدين السلطان العثماني السادس والثلاثين.

وبعد فتح اسطنبول أصبح ضريح قبر أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه مركز تقلّد السيوف، فكان يطلق على المراسم التي كانت تقام لأجل هذا «لواء السيوف».



كان السيف الذي يتقلّده السلطان يعود إلى سيف سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه المحفوظ في قصر طوب كابي، وكان هذا السيف يوضع للسلطان من قِبل أكثر العلماء اعتباراً، ومن ثم يبارَك السلطان بالدعاء جهراً، ولكي يبارِك للسلطان غير المسلمين تم إنشاء «أوتاغي هُومايون» «نصب خيم للسلطان لقيادة الجيش»، في القسم الداخلي لأسوار أدرنة كابي، لأنه وحتى صدور «قانون التنظيمات ١٨٣٩» لم يكن بإمكان غير المسلمين وطء أطراف ومحيط أيوب بأقدامهم، إذ إنّ الكثير من الصحابة المعروفين والمجهولين مدفونون في هذا المحيط فَعُدَّ ترابه مباركاً كتراب الحرم الشريف، أي إن هذه الأراضي رويت بدماء الصحابة الكرام، وشهدت عليهم.



وفي عهد مراد الثاني حدث سيل عارم تسبب بانهيارات في طرفي الكعبة، فتم إرسال المعماري رضوان آغا على وجه السرعة إلى مكة المكرمة للترميم، فأما رضوان آغا الذي حدد الأمور اللازمة فكان لا يذكر كلمتي «انهارت وسقطت» تأدّباً عند تحدثه عن الأماكن المنهارة في الكعبة المشرفة، بل يقول:

«سجدت الأقسام الفلانية من الكعبة..».

وعلاوة على ذلك فقد قدّم صوراً للاحترام تلفت الانتباه، حيث قام بالتدابير اللازمة للحيلولة دون تلويث الأماكن المباركة تلك، بدخول الحيوانات التي تحمل المواد اللازمة للبناء.

وأساساً فإن تعظيم العثمانيين للبلاد المقدسة تلك، تبدأ من «بايي تخت»«موضع عرش السلطان»، حتى سمي مكان من الأماكن التي يمر بها الحجاج من القارة الأوروبية إلى الآسيوية حرماً، وكان يتم الانطلاق من هذا المكان إلى الحرمين الشريفين بالتحلي بالمعنويات والأدب التي تليق بهما، ولا يمكن الصفح في هذا الطريق عن أي حركة فيها غفلة.





يخرج الشاعر نابع إلى الحج عام ١٦٧٨ مع رجال من الدولة، ومع اقتراب القافلة من المدينة لا ترى عينا نابع النوم من الاشتياق والهيجان، فيرى أن واحداً من رجال الدولة في القافلة قد مدّ رجليه غافلاً نحو المدينة، فيبدأ بكتابة نعته المشهور متأثراً بالذي رآه.

وعندما تقترب القافلة من المدينة المنورة قريباً من الصبح، يسمع نابع شعره الذي كتبه يُقرأ من على منابر المسجد النبوي:

«إياك والتقصير في الأدب في هذا المكان الذي هو موضع تنزلات رحمة الحق تعالى، ومقام نبيه الحبيب سيدنا محمد ﷺ...».

« يا نابع، ادخل إلى هذا المكان بالأدب، فهذه الأماكن مقامات مباركة طافت فيها الأرواح المقدسة، وقبّل عتباتها الأنبياء».

فيبحث الشاعر نابع من فوره عن المؤذن، وقد بلغ منه الهيجان كل مبلَغ أمام هذه الحال، فيسأله:

«ممن أخذت هذا النعت وكيف تعلمته؟»

فقال المؤذن: «قال لنا رسول الله ﷺ هذه الليلة في منامنا: «يأتي لزيارتي شاعر من أمتي اسمه نابع، وهذا امرؤ مفعم بالعشق والمحبة والاحترام لي، فاستقبلوه بنعته من المنابر مكافأة لعشقه هذا... »، وقد قمنا نحن بتنفيذ هذا الأمر النبوي...

فبدأ نابع بالبكاء وهو ينتحب، يبكي ويقول:

«إذاً فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام عليَّ "من أمتي"، أي إن شمس الكونين تقبَّلني في أمته..» .



كان عبد العزيز خان –من آخر سلاطين العثمانيين– سلطاناً متعلقاً بسيدنا النبي ﷺ مع الأدب معه والاحترام له إلى أقصى الحدود، فقيل له ذاتَ يوم



وهو مريضٌ طريحُ الفراش، فاقداً وعيه شاحباً: «ثمّة التماس من نواحي المدينة المنورة!»، فجمع السلطان -حين سمع هذا- كل قوته وقال لمعاونيه:

«أوقفوني على قدمي في الحال! كي نقرأ الطلبات الآتية من المدينة المنورة واقفين! فلا تُسمع طلبات جيران رسول الله على نحو مغاير للأدب من مدّ الرجلين والاستلقاء!..»، وهو بهذا أظهر محبته وتعظيمه للنبي ﷺ.

وقد كان أيضاً يتوضأ كلما جاء بريدُ المدينة المنورة، ويقول في الرسائل: «فيها غبار المدينة المنورة»، ثم يقبّلها ويضعها على جبينه، ثم يناولها للأمين الأول قائلاً له: «افتحها واقرأها».



ومن الجدير بالذكر احترام أجدادنا للعلماء وأرباب الفضائل، وقد أوصى غازي أرطغرل لابنه غازي عثمان ولغيره ممن سيخلفه متوجهاً بالخطاب إليه، فيما يتعلق بالاهتمام بأولياء الله تعالى قائلاً:

«انظر يا بني، فلتؤذني لكن حذار من أن يستاء منك الشيخ أدابالي، فهو شمس معنويات عشيرتنا، لا يخطئ ميزانه درهماً، عارِضْني، لكن إياك أن تعارضه، فإنك إن عارضتني أستاءُ وأحزنُ، إلا أنك إن عارضته فلن تنظر عيناي إليك، ولو نظرت لا تراك، وقولي هذا ليس موجهاً لأدابالي وإنما لك، واعتبرْ أقوالي هذه وصية لك..».



وقد نصح عثمان غازي ابنه أورهان غازي بهذه النصيحة:

«... أكرم وأحسن واحترم العلماء الربانيين الصالحين، الذين يمدون الدولة بقوة معنوية، وإذا سمعت بعالم أو عارف أو وليّ في بمدينة ما فلتدعه إلى بلدك بلطف وتعظيم، وبهذا تستقيم أمور الدين والدولة ببركتهم وهمتهم!..».





استقرّ وليّ الله المشهور بغاييكلي بابا في جبل أولو داغ، في عهد عثمان غازي، وقد أمر أورهان غازي بمجيئه حين سمع شهرته، إلا أن وليّ الله هذا الذي يتجول مع الأيائل في الجبل لم يقبل الدعوة، إضافة إلى إرساله خبراً بأن لا يأتيه أورهان غازي، ولما سأل أورهان غازي عن السبب –في حيرة وفضول– لقي هذا الجواب:

«الدراويش أهل بصيرة وقلب، وهم لا يتصرفون إلا وفق ما يتوجب عليهم، وفي حال ضلّوا عن الاستقامة لا تُقبل أدعيتهم، إلا أنّكم –أيها السلطان– مُؤْتَمَنون على الأمة، وفي هذه الحال فأنتم جند الثغور، ونحن جند الدعاء، والنصر يأتي حين تجتمع جهود جند الثغور وجند الدعاء، وكما أنه على جند الثغور التجهز بفنون الحرب والشجاعة للوصول إلى هذا التوفيق على سبيل الاستقامة، فإنه مما لا بد منه لجند الدعاء الابتعاد عن الميل إلى الدنيا ومحبتها، ولذا فإني أخشى أن تُدخِل العطيةُ والإكرام –الذي ستفعله بمجيئي إليكم– حبَّ الدنيا في قلوب الدراويش وتُقلّل من تعلقهم بالآخرة، وبهذا يلحق الضرر بكم وبنا... مولاي! لكن لِتعلموا أنه عندما يحين الوقت فسيكون من المقدّر تقابلنا».

وبعد فترة من الزمن أتى غاييكلي بابا إلى بورصة، وزرع شجرة سينار في فسحة دار أورهان غازي، فأُعلِم السلطان بالأمر، فأتى على الفور إلى هناك، فقال له غاييكلي بابا:

«زرعناه للتبرك، ولتكن أدعية الدراويش مقبولة لك ولذريتك ما بَقِيَتْ».

وقد قدّم أورهان غازي لغاييكلي بابا محافظة إيناغول وما حولها، عطاءاً من قلبه، على الرغم من الخبر الذي أرسل إليه من قَبل، إلا أن غاييكلي بابا القنوع رفض قائلاً: «الملك لله، أعطوها لأهلها، فلسنا بأهلها»، وأصرّ السلطان، فقال غاييكلي بابا وقد خشي من أن يكون الرفض تكبّراً: «فليكن هذا الوادي أمام التلّ فسحةً للدراويش».

إن أورهان غازي -الذي أقام أسس الدولة على وصايا أهل الله تعالى- انكبّ على يديّ غاييكلي بابا بسرورٍ كبير بعد قبول عطائه ثم قبّل يديه وقبّل فقبّل. و إن التاريخ ليشهد على أن تعظيمً السلاطين العثمانيين لأولياء الله تعالى من الأسباب الرئيسية للتأييد الإلهي المتفضَّل به عليهم.



إن التعظيم الذي أبداه محمد الفاتح لسيدنا آكْ شمسِ الدّين كان مشهورا ومعروفا ومثيرا للاهتمام، حتى إنه قال لمن حوله يوم فتح إسطنبول:

«إن هذا الفرح والاطمئنان الذي ترونه بادياً عليَّ، ليس لفتح هذه القلعة فحسب، بل لوجود وليٍّ عزيز ومبارك من أولياء الله تعالى كآك شمس الدين في زمني ومعي...».



لقد وهب المشهورك مال باشازاده من علماء العثمانين نفسه كلياً للعلم بعد أن تخلى عن مسلكه، حيث كان ضابطاً فيما سبق، وثمة رواية تُنقل عنه قالها فيما يتعلق بهذا الأمر:

«كنا في سِفر مع الولي السلطان بيازيد خان، وكان مع السلطان الوزيرُ إبراهيم باشا وأَورانوس أوغلو من قادته المشهورين، وأما أَورانوس أوغلو فلم يكن يتجرأ أحدٌ من القادة على التقدم عليه وتجاوزه في المجالس، لكن وفي ذلك الوقت جاء عالم يرتدي ثياباً قديمة ورثّة، وجلس في الطرف الأمامي من القائد، فتعجبتُ أشد العجب من هذا الأمر الذي لم يَحُلْ دونه أحد، ولم يُقَلْ فيه شيءٌ، فسألت من بجانبي: «من هو هذا الشخص الذي استطاع الجلوس أمام قائدٍ كأورانوس وتجاوزه؟»، فأجابوني: «إنه شخص فاضل يدعى بملّا لطفي». فقلت: «كم يأخذ من المعاش»، فقالوا: « ثلاثين درهم»، فتعجبت وقلت: « كيف لرجل في هذا المنصب البسيط أن يتقدم على قائد لا مثيل له»، فقالوا لي عندئذ: «إن العلماء يُعَظَّمون بهذا الشكل بسبب سموّ العلوم الدينية التي يحملونها، فإن



الباشاوات والقادة الذين تخلقوا بالإيمان والمعرفة والأدب لا ترضى قلوبهم على العكس من هذا...».

وإثر ذلك تركت الخدمة العسكرية، وكان عندي ميل إلى الانقطاع بالعلم استناداً على الشعور بأن استحقاقي لهذا الأمر غير كاف كباقي القادة، وأني سأبرز في ميدان العلم بروزاً بيّناً».

وبعد هذا الترجيح بلغ كمال باشازاده مكانة يقال له فيها: «فريد عصره» في العلم، وغدا شيخ الإسلام التاسع في الدولة العثمانية بعد وفاة زنبيللي علي أفندي.



التقى السلطان أحمد خان الأول بعزيز محمود هدائي في يوم ذهب فيه إلى أُسْكودار، فنزل عن حصانه على الفور وأركب الشيخ مكانه ومشى وراءه، فلم يرض قلب الشيخ هدائي لسير السلطان العظيم على قدميه، فنزل عن الحصان قائلاً:

«ما ركبت إلا لتحقيق دعاء شيخي وتنفيذ أمر سلطاني»، وبذلك قد تحقق دعاء شيخه الشيخ أُفتادة، وهو على النحو التالي: «يا بني، فليمش السلطان وراءك».



كان السلطان أحمد خان الأول يحترم الشيخ عزيز محمود هدائي، احتراماً لا مثيل له، ولا يقصّر في الإكرام، وذات يوم كان يجالس الشيخ عزيز محمود هدائي، فأحضروا إبريقاً وطِسْتاً لكي يتوضأ الشيخ، فأخذ السلطان الإبريق بيده احتراماً لشيخه، وصبّ ماء الوضوء على يدي الشيخ، وأُمُّ السلطان قد كانت حضَّرت المنشفة له، وقد حدثت نفسها للحظة قائلة: لو أني أرى كرامة الشيخ عزيز محمود هدائي، وأدرك الشيخ ما يجول في خاطرها بإذن الله تعالى، فقال:



«يا للعجب، يتأمّل البعض الكرامات منّا، مع أني أرى أنّه ما من كرامة أعظم من صبّ خليفة الأرض الماء على يدي وإحضار والدته المنشفة لي».



كان العميد جواد باشا قائدا متحكما في موقع في جاناك كاله، وكان قد غلبه النوم بسبب التعب الشديد، حين كان حزيناً، في مواجهة قصف أسطول البحرية التابعة للعدو المتمركزة على المضيق، فسمع في منامه همساً، يقول له:

«يا جواد، إنكم تعظّمون كلام الله تعالى وتحترمونه، ولذا فلكم البشرى بنصر الله تعالى، فلتنظر إلى سطح البحر»

وحين نظر جواد باشا إلى الخليج الأسود، رأى بين الأنوار حرفي الكاف والواو، ثم استيقظ. وفي اليوم التالي سمع جواد باشا الصوت نفسه الذي أتاه في المنام، وهو قائم على قبر يقرأ الفاتحة، يقول له:

«يا جواد! ضع الألغام ٢٦ الموجودة في المستودعات على البحر».

فأصابه الهلع، إذ كان وجهاً لوجه مع لغز معنوي، وعندما كان مستغرقاً في التفكير في كيفية حلّه لهذا، صادف شخصاً منوّرا، واقترب ذلك الشخص من الباشا، وسأله: أَلَك حاجة؟، فحكى له الباشا كل شيء، وبيّن وليّ الله تعالى ذلك اللغز الذي أخبره به، بعلم عميق:

«يا بني! إن النور الذي رأيته على سطح البحر علامة على الظفر، ويرينا أنه لن يكون بإمكان الكافرين أن يسيطروا على هذه الأراضي، وأما حرفي الكاف والواو فإنها وفق حساب أبجد تكون ٢٦، وفي هذه الحالة فسيكون وضع الألغام ٢٦ الموجودة في مستودعاتكم، على خليج البحر المظلم، من أكبر حملات النصر».

وبعد كلماته هذه، ابتعد ذلك الشخص المنوَّر عن العين ورحل.

وقد طلب أن توضع الألغام على الخليج المظلم بخط أفقي في حين كان يلزم وضعها على نحو طولي، وفقاً لهذه الرؤيا، ولم يكن هذا المكان ذا أهمية،



وكذلك ليس بموقع استراتيجي لزرع الألغام، وعلى الرغم من كل هذا فإن جواد باشا المذعن لهذه الرؤيا المعنوية أمر بزرع الألغام على الفور، فأدّت سفينة الألغام "نصرت" بإمرة النقيب حقي بيك وظيفتها على أحسن وجه، فتم تثبيت كل واحدة من الألغام منتصف الليل في البحر، وفي صباح تلك الليلة استشهد النقيب حقي بيك إثر سكتة قلبية بعد تأديته وظيفته.

وبعد يوم بدأت الألغام مهمتها، حين دخلت أساطيل العدو المدرّعة، حيث غرقت بعض السفن المدرعة من أسطول العدو في المياه بهذه الألغام.

يحلل ونستون تشرشل هذه الحادثة في جريدة «ريو دي باريس» عام ١٩٣٠، فيقول:

«إن السبب الرئيسي في موت هذا الكمّ الهائل من الناس، والتكاليف الباهظة، وغرْق خمسة آلاف سفينة تجارية وحربية في الحرب العالمية الأولى إنما كان بالألغام البالغة ٢٦ الملقاة والمربوطة بطرف حبل من الفولاذ رقيق، من قِبل الأتراك في البحر قبل ليلة».

هذه هي البركة الاستثنائية لتعظيم واحترام كلام الله تعالى.[٥٨٧]



وباختصار، فإن الأمر الأكثر أهمية في القرآن الكريم بعد الإيمان هو العمل الصالح، وهو المطلوب أيضاً بعد الاستغفار، أي إن علوّ مقام العباد عند الله تعالى وقبول استغفارهم مرهون بالقيام بالأعمال الصالحة. وأما العمل الصالح والرفق والرحمة بمخلوقات الله تعالى فإنه تعظيم لأوامر الله تعالى.

٥٨٧ إضافة إلى هذا يمكنكم الاطلاع. الشعراء، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨، الدخان، ١٨.



٤ . الأمانة والوفاء بالعهد

الأمانة والإيمان مشتقان من الجذر نفسه، فكلمة «**المؤمن**» التي هي اسم عام للمؤمنين بالله تعالى، هي في الوقت نفسه اسم من أسماء الله الحسنى، والتي تعني أنه منبع الأمان، وأنه مانح الأمان لعباده، وجاعلهم أمناء، وهو الذي وصف أنبياءه بصفة «**الأمانة**»، أي إنه هو من جعلهم مؤتمنين، وفي هذا الصدد فإن المؤمن هو من آمن و اؤتمن وأُمن ووُثق به.

يقول أبو موسى ﷺ قلت: يا رسول الله أي المسلمين خير؟ قال:

«**من سلم المسلمون من لسانه ويده**».[٥٨٨]

إن الأمانة والوفاء بالعهد هي إحدى الأسس الرئيسية لحياة الفرد والمجتمع، فسلام المجتمع واطمئنانه مرتبط بأمانة الناس والتزامهم بعهودهم، وصدقهم في أقوالهم وأفعالهم، فإن لم تتحقق هذه الخصلة فلا يعود التفكير بصلاح الدنيا ولا الآخرة ممكناً.

تقول الآيات الكريمة المتعلقة بخصوص الأمانة عند الأنبياء:

﴿**أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ**﴾ [٥٨٩]

﴿**إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ**﴾ [٥٩٠]

ومن ناحية أخرى فإن هذه الأوصاف هي شعار الأمة المحمدية، لأن سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام كان يُعرف بوصف «**الأمين**» ويُدعى به حتى قبل النبوة.

---

٥٨٨ البخاري، الإيمان ٤، ٥، الرقاق ٢٦؛ مسلم، الإيمان ٦٤، ٦٥.

٥٨٩ الأعراف: ٦٨.

٥٩٠ الشعراء: ١٠٧.

والوفاء بالعهد مع الأمانة وصف مهم، ويقول الحق تعالى آمراً بالوفاء بالعهد:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ...﴾ [٥٩١]

﴿... وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [٥٩٢]

ويقول الحق تعالى مبيناً إحدى أهم أوصاف المؤمنين الذين نالوا الخلاص:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [٥٩٣]

وعلينا ألا ننسى أن العهود وكل أنواع الاتفاقيات التي نعقدها مع الناس هي في الوقت نفسه تعني إعطاء عهد لله تعالى، ولا بد من الوفاء بالعهود الموثوقة والأقوال الموعود بها في حضرة الله تعالى، والاعتناء بتنفيذها.

يُكرم الحق تعالى إبراهيم عليه السلام بعبارات التقدير حين وصفه أنه يفي بعهوده فقال:

﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [٥٩٤]

ويقول عليه الصلاة والسلام للتجّار الأمناء والشرفاء:

«التاجر الصدوق الأمين مع النبيين، والصديقين، والشهداء».[٥٩٥]

وبمقابل هذا ثمة تحذيرات رهيبة لمن لا يفي بعهده، فعلى سبيل المثال يقول عليه الصلاة والسلام:

«لا إيمان لمن لا أمانة له».[٥٩٦]

---

٥٩١ المائدة: ١.

٥٩٢ الإسراء: ٣٤.

٥٩٣ المؤمنون: ٨.

٥٩٤ النجم: ٣٧.

٥٩٥ الترمذي، السحر، ٤/ ١٢٠٩؛ ابن ماجة، التجارة، ١.

٥٩٦ أحمد، مسند، جـ٣، ص١٣٥/ ١٢٤٠٦.

ومن لا يبعث حاله على الثقة في محيطه يكون ذلك إشارة إلى ضعف إيمانه وفقدانه كرامته، وتضييعه الحساسيات الإسلامية، فلا يَحمل من الإيمان إلا اسمه، ولا من العبادة إلا شكلها، ولا من الإخلاص إلا صورة لا تغني ولا تسمن من جوع، ويبين سيدنا عمر ﵁ هذا الأمر على نحو رائع فيقول:

«لا تنظروا إلى صلاة أحد ولا إلى صيامه ولكن انظروا إلى من إذا حدث صدق وإذا اؤتمن أدى وإذا أشفى ورع». [٥٩٧]

وفي حال لم تعالج حالة خيانة العهد والاستخفاف بالوعود، فإنها تؤدي أخيراً إلى النفاق والذي هو أسوأ وصف.

وقد قال عليه الصلاة والسلام في أحاديثه الشريفة:

«أربعٌ من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصْلَةٌ منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». [٥٩٨]

و عن النبي ﷺ، قال:

«قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعط أجره». [٥٩٩]

وهذا يعني أن كلاً من الأمانة والوفاء بالعهد من شعار الانتساب إلى الإسلام، فإنَّ عدم ثقة المؤمن بكلامه، ورجوعه عن قوله، وصفٌ يُغضب الله تعالى ويجرّ صاحبه إلى أسفل السافلين.

---

٥٩٧ ابن هشام، ١، ١٩١؛ ابن سعد، ١، ١٢١.

٥٩٨ البخاري، الإيمان، ٣٤، المظالم، ١٧؛ مسلم، الإيمان، ١٠٦/ ٥٨.

٥٩٩ البخاري، السحر، ١٠٦، الإجارة، ١٠/ ٢٢٢٧/ ٢٢٧٠.



صور الفضيلة

كان رسول الله ﷺ أكرم قومه حسبا، وأشرفهم نسبا، وأحسنهم خلقا، وأكثرهم أمانة، أرعاهم لحقّ الجار، وأعظمهم حلما على المخطئين، وأبعدهم عن أذى الناس، فلم تُحص عليه زَّلة، أو عُرف عنه أنه عاب أحداً من غير حق، ولذلك كله استحقّ بين قومه لقب الأمين، لأن الحق تعالى جمع فيه كل الخصال الحميدة والميزات الحسنة. [٦٠٠]

وقد أضحى وصْفُ «**الأمين**» الاسم الثاني للنبي ﷺ، فقد كان فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام يُدعى باسم «**الأمين**» فقط في مكة عندما بلغ ٢٥ من عمره. حتى إنه أثناء التحكيم في أمر الكعبة، قالوا لما رأوه: «جاء الأمين»، مُظهرين رضاهم به حكماً، وطالبين مشورته، معتمدين عليه في حل الخلاف بينهم، ولم يقدر أحدٌ من خصومه -ممن أرادوا قتله- شيئاً يطعن في أمانته وصدقه.

كما أن كلمة «**الصادق الأمين**» التي لُقّب بها النبي عليه الصلاة والسلام كانت لا تفارق ألسنة المشركين، فكانوا لا يسلمون ودائعهم لأصحابهم بل لسيدنا عليه الصلاة والسلام مع شديد خصومتهم له، حتى إنه عليه الصلاة والسلام لما أراد الهجرة كانت عنده بعض ودائع المشركين، وقد طلب من عليٍّ رضي الله عنه تسليمها لأصحابها في مكة على الرغم من خطر الموت المحدق به.



وإحدى الحوادث المثالية التي كانت سبباً في إعطاء النبي ﷺ وصف الأمين والصادق، ما يبينه عبد الله بن أبي الحمساء رضي الله عنه فيقول:

بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه، فنسيت، ثم ذكرت بعد ثلاث، فجئت فإذا هو في مكانه، فقال:

---

٦٠٠ ابن سعد، ١، ١٢١، ١٥٦.



«**يا فتى، لقد شققت علي، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك**».[٦٠١]

إن انتظار النبي ﷺ –الذي يبلغ مكانة في الأمانة والوفاء بالعهد يتعذر الوصول إليها– ليست مسألة أخذ مال بسيط، وإنما الأمر الرئيسي القابع وراء تكلفه انتظار ثلاثة أيام هو حساسيته العالية للوفاء بالقول.



ويقول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه:

ما منعني أن أشهد بدراً إلا أني خرجت أنا وأبي حسيل، فأخذنا كفار قريش، قالوا: إنكم تريدون محمداً، فقلنا: ما نريده ما نريد إلا المدينة. فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفنّ إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ، فأخبرناه الخبر، فقال:

«**انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم**».[٦٠٢]



تمّت معاهدة الحديبية، وكُتبت شروط المعاهدة، وفي هذه الأثناء طلع أبو جندل بن سهيل بن عمرو ممثّل قريش يرسف في الحديد، وهو من السابقين إلى الإسلام، وممن عُذِّب بسب إسلامه، وكان أبوه حبسه فأفلت، فلما رآه أبوه سهيل بن عمرو قام إليه فضرب وجهه، وقال: هذا يا محمد أوّل من أقاضيك عليه أن ترده إليَّ، فقال النبي ﷺ: «**إنا لم نقض الكتاب بعد**»، قال: فوالله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً، قال النبي ﷺ: «**فأجزه لي**»، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: «**بلى، فافعل**»، قال: ما أنا بفاعل، وأخذ بتلابيبه وقال: يا محمد، قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا! فصاح أبو جندل بأعلى صوته:

---

٦٠١ أبو داوود، الأدب، ٨٢/ ٤٩٩٦.

٦٠٢ مسلم، الجهاد، ٩٨/ ١٧٨٧.



«يا معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني!»،

فلما صنع أبو جندل ما صنع زاد الناس شرًّا على ما بهم، فقال رسول الله ﷺ لأبي جندل:

«إنا عقدنا بيننا وبين القوم عهدا، وإنا لا نغدر بهم، أبا جندل، اصبر واحتسب؛ فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا».[٦٠٣]



وعندما رجع النبي ﷺ إلى المدينة، جاء أبو بصير –رجل من قريش– وهو مسلم، وقد التجأ إلى المدينة، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا؟، فدفعه إلى الرجلين.. وقال لأبي بصير –الذي لم يدرك ما قام به النبي عليه الصلاة والسلام–:

«يا أبا بصير، إن هؤلاء القوم قد صالحونا على ما قد علمت، وإنا لا نغدر، فالحق بقومك»

فقال: يا رسول الله، تردّني إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال رسول الله ﷺ:

«اصبر يا أبا بصير واحتسب، سيجعل الله لك ولمن معك من المستضعفين من المؤمنين فرجا ومخرجا».

وبعد هذا لم يقل أبو بصير شيئاً، وخضع لأمر النبي عليه الصلاة والسلام، وسُلِّم للمشركين كعامة المسلمين، إلا أنه كان مُساقاً إلى الموت لا إلى مكة، فخرج الرجلان –اللذان يأخذانه إلى مكة– به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا فاستلّه الآخر، فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى برد، وفر الآخر،

٦٠٣ أحمد، ٤، ٣٢٥؛ الواقدي، ٢، ٦٠٧ ـ ٦٠٨؛ ابن هشام، ٣، ٣٦٧؛ البلاذوري، ١، ٢٢٠.



وأخذ أبو بصير سلب خنيس الذي قتله وثيابه وسيفه، وأتى بها إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: يا رسول الله لك خمسها، فقال عليه الصلاة والسلام:

«**إنني لو أخذت خمسها لنقضت العهد الذي بيني وبينهم، إلا أن شأنك مختلف، فما فعلته وسلبته من الذي قتلته أمر متعلق بك**» [٦٠٤]

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم؛ فخرج حتى أتى سيف البحر. وينفلت من قريش أبو جندل بن سهيل ليلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج رجل من قريش قد أسلم إلا لحق بـأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعيرٍ خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل فمن أتاه فهو آمن .. فأرسل النبي إليه، وبذلك نزلت قريش عن الشرط الذي أملته تعنتًا وقبله المسلمون كارهين، وهذا هو أول الفتح على المسلمين. [٦٠٥]

وكما نرى فإن وفاء النبي عليه الصلاة والسلام بعهده، غدا رحمة وبركة لجميع المؤمنين.



وأثناء فتح خيبر كان يسار الحبشي -عبدٌ أسود لعامر اليهودي- في غَنَم مولاه خارج القلعة، فلقي النبي عليه الصلاة والسلام، وبعد كلام جرى بينهما أسلم، فغيّر النبي عليه الصلاة والسلام اسمه من يسار إلى أسلم، فأراد أن يقاتل معهم، فقال للنبي: إني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم، وهي أمانة عندي، فكيف أصنع بها؟ فقال له:

«أخرجها من المعسكر، ثم صِحْ بها وارمها بحصيات، فإن الله ﷻ سيؤدي عنك أمانتك».

---

٦٠٤ انظر: البخاري، الشروط، ١٥؛ ابن هشام، ٣، ٣٧٢.

٦٠٥ ابن هشام، ٣، ٣٩٧، ٣٩٨.



ففعل ذلك، فخرجت الغنم مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت الحصن، وقد شارك في الجهاد بعد أن أسلم مباشرة، فقاتل حتى وقع شهيداً. [٦٠٦]

قد أرسل النبي ﷺ غنم أعدائه التي أتت إليه، في وقتٍ تكون الحاجة فيه أشد ما تكون إلى القوت في الحرب، وكذلك الراعي لم يخن مستأجره الذي بينه وبينه اتفاق، إذ إن هذا هو ما يليق بالنبي الأمين وأمته المؤمنة.



وقد طلب النبي عليه الصلاة والسلام من عثمان بن طلحة –الذي يملك مفتاح الكعبة– يوم فتح مكة المفتاح، وفتح الباب، فدخل رسول الله ﷺ البيت وصلى فيه ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين السقاية والسدانة، فأنـزل الله هذه الآية:

﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [٦٠٧]

فقال رسول الله ﷺ: «**أين عثمان بن طلحة؟**»

فدعي له فقال: «**هاك مفتاحك يا عثمان**»،

وقال:

«**خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم –يعني حجابة الكعبة– اليوم يوم وفاء وبرّ**». [٦٠٨]

مع أن الكثير من أشراف الصحابة الكرام الذين يرون أن خدمة بيت الله تعالى أسمى وأشرف وظيفة، كانوا يأملون أن ينالوا شرف حيازة مفتاح الكعبة، لكن

٦٠٦ أبو داوود، الخراج، ٢٤ ـ ٢٥/ ٣٠٢٣.

٦٠٧ النساء: ٥٨.

٦٠٨ ابن هشام، ٤، ٣١ ـ ٣٢؛ الواقدي، ٢، ٨٣٧ ـ ٨٣٨؛ ابن سعد، ٢، ١٣٧.



الرسول عليه الصلاة والسلام رد الأمانة لأهلها، وقد وقع الكثير في دهشة أمام حسّ الأمانة هذا حتى إن بعضهم مُنِحوا الهداية.



لما فُتحت مكة سِلماً لم يؤخذ أي شيء غنيمة،[٦٠٩] وقد أخذ نور الخلق عليه الصلاة والسلام من أغنياء مكة دَيناً ودروعاً ليلبي الاحتياجات الهائلة لجيش الإسلام، ثم رد ما أخذه بغنيمة هوازن كلها وقال:

«على اليد ما أخذت حتى تؤدي».[٦١٠]

أصاب الأغنياء الذين أدانوا النبي عليه الصلاة والسلام القلق ظناً منهم أن القائد المنتصر سيضع يده عليها، إلا أنهم -وقبل مضيِّ الكثير من الوقت- صدقوا أمانته عليه الصلاة والسلام مرة أخرى.



لما أتى موسى عليه السلام مدين، رأى كثيراً من الناس يسقون مواشيهم، وثمة بنتان تنتظران في موضع دون الناس تنتظران كي تسقيا غنمهما، حيث كانتا لا تقدران على الاقتراب قبل أن يفرغ الرعاة وينصرفوا، فأعانهم موسى عليه السلام، وهما ذكرتا ذلك لأبيهما شعيب عليه السلام، وطلبتا منه مكافأة الشاب الذي ساعداهما، وأما الصغيرة فقالت:

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[٦١١]

يقول عليه الصلاة والسلام:

---

٦٠٩ انظر: البقرة، ٨٠؛ آل عمران، ٩، ١٦٤؛ الرعد، ٣١؛ الحج، ٤٧؛ المؤمنون، ٢٧؛ الروم، ٦؛ السجدة، ١٣؛ الزمر، ٢٠؛ ق، ٢٩.

٦١٠ أبو داوود، البيوع، ٣٥٦١.

٦١١ القصص، ٢٦.



«قال شعيب عليه السلام لابنته: ما رأيتِ من قوته؟ قالت: أخذ حجراً ثقيلاً فألقاه على البر، وما الذي رأيتِ من أمانته؟ قالت: قال لي: امشي خلفي، ولا تمشي أمامي».[٦١٢]



استشهد أبو جابر بن عبد الله في أُحد وخلَّف عائلة كبيرة وديناً كثيراً. قال جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه، يقول: قال لي رسول اللَّه ﷺ:

«لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا». ثلاثا

فلم يقدم مال البحرين حتى قبض رسول الله ﷺ، فلما قدم على أبي بكر رضي الله عنه أمر مناديا فنادى: من كان له عند النبي ﷺ دين أو عدة فليأتني، قال: جابر: فجئت أبا بكر فأخبرته: أن النبي ﷺ قال:

«لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا» ثلاثا، قال: فأعطاني، قال جابر: فلقيت أبا بكر بعد ذلك فسألته فلم يعطني، ثم أتيته، فلم يعطني، ثم أتيته الثالثة فلم يعطني، فقلت له: قد أتيتك فلم تعطني، ثم أتيتك فلم تعطني، ثم أتيتك فلم تعطني، فإما أن تعطيني وإما أن تبخل عني، فقال: أقلت تبخل عني؟ وأي داء أدوأ من البخل، قالها ثلاثا، ما منعتك من مرة إلا وأنا أريد أن أعطيك، وعن عمرو، عن محمد بن علي سمعت جابر بن عبد الله يقول:

«جئته، فقال لي أبو بكر: عدها، فعددتها، فوجدتها خمس مائة، فقال: خذ مثلها مرتين».[٦١٣]

وقد أظهر أبو بكر رضي الله عنه وفاءه للنبي ﷺ مجدداً بأدائه عهده بدلاً عنه.



---

٦١٢ الهيثمي، ٨، ٢٠٣، ٢٠٤.

٦١٣ البخاري، الكفالة، ٣/ ٤٣٨٣.

وعن أنس رضي الله عنه قال:

«غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال:

«يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع»، فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون، قال: «اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، - يعني المشركين - ثم تقدم»، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: «يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد»، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه قال أنس رضي الله عنه:

«كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا﴾[٦١٤]».[٦١٥]



روي: أن البراء بن معرور رضي الله عنه مات قبل الهجرة، فوجه قبره إلى الكعبة، وكان أوصى إلى رسول الله ﷺ بثلث ماله يصرف حيث شاء، فقبل وصيته ثم ردها على ولده، ولما قدم النبي ﷺ وقد مات سأل عن قبره فأتاه، فصف عليه وكبر، وقال:

«**اللهم اغفر له وارحمه، وأدخله الجنة، وقد فعلت**».[٦١٦]



---

٦١٤ الأحزاب: ٢٣

٦١٥ البخاري، الجهاد، ١٢/ ٢٨٠٥.

٦١٦ ابن عبد البر، ١، ١٥٣؛ ابن سعد، ٣، ٦١٩ ـ ٦٢٠.



وعن حنش قال :

«رأيت علياً ﵁ يضحي بكبشين، فقلت له: ما هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ أوصاني أن أضحي عنه، فأنا أضحي عنه».[٦١٧]



كان بين معاوية وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم، حتى إذا انقضى العهد غزاهم، وفي رواية:

«فأراد أن يدنو منهم فإذا انقضى الأمد غزاهم، فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول: الله أكبر الله أكبر، وفاء لا غدر، فنظروا فإذا عمرو بن عبسة ﵁، فأرسل إليه معاوية فسأله؟

فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء**»، فرجع معاوية بالناس».[٦١٨]

فلا بدّ للمسلم أن يفي بالعهد الذي قطعه على نفسه، سواء كان العهد لمسلم أو غيره.



إن الفضائل السامية كالشجاعة والوفاء بالعهد والإيثار لدى العثمانيين كانت شعاراً ورمزاً يزين تاريخهم، وجزءاً أصيلا من شيمهم وفضائلهم، حتى كان الأوروبيون يستعملون كلمة «تركي ومسلم» للمعنى نفسه، لذلك قالوا: «معنى كلمة الترك، الشخص الموثوق بقوله»، وأفادوا أن العثمانيين لم يكذبوا ويحلفوا بالله كذباً خلافا لبعض الأمم.

٦١٧ أبو داوود، الضحايا، ١ ـ ٢/ ٢٧٩٠؛ أحمد، ١، ١٠٧.

٦١٨ أبو داوود، الجهاد، ١٥٢/ ٢٧٥٩؛ أحمد، ٤، ١١١، ١١٣، ٣٨٥ ـ ٣٨٦.



ويفيد اللواء الفرنسي القديم كومت دي بونيفيل -والذي التجأ إلى الدولة العثمانية في عهد أحمد الثالث- ما شاهده في هذه الناحية على النحو التالي:

«يُظهر الأتراك وفاء وإخلاصاً دينياً لعهودهم».



وأما سفير السويد مرادغيا دي أوهسّون فيقول:

«إن الأتراك المسلمين صادقون ومخلصون في أيمانهم وعهودهم إلى أقصى الحدود، ويبذلون قصارى جهدهم في استمرار ذكر اسم الله على ألسنتهم، وليسوا بحاجة إلى أي دليل آخر غير إشهاد الله على أقوالهم».

ثم إن مؤلفاً فرنسياً معروف بعدائه للأتراك في آثاره، وهو هنري ماثيو يرى نفسه مضطراً إلى الاعتراف بأمر، فيقول:

«إنه من الإجحاف إنكار شجية الشرف ورفعة الخلق لدى الأتراك، والتي هي بمثابة ثروة لا مثيل لا، فهم أناس يرون الصدق أساس الفضيلة، ويعلمون أن الوعد أمر مقدس».



وخلاصة القول، إن الحق تعالى يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [٦١٩]

فالمسلم هو الذي يُشهد الله تعالى على ما يعِد به، فيكون كل وعْد يقطعه للناس إنما هو وعد لله تعالى، وعندها يتوجب على المؤمن الالتزام بعهده، وأن يكون مؤتمن اليد واللسان لدى الناس، وفِيّاً موثوقا.

---

٦١٩ الفتح، ١٠.



يبين الحق تعالى في كثير من آياته أنه «لا مبدل لكلماته» على الرغم من كونه مالك كل شيء، وأن حكم كل شيء يعود إليه، [٦٢٠] وعلى المسلم أن يتخلّق بأخلاق الله تعالى، فيكون أميناً وصادقاً، إذا قطع على نفسه وعدا لم يخلفه أبدا..

وأما الإخلاص –الذي امتاز به الأنبياء والأولياء والصديقون– فصفةٌ معنوية تأتي في أعلى المراتب، وتتوّج الحياة البشرية، وعلى هذا فقد عرَّف بعضُ المفسرين الإسلامَ بأنه: الاستسلام لله تعالى والوفاء له إلى جانب التصديق بالقلب والإقرار باللسان.



٥ . الصدق والإخلاص

إحدى أهمّ أوصاف الأنبياء الصدق قولا وعملا، والإخلاص ظاهرا وباطنا، ولقد كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في تبليغ دائم للصدق والإخلاص بأحوالهم وأقوالهم المبنية على الاستقامة الإلهية، وقد ذُكرت في بعض آيات القرآن الكريم أثناء تحدثها عن شخصية بعض الأنبياء، فيقول:

﴿... إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [٦٢١]

ويقول أيضاً في القرآن الكريم:

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ...﴾ [٦٢٢]

وللتمكن من الحصول على هذا اللقب المهمّ يلزم بذل بعض الجهود في الدنيا، ويبين الحق تعالى لنا أكثرها أهمية فيما يلي:

---

٦٢٠ انظر: الكهف، ١٨، إضافة إلى أن المفسر البورسوي يقول بأن إحدى الحيوانات المعدودة التي ستدخل الجنة هو كلب أصحاب الكهف لكونه مع الصادقين، (وللمعلومات التفصيلية انظر: حقي بورسوي، روح البيان، اسطنبول ١٩٦٩، ٥، ٢٢٦).

٦٢١ مريم: ٤١، ٥٦.

٦٢٢ الأحزاب: ٢٤.



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[٦٢٣]

أي إن الإكثار من صحبة الصادقين وسيلة للتحلي بأحوالهم واكتساب صفة الإخلاص. ويوضح الشيخ سعدي الشيرازي فضيلة صحبة الصادقين، والعاقبة المأساوية لمن يفارقهم فيقول:

«لقد فاز قطمير كلب أصحاب الكهف بشرف عظيم -إذ ذكر اسمه في القرآن الكريم- لتواجده مع الصادقين وإخلاصه لهم».[٦٢٤]

وأما زوجات نوح ولوط -عليهما السلام- فقد دخلوا جهنم لأنهم كانوا بصحبة الفاسقين.[٦٢٥]

سيغدو الإخلاص والوفاء رأس المال الأعظم قيمة يوم القيامة الوقتُ الذي يكون الناس فيه أكثر ما يكونون حاجة إلى المساعدة يوم لا ينفع أحدٌ أحداً، فمن عاش بهذا الوصف في الدنيا سيلقى جزاءه الحقيقي في الآخرة، حيث يصلون إلى السلامة بمساعدة الإخلاص والوفاء لهم في أصعب لحظاتهم، يصف لنا الحق تعالى ذلك اليوم بقوله:

﴿...هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ...﴾[٦٢٦]

وكذا فإن ذلك اليوم وفق ما جاءت به الآية:

﴿...أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٦٢٧]

أي للصادقين والصادقات.

---

٦٢٣ التوبة: ١١٩.

٦٢٤ انظر: التحريم، ١٠.

٦٢٥ البخاري، بدء الوحي، ٦؛ مسلم، الجهاد، ٧٤؛ الطبري، التفسير، ٦، ٢٤٠؛ ابن كثير، البداية، ٣، ١١٣.

٦٢٦ المائدة، ١١٩.

٦٢٧ الأحزاب، ٣٥.

ويوضح لنا فخر الكائنات ﷺ أهمية الصدق والإخلاص فيقول:

«إنّ الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».[٦٢٨]

صور الفضيلة

كان عليه الصلاة والسلام قمّة الصدق والإخلاص، حتى اعترف بذلك أعتى أعدائه كأبي جهل والأخنس بن شريق والنضر بن الحارث وأبي سفيان -الذي اعتنق الإسلام فيما بعد-، فلم يتكلم النبي ﷺ بكلمة كذب أبداً، ولم يترك الصدق في جميع قوله حتى في مزاحه.



روي عن أبي سفيان بن حرب بن أمية:

«أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام -في المدة التي هادن فيها رسول الله ﷺ أبا سفيان وكفار قريش- فأتوه بإيليا، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعا ترجمانه، فقال: قل لهم أيهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا أقربهم به نسباً، فقال: ادن مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه، قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء أن يأثروا علي الكذب لكذبته، ثم قال: أول شيء سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحدٌ قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه ملك؟ فقلت: لا، قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: يزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل

٦٢٨ البخاري، الأدب، ٦٩/ ٦٠٩٤؛ مسلم، البر، ١٠٣ ـ ١٠٥/ ٢٦٠٧.



منهم أحد يرتد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في هدنة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم يمكني كلمة أدخل فيها غير هذه الكلمة، قال: فماذا يأمركم به؟ قال: قلت: يقول: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم، ويأمر بالصلاة والصدقة، وبالعفاف وبالصلة، قال: فإن كان ما تقول حقاً فإنه يوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، وهو نبي...». [٦٢٩]



وقد قال رسول اللّه ﷺ:

«اكفَلوا لي بستٍّ أَكفَلْ لكم بالجنّة:إذا حدثَ أَحدُكم فلا يَكذبْ، وإذا ائتُمِنَ فلا يَخُنْ، وإِذا وَعَدَ فلا يُخلِفْ، غُضُّوا أَبصارَكم، وكُفُّوا أَيديَكم، واحفَظوا فُروجَكم». [٦٣٠]



وعن عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال:

«دعتني أمي يوماً ورسول اللّه ﷺ قاعدٌ في بيتنا، فقالت: تعال أعطيك، فقال لها رسول الله ﷺ:

«ما أردت أن تعطيه؟»

قالت: أردت أن أعطيه تمراً، فقال: رسول الله ﷺ:

«أما إنك لو لم تعطيه شيئا كتبت عليك كذبة»». [٦٣١]



٦٢٩ البخاري، بدء الوحي، ٦؛ مسلم، الجهاد، ٧٤.

٦٣٠ المعجم الأوسط، جـ ٣، ص٧٧/ ٢٥٣٩، أحمد، مسند، ٥، ٣٢٣.

٦٣١ أبو داوود، الأدب، ٨٠/ ٤٩٩١؛ أحمد، ٣، ٤٤٧.



وعن أبي هريرة رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ مرّ على صُبْرَة طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً، فقال:

«**ما هذا يا صاحب الطعام؟**»

قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال:

«**أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غشّ فليس مني**».[٦٣٢]

فعلى المسلم ألا يفارق الصدق في كل أحواله وتصرفاته، وألا يخون أحداً.



كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وتابعيهم بإحسان، يسافرون شهروا ويقطعون الفيافي البعيدة في سبيل الحصول على حديث من أحاديث رسول الله ﷺ، وقد وصلوا في التربية النبوية إلى حدٍّ من الفضيلة جعل أحدهم لا يعتمد حديث شخص رآه يُري حيوانه كيس التبن الفارغ كي يجرّه نحوه لأنه رأى في تصرفه هذا ضعف الشخصية، فكانوا لا يعتمدون على أخلاق من هم كذلك، أي إنهم لا يرون من يحمل في طيات نفسه مشاعر خداع وتضليل –حتى لحيوان– لائقاً لنقل حديث رسول الله ﷺ، لأنه لا يعيش بمقتضى أحاديث رسول الله ﷺ.



وعن مالك أنه بلغه أنه قيل للقمان:

«ما بلغ بك ما نرى يريدون الفضل فقال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني».[٦٣٣]



---

٦٣٢ مسلم، الإيمان، ١٦٤.

٦٣٣ الموطأ، الكلام، ١٧.

لما أراد النبي ﷺ إخبار مشركي قريش عن الإسراء والمعراج، قال:

«**يا جبريل! إن قومي لا يصدقونني**»، فرد جبريل عليه السلام: «سيصدقك أبو بكر، فهو الصدِّيق».[٦٣٤]

وقد ذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا له: «هل لك يا أبا بكر في صاحبك!!، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيتَ المقدس، وصلى فيه ورجع إلى مكة!...»

فقال لهم أبو بكر: «إنكم تكذبون عليه...»

فقالوا: «بلى، ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس».

فقال أبو بكر: «والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجّبكم من ذلك! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه! فهذا أبعد مما تعجبون منه».

ثم أقبل حتى انتهى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فقال: «يا نبي الله، أحدّثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟»... قال: «**نعم**»... قال: «يا نبي الله فَصِفْه لي، فإني قد جئته»... فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**فرُفِعَ لي حتى نظرت إليه**»... فجعل الرسول الكريم يصفه لأبي بكر ويقول أبو بكر: «صدقت، أشهد أنك رسول الله»... حتى إذا انتهى قال الرسول ﷺ لأبي بكر: «**وأنت يا أبا بكر الصديق**»... فيومئذ سماه الصديق».[٦٣٥]

واشتهر أبو بكر رضي الله عنه بعد ذلك اليوم بلقب «الصديق».

هذا هو الصدق في الإيمان... فكل ما في الأمر البحث عن الحقيقة والالتزام بها...



٦٣٤ ابن سعد، ١، ٢١٥.

٦٣٥ ابن هشام، ٢، ٥.



روي:

«أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع رسول الله ﷺ المشي وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه على الفرس، ولا يعلمون أن النبي ﷺ ابتاعه، فنادى الأعرابي رسولَ الله ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس وإلا بعتُه، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي فقال: «**أوليس قد ابتعته منك؟**» فقال الأعرابي: لا والله، ما بعتُكه، فقال النبي ﷺ: «**بلى، قد ابتعته منك**»، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً، فقال خزيمة بن ثابت رضي الله عنه: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: «**بم تشهد؟**» فقال: بتصديقك يا رسول الله! فجعل النبي عليه الصلاة والسلام شهادة خزيمة بشهادة رجلين».[٦٣٦]



وفي رواية أخرى أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لخزيمة:

«**لِمَ تشهد ولم تكن معنا؟**»

قال: يا رسول الله أنا أصدّقك بخبر السماء، أفلا أصدّقك بما تقول؟ فقال رسول الله :

«**من شهد له خزيمة أو عليه فحسبه**».

وهذه إحدى الأمثلة التي تعتبر ممجدة في الصدق لله ورسوله ﷺ...



لم يتخلف كعب بن مالك عن غزوات النبي عليه الصلاة والسلام، وأما غزوة تبوك، فقد فاتته بمماطلته، يقول أتجهز اليوم أو غداً، وهكذا إلى أن ارتحل رسول الله ﷺ ومن معه، وبقي كعب في المدينة، ولما رجع النبي ﷺ من غزوته، طلب

٦٣٦ أبو داوود، العقود، ٢٠/ ٣٦٠٧؛ النسائي، السحر، ٩١؛ أحمد، ٥، ٢١٥ ـ ٢١٦.



كعبٌ وبعض من معه العفوَ من الله ورسوله بقولهم الحقيقة في حين وجد غيرهم لأنفسهم أعذاراً قدموها للنبي عليه الصلاة والسلام، وقد نزلت الآية الكريمة التي بينت قبول توبتهم بعد خمسين يوم، وقد لاقوا في هذه المدة الكثير من الشدائد، حيث ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، إلا أنهم غدوا صورة لعفو الله تعالى لصدق توبتهم، ويذكر لنا كعب الذي تمسك بالصدق واعترف بتقصيره الفائدة التي وجدها للصدق بما يلي:

«فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ ألا أكون كذبته، فأهلِك كما هلك الذين كذبوه حين كذبوه؛ فإن الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما يقال لأحد؛ فقال الله ﷻ :

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[٦٣٧]»[٦٣٨].



بعد غزوة أحد كانت عائشة رضي الله عنها قد خرجت في نسوة تستروح الخبر، حتى كانت بمنقطع الحرة، لقيت هنداً بنت عمرو بن حزام، تسوق بعيراً لها، عليه زوجها عمرو بن الجموح، وابنها خلاد بن عمرو بن الجموح، وأخوها عبد الله بن عمرو بن حزام، فقالت لها عائشة رضي الله عنها: عندك الخبر، فما وراءك؟ فقالت هند: خير، أما رسول الله ﷺ فصالح، وكل مصيبة بعده جلل، واتخذ الله من المؤمنين شهداء، فقالت لها عائشة رضي الله عنها: فمن هؤلاء؟ قالت: أخي وابني وزوجي قتلى، قالت فأين تذهبين بهم؟ قالت: إلى المدينة أقبرهم بها، (حل حل)، تزجر بعيرها،

٦٣٧ التوبة: ٩٥ ـ ٩٦.

٦٣٨ البخاري، المغازي، ٧٩.



فبرك البعير، فقالت عائشة ﵂: لثقل ما حمل، قالت هند: ما ذاك به، لربما حمل ما يحمله البعيران، ولكني أراه لغير ذلك، فزجرته فقام، فلما وجهت به إلى المدينة برك، فوجهته راجعة إلى أحد، فأسرع، فرجعت إلى النبي ﷺ فأخبرته بذلك،

فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الجمل لمأمور، هل قال عمرو شيئا**»

قالت: نعم، إنه لما وجه إلى أحد استقبل القبلة، ثم قال: اللهم لا تردني إلى أهلي، وارزقني الشهادة.

فقال عليه الصلاة والسلام:

«**فلذلك الجمل لا يمضي، إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره، منهم عمرو بن الجموح، يا هند ما زالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قُتل إلى الساعة، ينظرون أين يُدفن**»

ثم مكث رسول الله ﷺ في قبرهم، ثم قال: «**يا هند، قد ترافقوا في الجنة**»، قالت هند: يا رسول الله، ادع الله، عسى أن يجعلني معهم.[٦٣٩]



لما نزل الرسول ﷺ بالحديبية أرسل عثمان بن عفان إلى قريش وقال له: «**أخبرهم أنّا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عِمَاراً**»، فانطلق عثمان، فأتى قريشاً، فقالوا: إلى أين؟ فقال: بعثني رسول الله أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، ويخبركم: أنه لم يأت لقتال، وإنما جئنا عُمَّاراً، قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ إلى حاجتك، ولكن عثمان احتبسته قريش فتأخر في الرجوع إلى المسلمين، وقد قالت له قريش: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله عليه الصلاة والسلام.[٦٤٠]

---

٦٣٩ الواقدي، ١، ٢٦٥–٢٦٦؛ ابن حجر، فتح الباري، ٣، ٢١٦؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ٣، ١١٦٨.

٦٤٠ أحمد، ٤، ٣٢٤.



وقد شقّ على المسلمين جميعهم فكانوا يكتوون بنار حسرة الطواف، بل إن بعضهم غبط عثمان ﵁ لظنهم أنه سيطوف بالبيت، وكان البعض الآخر متردداً، فقد يُظهر عثمان ﵁ إخلاصاً عظيماً ومثالاً في الإيثار ولا يطوف بالكعبة ما لم يؤذن لكل المسلمين.

وقد كان الأمر كما توقعته الفئة الثانية،[٦٤١] حيث قال عثمان حين رجع وقال له المسلمون: اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت، بئس ما ظننتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثت بها سنة ورسول الله عليه الصلاة والسلام مقيم بالحديبية ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله عليه الصلاة والسلام ولو دعتني قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت.[٦٤٢]

كان السطان يافوز سليم خان –على جلادته المعروفة والمشهورة– إنساناً شديد الحساسية ورقيق القلب، إلا أن توحيد الدولة واستمرارها اضطر سلاطنة العثمانيين إلى اتخاذ قرارات صعبة، علما أن السلطان يافوز سليم خان أيضاً تخلّص من أخيه كوركوت نتيجة لهذا الإلزام، ثم خرج في جنازته، وحمل تابوته وبكى قائلاً:

«يا أخي! ليتك لم تفعل ذلك ولم أضطر إلى فعل ذلك...».

وكان قد قال لصاحب ولي العهد –والذي يدعى بياله– مظهراً تقديره له:

«إني أصفح عنك بسبب فضيلتك العظيمة وهي صدقك! ومكافأة لإخلاصك أودّ تعيينك في المقام الذي تريد، وإذا رغبت جعلتك وزيري».

وأما هو فقدْ شكرَه وقال مضاعفاً في إخلاصه وصدقه:

«مولاي! إن وظيفتي –بعد الآن– أن أكون خادم قبر وليّ العهد...».



٦٤١ حديث مقطوع.

٦٤٢ أحمد، ٤، ٣٢٤.



وفحوى الكلام أن على المؤمن أن يسجل اسمه في مقام الصادقين، وأن ينتسب إليهم في قوله وفعله ونيّته، وبذلك يرى فائدة صدقه في الدنيا والآخرة، وما أجمل ما يقوله ضياء باشا:

«لا يليق بالإنسان إلا أن يكون صادقاً حتى لو أكره، فإنّ الحق تعالى سيعينه!»

٦ . الرضا عن الله عَزَّوَجَلَّ

إن السرور والضيق –المبالغ فيهما– فخٌّ كبير لنفس الإنسان، وأما «**الرضا بالحال التي قدرها الله تعالى**» وما ينجم عنه من «**الصبر والتوكل**»، صفة فارقة للمؤمنين الكاملين.

إنَّ قاعدة السعادة التي لا تخطئ أبداً، هي جعلُ العقل منقادا للوحي، وتزيينُ القلب بالأخلاق الحسنة وإظهارُ الرضا بمفاجآت الحياة غير المنتظرة بفضل ذلك، والسعادة الحقيقية إنما تتحقق أيضاً بتقبل المد والجزر على ما هما عليه في الحياة، وتحمل مشقاتها، وصرف الجهود لإصلاحها، والنظر إلى كل الأمور من حولنا بإيجابية والتوكل على الله تعالى.

وكم هي حسنة نصيحة لقمان الحكيم التالية:

«يا بني! لا تشغل فؤادك بالمآسي والأحزان! واحذر الطمع، وارض بالقدر، واقنع بما أعطاك الله تعالى كي تحلو حياتك، ويمتلأ قلبُك بالسرور، وتجد حلاوة الحياة».

ثم إنه ثمة تنافٍ بين إظهار الرضا أمام التجليات والحوادث التي تبعث المسرة في القلب، وبالمقابل إبداء السخط في الحوادث الجالبة للحزن والغم، إلا أنه ليس بمقدور الإنسان التخلص بسهولة من هذا الضعف البشري طالما أنه لم يبلغ قمة النضج المعنوي، وإن هو زكّى نفسه وبلغ بها مرتبة «**الراضية**»، يُذعن ويظهر الرضا بكل أحكام القضاء للإرادة الإلهية التي تظهر على شكل خير أو شر



من دون أي تردد، ولا يكون شاكياً على الإطلاق، ويالعظمة البشرى الإلهية لمثل هؤلاء:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [٦٤٣]

فيسهل على الإنسان القيام بالشيء المحبوب وتحمّله، فيؤدَّى بسرور، والمؤمن المحب لربه تعالى يسهل عليه كل ما يأتيه من ربه تعالى، ويتلذذ به ويسرّ.

إن الصالحين –راسخي الإيمان– يُظهرون الرضا بقضاء الله تعالى، لأنهم يعلمون أنه لا يصيبهم إلا ما قدره الحق تعالى، وبفضل هذا يرون أن كل ما يصيبهم في دنياهم لا يبدو شيئاً أمام عذاب الآخرة، ولذلك يمنُّ الله تعالى على قلوب هؤلاء الراضين بالطمأنينة والسكينة، فهم يرون تجليات الحق تعالى عليهم أولَى ألف مرة من مسرات هذا العالم الفاني ومُتَعِه بعد أن ارتقوا بفهم عن الله ولم يتابعوا العوام في ظنونهم وأوهامهم. يقول نبينا الأكرم عليه الصلاة والسلام:

«**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**». [٦٤٤]

وفي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ:

«**المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإنّ "لو" تفتح عمل الشيطان**». [٦٤٥]

---

٦٤٣ الفجر: ٢٧ ـ ٣٠.

٦٤٤ الترمذي، الزهد، ٥٧/ ٢٣٩٦؛ ابن ماجة، الفتن، ٢٣.

٦٤٥ مسلم، القدر، ٣٤/ ٢٦٦٤؛ ابن ماجة، المقدمة، ١٠/ ٤١٦٨.



وهكذا يقع الإنسان المتذمر في هاوية الاعتراض على الله تعالى قائلاً: «يا ليتني فعلت هذا وهذا» فيتلبس أحوالا تنافي الإيمان كعدم الرضا والاعتراض على القدر والنفور من إرادة الله تعالى، والإنسان بهذا الحال يسعد الشيطان و يسلم قياده إيه حتى يهوي به في مهاوي الخسران، في حين أن الرضا بالحال يبلِّغ الإنسان رضا الله تعالى، فبعد أن أحصى في القرآن الكريم كل ما يسعد مما في الدنيا والآخرة قال:

﴿... وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٦٤٦]

صور الفضيلة

يقول أسامة بن زيد ﷺ:

«كنا عند النبي ﷺ فأرسلتْ إليه إحدى بناته تدعوه، وتخبره أن صبياً لها أو ابناً لها في الموت، فقال النبي ﷺ للرسول:

«ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمُرْها فلتصبر ولتحتسب»

فعاد الرسول فقال: إنها قد أقسمت لتأتينَّها، قال: فقام النبي عليه الصلاة والسلام وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل، وانطلقت معهم، فرُفِعَ إليه الصبي ونفسُه تقعقع كأنها في شنة، ففاضت عيناه، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال عليه الصلاة والسلام:

«هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم اللهُ من عباده الرحماءَ».[٦٤٧]

كان السلام الأول الذي أرسله النبي ﷺ إلى ابنته، ووصاياه التي أوصاها بها، إظهارَ الرضا التام على المصيبة، والمعرفة الحقيقية تكمن في الخضوع

---

٦٤٦ التوبة: ٧٢.

٦٤٧ البخاري، الجنائز ٣٣، الأيمان ٩، المرضى ٩؛ مسلم، الجنائز ٩، ١١.

والاستسلام بإظهار الرضا في تلك اللحظة المؤلمة، وأما حاله الثانية فلم تكن كما ظنّ بعض الصحابة -للوهلة الأولى- عصيانا للقدر -الذي كان ينهى عنه النبي عليه الصلاة والسلام من البكاء بصراخ وعويل وتمزيق للباس- وإنما صورة من مشاعر الرحمة التي تفضّل الله تعالى بها على عباده.



يقول عليه الصلاة والسلام مبيّناً جزاء المؤمن الراضي:

«إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسمّوه بيت الحمد».[٦٤٨]



وعن رسول الله ﷺ قال:

«إذا مرض العبد بعث الله تعالى إليه ملكين، فقال: انظرا ماذا يقول لعواده، فإن هو إذا جاؤوه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله عز وجل، وهو أعلم، فيقول: لعبدي عليَّ إن توفيتُه أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيتُه أن أبدله لحما خيرا من لحمه، ودما خيرا من دمه، وأن أكفِّر عنه سيئاته».[٦٤٩]



وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من يأخذ عني هؤلاء الكلمات، فيعملُ بهن أو يعلِّم من يعمل بهن؟»

فقال أبو هريرة رضي الله عنه: فقلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي، فعد خمساً، وقال عليه الصلاة والسلام:

---

٦٤٨ الترمذي، الجنائز، ٣٦/ ١٠٢١.

٦٤٩ الموطأ، العين، ٥.



«اتق المحارم تكن أعبدَ الناس، وارضَ بما قسم اللهُ لك تكن أغنى الناس، وأحسِن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحِبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب».[٦٥٠]



بينما النبي ﷺ جالس وعنده أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وعليه عباءة قد خللها على صدره بخلال، إذ نزل عليه جبريل عليه السلام فأقرأه من الله السلام وقال: يا محمد، ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها على صدره بخلال؟

فقال: «**يا جبريل، أنفقَ ماله قبل الفتح عليَّ**»

قال: فأقرئه من الله سبحانه وتعالى السلام، وقل له: يقول لك ربك: أراض أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟ فالتفت النبي ﷺ إلى أبي بكر فقال:

«**يا أبا بكر، هذا جبريل يقرئك من الله سبحانه السلام، يقول لك ربك: أراضٍ أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟**».

فبكى أبو بكر وقال: على ربي أغضب؟ أنا عن ربي راض، أنا عن ربي راض.[٦٥١]



وروي أنه: «الْتَقَى يُونُسُ وَجِبْرِيلُ عليهما السلام، (ذات مرة) فقال يونس يا جبريل: دلَّني على أعبد أهل الأَرض؟ قال: فأتى به على رجل قد قطع الجذام على يديه، ورجليه، وهو يقول: متعني بهما حيث شئت، واسلبنيهما حيث شئت، فأبقيت لي فيك الأمل، يا بار بي يا وصول...».[٦٥٢]



---

٦٥٠ الترمذي، الزهد، ٢/ ٢٣٠٥؛ ابن ماجة، الزهد، ٢٤.

٦٥١ أبو نعيم، الحلية، ٦، ١٠٥؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ١، ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

٦٥٢ عبد القادر الجيلاني، الفتوح الربانية، (مجالس عبد القادر الجيلاني)، اسطنبول ١٩٨٧، ص: ٤٢١.



كان أيوب عليه السلام يعيش أشدّ أيام مرضه:

«فقالت له زوجته يوماً: إنك نبي، فلو دعوت الله ليفرج عنك فقال: كم لبثنا بالرخاء قالت: ٨٠ سنة، قال: إني لأستحي من الله أن لا أمكث في البلاء ما مكثت في الرخاء، وكما شكرته على نعمه التي توالت علي كثيرا، فلأصبرن على ما ابتلاني به من مصائب».

موقف أيوب عليه السلام هذا يقدم لنا أروع مثال على الرضا، حيث إن أيوب عليه السلام وعلى كل ما نزل به من مصائب وعناء استحى أن يشتكي من مرضه أو يعترض على الله تعالى، أو حتى أن يطلب الصحة والشفاء منه تعالى، كل ذلك حتى يكون معترضا أو مشتكيا على الله تعالى، وأخيراً وتحت وطأة إصرار زوجه تضرع إلى ربه كما جاء في القرآن الكريم:

﴿... ربِّ إنّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [٦٥٣]

وبعد هذا الدعاء أذهبَ الله تعالى ما به من البلاء لتكون ذكرى رحمةً للمستمرّين في العبودية، فشفاه من دائه وأكرمه بالمال والبنين مجدداً، وقد قال الحق تعالى في أيوب عليه السلام -الذي بلغ الذروة في مقام الصبر والشكر والرضا بالحال- مثنياً عليه: ﴿نِعْمَ الْعَبْد...﴾ [٦٥٤]



ويوضح مولانا أن الصحبة والمحبة الحقيقية إنما تتحقق بتحمل أذى الصديق وجفائه برحابة صدر، وإظهار الرضا عنه دائما، حيث يبين ذلك في الحادثة التالية:

«كان لأحد السادة (أفندي) أصحاب مقربون زاروه وأحضروا معهم شمّاماً هدية منهم، وهو بدوره دعا خادمه الصادق لقمان -صاحب المشاعر العميقة والذي يحبه ويعدّه صاحبه-.

---

٦٥٣ الأنبياء، ٨٣.

٦٥٤ ص: ٤٤.



ولما أتى لقمان أكرمه سيده بقطعة من الشمام كان قد اقتطعها له، فتناول لقمانُ القطعةَ بشهية وكأنها عسل بالقشدة، فأعطاه سيده قطعة ثانية، إذ كان يشعر بالسرور لاستمتاع خادمه المخلص لقمان بلذة الشمام، وهكذا إلى أن بقي من الشمام قطعة أخيرة، فقال سيده:

«وأما هذه فلآكلها أنا، وأرى مدى لذتها»، إلا أنه بمجرد تناوله لتلك القطعة، قذف بها من فمه لشدة مرارتها، والْتوى لسانه، واحترق حلقه، حتى إنه فقد صوابه من شدة مرارة الشمام، وقال عقب هذا للقمان:

«يا خادمي الغالي، يا ثروتي، كيف تناولت سمّاً كهذا بكل لذة وتمتع؟ وكيف وجدت هذا القهر لطفاً؟ من يدري، كم تحمّلت من الآلام حتى الآن ولم يتمعّض وجهك؟ أو أنك عدوّ روحك الحلوة، لِمَ لَمْ تقل شيئاً؟ لماذا لم تقل اعذروني لا يمكنني تناوله الآن؟».

فقال لقمان: «كيف أرد شيئا ولو كان مرا من يدي مولاي، وأنا الذي طالما أكلت من يدكم أشهى الأطعمة وألذَّها، فأنّى لي أن أقول لشيء قدمتموه لي «إنه مرٌّ، لا يؤكل ؟»، ثم إن كل مرارة تصير حلوة من يدكم، لأن كل خلية في جسدي غدت تنبض بالشكر لنعمكم».

وتابع لقمان يُفيض مما في قلبه من محبة ووفاء قائلاً:

«يا مولاي! رغم أنفي مئات المرات إنْ أنا توجعت من ألم يأتي من قِبلكم، كيف لطعم يدك المتفضلة أن تترك في الشمام مرارة؟ فإن المرارة تحلو بالطيب، ويغدو النحاس ذهباً بالمحبة، وبالمحبة تصفى الرواسب وتنقى، وبالمحبة تجد العلل المعضلة الشفاء، وبالمحبة تُبعث الأموات، ويتحول السلاطنة عبيداً، وتصبح الزنزانات رياض ورد، وبالمحبة تضاء البيوت المظلمة، وبالمحبة يصير النار نوراً، وبها أيضاً يغدو الدميم كالحور، وبالمحبة ترتد الأحزان والهموم سعادة وسروراً، ويتحول الضالين عن الطريق وقطّاعه بفضل المحبة مرشدو

سعادة يهدون إلى الطريق السّوي، وبفضلها تتحول الأسقام صحة وعافية، وبالمحبة يصير الأسى رحمة».

هذه هي أبرز علامات محبة الله تعالى، وهذا هو حال الرضا الحقيقي.



سئل عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى:

«ما الذي تحبه: فقال: أصبحت ومالي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر...».



وفيما يلي محادثة بين عبد ومولاه ذات عبرة:

«اشترى رجل عبداً، وكان العبد مؤمنا صالحا تقيا، فأخذه سيده إلى بيته، وقد جرت بينهما هذه المحادثة:

السيد: «ما الذي ترغب في تناوله في بيتي؟»

العبد: «الذي تقدمه».

السيد: «ما هي الملابس التي تريد ارتداءها».

العبد: «ما تجعلني ارتديه».

السيد: «أي غرف منزلي تودّ البقاء فيها؟».

العبد: «في الغرفة التي تريدني أن أبقى فيها».

السيد: «أي الأعمال التي تريد القيام بها عندي؟» .

العبد: «الأعمال التي تريدني القيام بها».

وبعد هذا الجواب الأخير صمت السيد برهة يفكّر، ثم قال وهو يمسح عن عينيه الدموع المنهمرة:

«ليتني كنت أنا أيضاً مستسلماً لربي على هذا النحو، لغدوت سعيداً جداً حينها! ...».



فقال العبد في هذه الأثناء: «يا سيدي! أللعبد إرادة واختيار أمام إرادة سيده؟»، فقال السيد معقباً على هذا: «إني أُعتقك، أنت حرٌّ لوجه الله، لكني أتمنى أن تبقى بصحبتي، كي أخدمك بنفسي ومالي...».

إن من يعرف الله حق قدره ويذعن إليه بمحبة حقيقية، ويظهر الرضا بما قدره له، لا تبقى لديه إرادة ولا اختيار، فهو يقول بعد ذلك: «وما لي أن أطلب من الله!؟».[٦٥٥]



سأل سنبل سنان أفندي يوماً مريديه:

«لنفرض مثلاً أن الله تعالى سلم تنظيم وإدارة هذه الكائنات لكم، ماذا كنتم فاعلين؟ فسرد المريدون –الذين لم يخطر لهم قبلاً مثل هذا السؤال– مختلف الآراء، حذراً من الوقوع في عدم اللّباقة بالامتناع عن الجواب: فأجابوا بأجوبة كالتالي:

«يا سيدي كنت لا أدع على وجه الأرض أي كافر»، «كنت قضيت على كل شر» ، «كنت أهلكت شاربي الخمر».

وكان من بينهم واحد يصمت لا يعطي أي جواب، فلفت انتباه الشيخ، وقال له وهو ينظر إليه: «وأنت يا بني، ماذا كنت فاعلاً؟ ، فقال المريد وقد احمّر وجهه من الحياء، مع ظهور العجز الكبير: «سيدي! أفي تدبير وإدارة الله تعالى هذه الكائنات –حاشاه– نقص، كي أقوم أنا بغير ذلك؟ ثم إنه وباستمرار التنظيم الإلهي في الكائنات ضمن تدفّق قدرة تفوق التصور كيف لي بعقلي وإرادتي العاجزتين والمحدودتين أن أقول: «كنت قمت بهذا على هذا النحو، وذاك على هذا الشكل». ووجّه نظره إلى الأرض من حيائه.

٦٥٥ الواحدي، أسباب نزول القرآن، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، بيروت ١٩٩٠، ص: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.



وأما الشيخ فقد رضي إلى أقصى الحدود بهذا الجواب الحكيم، وقال بوجه متبسم مشرقٍ رامقاً مريده بنظرات عميقة: «لقد وجد العمل الآن مركزه!..».

وبعدها بقي اسم ذلك المريد «مركز أفندي» ونُسي اسمه الأصلي والذي هو موسى مصلح الدين.



وباختصار فإن الرضا بالحال مظهر من مظاهر محبة الله تعالى والتوكل عليه، والرضا بما جاء من عند الله تعالى مرتبة سامية يتعذر اكتسابها إلا من قبل عباد الله تعالى الواصلين إلى المعرفة بعد التخلص من الحسد والغيرة.

الله تعالى أعلم بما يصلح لعبده وما فيه خيره، ولذا فإن الطريق الأقوم الرضا بالقضاء الإلهي والتمكن من الشكر في كل حال، وقد نبّه الحق تعالى فقال:

﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٦٥٦]

٧ . التوكل والاستسلام

إن التوكل يعني «التحمل، الاعتماد، الثقة بالوكيل»، أي الثقةُ بالله والِالْتجاء إليه ممن كان فؤاده ممتلئا حبه وطاعة له.ثم إن إحدى أسمائه تعالى «**الوكيل**»، وهذا الاسم الشريف يأت لمعان منها:

«واضع الأمور المحوّلة إليه على ما ينبغي في مكانها، وتحقيقها على نحو أحسن مما سيقوم به أصحابها، والمتوكَّل عليه وجاعل كل شيء تحت تصرفه وحكمه».

ومن الضروري كونه المرجع الموثوق الوحيد في كل شأن، والخالد والأبدي، على الإطلاق، وإلا فلا يكون ثمة معنى للاعتماد، يقول الحق تعالى:

---

٦٥٦ البقرة: ٢١٦.



﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾[٦٥٧]

يأمل الله تعالى من عباده أن يثقوا به وحده ويعتمدوا عليه، يقول في الآيات الكريمة:

﴿...وعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٦٥٨]

﴿... وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[٦٥٩]

ويقول عليه الصلاة والسلام:

«لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً».[٦٦٠]

وأما الاستسلام، فهو يأتي بمعنى الخضوع وقَبول الحوادث من غير اعتراض، والاستسلام لمراد الله تعالى، فالتسليم عمل من أعمال القلب وهو خلاصٌ من الريب المتعلق بالأمور المخبرة من قبل الله تعالى، والشهوات النفسية المعارضة للأوامر الإلهية والرغبات المتنافية مع الإخلاص وعلة رد التقدير الإلهي وشريعته الشريفة، تقول الآية الكريمة:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٦٦١]

---

٦٥٧ الفرقان: ٥٨.

٦٥٨ إبراهيم: ١١.

٦٥٩ الطلاق: ٣.

٦٦٠ الترمذي، الزهد، ٣٣/ ٢٣٤٤؛ ابن ماجة، الزهد، ١٤.

٦٦١ النساء: ٦٥.

والتسليم والإسلام مشتقان من الجذر نفسه، ولذا فإنه يتعذر عيش الإسلام بحقّ والاتصاف بالعبودية الحقّة، إلا بالاستسلام، لأن الله جل جلاله لا يرضى أن يكون عبده عبداً لغيره.

إن التسليم طاعة مستندة إلى المحبة، وببركة هذه الطاعة والتسليم لم تُشكّل نفس إبراهيم عليه السلام ولا ماله ولا ولده أي مانع في طريق ربه العليّ، وبالمقابل من ذلك أصبحت عبادة الحج أروع رمز -سيدوم حتى القيامة- لتوكله واستسلامه لله تعالى، لأن لسان إبراهيم عليه السلام كان يتحدث عن قلبه على الدوام قائلاً:

﴿... أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٦٦٢]

إن التصوف -الذي هو جوهر الإسلام- يتخذ المحبة أساساً ويهدف إلى تثبيت شعور الرضا والاستسلام لله تعالى في الأفئدة، لكي يتمكن العبد من العيش باستقامة يتقرب في كل نَفَس من ربه أكثر فأكثر، لأن تأثير آلاف الآلام والمآسي والأحزان المحيطة بهذا العالم الفاني وكثافة الخدع النفسية لا تقلُّ إلا بالرضا بالحق والاستسلام، وكم هو جميل ما يقوله إبراهيم حقي أرضرومي:

«أنت توكل على الله، واستسلم لتلقى الراحة، وارض بكل شيء، لنر ما يصنع المولى، فإن كل ما يفعله يكون حسناً!..».

صور الفضيلة

جاء رجل إلى النّبي صلى الله عليه وسلم، فَقال:يا رسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «**اعقلها وتوكل**». [٦٦٣]



٦٦٢ البقرة: ١٣١.

٦٦٣ الترمذي، القيامة، ٦٠/ ٢٥١٧.



وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت:

ما خرج النبي ﷺ من بيتي قط إلا رفع طرفه إلى السماء، فقال:

«**اللهم، أعوذ بك أن أضل أو أُضل، أو أزل أو أُزل، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يُجهل علي**».[٦٦٤]



روى جابر بْن عبد الله رضي الله عنهما:

أنه غزا مع النبي ﷺ، فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه، فتفرق الناس في العضاه يستظلون بالشجر، فنزل النبي ﷺ تحت شجرة، فعلق بها سيفه، ثم نام، فاستيقظ وعنده رجل وهو لا يشعر به، فقال النبي ﷺ:

«**إن هذا اخترط سيفي، فقال: من يمنعك؟ قلت: الله، فشام السيف، فها هو ذا جالس**»، ثم لم يعاقبه.[٦٦٥]

لم يشعر سيدنا فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام -حتى عندما بقي وجهاً لوجه مع الموت- بأي خوف بفضل توكله على الله تعالى، وأجاب بقوله: «الله يحميني»، وفي هذه الأثناء كان السيف قد وقع من يد البدوي، واستسلم، ولم يعاقب سيدُ العالمين عليه الصلاة والسلام هذا البدوي الذي قصد قتله، بل بيّن له الإسلامَ ودعاه إليه، فقال البدوي -الذي استحيا أمام هذا التصرف الإنساني الرفيع- لقومه يصف النبي ﷺ:

«لقد جئتكم من عند خير الناس».[٦٦٦]



٦٦٤ أبو داوود، الأدب، ١٠٢ ـ ١٠٣/ ٥٠٩٤؛ الترمذي، الدعوات، ٣٥.

٦٦٥ البخاري، الجهاد، ٨٤، ٨٧/ ٢٩١٣؛ مسلم، الفضائل، ١٣..

٦٦٦ ابن كثير، البداية، ٤، ٨٧



يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

«لما كنت مع النبي ﷺ في الغار أثناء الهجرة، نظرتُ إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله، لو أنَّ أحدهم نظر إلى قدميه أبصرَنا تحت قدميه، فقال:

«**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما**».[٦٦٧]



وقد روي أنه عليه الصلاة السلام:

كان يُحرَس حتى نزلت هذه الآية: ﴿... **وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...**﴾[٦٦٨] .[٦٦٩]

وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

سهر رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقلت: يا رسول الله، ما شأنك؟ قال: «**ألا رجل صالح يحرسنا الليلة؟**» فقالت: بينما نحن في ذلك سمعت صوت السلاح، فقال: «**من هذا؟**» قال: سعد، وحذيفة، جئنا نحرسك، فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطه، ونزلت هذه الآية، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبة أدم، وقال:

«**انصرفوا أيها الناس، فقد عصمني الله**». [٦٧٠]

كان فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام يتوكّل على ربه بعد أن يأخذ حيطته وحذره، ثم بعد أن وعد الله بعصمته توكل على الله تعالى من دون أي قلق.

وحسبما يرويه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه:

٦٦٧ البخاري، التفسير، ٩/ ٩؛ مسلم، فضائل الصحابة، ١.

٦٦٨ المائدة: ٦٧.

٦٦٩ السيوطي، لباب النقول، ١، ١٤٨.

٦٧٠ انظر: البخاري، التفسير، ٣/ ١٣.



«جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال رسول الله ﷺ: «**اسقه عسلاً**»، فسقاه، ثم جاءه، فقال: إني سقيته عسلاً فلم يزده إلا استطلاقاً، فقال له ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة، فقال: «**اسقه عسلاً**»، فقال: لقد سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً، فقال: رسول الله ﷺ: «**صدق الله، وكذب بطن أخيك**» فسقاه فبرأ».[٦٧١]

وبقوله هذا نرى توكل رسول الله ﷺ واستسلامه للّه من خلال إشارته إلى الحقيقة المبينة في الآية ٦٩، من سورة النحل: ﴿**فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ**﴾ ومن ثم بلغ الصحابي مراده بالتجائه إلى التوكل والتسليم.



وحسب رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنه فإن عبارة «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم عليه السلام، قبل إلقائه في النار، وقد قالها سيدنا عليه الصلاة والسلام عندما قيل له: «إن الناس قد جمعوا لكم، فانظروا ما أنتم فاعلين»، وزاد إيمان المسلمين وقدموا نموذجاً كبيراً في التسليم لله قائلين جميعاً: «حسبنا الله ونعم الوكيل». [٦٧٢]

ويثني الحق تعالى على أهل التوكل هؤلاء بقوله:

﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾[٦٧٣، ٦٧٤]



---

٦٧١ البخاري، الطب، ٤؛ مسلم، السلام، ٩١.

٦٧٢ ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، عمان ١٩٩٠، ص: ٦٥٠.

٦٧٣ آل عمران، ١٧٣ ـ ١٧٤.

٦٧٤ الواحدي، ص: ١٣٥.

ويبيّن رسول الله عليه الصلاة والسلام فيما يلي من الأحاديث التالية -بشكل جليٍّ- حفظَ الحقِّ تعالى لأهل التوكل في الدنيا والآخرة، وأنه سيدخلهم جنته دون حساب أو عقاب: فعن ابن عباس ﵄ عن النبي ﷺ قال:

«عُرِضَتْ عليَّ الأممُ، فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي: هذا موسى ﷺ وقومه، ولكن انظرْ إلى الأفق فنظرتُ، فإذا سوادٌ عظيمٌ فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ، فقال: ما الذي تخوضون فيه، فأخبَروه، فقال: هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشة بن محصن، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: أنت منهم...».[٦٧٥]



لقد امتحن الحق تعالى سيدنا إبراهيم وزوجه هاجر وابنهما إسماعيل عليهما السلام بكثير من الابتلاء العظيم، ما جعلهم في نهاية المطاف يُسَجَّلون واحداً تلو الآخر في التاريخ نماذجَ للتسليم، حيث أبّد الحق تعالى إخلاصهم في التسليم بعبادات العمرة والحج مكافأة لهم.

لما اتخذ الله تعالى سيدنا إبراهيم ﵇ خليلاً قالت الملائكة: «له زوج وولد، فقال الله تعالى: ما في قلبه غيري اذهبوا فجربوه...»، فشهدوا كلهم على هذه الصور ذات العبرة والاختبارات الشديدة لإبراهيم ﵇، وحين جيء به إلى النَّار، قالت الملائكةُ في السماء لِخَالق الأرض والسماء: يا ربَّنا، ما في الأرض

٦٧٥ مسلم، الإيمان، ٣٧٤؛ البخاري، الرقاق، ٥٠.



أَحَدٌ يعبدك سوى إبراهيم، فأْذَنْ لنا في نُصْرته! فقال سبحانه: «إنِ استغاث بأحدٍ منكم فلْيَنصُره، وإن لم يَدْعُ غيري، فأنا وليُّه، والله وليُّ الصالحين»، ورمَوْه من مكان بعيدٍ نحو النار، وهو في طريقه إليها أتاه جبريل ﷺ قال له: يا إبراهيم، ألك حاجَة؟ فقال: أمَّا إليك، فلا، وأمَّا إلى الله، فنعَم! فقال له جبريل: فلم لا تَسأله؟ فقال إبراهيم ﷺ: «حَسْبِي الله ونعم الوكيل».

ثم وبناء على هذا التسليم العظيم من خليل الله تعالى وتوكله عليه لا غير أمر الله تعالى قبل وقوع إبراهيم ﷺ فيها:

﴿... يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [٦٧٦]

وبهذا الأمر تحول المكان الذي وقع فيه إبراهيم ﷺ روضة غنّاء، وبدأ يجري فيها نبع عذب.



ويقول عليه الصلاة والسلام:

«جاء إبراهيم بالسيدة هاجر وبابنها إسماعيل وهي ترضعه إلى مكة... ، ووضع عندهما جِراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يتلفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾». [٦٧٧]

---

٦٧٦ الأنبياء، ٦٩.

٦٧٧ إبراهيم: ٣٧. / البخاري، الأنبياء، ٩.

ولما كبُر اسماعيل عليه السلام وصار في سنٍّ يسمح له باللعب والركض، حيث كان في أكثر مراحل العمر محبة، كان على أبيه إبراهيم عليه السلام أن يوفّي بما وعد الله تعالى وذلك بأن يضحي بولده سيدنا إسماعيل، فلما كان في الطريق لذبح ولده قالت الملائكة وقد ثارت:

«يذهب نبي بنبي كي يضحي به!»

فقال إسماعيل عليه السلام:

«يأبت افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين، يا أبت أشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكففْ عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي شيء، فتراه أمي فتحزن، وأَسْرِعْ مرّ السكين على حَلْقي؛ ليكون أهون للموت عليّ، فإذا أتيت أمي فاقرأ عليها مني السلام».

وبينما يسبح الأب وابنه في بحار التسليم، إذ أتاهم جبريل عليه السلام، وجعل السكين لا تقطع، وأنزل من الجنة الكبش الذي سيكون فداءً.[٦٧٨]



ويبين لنا الحقُّ تعالى توكّل سيدنا موسى عليه السلام وتسليمه على النحو التالي:

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ: يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٦٧٩]

يقدم موسى عليه السلام بموقفه هذا التوكل على النحو الذي ينبغي أن يكون عليه: فأولاً الاستشارة، وبعدها العزم والقرار، ومن ثَمَّ التدبير، وفي النتيجة إحالة

٦٧٨ انظر: الطبري، التاريخ، ١، ٢٧٥؛ ابن الأثير، الكامل، ١، ١١٢؛ الحاكم، ٢، ٦٠٦/ ٤٠٤٠.

٦٧٩ القصص: ٢٠ ـ ٢١.



الأمر إلى الله تعالى، أي إن التوكل الحقيقي أن نكون في حالة الدعاء والتسليم والرضا دوما!..



كان اليمنيون لا يصطحبون معهم زاداً للطريق عند ذهابهم إلى الحج، ظناً منهم أن ما يفعلونه توكلٌ قائلين:

«نحن ذاهبون لزيارة بيت الله تعالى، أفلا يشبعنا؟»، وعند بلوغهم مكة يضطرون إلى السؤال، فنزلت الآية: ﴿... **وَتَزَوَّدُوا**...﴾ [٦٨٠] »

«وقد لقي سيدنا عمر بن الخطاب ﵁ ناساً من أهل اليمن، (تقاعسوا فلم يعملوا ويبذلوا جهداً) فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون، فقال: أنتم المتّواكلون، إنما المتوكل الذي يُلقي حبَّه في الأرض ويتوكل على الله». [٦٨١]



وفيما يلي حادثة ذات عبرة يرويها لنا أبو هريرة ﵁ عن رسول الله ﷺ:

«أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يُسلفه ألفَ دينار، فقال: ائتني بالشهداء أُشهدهم، فقال: كفى بالله شهيداً، قال: فأتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم

---

٦٨٠ البقرة: ١٩٧.

٦٨١ وحسب رواية أخرى فإن بدل قوله(أن تلد الأمة ربتها) قال (أن تلد الأمة سيدها)، تم توضيحه بولادة الأمهات أولاداً عاقين سيعاملونهن معاملة الجارية، وأما تطاول (الحفاة العراة العالة رعاء الشاء في البنيان)، فدليل على زيادة الرفاه والسعة، فحتى من كان فقيراً فيما سبق سيغدو غنياً إلى حد يتباهى في إنشاء أبنية عظيمة ومرفهة، سيُقَدَم كل الغنى والثراء العالم إلى الناس، وسيصبح الثراء والغنى المقياس الوحيد للقيمة، وسوف يولع الناس بالاستهلاك والمباهاة.



زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم، إنك تعلم أني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلا، فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك، وسألني شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بك، وأني جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذي له، فلم أقدر وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بالألف دينار فقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إلي بشيء، قال: أخبرك أني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه، قال: فإن الله قد أدَّى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألف الدينار راشداً».[682]

إنْ تكفّل الله تعالى أمراً تحقق حتى لو ظنه بعض الغافلين مستحيلا، فعلى العبد الإخلاص والصدق في التوكل عليه...



يروي لنا ابن عباس رضي الله عنه:

«أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أهل الأجناد، أبو عبيدة ابن الجراح وأصحابه فأخبروه: أن الوباء قد وقع بالشام، قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين فدعوتهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا فقال بعضهم: قد خرجتَ لأمر ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي الأنصار، فدعوتهم له، فاستشارهم

٦٨٢ البخاري، الكفالة، ١، البيوع ١٠.



فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم: فلم يختلف عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله، فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، وكان عمر يكره خلافه، نعم نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيتَ لو كانت لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله، قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف -وكان متغيبا في بعض حاجته- فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إذا سمعتم به(أي الطاعون) بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه»

قال: فحمد الله عمر بن الخطاب ثم انصرف».[٦٨٣]

تعكس لنا هذه الحادثة مفهوم الإسلام للتوكل والقدر على أكمل وجه، وعلى هذا فإن جرّ النفس والمؤمنين إلى الهلاك يتنافى ومفهوم التوكل الحقيقي.



كان العالم العثماني الكبير ميّت زاده الذي عاش في عهد السلطان أحمد خان الأول، معروفاً بفضيلته وعرفانه، وأما إطلاق اسم «ميت زاده» أي «ابن الميت» عليه، فبسبب هذا التجلي الإلهي الذي تعرض له حسب الرواية:

كان والد ميت زاده جندياً شجاعاً، دعي كغيره من المحاربين، من قبل السلطان محمد الثالث للالتحاق بنفير «أغري» العام الذي حدث عام ١٥٩٦، لكنه وفي تلك الأثناء كانت امرأته حاملا وهي على وشك الولادة، ومع هذا

٦٨٣ البخاري، الطب، ٣٠/ ٥٧٢٨/ ٥٧٣٠؛ مسلم، السلام، ٩٨/ ٢٢١٩.



فقد قام الأب المحارب -الذي يقدم الجهاد في سبيل الله على كل شيء- باستعدادات السفر، وطلب الإذن من زوجه، وفتح يديه بكل أدب في حضرة الله تعالى العليّة وتضرّع إليه بعيون امتلأت بدموع الرحمة قائلاً:

«يا إلهي! إني ذاهب للغزو في سبيلك، وليس لي أحد سواك، أستودعك ولدي الذي ستلده زوجي الوفيّة الصبورة، فاحفظه بلطفك وكرمك» .

ثم ما لبث أن غاب الأب المحارب عن الأعين بعد أن امتطى حصانه، وتمضي الحرب وتنتهي، وينتصر الجيش العثماني بعناية الله تعالى وعونه.

وفي العودة توجّه الأب المحارب -وقد استأذن قائده- مباشرة إلى بيته، إلا أنه وعند وصوله إليه لم ير في بيته أحدا، بينما كان يتوقع أن تكون زوجته بانتظاره في المنزل، حيث إن خبر انتصار الجيش قد ذاع وانتشر في كل مكان، فركض مسرعاً وقد أحاط به الفضول والقلق إلى الجيران وسأل عن زوجته، فقال الجيران عندما رأوا الأب المحارب أمامهم وقد بدا عليهم الحزن:

«ليبارك الله لك غزوتك، وبارك الله في عمرك وأحسن إليك فيه»، فتمتم الأب -وقد فهم المراد من هذه الجملة- في عجز وألم: «لا، لا يمكن!»، ثم قال بصوت منخفض:

«لا يمكن أن يحدث هذا! كنت قد استودعت ولدي الذي سيولد لرب الكائنات، وهو خير من تُستودع لديه الودائع».

وبعد أن استغرق الأب المهموم في صمت عميق برهة من الزمن، نظر إلى من حوله ثم قال نتيجة إلهام شعرَ به في قلبه:

«من المؤكد أن الله تعالى الرحيم خير من يحفظ الودائع! أروني قبر زوجتي الآن».

فذهبوا سوية إلى المقبرة، ولما أروه القبر، وضع أذنه على تراب القبر وهو متحمّس واستمع، وبعد مدة صرخ:



«ها أنا ذا أسمع صوت ولدي» .

فأخذ مجرفة ومحفرة وبدأ بنبش القبر من فوره، ولما بدأ من جاء معه يسمع صوت الولد ينبعث رويداً رويداً من القبر أخذوا يساعدون هذا الأب الحزين، ولما فتح القبر كله كان ما رأوه باعثاً عجبا إلى حدٍّ أفلست معه الإرادات:

فكان في القبر طفل مشرق الوجه وُلِد من الأمّ الميتة وقد التصق بصدر أمه، سرعان ما ضمّ الأب الغازي ولده إلى صدره، وقبّل وجنتيه الموردتين، ثم لفه في قماط دافئ، ثم أغلق القبر المفتوح بكل اعتناء بعد أن قرأ فاتحة الوداع على زوجته، وأمام هذا المشهد استغرق الجميع في تسبيح وتقديس لله تعالى في تعظيم كبير في مقام الحيرة والعدم أمام هذا التجلي الإعجازي، وكان الأب قد خرّ ساجداً –بعينين مغرورقتين بالدموع وقلب حزينٍ لموت زوجته ومسرورٍ بنجاة ولده– يحمد ربه تعالى.

وقد كبر هذا الطفل ورُبِّيَ تربية حسنة، وأصبح عالماً زاهداً ذاع صيته في كل أرجاء الدولة العثمانية، وعرف بعد ذلك –بسبب هذه الحادثة العجيبة– بابن الميت، فكانت قصته عبرة وحكمة للتسليم الصادق والمطلَق على الله تعالى.



وجوهر الكلام يكمن في أن الحصول على الطمأنينة القلبية في الدنيا والسعادة الأبدية إنما يتحقق بالرضا على ما قدر الله تعالى، بإظهار التوكل والتسليم لمرادات القدرة والعظمة الإلهية، فالقلوب المستسلمة والمطيعة لأمر الله تعالى والراضية بقضائه تغدو منابع حكمة وخير وبركة، ولا يكون المرء في مقام الاستسلام التامّ للحق والتوكل عليه مالم يكن صاحب قلب مفعم بنشوة الإيمان وحلاوته، ونتيجة لبلوغ القلب هذا المقام من الحب فإن الإنسان يتوجّه لربه بكل وجوده ويستعلي بقلبه على الدنيا وما فيها.



إن تسليم العبد لله تعالى يتناسب ومعرفته بالله وإيمانه به سبحانه، والاستسلام -والذي هو جوهر العبودية- يكوِّن أهم توجه للقلب إلى الله تعالى، وهذا التوجه يبدأ بالإيمان بالله تعالى ويزداد كلما زادت معرفة الله تعالى، ويبين مولانا قُدِّسَ سرُّه أن السرّ في بلوغ مرتبة الفناء في الله تعالى يكمن في التسليم المطلق، موضحاً ذلك على النحو التالي:

«يحمل ماءُ البحر الميتَ -الذي يسلّم نفسه إليه تسليماً تاماً- على رأسه، أما الحيُّ ومن فيه نفس يتردد فكيف يمكنه التخلص من البحر؟ وكذا في حال متّ بالتجرد من الصفات البشرية -على أساس نموت قبل الموت- يحملك سرُّ البحر على رأسه».

٨ . حال الإحسان والمراقبة

إن حال الإحسان -التي يشعر المؤمن فيها بقلبه أنه تحت أنظار المراقبة الإلهية على الدوام- هي معراج روح عباد الله المقربين.

وتبين لنا الآيات الكريمة الآتية أن الحق تعالى يرى كل حركات عباده لا يخفى عليه منها شيء أبدا، وأنّه سيحاسبهم عندما يحين الوقت:

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾[٦٨٤]

أي إننا معهم نسمع ونرى كل شيء، وسنعرض عليهم كل ما حدث دون أن يغيب عنا شيء أبدا، فنحن شاهدون على كل شيء.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[٦٨٥]

كان لقمان ينصح ابنه:

٦٨٤ الأعراف: ٧.

٦٨٥ التوبة: ٧٨.

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [٦٨٦]

إن من يستشعر عينا تراقبه في حياتنا اليومية، يتخلّى عن كثير من فضول القول والعمل بله الأخطاء و المعاصي، وكذلك المؤمن -الذي يعيش في حالة الإحسان- يدرك أن الله تعالى يراه ويطلع عليه ويعلم حتى أدق ما يفكر ويتكلم به ويفعله.

وأما المعنى الآخر للإحسان فهو أداء العمل -أيّاً كان- على أحسن وجه. وإنه لمن أهم الأمور المطلوبة في الاستعداد للحظة الموت تثبيت شعور الإحسان في القلب، أي توفير التواصل القلبي مع الحق تعالى في كل آن، وأن يستشعر نفسه تحت المراقبة الإلهية، وهذا الشعور لا يتحقق إلا بالذكر الدائم والكثير لله تعالى.

وأما الخطوة الثانية من مراحل بلوغ حال الإحسان والمراقبة فالتفكّر فيما بيّنه الحق تعالى في الآيات التالية:

﴿... وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ...﴾ [٦٨٧]

﴿... وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [٦٨٨]

﴿... وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ...﴾ [٦٨٩]

وقد قال عليه الصلاة والسلام في هذا الشأن:

---

٦٨٦ لقمان: ١٦.

٦٨٧ الحديد: ٤.

٦٨٨ ق: ١٦.

٦٨٩ الأنفال: ٢٤.

«**أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك أينما كنت**».[٦٩٠]

ما من شكٍّ أبدا في أن رسول الله ﷺ كان على حالة من الإحسان دائمة، ليلاً ونهاراً، في الضرّاء والسرّاء، في الحرب والسّلم، وأقوى دليل على عمق شعوره بالإحسان ما كان عليه من فضائل، فكان على ذكر دائم ودعاء وتضرع في كل حركاته، ولم ينقطع لحظة عن عبادات التطوع وقيام الليل حتى تورمت قدماه، وكان يعتني بتأدية الحقوق إلى أهلها، ويحرص على نشر العدالة والحقّ بين الناس.

وينقل لنا عمر رضي الله عنه هذه الحادثة -التي علم فيها جبريل الصحابة الكرام مقام الإحسان- والمشهورة بحديث جبريل عليه السلام:

«بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منَّا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ:

«**الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**»

قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان،

قال عليه الصلاة والسلام:

«**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»

قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان،

---

٦٩٠ الهيثمي، ١، ٦٠.



قال ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك**»،

قال: فأخبرني عن الساعة؟،

قال ﷺ: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»،

قال: فأخبرني عن أماراتها؟،

قال عليه الصلاة والسلام:

«**أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**»،

ثم انطلق، فلبثتُ مليا، ثم قال لي رسول الله ﷺ :

«**يا عمر، أتدري من السائل؟**»،

قلتُ: الله ورسوله أعلم،

قال عليه الصلاة والسلام: **هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**».[٦٩١]

لقد قال علماؤنا أن هذا الحديث الشريف هو أحد أسس الإسلام العظيمة، ما يعني أن التمكّن من بلوغ الكمال في الإسلام والإيمان مرتبط بالوصول إلى مقام الإحسان، ولذلك رأى الصوفية أنه ثمّة نقصٌ في دين المؤمن الذي لم يصل إلى حال الإحسان، وإيمان كهذا أشبه بشجرة غير مثمرة، عاجزة عن مواصلة حياتها، إذ إن احتمال جفافها بعد فترةٍ قويٌّ.

وهذا الحديث الشريف هو أبرز حقيقة من الحقائق على أن التصوف –الذي يهدف إلى تثبيت شعور الإحسان في أفئدة المؤمنين– جوهر الإسلام والإيمان، إذ إنه يتعذر تلقيه مختلفاً عنهما.

وفي الحقيقة فإن أعظم سعادة العبد أن يكون مع ربه تعالى، إذ إن خالق

٦٩١ مسلم، الإيمان، ١، ٥؛ البخاري، الإيمان ٣٧؛ الترمذي، الإيمان، ٤؛ أبو داوود، السنة، ١٦.

الكائنات يريد من عبده أن يكون معه في كل أوقاته، حيث يقول:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [٦٩٢]

إلا أن عقلاً انفصل عن القلب واستبدت به الشهوات النفسية عاجزٌ عن إدراك لذة معية الله تعالى، أي إنه غافل ومحروم من أعظم فضيلة وسعادة.

إن الشعور بلذة العبادات وحلاوتها، وعدم الكلل منها لا يتحقق إلا بمشاعر الإحسان، فمن لا وجود لشعور الإحسان في قلبه يتعب إن صلى، فتثقل الصلاة عليه، وتنقبض كفه عن الإنفاق على الفقراء والمحتاجين إن كان غنياً، وذلك لعدم تذوقه حلاوة الإيمان بسبب بعده عن المراقبة الإلهية، وفي هذا الصدد يمكن القول بأن الصلاة حين تُقام كما يجب، والزكاة حين تُنفق عن رضا قلب، والصوم حين يُؤدى بمحبة، والحجّ حين تملؤه معاني العشق، والقلب السليم المتردد بين مقامي الخوف والرجاء، والخلق الحسن وسائر المحاسن، كلها من بركة حال الإحسان.

صور الفضيلة

عن عبد الله بن عباس ﵄ قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً، فقال:

«يا غلام، إني أُعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سأَلت فاسأَل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله...». [٦٩٣]

وورد في رواية أخرى:

«احفظ الله تجده تجاهك، وتعرَّف إلى الله في الرخاء يَعْرِفْك في الشدة...». [٦٩٤]

٦٩٢ آل عمران: ١٩١.

٦٩٣ الترمذي، القيامة، ٥٩/ ٢٠١٦.

٦٩٤ أحمد، ١، ٣٠٧.

فمن أقام حدود الله وطبق أوامره في حال الراحة حفظه الله من الشرور و نجاه منها في حال الضيق.

ويا لروعة هذه الكلمات الموجزة في بيان مقام الإحسان و مراقبة العبد لربه.



ذات يوم كان عبد الله بن عمر ﵁ ومعه بعض أصحابه يسيرون في الصحراء قريبا من المدينة، فجلسوا يأكلون، فأقبل عليهم شاب صغير يرعى غنمًا، وسلَّم عليهم، فدعاه ابن عمر إلى الطعام، وقال له: هلمَّ يا راعي، هلمَّ فأصب من هذه السفرة. فقال الراعي: إني صائم. فتعجب ابن عمر، وقال له: أتصوم في مثل هذا اليوم الحار، وأنت في هذه الجبال ترعى هذه الغنم؟!. ثم أراد ابن عمر أن يختبر أمانته وتقواه، فقال له: فهل لك أن تبيعنا شاة من غنمك هذه بالثمن، ونعطيك من لحمها فتفطر عليها؟ فقال الغلام: إنها ليست لي، إنها غنم سيدي.فقال ابن عمر: قل له: أكلها الذئب. فغضب الراعي، وابتعد عنه وهو يرفع إصبعه إلى السماء ويقول: فأين الله؟!

فظل ابن عمر يردد مقولة الراعي: «فأين الله؟!» ويبكي، ولما قدم المدينة بعث إلى مولى الراعي، فاشترى منه الغنم والراعي، ثم أعتق الراعي.[٦٩٥]

وهذا هو شعور الإحسان والمراقبة في أسمى تجلياته، وإذا كان هذا هو جزاؤه الدنيوي ... فما بالك بمكافأته في الآخرة!.



بينا عمر بن الخطاب ﵁ يعسّ في المدينة في جوف الليل إذ تعب، فاتكأ إلى جدار، فإذا امرأة تقول لابنتها: يا ابنتاه، قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء، فقالت لها: يا أمَّاه! أو ما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم؟ قالت: وما

٦٩٥ ابن الأثير، أسد الغابة، ٣، ٣٤١.



كان من عزمته يا بنية؟ قالت: إنه أمر مناديه فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء، فقالت لها: يا بنية! قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء، فإنَّك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر، فقالت الصبية لأمها: يا أماه! والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء، وفي رواية: فإن كان عمر لا يرانا فإن رب عمر يرانا....

لقد أثّر الجواب الذي ردت به هذه الجارية -ذات الضمير الطاهر المفعم بالحقائق الربانية، والقلب الحي بالخوف من الله تعالى- على أمها أشد التأثير على سيدنا عمر ﵁، فأدرك أميرُ المؤمنين أنها ليست ابنة امرأة تبيع الحليب من العامّة، بل هي نعمة استثنائية لما في قلبها من تقوى، فزوّجها ابنه عاصماً، فكان من هذه السلالة الطاهرة عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشدي الخامس.[٦٩٦]

فيوضح لنا هذا المثال أن العيش بحال الإحسان والمراقبة يصبح وسيلة للفضيلة والبركة تشمل الأمة كافة متجاوزاً المصلحة الفردية.



أرسل عمرُ بن الخطاب ﵁ معاذَ بن جبل ﵁ إلى بني كلاب ليقسم فيهم أعطياتهم، ويوزّع على فقرائهم صدقات أغنيائهم، فقام بواجبه خير قيام.

وعاد إلى زوجه بحلسه -وهو ما يوضع على ظهر الدابة- الذي خرج به، فقالت له امرأته: أين ما جئت به مما يأتي به الولاة من هدية لأهليهم؟. فقال معاذ: لقد كان معي رقيب يقِظٌ يحصي علي. فقالت امرأته: لقد كنت أميناً عند رسول الله ﷺ وأبي بكر، ثم جاء عمر فبعث معك رقيباً يحصي عليك. وشاع ذلك عند نساء عمر، وشكته لهن، فبلغ عمر. فأرسل إلى معاذ وسأله: أنا أرسلت معك رقيب!!. فقال: يا أمير المؤمنين، لم أجد ما اعتذر به إلا هذا، وقصدت بالرقيب الله ﷻ.

٦٩٦ انظر: ابن الجوزي، صفة الصفوة، ٢، ٢٠٣ ـ ٢٠٤



ففهم سيدنا عمر ﷺ ما قصده معاذ ﷺ بكلامه ذلك، إذ إن معاذاً ﷺ كان مستغنيا عن كل متاع الدنيا، فأراد الخليفة إتحافه تفضلاً منه حيث أعطاه هدية من عنده، وقال له: اذهب، أرضها به ....



وثمّة مثال جميل موجز يوضّح حال الإحسان والمراقبة:

كان أحد الوعاظ يذكِّر بأحوال الآخرة وهو جالس على كرسيه، وكان بين الجماعة الشيخ شبلي، فقال الواعظ يعرض الأسئلة التي سيسألها الحق تعالى في الآخرة:

«سيسأل اللهُ العبدَ ماذا فعلتَ بعلمك؟، وأين أنفقتَ مالك؟، وكيف قضيتَ عمرك؟، وسيسأل عن عباداته، وهل راعيت الحلال والحرام؟، وسيسأل عن هذا وعن ذاك...» فسرد الكثير من الأمور التي سيسأل العبد عنها.

فقال الشيخ شلبي بعد كل هذا التفصيل وإهمال جوهر المسألة:

«يا أيها الواعظ! لقد نسيت أهم سؤال! سيسأل الله تعالى بكلمات موجزة: يا عبدي! كنتُ معك في كل لحظة، فمع من كنت أنت؟».



كان أبو بكر الكتّاني -رحمه الله- أحدَ أولياء الله تعالى وهو في فراش الموت، قد أجاب من سأله عن أرجى عمل قام به في حياته بهذه الكلمات الرائعة:

«لولا أني أعلم اقتراب أجلي لما حدثتكم بعملي خشية الرياء، عملت حارساً على باب قلبي أربعين سنة، وحاولت جاهداً ألا أفتحه لغير الله تعالى، فأصبح قلبي في حال لا يعرف أحداً غير الله ﷻ».



وروي:

«أنّ عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعّد مضروب الجنبين بالفالج، وقد تناثر لحمه من الجذام، وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه.

فقال له عيسى عليه السلام: يا هذا، وأي شيء من البلاء أراه مصروفاً عنك؟.

فقال: يا روح الله، أنا خير ممّن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته».



شاع وانتشر القيل والقال على إنكار محمد نور العربي -من مشاهير متصوفة القرن التاسع- «للإرادة البشرية» أي الإرادة الجزئية، حتى وصل الأمر إلى مسامع السلطان عبد المجيد خان، فطلب دعوة الشيخ إلى مجالس الحضور وسؤاله عن هذه المسألة في ذلك المجلس، فدعي الشيخ إلى مجالس السكينة بتطبيق الأمر السلطاني، وهناك وحين سئل الشيخ عن المسألة أجاب على ذلك على النحو التالي:

«أنا لم أنكر وجود الإرادة الجزئية بالمعنى العام، بل قلت إنها في حكم المعدوم تقريباً لدى فئة من الناس، لأن كبار أولياء الله تعالى -وهم يعيشون في حالة المراقبة لله تعالى على الدوام- إرادتهم الجزئية من القلة بحيث يمكن القول بعدم إمكانية ظهورها، ولذا فإن حركاتهم تنبثق تبعاً لإرادة الحق تعالى لا تبعا لإرادتهم الذاتية، وإلا لتصرفوا على خلاف الأدب وقصروا فيه.

فعلى سبيل المثال نحن الآن في مجلس السلطان، إن قيل لي «تعال» أتيت، وإن قيل «اذهب» ذهبتُ، فمن غير الممكن لنا استخدام إرادتنا رغماً عن إرادة السلطان التي تشملنا، فلينظروا إلى الغافلين وسائر المخلوقات في الخارج فإن إراداتهم جميعاً في غاية الحرية».



فأحسن السلطان بعد أن رضي عن هذا الجواب إلى الشيخ محمد نور العربي وأكرمه. وهكذا فإن أهل الإحسان والمراقبة من الخواص –ممن يعيشون بيقين أن الله حاضر وناظر إليهم في كل زمان ومكان– يذعنون للإرادة الإلهية في كل حال...



وباختصار فإنَّ مرتبةَ الإحسان وحالَ المراقبة خلاصةُ الإيمان وجوهرُه، ومن غير الممكن جني ثمار العرفان من خشوع وإخلاص وتقوى –مما يُرجى من محاسن العبادة والسلوك– إلا بهذا القوام القلبي، لأن كل عمل صالح –مؤدًّى على أساس أن الله تعالى يرى– يساهم في تبرعم أغصان الإخلاص، وتفتح أزهار التقوى، ويعطي ثمار الخشوع، إن الاستقامة حتى في الأماكن الخالية من الناس، واجتناب المعاصي في المواضع البعيدة عن أنظار البشر، لا يمكن تحققها إلا بيقين المرء بقولهم: «هو يراني في كل زمان ومكان»، ولذا فإن التصوف يهدف في جميع أسسه وقواعده إلى إيصال الفؤاد إلى هذه الحالة، وقد عاش أولياء الله تعالى طلاباً فترة من العمر لبلوغ هذه الحال.

وتتمثل مهمّتنا –في هذه الحال– باستقامتنا واقدائنا بالأحوال السامية لذروة مقام الإحسان نبينا محمد ﷺ، عن طريق الارتقاء بقلوبنا بعد جعل مراقبة الله تعالى إيانا شعوراً ملازماً لنا.

﴿... **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[٦٩٧]

٦٩٧ الأعراف: ٥٦.



٩ . التواضع

هو انعدام التكبر وإدراك العدم أمام الحق، فعلى الإنسان ألا يقع في الظلم المادي والمعنوي مدعياً أفضليته على من حرم من نعمة وجدها هو في نفسه من علم ومكانة ومال.

وما أجمل ما يقوله الشاعر:

لا يغرنّك المال والملك، ولا تقلْ ليس مثلي أحد!

فقد تهبُّ عليك الرياح بما لا تحب، فتصير هباءً.

ثم إن صاحب الآن والمآل هو الله تعالى، وما سيصيب الإنسان في المستقبل يظل في طي المجهول. يقول الحق تعالى:

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٦٩٨]

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[٦٩٩]

أي إذا خاطبهم الجاهلون بما لا يعجبهم من الكلام انصرفوا عنهم ولم يجادلوهم.

يقول عليه الصلاة والسلام:

«**إنّ الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**».[٧٠٠]

«**من يتواضع لله درجة، يرفعه الله به درجة...**».[٧٠١]

---

٦٩٨ الشعراء: ٢١٥.

٦٩٩ الفرقان: ٦٣.

٧٠٠ مسلم، الجنّة، ٦٤/ ٢٨٦٥.

٧٠١ ابن ماجة، الزهد، ١٦/ ٤١٧٦.

أي من تواضع لله أمام عباده. كان إدريس عليه السلام ينصح قومه بأقوال حكيمة منها قوله:

«كلما ارتفعت مكانة العاقل زاد توضعه».

ويوضح حضرة يوسف الأسباط عيش حالة التواضع التي تعني «العدمية نوعاً ما» على النحو التالي:

«عليك أن تعتقد أن كل من تراه -حين تخرج من بيتك صباحاً- أفضل منك، والتواضع يكون بحيث تقبل كل ما يقال لك إن كان حقاً، وأن تنظر إلى من هم دونك على أنهم أفضل منك، وليكن مادحك وذامّك سواء عندك ...».

لقد منح الله تعالى سعادة الآخرة لمن كان يبتعد عن التعاظم والتفاخر في الدنيا ولا يعثو في الأرض فساداً من الذين تفيض قلوبهم بمحبة الله تعالى، لكن المتمسكين بالصفات السيئة بابتعادهم عن نعمة التواضع ليس بمقدورهم التخلص من التفرعن، وعندها يكون التخلّص من صفات سيئة كهذه بالتمسك بالتواضع أمرٌ لا بدّ منه.

ثم إن الآية الكريمة تقول:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٧٠٢]

وما أجمل قول الشاعر إذ يقول:

لا يتبرعم الحب إلا بعد أن يدفن في التراب،

وهكذا تربي المتواضع رحمة الرحمن. [٧٠٣]

---

٧٠٢ القصص: ٨٣.

٧٠٣ لا يتبرعم البذر وينمو إن لم يوضع في التراب، وفي هذا الشأن فإن رحمة الله تعالى تعظّم وترفع متن كان متواضعاً وليس المتكبرين.

لم يستخدم الصحابة الكرام ﷺ كلاً من المقام والمكانة الدنيوية التي ائتمنهم الله تعالى عليها في الكبر والعجب، بل جعلوا حياة النبي ﷺ دستوراً للحياة، وقد اتسعت حدود الدولة الإسلامية المتشكلة من حوالي ٤٠٠ عائلة، حتى بلغت أرض العراق وفلسطين خلال عشر سنوات، وكان ثمة حرب قائمة بين الفرس والروم أثناء وفاة النبي ﷺ، وكانت المدينة ممتلئة بمال الغنائم، لكن لم تتغير أحوال الصحابة التي كانت قبل عشر سنوات أي عيشهم المستغنين عن الدنيا وتواضعهم، وكذا لم يطرأ التغيير على شكل منازلهم ونمط حياتهم، وقد كانوا في حال من الاستغناء عن نعم الدنيا خشية تشويه لذة الإيمان، ولذا كانوا يشكلون معيشتهم وفق غاية تحصيل رضا الله تعالى.

صور الفضيلة

لقد كان سيدنا فخر الكائنات المبعوث رحمة للعالمين والذي أوجدتْ الكائناتُ من أجله، ﷺ يحافظ على حالة التواضع والعجز بقوله: «**ولا فخر**»، على الرغم من جميع خصله الحميدة وفضائله.

وقد روي أنه: «جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه قال: فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم، فقال بعضهم: عجبا أن الله ﷻ اتخذ من خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا، وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليما، وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه، وقال آخر: آدم اصطفاه الله، فخرج عليهم، فسلم وقال:

«**قد سمعت كلامكم وعجبكم أن إبراهيم خليل الله وهو كذلك، وموسى نجي الله وهو كذلك، وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك**»،

ثم ذكر عليه الصلاة والسلام أوصافه هو فقال:



«أنا قائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيين ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر».[٧٠٤]

وفي رواية أخرى:

«إني لأول الناس تنشق الأرض عن جمجمتي يوم القيامة ولا فخر، وأعطى لواء الحمد ولا فخر، وأنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة ولا فخر، وآتي باب الجنة فآخذ بحلقتها فيقولون: من هذا؟ فأقول أنا، محمد، فيفتحون لي فأدخل...».[٧٠٥]



كان للنبي ﷺ قصعة، يحملها أربعة رجال، يقال لها: الغراء، فلما أضحوا وسجدوا الضحى، أُتي بتلك القصعة وقد ثرد فيها، فالتفوا عليها، فلما كثروا جثا رسول الله ﷺ فقال أعرابي: ما هذه الجلسة؟، فقال النبي ﷺ:

«إنّ الله جعلني عبداً كريماً، ولم يجعلني جباراً عنيداً»، ثم قال:

«كلوا من جوانبها، ودعوا ذروتها يبارك فيها».[٧٠٦]



وعن عبد الله بن جبير الخزاعي أنّ رسول الله ﷺ كان يمشي في أناس من أصحابه، فتستر بثوب، فلما رأى ظله رفع رأسه، فإذا هو بملاءة قد ستر بها، فقال له: مه، وأخذ الثوب فوضعه، فقال:

«إنما أنا بشر مثلكم».[٧٠٧]



---

٧٠٤ الدارمي، المقدمة، ٨/ ٥٠.

٧٠٥ الدارمي، المقدمة، ٨/ ٥٣؛ الترمذي، المناقب، ١/ ٣٦١٦.

٧٠٦ أبو داوود، الأطعمة، ١٧/ ٣٧٧٣.

٧٠٧ الهيثمي، ٩، ٢١..

يقول عليه الصلاة والسلام:

«حسب امرئ من الشرّ أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه إلا من عصمه الله».[708]



وقد كان النبي ﷺ مع أصحابه في سفر فأرادوا أن يعالجوا شاةً، فقال أحدهم: عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليها سلخها، وقال الثالث: وعليّ طبخها، فقال ﷺ:

«وعليّ جمع الحطب»

قالوا: نكفيك ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام:

«أعلم أنكم تكفونني ذلك، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه».[709]



كان دخول سيدنا النبي ﷺ مكة المكرمة بعد الفتح من أعظم أمثلة التواضع، حيث يصور لنا الصحابة -ممن كان موجوداً حينها- حاله هذه على النحو التالي:

دخل النبي ﷺ مكّة يوم الفتح، وقد أحنى رأسَه على رحله تواضعاً، حتى كادت تمسُّ لحيتُه الرَّحلَ من التواضع، وهو يقول:

«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة».[710][711]



---

٧٠٨ الطبراني، الكبر، ١٣، ١٣٨/ ١٤٩٧١؛ الترمذي، القيامة، ٢١/ ٢٤٥٣.

٧٠٩ القسطلاني، المواهب اللدنية، مصر ١٢٨١، ١، ٣٨٥.

٧١٠ الواقدي، ٢، ٨٢٤، البخاري، الرقاق، ١.

٧١١ كرّر النبي ﷺ مقولته هذه التي تفيد أهمية الحياة الآخرة قياسا على الحياة الدنيا، حيث ثبت تكرارها في الروايات أثناء بناء المسجد النبوي وحفر الخندق ودخول مكة يوم الفتح وحجة الوداع، البخاري، الجهاد، ٣٣، ١١٠، مناقب الأنصار، المغازي، ٢٩؛ مسلم، الجهاد، ١٢٦، ١٢٩؛ الترمذي، المناقب، ٥٥؛ ابن ماجة، المساجد، ٣.



لما بعث ﷺ معاذاً إلى اليمن شيّعه ومن كان معه من المهاجرين والأنصار –ومعاذ راكب، ورسول الله ﷺ يمشي إلى جنبه– ويوصيه، فقال معاذ: يا رسول الله: أنا راكب وأنت تمشي!، ألا أنزل فأمشى معك ومع أصحابك؟ فقال:

«**يا معاذ إنما أحتسب خطاي هذه في سبيل الله**». [٧١٢]

هذا هو سيدنا عليه الصلاة والسلام الذي كان أرفع نموذج في التواضع،حيث لم يكن همّه ذاتيٌّ، بل كان أكبر ما يهمّه ويقلقه إلى حدٍّ يضعفه، هداية الناس وبلوغهم سعادة الدارين.



وعن أنس بن مالك رضي الله عنه والذي تربى تحت الرعاية النبوية:

«أنه مر على صبيان فسلم عليهم، وقال كان النبي ﷺ يفعله». [٧١٣]

عَنْ أنس رضي الله عنه، قال:

«انتهى إلينا رسول الله ﷺ: وأنا غلام في الغلمان فسلم علينا، ثم أخذ بيدي فأرسلني، برسالة وقعد في ظل جدار، أو قال إلى جدار حتى رجعت إليه». [٧١٤]

وأيضاً ووفق ما عرفناه من أنس رضي الله عنه:

«أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يزور الأنصار فيسلم على صبيانهم، ويمسح على رؤوسهم، ويدعو لهم». [٧١٥]



٧١٢ ديار بكري، تاريخ الخامس، بيروت ٢٠، ١٤٢.

٧١٣ البخاري، الاستئذان، ١٥؛ مسلم، السلام، ١٥.

٧١٤ أبو داوود، الأدب، ١٣٥ ـ ١٣٦/ ٥٢٠٣.

٧١٥ النسائي، السنن الكبرى، ٦، ٩٠.



ويقول أنس ﷺ:

«إن كانت الأَمَةُ من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت». [716]

وروي:

أن امرأة كان في عقلها شيء اسمها أم زفر، فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة فقال:

«يا أم فلان، انظري أي السكك شئتِ حتى أقضي لك حاجتك»

فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها. [717]



سألت السيدة عائشة ﷺ:

«ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله، تعني خدمة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة». [718]



كان عليه الصلاة والسلام يقضي حوائجه بنفسه، ويعين أهله، ونخلص من الروايات الواردة في هذا الشأن إلى النتيجة التالية:

كان من عادته ﷺ أن ينظف ملابسه بنفسه في بيته، ويحلب غنمه، ويرقع ما تمزق من ثيابه، ويخصف نعله، ويكنس بيته، ويربط دابته ويعلفها، ويتناول طعامه مع خادمه، ويعجن العجين معه، ويحمل ما اشتراه من السوق بنفسه، ولما قام أبو هريرة ﷺ لحمل ثياب كان قد اشتراها ﷺ لنفسه، قال عليه الصلاة والسلام:

٧١٦ البخاري، الأدب، ٦١.

٧١٧ مسلم، الفضائل، ٧٦/ ٢٣٢٦؛ أبو داوود، الأدب، ١٢/ ٤٨١٨.

٧١٨ البخاري، الأذان ٤٤، النفقات ٨، الأدب ٤٠.



«صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله، إلا أن يكون ضعيفاً فيعجز عنه فيعينه أخوه المسلم».[٧١٩]

وبذلك لم يحمّله، وقد كان عمر وعلي ﵄ –اقتداء برسول الله عليه الصلاة والسلام–، يقضيان لوازم بيتهما ويتجولان في السوق بأنفسهما حتى في سنوات خلافتهما.



قالت عائشة ﵂:

«بعث إلينا آل أبي بكر بقائمة شاة ليلاً، فأمسك رسول الله ﷺ وقطعت أو أمسكت وقطع، فقال الذي تحدثه: أَعَلَى غير مصباح، فقالت: لو كان عندنا مصباح لائتدمنا به، إن كان ليأتي على آل محمد ﷺ الشهر ما يختبزون خبزاً ولا يطبخون قدراً».[٧٢٠]



وقد قال عليه الصلاة والسلام:

«إذا دُعِي أحدُكم إلى الوَلِيمة فليَأْتِها».[٧٢١]

«لو دُعِيت إلى كُراع لأجبتُ، ولو أُهدِي إليَّ كراعٌ لقبلت».[٧٢٢]

ليس للهدية مقياس من كبر أو صغر، إذ الغاية اكتساب القلب وزيادة المحبة، ولا يمكن الوصول إلى هذا القوام القلبي إلا بالالتفاف بلباس التواضع.

لقد جعل النبي ﷺ العبودية لله تعالى فوق كل شيء، وإحدى الروايات التي تبين ترجيحه للعبودية هي على النحو التالي:

---

٧١٩ الهيثمي، ٥، ١٢٢.

٧٢٠ أحمد، ٦، ٢١٧؛ ابن سعد، ١، ٤٠٥.

٧٢١ البخاري، النكاح/ ٥١٧٣؛ مسلم، النكاح ٩٦/ ١٤٢٩.

٧٢٢ البخاري، الهبة ٢/ ٥١٧٨.



«جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: هذا الملك ما نزل منذ خُلِقَ قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد، أرسلني إليك ربُّك، أفملكاً نبياً أجعلك أو عبداً رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد، قال: بل عبداً رسولاً». [٧٢٣]

وقد أضحت العبودية بعد هذا الترجيح أشرف مقام يمكن للعبد أن يبلغه، ثم إنه عليه الصلاة والسلام قال لمن بالغ في تعظيمه:

«**لا ترفعوني فوق حقي، فإن الله تعالى اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولاً**».[٧٢٤] وهو بتنبيهه هذا أوضح قيمة وفضيلة العبودية.



كان عمر رضي الله عنه على الرغم من -شدته وقوته- عظيم التواضع، يلبس من الثياب المرقَّع، ويحمل الماء والمؤن إلى منازل الأرامل واليتامى على ظهره، وينام على الحصير، وكان يكري دوابه بيده وينظفها، وأما في فترة خلافته فقد كان يدور الأحياء ليلاً واحدة تلو الأخرى، يستمع إلى شكاوى الجميع، ويهتم لما أهم الرعية، يروي لنا أبو محذورة رضي الله عنه ما رآه من تواضعه:

«كنت جالساً عند عمر بن الخطاب إذ جاء صفوان بن أمية بجفنة فوضعها بين يدي عمر، فدعا عمر ناساً مساكين وأرقاء من أرقاء الناس حوله فأكلوا معه، ثم قال عند ذلك: فعل الله بقوم أو لحا الله قوماً يرغبون عن أرقائهم أن يأكلوا معهم، فقال صفوان: أما والله ما نرغب عنهم، ولكنا نستأثر لا نجد من الطعام الطيب ما نأكل ونطعمهم».[٧٢٥]



---

٧٢٣ أحمد، ٢، ٢٣١؛ الهيثمي، ٩، ١٨، ٢٠.

٧٢٤ الهيثمي، ٩، ٢١.

٧٢٥ علي المتقي، ٩، ١٩٨/ ٢٥٦٥٠.



خرج عمر بن الخطاب ﵁ من المسجد ومعه الجارود العبدي، فإذا بخولة بنت ثعلبة برزت على ظهر الطريق، وقد طعنت في السن، وهي التي كانت في زمن الرسول ﷺ امرأة شابة، شكت زوجها المسنّ إلى رسول الله ﷺ، لما وقع بينهما من مشكلة، وقد نزلت الآيات الأولى من سورة المجادلة لحل مشكلتها مع زوجها، فقالت هذه الصحابية لعمر ﵁ وهي تعظه: يا عمر، قد كنتَ تُدعى عميراً ثم قيل لك يا عمر، ثم قيل لك يا أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر في الرعية، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشي عليه الفوت، فبكى عمر ﵁ إثر هذه الكلمات، فقال الجارود وقد أحزنه حاله: قد أكثرتِ أيتها المرأة على أمير المؤمنين، فقال عمر: دعها، أما تعرفها، فهذه خولة بنت حكيم امرأة عبادة بن الصامت، التي سمع الله قولها من فوق سبع سموات، فعمرُ –والله– أحقُّ أن يسمع لها، والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره ما زلت إلا للصلاة المكتوبة. [٧٢٦]

هذا مثال جليّ كيف كان سيدنا عمر ﵁ أحد الشخصيات الإسلامية الفريدة في أخلاقها، فكان مؤمناً متواضعاً، يملأه الخوف من الله تعالى وتعظيمه ومحبته...



وما أجمل بيان حضرة مولانا –بأسلوبه البديع– هذه الحادثة المليئة بالعبرة، والتي تقدم تواضع عمر ﵁:

«أتى الهرمزان إلى المدينة ليفاوض عمر، فدخل المدينةَ وإذا البيوت من طين، قال: أريد قصر الخليفة؟ قالوا: لا قصر له، قال: أريد بيته، قالوا: هذا بيته، فوجد بيته كبيوت الناس من طين، فأتى وطرق الباب، فخرج ابنٌ لـعمر، فقال:

---

٧٢٦ انظر: محمد ذهني أفندي، النساء المشهورات، اسطنبول ١، ٢٥٠؛ محمد ياشار قان دمير، ي. لطفي جاكان، رشيد كوجوك، ترجمة رياض الصالحين وشرحه، ٣، ٥٠٨.



ماذا تريد؟ قال: أريد الخليفة، أليس له حراسة؟ قالوا: لا حراسة له، قال: أين هو؟ قالوا: التمسْه في المسجد، فلعله نائم فيه، فذهبوا إلى المسجد فما وجدوه، وانحدر أهل المدينة وراء الهرمزان، كان عليه ذهب وديباج، فذهبوا وراءه وبحثوا، وبعد تعب شديد وجدوه تحت شجرة نائماً، وإذا الدرَّة بجواره، يغط في نوم عميق، قال: أهذا الخليفة؟ قالوا: هذا الخليفة، قال: أهذا عمر؟ قالوا: هذا عمر، قال: أهذا أمير المؤمنين؟!! قالوا: هذا أمير المؤمنين، فوقف مبهوتاً يقول: حكمتَ فعدلتَ فأمنتَ فنمتَ».



زار الأحنف بن قيس رضي الله عنه مع بعض أشراف وسادة العرب سيدَنا عمرَ رضي الله عنه ذات مرة، فرآه راكضاً وقد شمر ثيابه وربطها حول خاصرته، فلما رآه عمرُ رضي الله عنه قال له: هلم ساعدني، فقد هربت دابة من مال الصدقة، فكم لفقير فيها من حق، وعندها قال له أحدهم: ولم تحمل على نفسك وتشقُّ؟ ألَا كلفت عبداً بالبحث عنها؟ فقال عمر رضي الله عنه: وهل من أحد يصلح لئن يكون عبداً أكثر مني. [٧٢٧]

ما أسماها من أخلاق، وما أدقها من نظرة، وما أعظمه من تواضع ...



في الأيام التي كان فيها سلمان الفارسي رضي الله عنه أميراً على المدائن وهو سائر بالطريق، لقيه رجل قادم من الشام ومعه حمل من التين والتمر، وكان الحِمل يُتعب الشامي، فلم يكد يرى أمامه رجلاً يبدو عليه من عامة الناس وفقرائهم حتى قال له: احمل عني هذا فحمله سلمان ومضيا، وعندما بلغا جماعة من الناس سلم عليهم، فأجابوا: وعلى الأمير السلام، فسأل الشاميُّ نفسَه أي أمير يعنون؟!

٧٢٧ شبلي النعماني، سيدنا عمر بجميع نواحيه وإدارته للدولة، ترجمة. طالب ياشار ألب، اسطنبول. ص: ٣٨٤ ـ ٣٨٥.



ودهش عندما رأى بعضهم يتسارعون ليحملوا عن سلمان الحِمل، ويقولون: عنك أيها الأمير، فعلم الشامي أنه أمير المدائن سلمان الفارسي فسقط يعتذر ويأسف، واقترب ليأخذ الحمل، ولكن سلمان رفض وقال: لا، حتى أُبلغك منزلك.[٧٢٨]



مَرَّ الحسين رضي الله عنه على فقراء يأكلون كسراً من أموال الصدقة، فدعوه قائلين: يا عبد الله هلمَّ إلى الغذاء شاركنا، فنزل عن راحلته، وتغدى معهم، ثمّ قال لهم: قد أجبتكم فأجيبوني، فلبّوا كلامه وخفوا معه إلى منزله، فأطعمهم.



وقد سار علماء الأمة على خطى الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم، فقدموا نماذج رفيقة من التواضع، روي أنه سألَ الخليفةُ هارون الرشيد يوماً الإمامَ أبي يوسف عن مسألة، فأجاب: «لا أعرف»، فيقول معاون الخليفة لأبي يوسف: «تقولون لا أعلم مع أنكم تتقاضون أجراً وراتباً»، فردّ عليه أبو يوسف:

«إن ما أتقاضاه من أجر هو بقدر علمي، وإن كنت سَأُعْطَى على ما لا أعلم لما كفت الخزنة...».

وقد قدّم الإمام الغزالي تواضعاً باعترافه بعجزه من خلال قوله:

«لو وضعت ما أجهله تحت قدميَّ مقارنة بما أعلمه لبلغت عنان السماء».



كان حضرة خالد البغدادي متميزاً في العلم يلفت انتباه الجميع واهتمامهم، قبل حصوله على الإجازة وحتى أثناء فترة تتلمذه، وقد قال له عبد الرحمن باشا متصرف السليمانية –حين زاره في هذه الأثناء– متعجباً من علمه وعرفانه:

---

٧٢٨ ابن سعد، ٤، ٨٨.



«بوسعكم أن تستلموا التدريس في أيّة مدرسة تختارونها من مدارس السّليمانية»، فردّ تكليفه هذا بقوله: «لست أهلاً لهذه الخدمة»، حرمةً للعلم حيث إنه لم يحصل على الإجازة بعد. [٧٢٩]



كان يلدرم بيازيد خان قد دعا عند افتتاح جامع «أولو» جميع المشايخ والعلماء وعلى رأسهم أمير بخاري (أمير سلطان)، وفي صباح الجمعة اجتمع الكل للمراسم التي ستقام، وبعد فترة حضر السلطان يلدرم بيازيد، وقال لختنه حضرة أمير بخاري:

«يا أمير، تفضل وافتح أبواب المسجد وصلِّ بالناس، فهذا الشرف يعود إليك باعتبارك كبير الأمة»، لكن حضرة الأمير بخاري رد بتواضع جم قائلاً: «لا يا مولاي، ينبغي أن يمنح هذا الشرف إلى حضرة الشيخ أبو حميد الدين»، فسأل بيازيد خان الذي لم يسمع بهذا الاسم حتى ذلك الوقت، ومن يكون هذا الشخص؟، فأجابه حضرة الأمير بخاري: «يا مولاي، قد تكونون سمعتم به، إنه فران، معروف باسم «سومونجي بابا»، قد أنفق الكثير من الخبز للعاملين في جامع أولو، هذا الشخص هو حضرة أبو حميد الدين من كبار أولياء الله تعالى.

وبناء على هذا قبِل السلطان التكليف، وقام أمير بخاري فعرّف الجمع بـ»سومونجي بابا» ودعاه إلى المنبر، فقال سومونجي بابا وهو خجل: ماذا فعلتَ يا سيدي، لقد أعلمت الناس بي !.. ومشى نحو المنبر وقد علاه الخشوع والخضوع. فقام سومونجي بابا يومها بتفسير سورة الفاتحة بسبعة تأويلات إشارية مختلفة مِن على المنبر، إلا أنه وقد كُشِف أمره ضرورة، رحل عن بورصة واصطحب معه تلميذه حاجي بيرم وليّ على أنه سيذهب إلى الحج.



---

٧٢٩ الهيئة، موسوعة علماء الإسلام، اسطنبول، منشورات جريدة تركيا، ١٨، ٧٨.



دخل السلطان يافوز سليم خان في الخامس عشر من عام ١٥١٧ قصر المملوكين بمراسم فاخرة، ويذكر مؤرخ الوقائع المتعلقة بالسلطنة استقبال الناس في القاهرة ليافوز سليم على النحو التالي:

«كان الشعب قد ملأ الأحياء والنوافذ لمشاهدة عظمة يافوز، فكانوا يظنّونه مختلفاً تماماً، لا يشبه في لباسه وعمامته مَن حوله، وأما يافوز فلم يكن في المقدمة وإنما وسط محاربيه، ولم يختلف في لباسه وعمامته عمن حوله، وكان يمشي في تواضع جمٍّ غاضّ الطرف».



وصل السلطان يافوز سليم خان، في وضح النهار إلى أُسْكُودار عائداً إلى اسطنبول من سفره إلى القاهرة، ولما علم بأن شعب اسطنبول سيقيمون احتفالاً كبيراً لمجيئه، قال لمربيه حسن جان:

«حين يُحل الظلام، ليذهبِ الجميع إلى منازلهم، ولتفرغ الأزقة، حينها أدخل إلى اسطنبول، فلا يغرننا تصفيق الزائلين وأصوات النصر ومديح الناس، فيجعلنا متدنّين إلى الأرض...».

إننا نرى يافوز في هذا الموقف أِشبه بدرويش غارق في التجليات الإلهية العميقة، محاسباً نفسه أثناء دخوله أسكودار، بينما كان أسداً في صحراء سيناء المهيبة، يدخل مصر منتصرا بكل تواضع وامتنان لفضل الله عليه، وقد قرأ على حسن جان هذه الأبيات:

لئن جعلت الصلابة والقوة مني سلطان العالم

إلا أن الانتساب لولي صالح أشرف من كل هذا



لما وصل خبر النصر الأسطوري في كانيجة إلى القصر، سُرّ السلطان محمد خان الثالث بهذا الخبر ورضي به، وتكرم بمقام الوزير لترياقي حسن باشا، والذي



كان العامل الأكبر في النصر، إضافة إلى بعثه بهدايا ورسالة فيها أمر السلطان المختومة إلى الباشا.

كان ترياقي حسن باشا -الذي قرأ رسالة السلطان المختومة في حضرة المحاربين، على عظم انتصاره الذي لا مثيل له- في تواضع وعجز كبير، وقد بلغ به التواضع حدّاً قال معه لمن حوله:

«قد كان أرسل سلطاننا بمنصب الوزارة وخط الهمايون مقابل خدمتنا الصغيرة، كمدافعة كانيجة، في حين أننا لم نقم إلا بما يجب علينا، أبقي مقام وزارة الدولة العلية لهذا الشيخ الهرم!؟ أمدّ الله دولتنا وملّتنا بالقوة».



كان داهية المهندسين المعماريين كوجا سنان، يرى نفسه نملة عاجزةً في حضرة الحق على ما حققه من نجاح باهر، لأنه كان معلماً كبيراً في التواضع أيضاً.

بذل المهندس المعماري سنان كل ما في وسعه في بناء جامع السليمانية حتى يبقى شامخاً إلى يوم القيامة، وتضرّع إلى الله تعالى بالكثير من الدعاء إلى أن قدَّم أخيراً تحفة لم يُر لها مثيل بِمَنِّ الله تعالى وتفضله، لكن لما جاء الدور إلى قبره جعله في ناحية من المسجد كتوقيع متواضع بسيط، فلم يظهر منه التكبر والعجب بالتحف والآثار العظيمة والمشهورة، وقد كان يستخدم في ختمه وتوقيعاته إلى جانب عبارة «رئيس المهندسين المعماريين للمباني الرئيسية عبارات ك «نوري ناتوفان»، (النملة العاجزة) (الفقير الحقير)، وقد أجاب على التكليف الذي أتاه في خصوص كتابة اسمه على لوحة المسجد إثر فراغه من أعظم تحفه جامع السليمية:

«من أنا حتى أكتب اسمي على بيت الله تعالى!..» فإن جوابه هذا يقدم لنا عمقه المعنوي الموازي لعظمة آثاره المذهلة.





أرسل السلطان أحمد خان يوماً إلى أستاذه الذي يكنّ له شديد الحب سيّدنا هدائي هدية ذات قيمة، لكن حضرة هدائي لم يقبل الهدية، وعندها بعث السلطان أحمد خان بالهدية إلى عبد المجيد السيواسي أحد مشايخ عصره، لِمَا أن الهدية خرجت عن عهدته، وقال له أثناء زيارة له إليه بمناسبة قبول سيدنا عبد المجيد الهدية:

«حضرة السيد! كنت قد أرسلت بهذه الهدية إلى محمد هدائي أولاً، لكنه رفض في حين أنكم قبلتموها»،

فأجاب حضرة سيواسي الذي أدرك غاية ما قيل، بهذا الجواب المهم:

«مولاي! إن حضرة هدائي كطائر العنقاء، فلا يلتفت إلى اللاشيء»

وبعد مرور بضعة أيام مرّ السلطان الذي رضي بهذا الجواب على حضرة هدائي، فقال له:

«يا سيدي! إن الهدية التي لم تقبلوها قبِلها السيد عبد المجيد أفندي»

فردّ عليه هدائي بوجهٍ مبتسم:

«مولاي! إنّ عبد المجيد نبْعٌ ووقوع قطرة من وسخ ما سواه في النبع العظيم لا يؤثّر في صفائه ونقائه».



يقول الطبيب الفرنسي أ. برابر الذي أقام سنوات طويلة في اسطنبول وعاين باهتمام ودقةٍ حياة المجتمع العثماني:

«لا وجود تقريباً للعجب والكِبر بين الأتراك المسلمين نتيجة للحياء، لأن الكبر والغرور من السلبيات التي يحظرها الإسلام بشدة، يذكّر المسلمون بعضهم البعض على الدوام بما يلي:

ـ لا تمش في الأرض مغترّاً، ولا تعرض عن الناس لكِبْر!



ـ يبغض الله تعالى المتكبرين والمغرورين!

ـ كن متواضعاً في كل تصرفاتك!

ـ الكبر يتقدّم على الجهالة، ولا يكون العالِم مغروراً أبداً.

ـ التواضع يكسب الإنسان وقاراً.

ولذا فلا وجود للكبر والعظمة في المشية العثمانية مع وقارها وروعتها، فهم يتكلمون بصوت منخفض على الدوام، ولا تستشعر من حركات أيديهم تعبيراً متكبراً، وتجد في خدماتهم العفوية واليسر».

هذه هي الحالة الروحية للمجتمع العثماني والتي تشمل كل المجتمع من فرده العادي إلى سلطانه، كما أن السلاطنة العثمانيين من حين إنشاء الدولة حتى سقوطها كانوا يأمرون جنودهم الذين يعملون بأجر أن يقولوا لهم أثناء ذهابهم وإيابهم من مكان صلاة الجمعة:

«لا يصيبك الغرور أيها السلطان، فالله تعالى أكبر منك!.. وهم بهذا جعلوا هذا التنبيه عرفاً رسمياً.

وخلاصة القول أن لطائف التواضع جمّة، فالإنسان المتواضع جواد، والإنسان الجواد رحيم، والرحيم ممتلئ برضا وثناء المخلوقات، وهذا وسيلة للحصول على رضا الله تعالى، وأما البعيد عن التواضع فمحروم من كل هذا المحاسن.

ثم إن العبد المتواضع يغدو باستطاعته التفريق بسهولة بين صديقه وعدوه لِمَا أنه كشف له الإدراك والفراسة.

والتواضع خصلة بالغة الأهمية تجمّل الإنسان وتجعل عبوديته تسمو وتنضج وتكسب الأخلاق قواماً، وما أجمل تعبير مولانا قدس سره في هذا الشأن:

«أيمكن لحجر أن يخْضَرَّ في الربيع؟ فكن متواضعاً كالتراب حتى تنمو فيك شتّى الأزهار والورود الملونة!..».



وهذه هي الحقيقة فإن الأحياء التي تمشي على التراب، تدهسه وتلقي بخبثها فيه، إلا أن التراب ينظِّف وبتواضع كبير كلَّ هذا الخبث ومن ثمَّ يُنبت نباتاً من شتى الأنواع، كل واحدة منها أجمل من الأخرى، مغذياً بذلك جميع المخلوقات التي تتجول فوقه، وهكذا يجب أن يكون قلب المؤمن الصالح كهذا التراب المنبِت، بحيث تنعكس كل المحاسن التي في قلبه على الناس، بل وحتى على جميع المخلوقات كشِعر طبيعي منساب.

١٠ . الحلم والمسامحة

الحلم هو أن يقابل الإنسانُ الإساءة إليه بالتحمل والصبر من غير أن يحمل في قلبه غلا أو جفاء لن أساء إليه.

ويقابل الحلمَ -وهو أحد الأمور المحببة إلى الله تعالى- الغضبُ والقسوةُ والفظاظةُ وهي خصالٌ قبيحةٌ تتسبب في أذى الناس وإرهابهم ومِن ثَمَّ تفرقهم وانصرافهم، ولذا فإن الحلم أحد صفات الأنبياء عليهم الصلاة السلام، فغير الحليم -ومن حُرِم اللطف والمودة في أخلاقه- يعجز عن القيام بوظيفةٍ مهمة كالنبوة، ولذلك اختبر بعض علماء اليهود حلم النبي عليه الصلاة والسلام، ولَمّا رأوا بحر حلمه الواسع آمنوا به حيث إنهم قرؤوا في كتبهم أن الحلم من أجلى صفاته، يقول تعالى مخاطبا نبيه الكريم:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [٧٣٠]

---

٧٣٠ آل عمران: ١٥٩.

ثم إن الإسلام اعتمد الاعتدال -دون إفراط أو تفريط- أسلوبا يطبع به المسلم كل حياته، وخاصة في التعامل مع الخلق كالتعليم والتبليغ.

ويبين لنا الحق تعالى أنه «حليم»، وقد كانت مجالس النبي عليه الصلاة والسلام -أكثرُ البشر رِفقا ولطفاً- مكاناً تتجلى فيه أرفع الفضائل كالحلم والعلم والحياء والصبر والتوكل والأمانة.

كما أن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يعيش حياة يطبعها أسلوب الحلم والمسامحة على كل صفحة من صفحاته، وقد قال النبي ﷺ في فضل تطبيق هذا الخلق القويم في الحياة التجارية:

«**رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى**».[٧٣١]

ويقول عليه الصلاة والسلام أيضاً:

«**كان رجل يداين الناس، فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسرا فتجاوز عنه، لعل الله يتجاوز عنا، فلقي الله فتجاوز عنه**».[٧٣٢]

وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

«**من أنظر مُعسراً أو وَضع عنه أظله الله في ظله**».[٧٣٣]

إلا أنه على المدينين أيضاً مقابل هذه الحالة الحميدة من الدائنين عدم استغلال هذا التصرف المتساهل، لأن أمر الدَّين من الأهمية بحيث كان النبي ﷺ يسأل من حضرت جنازته للصلاة عليه: «أعليه دين»، فإنْ كان عليه دين أمرهم بإيفائه، ثم يصلي عليه، وفي حال لم يُقضى دينه لا يصلي عليه.

---

٧٣١ البخاري، البيوع، ١٦/ ٢٠٧٦؛ ابن ماجة، التجارة، ٢٨.

٧٣٢ البخاري، الأنبياء، ٥٤، البيوع، ١٨؛ مسلم، المساقاة، ٣١/ ١٥٦٢.

٧٣٣ مسلم، الزهد، ٧٤/ ٣٠٠٦.



ومن ناحيةٍ أخرى فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام حليماً ومتساهلاً مع حديثي العهد بالجاهلية ممن أسلموا ولم تكن لهم الفرصة الكاملة لتعلم أمور الدين، وفي هذا الخصوص ومن هذا الصدد فإن الحلم والمسامحة من أهم أوصاف أولياء الله تعالى وصالحي المؤمنين المتخلقين بالأخلاق النبوية.

قال رسول اللّه عليه الصلاة والسلام للأشج عبد القيس:

«**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة**».[٧٣٤]

قال لقمان الحكيم لابنه:

«ثلاثة لا يُعرَفون إلا بثلاثة: الشجاعةُ عند الحرب، الحلمُ عند الغضب، أخوك عند حاجته إليك».

وكالخصال جميعاً فإن للحلم والمسامحة مقياساً معيناً، فليس من التصرف السليم حتى يكون الشخص ليناً أن يقبل الظلم أو يتساهل في انتهاك قوانين الله تعالى، وما أشبه هذا التصرف بانقياد الدابة، حيث تزيد الرغبة في فعل الشر والجرأة في الإقدام على التجاوزات، فلذا كان من أسوأ التصرفات.

صور الفضيلة

عن أبي سعيد الْخدريّ رضي الله عنه، قال:

«جاء أعرابي إلى النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام يتقاضاه ديْناً كان عليه، فاشتد عليه، حتى قال له: أحرج عليك إلا قضيتني، فانتهره أصحابه، وقالوا: ويحك تدري من تكلم؟ قال: إني أطلب حقي، فقال النَّبِيُّ عليه الصلاة والسلام:

«**هلا مع صاحب الحق كنتم؟**»

٧٣٤ مسلم، الإيمان، ٢٥/ ١٧.

ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها:

«إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمرنا فنقضيك»

فقالت: نعم، بأبي أنت يا رسول الله، قال: فأقرضته، فقضى الأعرابي وأطعمه، فقال: أوفيت، أوفى الله لك، فقال:

«أولئك خِيار الناس، إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع».[٧٣٥]

وكما رأينا فإن حياة النبي ﷺ ممتلئة بمحاسن السلوك التي تصلح مثالاً لكل ما يمكن أن يحصل للإنسان في حياته، ما دمنا نعرفه من قريب ونجتهد في العيش بمقتضى سنته السّنية...



يقول جبير بن مطعم رضي الله عنه:

«بينما هو يسير مع رسول الله عليه الصلاة والسلام ومعه الناس مقفله من حنين فعلقه الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سَمُرَةٍ، فخطفت رداءه، فوقف النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

«أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً».[٧٣٦]

كان النبي ﷺ حليماً وسمحاً في التعامل مع المسلمين حديثي العهد بالإسلام ممن لم تتقبل روحه لطافة هذا الدين ودقته.



---

٧٣٥ ابن ماجة، الصدقات، ١٧/ ٢٤٢٦.

٧٣٦ البخاري، الجهاد، ٢٤/ ٢٨٢١، الخمس، ١٩/ ٣١٤٨.



عن أنس رضي الله عنه قال:

«ولا مسست خزة ولا حريرة ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت مسكة ولا عبيرة أطيب رائحة من رائحة رسول الله ﷺ، وقد خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أف، ولا لِمَ صنعتَ؟ ولا ألا صنعتَ».[٧٣٧]

وهكذا كان النبيّ ﷺ يربّي أنسا رضي الله عنه –الذي أُودِع لديه في العاشرة من عمره– بسلوكه وتعامله، والذي يأتي أسلوب التربية في التصوف على نمطه، فالإنسان يُعجَب بذوي الشخصية العليّة والميزات السّنية ويُقلِّدهم، لأنّ «ميل التقليد» واحد من أثبتِ الميول الموجودة في خِلْقةِ الإنسان، ولذا فإن الإنسان يحقّق الكمال المعنوي تحت تأثير الشخص المعجَب به ويقلده في البأساء والضراء.



عن معاوية بن الْحكم السُّلميِّ قال:

«بَيْنَمَا أنا أصلي مع رسول اللّه ﷺ، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك اللّه فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه، ما شأنكم؟ تنظرون إلي، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فواللّه، ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال:

«إنّ هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»

أو كما قال رسول اللّه ﷺ قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية...».[٧٣٨]



---

٧٣٧ البخاري، الصوم، ٥٣، المناقب، ٢٣؛ مسلم، الفضائل، ٨٢.

٧٣٨ مسلم، المساجد، ٣٣/ ٥٣٧.

يقول زيد بن سعنة من أحبار اليهود:

«خرج رسول الله ﷺ يوماً من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي، فقال: يا رسول الله، إن بصرى قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، وكنت حدثتهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغداً وقد أصابتهم سنة وشدة وقحوط من الغيث، فأنا أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوا فيه طمعاً، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء تعينهم به فعلتَ، فنظر إلي رجل وإلى جانبه أراه علياً رضي الله عنه فقال: يا رسول ما بقي منه شيء، قال زيد بن سعنة: فدنوت إليه، فقلت: يا محمد، هل لك أن تبيعني تمراً معلوماً من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا، فقال:

«لا يا يهودي، ولكن أبيعك تمراً معلوماً إلى أجل كذا وكذا، ولا أسمي حائط بني فلان»

فقلت: نعم، فبايعني، فأطلقت همياني فأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا، فأعطاها الرجل فقال:

«اعدل عليهم وأعنهم بها»

فقال زيد بن سعنة: فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيته، فأخذت بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ، فقلت له:

ألا تقضيني يا محمد حقي، فوالله ما علمتكم يا بني عبد المطلب سيئي القضاء مطلا، ولقد كان لي بمخالطتكم علم، ونظرت إلى عمر فإذا عيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ثم رماني ببصره، فقال: يا عدو الله، أتقول للنبي ﷺ ما أسمع وتصنع به ما رأى؟ فو الله الذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر قوته لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم، ثم قال:

«يا عمر، أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة، اذهب به يا عمر فأعطه حقه وزده عشرين صاعاً من تمر»



فقلت: ما هذه الزيادة يا عمر؟ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما نقمتك، قلت: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا، من أنت؟ قلت: زيد بن سعنة، قال: الحبر؟ قلت: الحبر، قال: فما دعاك أن فعلت برسول الله ﷺ ما فعلت وقلت له ما قلت له، قال: يا عمر، لم يكن له من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه، إلا اثنين لم أخبرهما منه، هل يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فقد اختبرتهما، فأشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، وأشهدك أن شطر مالي –فإني أكثرهم مالاً– صدقة على أمة محمد ﷺ، فقال عمر رضي الله عنه: أو على بعضهم فإنك لا تسعهم، قلت: أو على بعضهم، فرجع زيد إلى رسول الله ﷺ، فقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وآمن به وصدقه...».[٧٣٩]

لقد تمكّن النبي ﷺ بحلمه وصبره أن يبلغ بالبشر مقاما ساميا ليكونوا شخصيات عظيمة رباها رسول الله على عينه، حتى انتشر الإسلام بفضل الله عز وجل في الجزيرة العربية بأكملها في فترة وجيزة.



«كان في الأسرى الذين ساقهم عبد الله بن جحش في سرية بطن نخلة الحكمُ بن كيسان، فقدموا به على رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام، فأطال رسول الله كلامه، فقال عمر بن الخطاب: تكلمُ هذا يا رسول الله؟ والله لا يسلم هذا آخرَ الأبد! دعني اضرب عنقه، ويقدم إلى أمه الهاوية، فجعل النبي ﷺ لا يُقبل على عمر، قال الحكم: وما الإسلام؟ فقال ﷺ:

«تعبد الله وحده لا شريك له، وتشهد أن محمداً عبد ورسوله»

قال: قد أسلمت، فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه، فقال:

---

٧٣٩ الحاكم، ٣، ٧٠٠/ ٦٥٤٧.



«لو أطعتكم فيه آنفاً فقتلته دخل النار»

قال عمر: فما هو إلا أن رأيته قد أسلم، وأخذني ما تقدم وتأخر، وقلت: كيف أرد على النبي عليه الصلاة والسلام أمراً هو أعلم به مني، ثم أقول: إنما أردت بذلك النصيحة لله ولرسوله، قال عمر: فأسلم والله، فحُسن إسلامه، وجاهد في الله حتى قتل شهيداً يوم بئر معونة ....»[٧٤٠]



قال أبو هريرة رضي الله عنه:

أنَّ أعرابياً بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ:

«دعوه، وأهريقوا على بوله ذنوباً من ماء، أو سجلاً من ماء، فإنما بُعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين».[٧٤١]



عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

«كنت أمشي مع رسول الله عليه الصلاة والسلام، وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذة شديدة، نظرت إلى صفحة عنق رسول الله عليه الصلاة والسلام وقد أثرت بها حاشية الرداء، من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء».[٧٤٢]

ما أجمله وأعظمه من نموذج على الحلم والمسامحة !...



٧٤٠ ابن سعد، ٤، ١٣٧ ـ ١٣٨؛ الواقدي، ١، ١٥ ـ ١٦.

٧٤١ البخاري، الوضوء ٥٨/ ٢٢٠، الأدب ٨٠/ ٦١٢٨.

٧٤٢ البخاري، الخمس ١٩، اللباس ١٨، الأدب ٦٨؛ مسلم، الزكاة ١٢٨/ ١٠٥٧.



ذات يوم مرَّ أبو الدرداء على أناس يضربون رجلاً ويسبونه، فقال لهم: ماذا فعل؟ فقالوا: أذنب ذنبًا، فقال: أرأيتم لو وجدتموه في بئر أكنتم تستخرجونه منها؟ قالوا: نعم نستخرجه، قال: فلا تسبوا أخاكم، وأحمدوا الله الذي عافاكم، فقالوا له: ألا تبغضه وتكرهه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي.[٧٤٣]



روي:

أن رجلاً كان على عهد النبي عليه الصلاة والسلام كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حماراً، وكان يُضحك رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتي به يوماً، فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه! ما أكثر ما يُؤتى به! فقال رسول الله ﷺ:

«**لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله، لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم، ولكن قولوا اللهم اغفر له، اللهم ارحمه**».[٧٤٤]

وهذه صورة بارزة لأسلوب الحلم والمسامحة من النبي عليه الصلاة والسلام نابعة من شفقته ورفقه ومحبته لأمته عليه الصلاة والسلام.



سُرِق حصان ربيع بن الهيثم البالغ قيمته عشرين ألف درهم أمام عينيه، وهو في الصلاة، إلا أنّه رجّح إتمام صلاته التي يؤديها بخشوعٍ على اللحاق بالسارق، ولما سمع أصحابه بخسارته هذه أتوه مسرعين يخففون عليه، فقال لأصحابه:

«قد رأيت الرجل وهو يفك لجام حصاني لكنني كنت منشغلاً بعمل أهمّ من ذلك وأحبّ إلي، لذا لم أتعقبه»

---

٧٤٣ عبد الرزاق، ١١، ١٨٩؛ أبو نعيم، الحلية، ١، ٢٢٥.

٧٤٤ انظر: البخاري، الحدود، ٤، ٥/ ٦٧٨٠/ ٦٧٨١ ؛ أبو داوود، الحدود، ٣٥.



وعلى إثر ذلك بدأ أصحابه بالدعاء عليه، فقال ﵁ مقاطعاً كلامهم:

«اهدؤوا، لم يظلمني أحد إنما ظلم ذلك الرجل نفسَه، فلا نظلمه فنزيد في ظلمه لنفسه».[٧٤٥]

هذا نموذج حيٌّ فريد في قمّة الرحمة والشفقة... ومقام استثنائي لأولياء الله تعالى، حين ينظرون إلى المخلوقات بعين الخالق...



وما أروع جواب الإمام الشعبي –من كبار التابعين– لفاسق احتقره، إذ يعكس بموقفه ﵁ فضيلةً عظيمة،حيث قال:

«إن كان ما قلته صحيحاً، فليعفُ الله عني، وإن كان كذباً، فليصفح الله عنك».



وباختصار فإنّ الحلم والمسامحة –إذ تفيض بهما القلوب الرحيمة المشفقة– من الأسس المهمة في التعامل مع الناس، وهذا أمر إلهي وسمة من سمات النبي عليه الصلاة والسلام، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

«**من أعطي حظّه من الرّفق فقد أعطي حظّه من الخير، ومن حُرم حظّه من الرّفق فقد حُرم حظّه من الخير**».[٧٤٦]

---

٧٤٥ انظر: بابان زاده أحمد نعيم، أسس أخلاق الإسلام، ص: ٨٥ ـ ٨٦.

٧٤٦ الترمذي، البر، ٦٧/ ٢٠١٣.



١١ . حسن الظن

إنّ حسن الظن هو التفكير الجيد وحمل الأمور على أحسنها والابتعاد عن الأفكار السلبية والسيئة، وعندما يوفّق المسلمون إلى زرعِ حسن الظنّ في قلوبهم بعضهم لبعض، يكونون قد تفادوا الوقوع في الكثير مِن الأخطاء، تقول الآية الكريمة مشيرة إلى وجوب إغلاق الطرق المؤدّية إلى سوء الظن:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [٧٤٧]

يقول رسول الله ﷺ:

«**إِيَّاكُمْ والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تَحسَّسُوا، ولا تَجَسَّسُوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد اللّه إخوانا**». [٧٤٨]

ويقول عليه الصلاة والسلام في حديث آخر:

«**لا يُبَلِّغْنِي أحدٌ من أصحابي عن أحد شيئا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**». [٧٤٩]

إنّ تحسين الظن بالغير لا يحمّل المرء عبئاً ولا يكلّفه مشقة، بل على العكس، يقيه من الوبال والمشاق، وقول علي رضي الله عنه:

«أحسن الظنّ بعباد الله تعالى يرتحْ قلبك»، يوضح لنا هذه الحقيقة بشكل حسن.

---

٧٤٧ الحجرات: ١٢

٧٤٨ مسلم، البر، ٢٨ ـ ٣٤/ ٢٥٦٣.

٧٤٩ أبو داوود، الأدب، ٢٨/ ٤٨٦٠.

وعلى المسلمين كذلك تحسين الظن بموتاهم، ويأملون أن يعفو الله تعالى عنهم، فالتفكير عكس هذا لا يجلب نفعاً لأي أحد.

وينبغي على المرء تحسين الظن بالناس شريطةَ ألا ينجر إلى السذاجة، لكن إن لم تتبين الحقيقة في أمر ما كما يجب، فعليه تحسين الظن وتحسين ظنه في حقّ الطرف الآخر، لأننا سنُحاسب عن سوء ظننا، وأما حسن الظن فإننا حتى لو أخطأنا لن نحاسَب على ذلك، ولن تتعدى خسارتنا إلا خطأً ارتكبناه بحسن نيّة وظنٍ منّا، لكن لو أسأنا الظن بأحدهم فإننا في آخر المطاف سنحاسَب على ذلك لا محالة.

صور الفضيلة

ووفق ما نقله عبد الله بن عمر ﷺ فإن فخر الكائنات رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال وهو يطوف بالكعبة:

«ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله، ودمه، وأن نظن به إلا خيراً». [٧٥٠]

فتحسين الظنّ بالمؤمنين أساسٌ إسلاميٌّ مهمٌّ، بمقتضى الحديث الشريف.



كان رسول الله عليه الصلاة والسلام -الذي تعرض للهمّ والغمّ جراء حادثة الإفك التي تحمل كبرها المنافقون- قد استشار من زوجاته زينب بنت جحش ﷺ وبريرة جارية عائشة ﷺ، وسألهن عن أمّنا عائشة ﷺ، [٧٥١] وقد كان جواب كلتيهما مبنياً على حسن الظن، تقول السيدة عائشة ﷺ في هذا الصدد:

---

٧٥٠ ابن ماجة، الفتن، ٢/ ٣٩٣٢.

٧٥١ انظر: البخاري، الشهادة، ١٦.



«كان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: يا زينب، ما علمتِ، ما رأيتِ؟، فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني، فعصمها الله بالورع».[٧٥٢]

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

«أن زينب كانت من بين زوجات النبي ﷺ تسابقني وتنافسني لبعض فضائلها، فكان بإمكانها وقد سنحت لها الفرصة أن تنتهزها وتطعن بالسيدة عائشة لتكون أقرب إلى النبي ﷺ، لكن الله تعالى عصمها لورعها وصلاحها من الانضمام إلى فريق المفترين».

ما أجمله من مثال على حسن الظن... حيث احتمت أمّنا زينب بنت جحش رضي الله عنها بمظلّة حسن الظن، في حالةٍ كان من الممكن أن تزلّ قدم الكثيرين فيها، وبذلك تخلّصت مِن السخط والعتاب الإلهي النازل بالمفترين، وقد أتى المفترين ومَن وقع في سوء الظنّ تحذيرٌ رهيبٌ مع الآيات الكريمة التي أظهرت براءة أمّنا عائشة رضي الله عنها، وبيَّنت الآيات الكريمة أنهم سيهلكون جميعهم على نحوٍ مفجِع لولا عفو الله سبحانه وتعالى، وتكرار هذا التحذير والتهديد عدة مرات كافٍ في بيان مدى قبح سوء الظن، تقول الآيات الكريمة:

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾[٧٥٣]

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٧٥٤]

---

٧٥٢ انظر: البخاري، الشهادات، ١٥، ٣٠؛ مسلم، التوبة، ٥٦.

٧٥٣ النور، ١٢.

٧٥٤ النور، ١٤.

ورُوي عن أبي أيوب الأنصاري ﵁:

«أنه قد قالت له امرأته أم أيوب إبان حادثة الإفك: يا أبا أيوب، ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟، قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة؟، قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة -والله- خير منك».[755]

وهذا مثال على حسن الظن من ذلك الجيل المثالي ...



وعن عبد اللّه بن مسعود ﵁، قال:

«إذا رأيتم أخاكم قارف ذنباً فلا تكونوا أعواناً للشيطان عليه، تقولوا: اللّهم أخزه، اللّهم العنه، ولكن سلوا اللّه العافية، فإنا أصحاب محمد ﷺ كنا لا نقول في أحد شيئاً حتى نعلم على ما يموت، فإن ختم له بخير علمنا أنه قد أصاب خيراً، وإن ختم له بشر خفنا عليه عمله».[756]



دُخل على أبي دجانة وهو مريض -وكان وجهه يتهلل- فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟، فقال:

«ما من عملي شيء أوثق عندي من اثنتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، أما الأخرى فكان قلبي للمسلمين سليماً».[757]



ويذكر لنا حضرة مولانا الأوصاف القبيحة والمهلِكة في عالم الإنسان الداخلي من سوء ظن وحسد وغيرة مثالاً بيناً على النحو التالي:

---

٧٥٥ ابن هشام، ٣، ٣٤٧؛ الواقدي، ٢، ٤٣٤.

٧٥٦ أبو نعيم، الحلية، ٤، ٢٠٥.

٧٥٧ ابن سعد، ٣، ٥٥٧.



كان أحد السلاطنة قد اشترى عبدين، وكي يعرف سويتهم العقلية والقلبية، بدأ بالكلام أولاً مع أحدهما، فكانت الأجوبة التي رد بها العبد على أسئلة السلطان مما يعجز المرء على الردّ به إلا بعد التفكير المليِّ، فرضي السلطان على هذا الخادم وقد وجده متفهماً ذكياً حلو اللسان، ودعا العبد الآخر إليه:

فمَثُل العبد الآخر بين يدي السلطان، كان لفمه رائحة مزعجة لمرض فيه، وأسنانه سوداء اللون من الإهمال وعدم الاهتمام، فتحدّث السلطان إلى العبد مع أنه لم يَرُقْه مظهرُه الخارجي، كي يتعرّف على أحواله وأوصافه التي يجهلها ويقف على أسراره.

«ابتعدْ قليلاً بهذا المظهر وهذه الرائحة، لكن لا تبتعد كثيراً، ولنجد لمشكلة فمك حلاًّ، أنت امرؤٌ محبوب ونحن أطباء مهرة، ولا يليق بنا احتقارك واستصغارك، فاجلس هنا وقُصّ لنا بعض الأمور كي نعلم مستوى عقلك»، ثم التفت السلطان إلى العبد الأول الذي كلمه أولاً قائلاً:

«وأنت هيا اذهب إلى الحمام واستحم جيداً».

وبعدما ذهب صاحبه قال للعبد الآخر راغباً في جعله يتحدث وممتحناً إياه:

«لقد تكلم صاحبك الذي حدثته قبلك عليك بالسوء، وإني لأراك خلاف ما قال، كان ذلك الحسود على وشك أن يفرق بيننا، وقد قال عنك صاحبك: «إنه سارق، غير صالح، خليع يقوم ويقعد مع الأشقياء»، فما تقول أنت عنه؟».

فقال العبد الثاني للسلطان عقب هذا الكلام:

«لا يمكنني القول عن ذلك الصاحب الذي فكّر بحسن نيةٍ وتكلّمَ بحقٍّ أنه أخطأ، بل على العكس فإني أجتهد لإصلاح حالي عندما أفكر في كل هذه النقائص الموجودة بي، يا مولاي! قد يكون رأى كثيرا من عيوبي التي غفلت عنها»

فقال السلطان للعبد:



«فلتقلْ لنا عيوبه كما ذكر هو عيوبك»

فقال العبد للسلطان:

«مولاي! إنه صديق جيد لي، يمنعني قلبي من الخوض عيوبه، ولذا ليس باستطاعتي إلا قول ما يلي: في رأيي عيوبه فضائل، إنه نموذج على الحب والوفاء والإنسانية، فحاله الاستقامة والفطنة والصداقة، وإحدى صفاته الكرم، وعون المحتاجين، وهو من السخاء إلى حدٍّ يجعله يضحي بنفسه إن لزم الأمر، وثمّة صفة أخرى لصديق عمري وهي عدم تكبره، فهو حسن الخلق مع الجميع، لكنه مسيئ لنفسه».

فقال السلطان للعبد مقابل جوابه هذا:

«لا تبالغ في مدح أصحابك، ولا تثني على نفسك أثناء مدحك إياهم، لأنني أحاسبه فتخجل أنت».

فقال العبد عقب هذا:

«لا! لم أبالغ في مدحه، فجميع خصال صديقي ذلك أكثر مما ذكرْتُ بأضعاف مضاعفة، وقد أخبرتكم بكل ما أعرفه عن صاحبي، لكن يا مولاي الكريم! لا تصدقونني فيما أقول، فماذا بإمكاني أن أفعل؟ فقلبي يُلزمني بقول هذا».

ولما رجع العبد الآخر من الحمام استدعاه السلطان، وقال له:

«أكرمك الله بالصحة وأنعم الله عليك بنعم تامة، لكن لو لم تكن فيك الصفات السيئة التي أخبر عنها صاحبك لكان الأمر أحسن، ولَسُرَّ من رأى وجهك الحسن واستبشر، ولكانت رؤيتك تعوّض عن ملك الدنيا كلها».

فقال العبد:

«مولاي! هلا تحدثتم لي عن بعض ما قاله هذا المختلّ عني!»



فقال السلطان:

«لقد ذكر أولاً أنك منافق، وأنك في ظاهرك دواء وفي حقيقتك داء».

فثار غضب العبد حين سمع هذا الكلام من السلطان، وأزبد فمه واحمّر وجهه، وتجاوز حدّ غيبة صاحبه، فقال:

«كان صديقاً لي في السابق، إلا أنه بذيء اللسان، ككلب في مجاعة، يأكل القذارة في كثير من الأحيان».

فبدأ العبد يخوض في صديقه، ويصرخ بصوتٍ عالٍ مظهراً كلّ القبائح الداخلية واحدة تلو الأخرى، فقال السلطان واضعاً يده على فمه، قائلاً له:

«لقد رأيت الفرق بينكما بفضل هذا الاختبار، رائحة فم صاحبك تفوح من مشكلة مادية، لكن رائحة روحك هي التي تفوح! يا من تفوح رائحة روحه، قف بعيداً، سيصبح صاحبك أميراً عليك، وستخضع أنت لأمره، تعلّم منه الأدب والإنسانية والتحدث! واتّعظ من فضيلته، ودع عنك سوء الظن والحسد، فأنت بهذه الأوصاف القبيحة شخص مسكين أثقلت ظهره الظنون، التي تعجز معها عن بلوغ مراقي الكمال».

فحصل العبد الذي أحسن الظنّ بصاحبه على اللطائف المادية والمعنوية لامتلاكه قمّة الفضائل، وأما العبد الآخر الذي أساء الظنّ قبل تبيُّن الحقيقة وغضب وثار فقدَ مكانته في العين والقلب وباء بالخسران.



وخلاصة القول إن تحسين الظن بالناس وإضمار المشاعر الحسنة تجاههم ثمرة لفضيلة النظر إلى المخلوقات بعين الخالق، فطلب الخير للناس ورؤية النواحي الإيجابية والحسنة لديهم صفة مهمة لاكتساب رضا الحق تعالى ومحبة عباده.

١٢. الكرم والإيثار

والكرم هو التفضل على المحروم بما في اليد، وقمّة الكرم «**الإيثار**»، وأجمل تعريف للإيثار ما ذكرته الآية الكريمة وهي تصف ثلة من المؤمنين:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [٧٥٨]

والكرم حصيلة رحمة تثمر عن الإيمان، وأما الرحمة فهي الإسراع إلى مدّ يد العون للغير تعويضاً عن حرمانه.

وليس الكرم عطاء بلا سبب أو جود بلا حساب، وإنما هو الإحسان لعباد الله تعالى والقيام بحق النعمة، وقد قال الحق تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [٧٥٩]

فلا تمسك يدك عن الإنفاق، ولا تنفق كل ما معك حتى تندم وتلوم نفسك.

إن الكرم من صفات الله تعالى، واسم من أسمائه تعالى «الكريم»، أي واسع الكرم والإحسان، السخي بلا حدود، [٧٦٠]

إضافة إلى أن الأوصاف الإلهية كالرحمن، الرحيم، الوهاب، اللطيف، التواب، الغفار، العفو، الرؤوف، الهادي تعبر عن التجليات المختلفة لكرم الله تعالى.

٧٥٨ الإنسان: ٨ ـ ١١.

٧٥٩ الإسراء: ٢٩.

٧٦٠ انظر: الانفطار، ٦.

وقد تفضلت الأحاديث الكريمة في هذا الشأن بما يلي:

«إن الله تعالى جواد يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها». [٧٦١]

«إنَّ اللّه طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجُود...». [٧٦٢]

فعلى المؤمن أن يكون كالقمر يبعث أنواره إلى كل زوايا الدنيا في الظلام، غني الفؤاد، عميق الإحساس بالآخرين، رقيقاً، مؤثراً، رحيماً، شفيقاً، إذ تقول الآيات الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٧٦٣]

﴿... وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ...﴾ [٧٦٤]

يقول علي رضي الله عنه:

«الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا...» [٧٦٥]

وفي هذا الصدد يلزمنا تجهيز زاد الآخرة –من خلال تمتّعنا بالكرم والإيثار– ونحن في هذه الدنيا، كيلا تكون أيدينا خاوية يوم ننتبه في العالم الأبدي، ونبوء بالحرمان والهلاك، وما أجمل ما يقوله حضرة مولانا رحمه الله:

---

٧٦١ السيوطي، ١، ٦٠.

٧٦٢ الترمذي، الأدب، ٤١/ ٢٧٩٩.

٧٦٣ البقرة: ٢٥٤.

٧٦٤ سبأ: ٣٩.

٧٦٥ العجلوني، كشف الخفاء، ٢، ٣١٢/ ٢٧٩٥.

«الحياة الدنيا حلم، وكل ما يملك الإنسان فيها كالذي يملكه في الحلم، لا قيمة له، فمتاع الدنيا ينتقل فيها من جيل إلى آخر».

«يوقظ ملكُ الموت الغافلَ من النوم حين يأخذ روحه، فيتألّم الغافل ويتحسّر على المشاقّ التي تحمّلها في الدنيا في سبيل مال لا يملكه على الحقيقة، ويندم أشدّ الندم، ولات ساعة مندم، فكل ما قد فات مات...».

هذه هي حياة الدنيا وهذه هي حياة الآخرة... تقول الآية الكريمة:

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [٧٦٦]

وهكذا يثني الحق تعالى على عباده المؤثْرين والكرماء ذوي القلوب اليقظة في هذه الأمور فيقول:

﴿... وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...﴾ [٧٦٧]

ويقول رسول الله ﷺ –من لم يسمع منه طالب حاجة «لا» قط– [٧٦٨] في صدد الحديث عن فضل الكرم والكرماء:

«السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدليات (متدلية) في الدنيا، من أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى الجنة، والبخل شجرة من شجر النار، أغصانها متدليات (متدلية) في الدنيا، من أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى النار». [٧٦٩]

---

٧٦٦ المنافقون: ١٠ ـ ١١.

٧٦٧ الحشر: ٩.

٧٦٨ انظر: البخاري، الأدب، ٣٩؛ مسلم، الفضائل، ٥٦.

٧٦٩ البيهقي، شعب الإيمان، ٧، ٤٣٥/ ١٠٣٧٥.

عن أبي هريرة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مثل البخيل والمتصدق، كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد، قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما، فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه، حتى تغشي أنامله وتعفو أثره، وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت، وأخذت كل حلقة مكانها».

قال: فأنا رأيت رسول الله ﷺ، يقول: بإصبعه في جيبه «فلو رأيته يوسعها ولا توسع».[٧٧٠]

«السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار، والجاهل السخي أحب إلى الله ﷻ من عابد بخيل».[٧٧١]

«تجافوا عن ذنب السخي، فإن الله آخذٌ بيده كلما عثر».[٧٧٢]

وتقول السيدة أسماء بنت أبي بكر ﵄ أن النبي ﷺ قال لها:

«لا توكي فيوكى عليك».[٧٧٣]

«...أنفقي ولا تحصي، فيحصي الله عليك».[٧٧٤]

إن كلّاً من الإيثار، الكرم، الإخلاص، الألفة، هي في حقيقتها أثر لنضج القلب ورقي الروح، والابتعاد عن العلاقات النفسية التي تعكر طمأنينة القلب وسكونه الذي لا يتحقق إلا بتأثير الكرم.

---

٧٧٠ انظر: البخاري، الجهاد ٨٩، الزكاة ٢٨؛ مسلم، الزكاة ٧٦ ـ ٧٧/ ١٠٢١.

٧٧١ الترمذي، البر، ٤٠/ ١٩٦١.

٧٧٢ الهيثمي، ٦، ٢٨٢.

٧٧٣ البخاري، الزكاة، ٢١/ ١٤٣٣.

٧٧٤ مسلم، الزكاة، ٨٨/ ١٠٢٩.

وما أجمل بيان حضرة مولانا لخصلة الكرم ومصيبة البخل:

«الكرم غصن من سرو الجنة، والويل لمن أفلت هذا الغصن من يده، من يزرع المحصول يُفرغ المخزن أولاً لكن محصوله يكون وفيراً فيما بعد، وأما الذي يمسك بذوره في المخزن يتحول طعماً وعلفاً للفئران».

«وكما أن الحسنة وجوههم يبحثون عن مرايا صافية ولامعة، فكذا الكرم يطلب الفقراء والضعفاء، والحسنة وجوههم ترى وجوههم جميلة في المرآة، وجمال الكرم والإحسان إنما يظهر بالفقراء وبني السبيل».

«إن الأفئدة المخنوقة في الفقر والعوز لأشبه ببيت ممتلئ بالدخان، فافتح نافذة في ذلك البيت الذي يغمره الدخان تطل منه على همومهم كي ينقشع الدخان وترِقَّ روحك بعد أن يلين قلبك».

وثمّة حاجة ملحّة في يومنا إلى حملة إنفاق وإيثار واسعة، ولا ننسى أننا قد نكون يوما في مكان المساكين والمحتاجين، ولذا فكرمنا وإيثارنا أمام الغريب واليتيم والمحتاج والجائع وفاء لدين الشكر لربنا، ولنشارك المحتاجين بالنعم التي بين أيدينا كي تتحول القلوب التي أرضيناها وسرّيناها روحانية لنا في الدنيا وعوناً في الآخرة وسعادة في الجنة.

صور الفضيلة

«ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، قال: فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم، أسلموا فإنّ محمداً يعطي عطاء لا يخشى الفاقة».[٧٧٥]

حتى إن بعضهم كان يعتنق الإسلام طمعا في الأعطيات، لكنهم ما يلبثوا إلا قليلا حتى يغدو الإسلام لديهم أغلى من الدنيا وما فيها.



٧٧٥ مسلم، الفضائل، ٥٧ ـ ٥٨.



كان صفوان بن أمية -من أسياد قريش وأشرافها وكان ما زال كافرا آنئذ- إلى جانب سيدنا الرسول الأكرم ﷺ في غزوتي حنين والطائف، فعن ابن الزبير: أن صفوان أعار النبي ﷺ مائة درع بأداتها، فأمره النبي ﷺ بحملها إلى حنين، إلى أن رجع النبي ﷺ إلى الجعرانة.

فبينا هو يسير ينظر إلى الغنائم، ومعه صفوان، فجعل ينظر إلى شعب ملأى نعما وشاء ورعاء؛ فأدام النظر، ورسول الله يرمقه، فقال: "**أبا وهب، يعجبك هذا؟**" قال: نعم. قال: "**هو لك**". فقال: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي! أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وتشرَّفَ بالإسلام، وقال بعد ذلك يبين أثر كرم رسول الله ﷺ عليه: أتيت النبي ﷺ فأعطاني، فما زال يعطيني، حتى إنه لأحب الخلق إلي.

وهكذا كان سيدنا النبي ﷺ -وهو في ذروة الصفات والأخلاق- يُكرم الناس بقصد هدايتهم وتأليف قلوبهم.



يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنه:

«كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة».[٧٧٦]



وعن أبي هريرة رضي الله عنه:

«أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: «**من يضم أو يضيف هذا**»، فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيّئي

٧٧٦ البخاري، بدء الوحي، ٥، ٦، الصوم، ٧؛ مسلم، الفضائل ٤٨، ٥٠.



طعامك، وأصبحي سراجك، ونوّمي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها وأصبحت سراجها ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يُريانه أنهما يأكلان فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى النبي ﷺ، فقال:

«**ضحك الله الليلةَ أو عجب من فعالكما**»، فأنزل اللّه ﷻ:

﴿...وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٧٧٧]».[٧٧٨]



وعن عائشة رضي الله عنها:

أنهم ذبحوا شاة، فقال رسول الله ﷺ: «**ما بقي منها؟**» قالت: ما بقي منها إلا كتفها، قال: «**بقي كلها غير كتفها**».[٧٧٩]

أي إنّ ما نملكه في الحقيقة هو ما ننفقه...



جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال:

ما عندي شيء أعطيك ولكن استقرض حتى يأتينا شيء، فنعطيك، فقال عمر: ما كلفك الله هذا، أعطيت ما عندك فإذا لم يكن عندك فلا تُكلَّف، قال: فكره رسول الله ﷺ قول عمر رضي الله عنه حتى عُرف في وجهه، فقال الرجل: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فأعط ولا تخش من ذي العرش إقلالاً، قال: فتبسم النبي ﷺ، وقال: «**بهذا أُمرتُ**».[٧٨٠]

---

٧٧٧ الحشر: ٩.

٧٧٨ البخاري، مناقب الأنصار، ١٠/ ٣٧٩٨، التفسير، ٥٩/ ٦؛ مسلم، الأشربة، ١٧٢.

٧٧٩ الترمذي، القيامة، ٣٣/ ٢٤٧٠.

٧٨٠ الهيثمي، ١٠، ٢٤٢.



وهكذا هي القلوب الرحيمة، لا ترتاح ولا تطمئن حتى تبعث الراحة و الطمأنينة في قلوب من حولها من المؤمنين.



كان عبد الله الهروي –أحد كبار التابعين– على علم بكرم النبي عليه الصلاة والسلام، إلا أنه رغب في معرفة ذلك عن كثب، فيقول: لقيت بلالاً ﷺ مؤذن رسول الله عليه الصلاة والسلام بحلب، فقلت: يا بلال، حدثني كيف كانت نفقة رسول الله؟ قال: ما كان له شيء، كنت أنا الذي ألي ذلك منه منذ بعثه الله إلى أن توفي، وكان إذا أتاه الإنسان مسلما فرآه عارياً يأمرني فأنطلق فأستقرض فأشتري له البردة فأكسوه وأطعمه، حتى اعترضني رجل من المشركين فقال: يا بلال إن عندي سعة فلا تستقرض من أحد إلا مني، ففعلت فلما أن كان ذات يوم توضأت ثم قمت لأؤذن بالصلاة، فإذا المشرك قد أقبل في عصابة من التجار فلما أن رآني قال: يا حبشي، قلت: يا لباه، فتجهمني وقال لي قولاً غليظاً، وقال لي: أتدري كم بينك وبين الشهر، قال: قلت: قريب قال: إنما بينك وبينه أربع، فآخذك بالذي عليك فأردك ترعى الغنم كما كنت قبل ذلك، فأخذ في نفسي ما يأخذ في أنفس الناس، حتى إذا صليت العتمة رجع رسول الله إلى أهله، فاستأذنت عليه فأذن لي، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، إن المشرك الذي كنت أتدين منه قال لي كذا وكذا وليس عندك ما تقضي عني ولا عندي، وهو فاضحي فأذن لي أن آبق إلى بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا حتى يرزق الله رسوله ما يقضي عني، فخرجت حتى إذا أتيت منزلي فجعلت سيفي وجرابي ونعلي ومجني عند رأسي حتى إذا انشق عمود الصبح الأول أردت أن أنطلق، فإذا إنسان يسعى يدعو: يا بلال، أجب رسول الله، فانطلقت حتى أتيته، فإذا أربع ركائب مناخات عليهن أحمالهن، فاستأذنت فقال لي رسول الله عليه الصلاة والسلام:



«**أبشر فقد جاءك الله بقضائك**»، ثم قال: «**ألم تر الركائب المناخات الأربع؟**» فقلت: بلى فقال: «**إن لك رقابهن وما عليهن فإن عليهن كسوة وطعاماً أهداهنّ إليَّ عظيم فدك، فاقبضهن واقض دينك**»، ففعلت فذكر الحديث، ثم انطلقت إلى المسجد فإذا رسول الله قاعد في المسجد فسلمت عليه فقال: «**ما فعل ما قبلك**» قلت: قد قضى الله كل شيء كان على رسول الله فلم يبق شيء قال: أفضل شيء؟ قلت: نعم قال: انظر أن تريحني منه، فإني لست بداخل على أحد من أهلي حتى تريحني منه، فلما صلى رسول الله العتمة دعاني فقال: «**ما فعل الذي قبلك**»، قال: قلت: هو معي لم يأتنا أحد، فبات رسول الله في المسجد وقص الحديث، حتى إذا صلى العتمة يعني من الغد دعاني، قال: «**ما فعل الذي قبلك**»، قال: قلت: قد أراحك الله منه يا رسول الله، فكبر وحمد الله شفقاً من أن يدركه الموت وعنده ذلك، ثم اتبعته حتى إذا جاء أزواجه فسلم على امرأة امرأة، حتى أتى مبيْته فهذا الذي سألتني عنه. [٧٨١]

وهكذا كان النبي عليه الصلاة والسلام من الكرم بحيث يستدين كي يتصدق... فيا ترى كم فينا –ونحن من أمته– من خلقه وكرمه هذا عليه الصلاة والسلام.



وما أحسن ما يعبر به الشاعر عن كرم النبي ﷺ وإيثاره إذ يقول:

لَوْ لَمْ يَكُن فِي كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ   لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِلُهُ

ويقول شاعر آخر:

مَنْ قَاسَ جَدْوَاكَ يَومَـــاً   بِالسُّحُبِ أَخْطَأَ مَدْحَـكَ
السُّحُبُ تُعْطِي وَتَبْكِـــي   وَأَنْتَ تُعْطِي وَتَضْحَـكُ

٧٨١ أبو داوود، الخراج، ٣٣ ـ ٣٥/ ٣٠٥٥؛ ابن حبان، الصحيح، ١٤ ، ٢٦٢ ـ ٢٦٤.



هذا ما كان عليه كرم النبي عليه الصلاة والسلام، فهو يضحّي –مسرورا مبتهجا– بنفسه تضحية تامة في سبيل الله تعالى، ويشبه مولانا خالد البغدادي كرمه على النحو التالي:

«إنّ رسول الله ﷺ لَمثال نادر وبليغ على الكرم إلى حدٍّ تعطي البحار من أجله الدرر ويخرج الياقوت من الحجر الأصمّ، وتتفتح الزهور من الشوك، وإنْ جرى الحديث في حديقة ما عن معالي أخلاقه لا يبق برعم إلا وتفتح مبتسماً أيَّ تفتّح». [٧٨٢]



وما أروع إيثار السيدة عائشة رضي الله عنها:

«لما طعن سيدنا عمر رضي الله عنه وكانت دماؤه تسيل وهو ينتظر الوفاة قال: ... يا عبد الله بن عمر اذهب إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقل لها: يقرأ عمر بن الخطاب عليكِ السلام، ثم سلها أن أدفن مع صاحبي، قالت: كنت أريده لنفسي، فلؤوثرنَّه اليوم على نفسي، فلما أقبل قال له: ما لديك؟ قال: أذنتْ لك يا أمير المؤمنين، قال: ما كان شيء أهم إلي من ذلك المضجع، فإذا قُبضت فاحملوني ثم سلموا، ثم قل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنتْ لي فادفنوني وإلا فردوني إلى مقابر المسلمين، وإني لا أعلم أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله وهو عنهم راض، فمن استخلفوا بعدي فهو الخليفة فاسمعوا له وأطيعوا، فسمى عثمان وعلياً وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وولج عليه شاب من الأنصار، فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله، كان لك من القدم في الإسلام ما قد علمت ثم استخلفت فعدلت ثم الشهادة بعد هذا كله، فقال: ليتني يا ابن أخي وذلك كفافاً لا عليّ ولا لي، أوصي الخليفة من بعدي

٧٨٢ خالد البغدادي، الديوان، ترجمة. صدر الدين يوكسل، اسطنبول ١٩٧٧، ص: ٦٥ ـ ٦٦.



بالمهاجرين الأولين خيراً أن يعرف لهم حقهم وأن يحفظ لهم حرمتهم وأوصيه بالأنصار خيراً ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ...﴾ [783] أن يقبل من محسنهم ويعفو عن مسيئهم، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم». [784]

يعرض لنا هذا الحديث جانبا من إيثار عائشة ﵂ العظيم وأدب ودقّة ولطافة عمر ﵁، في رفعه وتسامٍ تعجز العبارات عن وصفه.



كانت السيدة زينب بنت جحش ﵂ امرأة تعمل بيدها وتمهر في ذلك، حيث كانت تعمل وتتصدق في سبيل الله تعالى، وقد قال النبي ﷺ لزوجاته وأسرته:

«أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا»

قالت: فكن يتطاولن أيتهن أطول يدا، قالت: فكانت أطولنا يدا زينب، لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق. [785]



ومن أشهر مواقف الكرم والإيثار ما فعله الأنصار مع المهاجرين، حيث ضمّت كل عائلة من الأنصار واحدةً من عوائل المهاجرين إليها بعد الهجرة، وبهذا كان الصحابة الذين تحقّق بينهم عقد الإخاء سيعملون مع بعضهم ويتقاسمون ما يكسبونه، حتى وهب بعض الأنصار أراضيهم الفائضة عن حاجتهم للنبي ﷺ، فقسّمها النبي عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين، ولم يقف الأنصار عند هذا الحدّ، بل قَالَوا للنبي عليه الصلاة والسلام:

---

٧٨٣ الحشر: ٩ .

٧٨٤ البخاري، أصحاب النبي ٨، الجنائز ٩٦، الجهاد ١٧٤، التفسير ٥٩/ ٥، الأحكام ٤٣.

٧٨٥ مسلم، فضائل الصحابة، ١٠١/ ٢٤٥٢.



«اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا» فقالوا: تكفونا المئونة، ونشرككم في الثمرة؟، قالوا: سمعنا وأطعنا».[٧٨٦]

وكم نحن –في يومنا هذا وقد كثر فيه الفقراء– بحاجة إلى مثل هذا الإيثار العجيب!..



عن أنس رضي الله عنه قال:

«لما قدم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة أتاه المهاجرون، فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا قوماً أبذل من كثير ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أظهرهم، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال النبي ﷺ :

«**لا، ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم**».[٧٨٧]



وعن جابر رضي الله عنه قال:

«كانت الأنصار إذا جزّوا نخلهم قسّم الرجل تمره قسمين، أحدهما أقلّ من الآخر، ثم يجعلون السعف مع أقلهما ثم يخيّرون المسلمين فيأخذون أكثرهما ويأخذ الأنصار أقلهما من أجل السعف حتى فتحت خيبر، فقال رسول الله ﷺ:

«**قد وفيتم لنا بالذي كان عليكم فإن شئتم أن تطيب أنفسكم بنصيبكم من خيبر ويطيب ثماركم فعلتم...**».[٧٨٨]



---

٧٨٦ البخاري، الحرث، ٥/ ٢٣٢٥.

٧٨٧ الترمذي، القيامة، ٤٤/ ٢٤٨٧.

٧٨٨ الهيثمي، ١٠، ٤٠.



كان المهاجرون في دور الأنصار، فلما غنم عليه الصلاة والسلام أموال بني النضير دعا الأنصار وشكرهم فيما صدقوا ما عاهدوا الله عليه مع المهاجرين في إنزالهم إياهم في منازلهم وإشراكهم في أموالهم، ثم قال: إن أحببتم قسمت ما أفاء الله عليّ من بني النضير بينكم وبينهم، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم، فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: بل تقسمه بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا، ونادت الأنصار رضينا وسلمنا يا رسول الله... وقد نزلت هذه الآية الكريمة:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٧٨٩]. [٧٩٠]

فعلى كل مؤمن أن يجد قلبه الطمأنينة كالأنصار كلما أعطى، وأن لا يخشى الفاقة بمقتضى الآية الكريمة السابقة.



دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يُقطع لهم البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال:

«**إما لا، فاصبروا حتى تلقوني، فإنه سيصيبكم بعدي أثرة**». [٧٩١]



عن عائشة زوج النبي ﷺ، أنّ مسكينا سألها، وهي صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها: «أعطيه إياه»، فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه،

---

٧٨٩ الحشر، ٩.

٧٩٠ الرازي، ٢٩ ، ٢٥٠؛ القرطبي، ٢٨، ٢٥.

٧٩١ البخاري، مناقب الأنصار، ٨/ ٣٧٩٤.



فقالت: «أعطيه إياه»، قالت: ففعلت، قالت: فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ما كان يهدي لنا شاة وكفنها، فدعتني عائشة أم المؤمنين فقالت: «كلي من هذا، هذا خير من قرصك».[٧٩٢]

تقول الآية الكريمة:

﴿... وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ [٧٩٣]

وإحسان الحق تعالى إلى العبد حسب مستواه القلبي.



«أهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا، قال: فبعث إليه فلم يزل يبعث به واحداً إلى آخر حتى تداولها سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول».[٧٩٤]



ومن الإيثار ما حكي عن حذيفة العدوي أنه قال:

«انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي في القتلى ومعي شيء من الماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به بين القتلى، فقلت له: أسقيك؟، فأشار إلي أن نعم، فإذا برجل يقول: آه، فأشار إلي ابن عمي أن انطلق إليه واسقه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فأشار إلي أن نعم، فسمع آخرَ يقول: آه، فأشار إليَّ أن انطلق إليه، فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات». [٧٩٥]

---

٧٩٢ الموطأ، الصدقة، ٥.

٧٩٣ التوبة، ١٠٤.

٧٩٤ الحاكم، ٢، ٥٢٦.

٧٩٥ انظر: القرطبي، ١٧، ٢٨؛ الزيلعي، نصب الراية، ٢، ٣١٨؛ الحاكم، ٣، ٢٧٠/ ٥٠٥٨.



ويتحدث حذيفة رضي الله عنه عن حالته الروحية آنذاك فيقول:

«لقد رأيت حوادث كثيرة، لكن لم تؤثر واحدة منها فيَّ بقدر ما أثرت فيَّ هذه الحادثة، فمع أنهم لا تجمعهم أية صلة كالرحم، فأحوال الإيثار والتضحية والشفقة، (أي تسليم نَفَسِهم الأخير بالفضيلة كما كانوا في حياتهم وتمكّنهم من توديع الحياة ضمن شعور ﴿**وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾[٧٩٦]). وقد تركت هذه الحادثة في ذاكرتي آثاراً عميقة بجلادة الإيمان الكبيرة التي أثارت فيَّ التعجب وجعلتني أشعر بالغبطة...» .



لقد كان لِمُعارِض الصوفية المعروف خليل غلام موقفاً عدائياً ضد المتصوفة، وقد قبض على جماعة بينهم أبو الحسين النوري وساقهم إلى مركز الخلافة، وصدر القرار بإعدامهم بأمرٍ من الخليفة العباسي آنذاك، ولما كان الجلاد على وشك ضرب عنق أحد الدراوشة، وثب أبو الحسين النوري عليه طوعاً والفرح يغمره، فتعجب العامة من فعله هذا وقال الجلاد:

«أيها الشجاع! إنك تقفز إلى الأمام لكن هذا السيف ليس شيئاً مرغوباً فيه على الإطلاق، ولم يأت دورك بعد، فلم العجلة؟»

فقال أبو الحسين رحمه الله:

«إنما طريقي طريق إيثار، وأثمن وأغلى شيء عندي إنما هو الحياة، وأنا أريد أن أهب هذه اللحظات القليلة في الحياة إلى أصحابي كي يعيشوا فيها أكثر، لأن وقتاً في الدنيا يسع لنفس واحد خيرٌ وأكثر قيمة بالنسبة لنا من ألف سنة في الآخرة، لأن المكان دار خدمة، والآخرة مقام لقاء وقرب من الله تعالى، والقرب

٧٩٦ انظر: آل عمران، ١٠٢.



من الله تعالى يتحقق بخدمة الله تعالى، فرغم هذا فإني أضحي بأنفاسي المعدودة هذه لأصحابي». [٧٩٧]



بعد وفاة عثمان غازي، رجّح علاء الدين بيك المؤيد من قبل أسياد آخيلار [٧٩٨] (نقابة التجار) والإمارة والذي يجب أن يجلس على الكرسي حسب العرف، أخاه أورخان بيك على نفسه، وقال:

«يا أخي! ليكن دعاء جدّنا وهمته معك، سلمَ إليك قيادة الجيش لَمَّا كان على قيد الحياة، وعليه فإن السيادة لك».

وقد غدا السيد علاء الدين بيك -الذي أظهر هذا الإيثار العظيم والتضحية- أكبر المؤيدين لأخيه بتكليفه وزارته. [٧٩٩]



هزَّ باكستان زلزال عظيم في الثامن من تشرين الأول عام ٢٠٠٥، فَقَدَ فيه أكثرُ من سبعين ألفاً من الناس حياتهم، ومن بقي على قيد الحياة بقي وجهاً لوجه أمام مخالب الجوع والفاقة، وقد أنفق ولد صغير من تركيا في ال٢٤ من تشرين الثاني نصف ماله للمنكوبين من إخوانه المسلمين، وقدم مثالاً يظهر قمة الإيثار:

«أنا ابن بيت فقير، لا أب لي، وأمي مريضة، ولدينا (ليرتان) من النقود ثمن الخبز، وقد أرسلت إليكم إحدى اللَّيرتين، لأنني عثرت اليوم على خبز بين القمامة، وسوف نفطر اليوم مساءً به، اشتروا بالليرة خبزاً للأطفال المتضرّرين بالزلزال، وهذا المال حلال، وبما أني سأدفع قيمة الطوابع لم أتمكّن من إعطاء كل نقودي لذا أعتذر».

---

٧٩٧ الحجويري، كشف المحجوب، ترجمة، سليمان أولو داغ، اسطنبول ١٩٩٦، ص: ٣٠٢.

٧٩٨ وتعني الإخوة.

٧٩٩ رضا نور آكسون، تاريخ العثمانية، اسطنبول ١٩٩٤، ١، ٣٦.



ما أعظمه من مثال على الكرم والإيثار والفضيلة... كطيف رقيق يهبّ علينا من عصر النبوة...



وختاما، فإنّ النبي ﷺ كان في قمّة الكرم والإيثار في اليسر والعسر، إذ كان يحث أصحابه على الكرم والإنفاق من دون تفريق بين غني وفقير، وقد بين في حديث شريف أن الإنفاق لا يقلل المال قائلاً:

«ما طلعت شمسٌ قط إلا بُعث بجنبتيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلمُّوا إلى ربكم، فإن ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى، ولا آبت شمسٌ قطُّ إلا بُعث بجنبتيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً مالاً تلفاً».[٨٠٠]

وإذاً فالمعرفة الأصلية جعلت الفؤاد بحراً بملئه بمشاعر الكرم والإيثار، وجعل النعم التي مَنَّ الحق تعالى بها وتجارة الدنيا غنى للآخرة، ومِن هذا المنظور فإنَّ خير المال ما أُرسل إلى الآخرة قبل صاحبه، وأكثر الأنفس خيراً ما أفني في سبيل رضا الله تعالى.

١٣ . القناعة والغنى

القناعة هي الرضا بما قدّر الله تعالى والاكتفاء بما يسد الحاجة، أي الاكتفاء بالإمكانيات المادية التي تلبي الحد الأدنى من الاحتياجات، وعدم التّطلّع إلى ما في أيدي الغير.

وينبغي على الإنسان -المخلوق في هذه الدنيا للابتلاء والامتحان- أن لا يستهلك كل إمكانياته في سبيل اكتساب المال ويقع في دوامة السعي إلى الرزق،

---

٨٠٠ أحمد، ٥، ١٩٧/ ٢١٧٢١.



ويغفل عن المقصد من خلقه، بل عليه أن يبذل جهوده لجعل ما رزقه الحق تعالى من مال وإمكانيات رأس ماله للآخرة، لأن الله تعالى أخذ على نفسه رزق جميع الخلق، وطلب من عباده أن يقنعوا بما قدره الله ﷻ لهم و يستغنوا به، تقول الآيات الكريمة:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٨٠١]

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾[٨٠٢]

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ...﴾[٨٠٣]

﴿... فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ...﴾[٨٠٤]

﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾[٨٠٥]

ويثني النبي عليه الصلاة والسلام على القانعين فيقول:

«**قد أفلح من أسلَمَ ورُزقَ كفافا وقنّعَهُ اللّهُ بما آتاهُ**».[٨٠٦]

ثم إن الطماع ومن لا يقنع بما قسمه الله له يعاني من الشدة وضيق الصدر أكثر من الفقراء والمحتاجين حتى لو كان غنياً، إذ إنه لا يشبع ولا يكتفي مهما اكتسب من المال، وسيسعى في طلب المزيد دواما.

٨٠١ هود: ٦.

٨٠٢ الحجر: ٢٠.

٨٠٣ العنكبوت: ٦٠.

٨٠٤ النعكبوت: ١٧.

٨٠٥ ص: ٥٤.

٨٠٦ مسلم، الزكاة، ١٢٥/ ١٠٥٤.

وقال عليه الصلاة والسلام:

«اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً».[807]

يصور النبي ﷺ حال الجَشِعِ الذي لا يشبع كما يلي:

«لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى إليهما ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب».[808]

إذاً فينبغي التوبة من معصية الطمع وعدم القناعة، وقد أوصى النبي عليه الصلاة والسلام من هم في هذه الحالة بما يلي:

«إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه».[809]

ويوصي لقمان الحكيم بهذه النصيحة:

«يا بني لا تعلق نفسك بالهموم، ولا تشغل قلبك بالأحزان، وإياك والطمع، وارضى بالقضاء، واقنع بما قسم الله لك، يصف عيشك وتسرّ نفسك وتستلذ حياتك».

لكن علينا ألا نتوهم -نتيجة الفهم الخاطئ للقناعة- أنّ الإسلام يريد منا التكاسل وترك العمل واحتياج الناس، فالقناعة أمر قلبي وأخلاقي، وعلى المسلم أن يجتهد في كسب المال الحلال لينفق منه على المحتاجين والفقراء. وإحدى الخصال الحميدة التي تماثل القناعة غنى القلب، والرضا بما أعطى الله تعالى من غير انتظار شيء من الناس، أو مدِّ يد السؤال إليهم.

قال سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام:

---

٨٠٧ مسلم، الزكاة، ١٢٦/ ١٠٥٥.

٨٠٨ البخاري، الرقاق ١٠؛ مسلم، الزكاة ١١٦ _ ١١٩؛ أحمد، مسند، ١٣٥٥٢.

٨٠٩ البخاري، الرقاق، ٣٠/ ٦٤٩٠؛ مسلم، ٨/ ٢٩٦٣.

«جاءني جبريل فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به، ثم قال: يا محمد، شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس».[٨١٠]

ثم إنّ الغنى وصفٌ قلبيٌ يمتلكه الصالحون والصادقون والكُمَّلُ ممن استغنى بما وهبه الله عن التطلع إلى ما في أيدي الناس، فهو بما فيه يده أغنى مما في أيدي الناس، والغنى أيضاً بموجب حديث:

«القناعة كنز لا يفنى».[٨١١]

اطمئنان القلب لا يكون إلا باستغنائه عن الخلق وقربه من الحق تعالى، لأن القلب المستغني يسلم من القلق والمخاوف الدنيوية، وينعتق من أسار الدنيا وأهوائها، وبهذا تفقد الملذات الفانية بريقها عند المؤمن، فيغنيه الله تعالى عن كل ما سواه بشرف اسمه «الغني».

يقول رسول الله ﷺ:

«من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تُسَدَّ فاقتُه، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل».[٨١٢]

ثم إن الغنى ليس الاستغناء عن المال والملك والثروة فحسب، بل هو استغناء القلب عن كل ما يشغله عن ربه، ويهوي به في مهاوي الغفلة والبعد عن الله ﷻ.

---

٨١٠ الحاكم، ٤، ٣٦٠_٣٦١/ ٧٩٢١.

٨١١ الديلمي، ٣، ٢٣٦/ ٤٦٩٩.

٨١٢ الترمذي، الزهد، ١٨/ ٢٣٢٦؛ أبو داوود، الزكاة، ٢٨/ ١٦٤٥.

صور الفضيلة

كان النبي ﷺ -الذي يعيش القناعة في كل أحواله- يطلب من أصحابه عهداً بألا يسألوا أحداً شيئاً، فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**من يكفل لي أن لا يسأل الناس شيئا، وأتكفل له بالجنة؟**»

فقال ثوبان: أنا، فكان لا يسأل أحدا شيئا.[٨١٣]

يفيد الحديث الشريف فضيلة البقاء مستغنياً عن العباد.

ويبين سيدنا معروف الكرخي اهتمام التصوف وعنايته بتربية القناعة والغنى عن الناس في قلوب أبنائه، فيقول:

«التصوف الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق».



عن عوف بن مالك الأشجعي، قال:

كنا عند رسول الله ﷺ، تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**» وكنا حديث عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**» فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**» قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: «**على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، والصلوات الخمس، وتطيعوا** - وأسر كلمة خفية - **ولا تسألوا الناس شيئا**» فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحدا يناوله إياه.[٨١٤]

وحين يكرر النبي ﷺ كلامه ثلاث مرات، ويخفض صوته عند إحدى الجُمَل لينبه إلى أهمية ما سيبلّغه للحاضرين فيعتنوا به.



---

٨١٣ أبو داوود، الزكاة، ٢٧/ ١٦٤٣.

٨١٤ مسلم، الزكاة، ١٠٨/ ١٠٤٣.

وقد روي:

«أنه كان ربما سقط الخطام من يد أبي بكر الصديق ﷺ، قال: فيضرب بذراع ناقته فينيخها فيأخذه، قال: فقالوا له: أفلا أمرتنا نناولكه؟! فقال: إن حبيبي رسول الله ﷺ أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً».[٨١٥]

وعن عمرو بن تغلب:

أنّ رسول اللّه عليه الصلاة والسلام أُتي بمال – أو سبي – فقسمه، فأعطى رجالا وترك رجالا، فبلغه أن الذين ترك عتبوا، فحمد الله، ثم أثنى عليه، ثم قال:

«أما بعد فوالله إني لأعطي الرجل، وأدع الرجل، والذي أدع أحب إلي من الذي أعطي، ولكن أعطي أقواما لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير، فيهم عمرو بن تغلب»

فوالله ما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم.[٨١٦]



قال عمر رضي الله عنه:

كان رسول اللّه ﷺ يُعطيني العطاء، فأقول: أعطه أفقر إليه مني، حتى أعطاني مرة مالاً، فقلت: أعطه أفقر إليه مني، فقال النبي ﷺ:

«خذه، فتموله، وتصدق به، فما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وإلا فلا تتبعه نفسك».[٨١٧]



٨١٥ أحمد، ١، ١١.

٨١٦ البخاري، الجمعة ٢٩/ ٩٢٣، الخمس ١٩، التوحيد ٤٩.

٨١٧ البخاري، الزكاة، ٥١/ ٧١٦٣.

«قَدِم وفدُ تُجيب عليه عليه الصلاة والسلام، ثم جاؤوه عليه الصلاة والسلام يُودِّعُونه، فأرسل إليهم بلالاً، فأجازهم بأرفع ما كان يُجيزُ به الوفودَ، قال: هَلْ بَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدٌ؟ قالوا: نعم، غلام خلفناه على رحالنا هو أحدثُنا سناً، قال: أرسلوه إلينا، فلما رجعوا إلى رِحالهم، قالوا للغلام: انطلِق إلى رسول الله ﷺ، فاقض حاجتَك منه، فإنَّا قد قضينا حوائجنا منه وودعناه، فأقبل الغلامُ حتى أتى رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسول الله؛ إني امرؤ مِن بني أبْذَى، يقول: مِن الرهط الذين أتوك آنفاً، فقضيتَ حوائِجَهم، فاقض حاجتي يا رسول الله، قال: «**وما حاجتُك؟**» قالَ: إنَّ حاجتي ليست كحاجة أصحابي، وإن كانوا قَدِمُوا راغبين في الإسلام، وساقُوا ما ساقوا من صدقاتهم، وإني واللهِ ما أعمَلني من بلادي إلا أن تسألَ الله ﷻ أن يغفر لي ويرحمني، وأن يجعل غِناي في قلبي، فقال رسولُ الله ﷺ -وأقبل إلى الغلام-: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، وارْحَمْهُ، واجْعَلْ غِناهُ في قَلْبِهِ**»، ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه، فانطلقوا راجعين إلى أهليهم، ثم وافَوْا رسولَ الله ﷺ في الموسم بِمِنَى سنةَ عشر، فقالوا: نحن بنو أبْذَى، فقال رسولُ الله ﷺ: «**ما فَعَلَ الغُلامُ الَّذِى أتاني مَعَكُم؟**» قالوا: يا رسول الله؛ ما رأينا مثله قطُّ، ولا حُدِّثنا بأقنعَ منه بما رزقه الله، لو أن الناسَ اقتسموا الدنيا ما نظر نحوَها ولا التفتَ إليها، فقال رسولُ الله ﷺ: «**الحَمْدُ للهِ، إني لأرْجُو أَنْ يَمُوتَ جَمِيعاً**»، فعاش ذلك الغلامُ فينا على أفضلِ حال، وأزهده في الدنيا، وأقنعه بما رُزِقَ، فلما توفي رسول الله ﷺ، ورجعَ مَنْ رجع من أهل اليمن عن الإسلام، قام في قومه، فذكَّرهم اللهَ والإسلام، فلم يرجع منهم أحد، وجعل أبُو بكر الصِّدِّيق يَذْكُره ويسأل عنه حتى بلغَه حالُه، وما قام به، فكتب إلى زياد بن لبيد يوصيه به خيراً».[818]



818 ابن القيم، ٣، ٦٥٠ ـ ٦٥٢؛ ابن سعد، ١، ٣٢٣.

إن عقد المؤاخاة الذي تحقق بين المهاجرين القادمين من مكة إلى المدينة والأنصار لصورة لا مثيل لها، لم يشهد التاريخ مثيلا لها، حيث إن الأنصار الكرام اقتسموا –بالتساوي– مع المهاجرين كل ما يملكونه من الأموال، ومقابل هذا الإيثار العظيم كان جواب المهاجرين –الذين باتت أفئدتهم كنوز القناعة والغنى–:

«... بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق...».[٨١٩]



عن أنس بن مالك رضي الله عنه:

أنّ رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله، فقال: «**أما في بيتك شيء؟**» قال: بلى، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء، قال: «**ائتني بهما**»، قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، وقال: «**من يشتري هذين؟**» قال رجل: أنا، آخذهما بدرهم، قال: «**من يزيد على درهم مرتين، أو ثلاثا**»، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري، وقال:

«**اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوما فأتني به**»، فأتاه به، فشد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده، ثم قال له: «**اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوما**»، فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا، وببعضها طعاما، فقال رسول الله ﷺ:

«**هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع**».[٨٢٠]

---

٨١٩ البخاري، البيوع، ١.

٨٢٠ أبو داوود، الزكاة، ٢٦/ ١٦٤١، ابن ماجة، التجارة، ٢٥.

فعلى المسلم أن يدرك إعانة أخيه المسلم ليكون صاحب مهنة، وعلى المسلمين الفقراء أن يستغنوا عن الناس، باذلين جهودهم في الطريق المستقيم التي أخبر عنها النبي عليه الصلاة والسلام.



«حدَث أنه أصبح أبو سعيد الخدري ﷺ ذات يوم وقد عصب على بطنه حجراً من الجوع، فقالت له امرأته أو أمه: ائت النبي ﷺ فاسأله، فقد أتاه فلان فسأله فأعطاه، وأتاه فلان فسأله فأعطاه، فقال: قلت حتى التمس شيئاً قال فالتمست فأتيته، فلم أجد شيئاً، فأتيته وهو يخطب فأدركت من قوله وهو يقول:

«من استعف يعفه الله، ومن استغنى يغنه الله ومن سألنا إما أن نبذل له وإما أن نواسيه»

قال: فرجعت فما سألته شيئاً، فما زال الله ﷻ يرزقنا حتى ما أعلم في الأنصار أهل بيت أكثر أموالاً».[٨٢١]

هذه من ثمار معرفة المرء باسم الله الرزاق، أي الذي يحسن ويتفضل بالرزق ويقسّمه... فكلما كان اعتمادنا وتوكلنا عليه واستسلامنا له قوياً كان فؤادنا غنياً مطمئناً بقدر ذلك.



وعن حكيم بن حِزام ﷺ قال:

«سألت النبي ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال:

«يا حكيمُ، إن هذا المال خضر حُلو، فمن أخذه بسخاوة نفس؛ بورك له فيه، ومن أخذهُ بإشرافِ نفسٍ لم يبارك لهُ فِيه، وكان كالذِي يأكلُ ولا يشبعُ، واليد العُليا خيرٌ من اليد السفلى»

---

٨٢١ انظر: أحمد، ٣، ٤٤.



قال حكيم؛ فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر ﵁ يدعو حكيماً ليعطيه العطاءَ، فيأبى أن يقبل منه شيئا، ثم إن عمر ﵁ دعاه ليعطيهُ، فأبى أن يقبلهُ، فقال: يا معشر المسلمين، أُشهدكم على حكيم أني أعرضُ عليه حقهُ الذي قسمهُ الله له في هذا الفيء فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ أحداً من الناس بعد النبي ﷺ حتى تُوفي». [٨٢٢]

إنه لمثال استثنائي على رسوخ القناعة في نفس المؤمن والاستغناء عن العباد استجابة لأمر النبي عليه الصلاة والسلام...



وروي عن أحمد بن حنبل المعروف بزهده وتقواه أنه قال لمن سأله أيهما أفضل الغنى أم الفقر:

«الزم السوق –أي العمل في التجارة–، واستغن عن الناس، فلم أر مثل الغنى عنهم».



رأى إبراهيم بن الأدهم فقيراً –مدقع الفقر– فقال له:

«أأعطوك الفقر بغير عوض، فأنت تشكو؟ فسأله الرجل في حيرة: يا سيدي! أو يأخذون الفقر أيضاً عن بدل؟ فقال إبراهيم بن الأدهم: نعم! فأنا لما رأيت قيمة الفقر، أعطيت وبكل رضاً مدينة بلخ الكبيرة عوضاً عنه...».

فالأمر المقصود هنا الغنى والقناعة بكسر حرص النفس، ثم إن الفقراء الصابرين والأغنياء الشاكرون متساوون في الرضا الإلهي، والقيمة المعنوية للصبر الكافي في الفقر لا يقدر بثمن...



٨٢٢ البخاري، الوصايا، ٩/ ٢٧٥٠/ ٣١٤٣، الواقدي، ٣، ٩٤٥.



وعندما سُئل حضرة أبي حازم: ما ثروتك؟ قال: شيئان، الرضا بالله تعالى، والثانية الاستغناء عن الناس، ولما قيل له: فإذاً أنت فقير، أجاب بقوله:

«وكيف أكون فقيراً وأنا عبد عند سيد يملك السموات والأرضين وما بينهما!».

والفقر في الحقيقة غفلة القلب عن الله تعالى، فإن كان قلبٌ ما يملك نعمة أن يكون مع الحق تعالى، فهذا يعني أنه أغنى مَن في الدنيا، وإن كان بعيداً فهو أكثر المحرومين في الدنيا.



وفيما يلي قصة مليئة بالعبرة تعكس لنا فضل القناعة والغنى:

كان الوقت وقت إفطار، وقد أتى أمام باب إحدى الأفران شخص في سيماه أصالة لا تراها عين كل أحد، فقال للفران بعد تفرق الناس: يا بني، لم أتمكن اليوم من تحصيل نفقتي فهلا أعطيتني ربع رغيف من الخبز، أؤدي لك ثمنه غداً إن لم يوافيني الأجل؟

فقال الفران وقد كان صوته مرتعشاً ووجهه محمراً:

ما هذا الذي تقوله يا أبي، أعطيك الخبز كله وليس الربع فقط، حلال لك، وما من حاجة إلى النقود، إلا أن الغريب على مع ذلك قال: لا يا بني، إنما ربعه كاف... فقد يأتيك ثلاثة من الفقراء، ثم إني أخجل من ربعها إذ يحمر وجهي، ولست قادر على تحمل الأكثر، وشرطي لأخذ الربع وفاء ثمنها غداً.

فقدّم الفرّان ربع رغيف الخبز الذي طلبه وهو في حيرة، وأما الرجل المسكين الذي أخذ خبزه وهو يقبله فقد ابتعد من هناك بخطوات هادئة، ولما تقدم ظهر أمامه في ركن الطريق كلب ينظر إليه بعينين متوسلتين جائعتين، فقال الرجل المبارك ذو الوجه المشرق وقد أعطاه نصف ما معه من الخبز، وبعدها مشى نحو المسجد، وأفطر بلقمة الخبز التي بقيت في يده وبعض رشفات الماء، وشكر الله تعالى على هذه النعم.



وفي اليوم التالي قال له صاحب أحد الدكاكين: يا أبي، املأ قرابنا من هذه النافورة التي أمامنا، ثم خذ هذه الأشياء الجديدة إلى الداخل، وأعطاه مقابل هذا ليرة واحدة.

وسرعان ما ذهب الرجل الغريب إلى الفرن ودفع ٢٥ قرشاً ثمن ربع الرغيف، ومع أن الفران حاول جاهداً عدم أخذ الثمن إلى أنه استسلم ولم يقاوم إصرار الرجل، واضطر إلى أخذ الثمن وعيناه تفيضان بالدمع.

هذا إنسان نموذج على القناعة والاستغناء... وهو في الوقت نفسه -على شدة فقره- كريمٌ إلى درجة تجعله لا يتخلى عن الإنفاق والرأفة بمخلوقات الله تعالى...



وفيما يلي مثالين على القناعة والغنى من بين العديد من الأمثلة التي عايناها في وقفنا عزيز محمد هدائي في اسطنبول:

«كان وقفنا يساعد أمَّاً وابنها، وكان ابنها مشلولاً، وقد أنهى دراسته الجامعية، فأتت هذه الأم يوماً وشكرت الوقف وقالت: لن أتمكن بعد الآن من أخذ المساعدة من الوقف، فهناك من هم أكثر حاجة مني، لأن ابني قد توفي، وقد جهزت بآخر مال أخذته منكم جنازته، ولم يبق إلا أنا بعد الآن، وباستطاعتي تدارك أموري كيفما كان، وأما النقود التي ستعطوني إياها فأعطوها لعائلة بحاجة إلى العون كما كنا نحن قبلاً.

وقصة أخرى هي: ثمة عائلة هولندية تقدَّم لها المساعدة، وهي امرأة مات زوجها وترك لها أيتاماً، فكتبت إلى وقفنا ذات يوم تشكرنا وهي تقول: لقد أوفيت عن زوجي ديونه، وأبرأته من حقوق العباد، وأنا في وضعٍ يسمح لي باكتساب رزقي لوحدي،

هذه هي الأصالة الحقيقية تكون بالجوهر الموجود في القلب وليس بالمال ولا بالفقر.



فعلى العبد ألا يكون مستغنياً بنعم الله تعالى عما في أيدي الناس، ويوضح الحديث الآتي هذا الأمر على نحو رائع، فعَنِ النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

«**بَيْنَا أَيُّوبُ يغتسل عريانا، فخر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحتثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك، ولكن لا غنى بي عن بركتك**».[٨٢٣]



كان الحسن البصري يلتجأ إلى الله تعالى بقوله:

«اللهم أغنني بالفقر إليك، ولا تفقرني بالاستغناء عنك».[٨٢٤]

وباختصار فقد بيّن النبي عليه الصلاة والسلام أن الغنى الحقيقي ليس بكثرة المال وإنما بقناعة القلب،[٨٢٥] وعليه فكل واحد يكوون قنوعا بقدر استغنائه عن الناس، ثم إن القناعة حسب الحديث الشريف كنز لا ينتهي ولا ينفد،[٨٢٦] والمؤمنون بحق هم الذين يمتلكون نعمة الغنى وينفقون.

١٤ . الزهد بالدنيا

إن الزهد هو أن تطهير القلب والروح من التعلق بكل ما سوى الله تعالى، فلا تبقى فيه قيمة للدنيا ومتعها، فيستغني القلب بالله تعالى عن كل ما سواه.

والزاهد هو من –لشدة نفرته من المعاصي– يجتنب الشبهات ويبتعد عن مواطن التهمة، خوفا من الله تعالى ورغبة في القرب منه سبحانه.

---

٨٢٣ البخاري، الغسل، ٢٠/ ٢٧٩.

٨٢٤ انظر: الباقلاني، إعجاز القرآن، بيروت ١٩٩٨، ص: ١٠٧.

٨٢٥ أحمد، ٢، ٣٨٩.

٨٢٦ البيهقي، الزهد، بيروت ١٩٩٦، ٢، ٨٨.



وقد عاش عظماء الإسلام الزهد والاستغناء عن كل ما سوى الله تعالى مِن خلال عبوديتهم التي عاشوها بين يدي مولاهم حبا له وخوفا منه سبحانه، حين فقد كل ما سوى الله تعالى قيمته في قلوبهم، وبهذا يكون الزهد درعا متينا أمام حبّ الدنيا والحرص الذي يُنسي الآخرة.

إن كثيرا من الناس تعلق بالدنيا الغَرُور وانساق وراء جاذبيتها وسحرها، في حين أنه يجب على المرء العاقل أن ينتفع بالدنيا من بعيد ويجعلها خارج القلب، ويتعامل معها على أنها رأس مال للآخرة، ويصوّر لنا الحق تعالى الحياة الدنيا حين تأخذ عقل الإنسان وقلبه على النحو التالي:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [٨٢٧]

ويقول رسول الله ﷺ:

«**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه** – وأشار يحيى بالسبابة – **في اليم، فلينظر بم ترجع؟**». [٨٢٨]

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«**من كانت الآخرة همه جعل اللّه غناه في قلبه وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**». [٨٢٩]

---

٨٢٧ الحديد: ٢٠.

٨٢٨ مسلم، الجنة، ٥٥/ ٢٨٥٨.

٨٢٩ الترمذي، القيامة، ٣٠/ ٢٤٦٥.

يقدّم رسول الله ﷺ هذه الوصية لتكون أمته زاهدة بالدنيا وشاكرة لنعم الله تعالى:

قال رسول اللّه ﷺ:

«انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».[٨٣٠]

ولكن قد يُفهم كلٌّ من الزهد والتقوى -اللذين باتا شعاراً لكل مَن تبنّى هذا الأسلوب النبوي تجاه الحياة والحوادث- على نحو خاطئ، فهم يظنّون أنّ عليهم التخلّي عن نِعم الدنيا كليًّاً، مع أنّ العبادات المالية التي يمكن تأديتها بالمال هي قيِّمة جداً أيضاً عند الحق تعالى، وقد مرّت كلمة الإنفاق في كثير من المواضع في القرآن الكريم، فأداء فريضتي الحج والزكاة اللتان تعدان من أركان الإسلام الخمسة لا يتحقق إلا بملك نصاب مالي معين يعدُّ مقياساً للغنى على الحد الأدنى ديناً، إضافة إلى أن التعبير النبوي اليد العليا خير من اليد السفلى،[٨٣١] كيفية أخرى في الحث على تملّك النصاب الكافي لإيفاء هذه العبادات، فإن كان كذلك فالزهد يستحيل أن يناقض أمراً يحثّ عليه الدين.

ثم إن الاستغناء عن النعم الدنيوية -خوفاً من الوقوع في الإثم والغفلة- حقيقة يقتضيها الزهد والتقوى، إلا أن هذا الاستغناء يكون قلبيا، وليس فعلياً وظاهرياً، أي الزهد والاستغناء هو الاشتغال بالنعم الدنيوية مع عدم إدخالها القلب، وبهذا فإن الزهد ليس بفقر وإنما موقف قلبي ينبغي على كل مؤمن غنياً كان أو فقيراً التجمّل به، ولا يُعتبر من كان يعيش في فقر وعوز -نتيجة تقدير الله تعالى- من أهل الزهد إن كان قلبه متعلقا ولاهثاً وراء الملذات والمتع الدنيوية،

٨٣٠ مسلم، الزهد، ٩/ ٢٩٦٣.

٨٣١ انظر: البخاري، الزكاة، ١٨.

لأنّ الزهد والاستغناء حماية القلب بمحض الإرادة من الوقوع في الأسْر الدنيوي، ولا يكونان بالقناعة مضطراً بالقليل الذي ساقه إليه القدر.

وما أحسن تعريف رسول الله ﷺ للزهد حيث يقول:

«الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق مما في يد الله وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك».[٨٣٢]

صور الفضيلة

عن إياس بن ثعلبة الأنصاري الحارثي ﵁ قال:

ذَكَرَ أصحاب رسول الله يوما عنده الدنيا، فقال رسول الله ﷺ:

«ألا تسمعون، ألا تسمعون، إن البذاذة من الإيمان، إن البذاذة من الإيمان».[٨٣٣]

أي العيش زاهداً متواضعاً مستغنياً ...



عن عائشة ﵂ قالت:

دخلت عليَّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ قطيفة مثنية، فانطلقت فبعثت إلي بفراش حشوه الصوف، فدخل علي رسول الله ﷺ فقال: "**ما هذا يا عائشة؟**" قالت: قلت: يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت علي، فرأت فراشك فذهبت فبعثت إلي بهذا قال:

«رديه يا عائشة، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة».[٨٣٤]



---

٨٣٢ الترمذي، الزهد، ٢٩/ ٢٣٤٠.

٨٣٣ أبو داوود، الترّجل، ١/ ٤١٦١؛ ابن ماجة، الزهد، ٤.

٨٣٤ البيهقي، شعب الايمان، ٣، ٦١/ ١٣٩٥؛أحمد، الزهد، ص: ٣٠.

عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال:

نام رسول الله عليه الصلاة والسلام على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، قلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً، فقال:

«**مالي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثُم راح وتركه**».[835]



عن أبي هريرة ﵁:

«أَنَّهُ مَرَّ بِقوم بين أيديهم شاة مصلية، فدعوه، فأبى أن يأكل، وقال: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير».[836]



قال سَهْل بن سعد:

«ما رأى رسول الله ﷺ النقي، من حين ابتعثه الله حتى قبضه الله، قال: فقلت: هل كانت لكم في عهد رسول الله ﷺ مناخل؟ قال: ما رأى رسول الله ﷺ منخلا، من حين ابتعثه الله حتى قبضه الله، قال: قلت: كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول؟ قال: كنا نطحنه وننفخه، فيطير ما طار، وما بقي ثريناه فأكلناه».[837]



عن أنس بن مالك ﵁، قال:

«أُتي رسول الله ﷺ بمال من البحرين، فقال: «**انثروه في المسجد**»، قال: وكان أكثر مال أتي به النبي ﷺ، قال: فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة، فلم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة، جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحدا إلا أعطاه، إذ جاء

٨٣٥ الترمذي، الزهد، ٤٤/ ٢٣٧٧.

٨٣٦ البخاري، الأطعمة، ٢٣/ ٥٤١٤.

٨٣٧ البخاري، الأطعمة، ٢٣/ ٥٤١٣.



العباس، فقال: يا رسول الله، أعطني فإني فاديت نفسي وعقيلا، فقال له رسول الله ﷺ: «**خُذ**»، قال: فحثا في ثوبه، ثم ذهب يقله فلم يستطع، قال: فقال: يا رسول الله، مر بعضهم يرفعه علي، قال: «**لا**»، قال: ارفعه أنت علي، قال: «**لا**»، قال: فنثر منه، ثم احتمله فألقاه على كاهله، وانطلق، فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفي عليه عجبا من حرصه عليه، قال: فما قام رسول الله ﷺ وثم منها درهم».[٨٣٨]



لقد بقي سيد الكائنات مفارقاً زوجاته اللاتي –حين مِلْنَ لزينة الدنيا– شهراً كاملاً، محذراً إياهن ببيان القرآن الكريم طالباً منهن الاختيار بين زينة الحياة الدنيا والله تعالى ورسوله والدار الآخرة، وقد نزلت هذه الآيات الكريمة عقب هذه الحادثة المعروفة بالإيلاء:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٨٣٩]

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«**يا عائشة، إني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك**»

قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله، أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله، والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال:

---

٨٣٨ البخاري، الصلاة، ٤٢ ، الجزية ٤، الجهاد ١٧٢ .

٨٣٩ الأحزاب، ٢٨ ـ ٢٩.

«لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معنتاً، ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلما ميسراً».[840]



كان رسول الله ﷺ إذا سافر جعل آخر عهده بإنسان فاطمة وأول من يدخل عليه إذا قدم فاطمة، قال: فقدم من غزاة له فأتاها فإذا هو بمسح على بابها ورأى على الحسن والحسين قلبين من فضة فرجع ولم يدخل عليها، فلما رأت ذلك فاطمة ظنت أنه لم يدخل عليها من أجل ما رأى، فهتكت الستر ونزعت القلبين من الصبيين فقطعتهما فبكى الصبيان فقسمته بينهما، فانطلقا إلى رسول الله ﷺ وهما يبكيان، فأخذه رسول الله ﷺ منهما، فقال:

«يا ثوبان اذهب بهذا إلى بني فلان -أهل بيت بالمدينة- واشتر لفاطمة قلادة من عصب، وسوارين من عاج».[841]

فكان رسول الله ﷺ يحرص على أن يحيى أهل بيته في حال بسيطة متواضعة مستغنين عن الدنيا ليكونوا نموذجاً لأمته.



عن أبي ذر رضي الله عنه قال كنت مع النبي ﷺ فلما أبصر -يعني أحدا- قال: ما أُحُبُّ أنه تحول لي ذهبا يمكث عندي منه دينار فوق ثلاث إلا دينارا أرصده لدين، ثم قال: إن الأكثرين هم الأقلون إلا من قال بالمال هكذا وهكذا، -وأشار أبو شهاب بين يديه وعن يمينه وعن شماله- وقليلٌ ما هم، وقال: مكانك، وتقدم غير بعيد، فسمعت صوتا فأردت أن آتيه، ثم ذكرت قوله «مكانك حتى آتيك»، فلما جاء قلت: يا رسول الله ما الذي سمعتُ -أو قال الصوت الذي سمعت- قال: وهل

٨٤٠ مسلم، الطلاق، ٢٩/ ١٤٧٨.

٨٤١ أبو داوود، الترجل، ٢١/ ٤٢١٣.



سمعت؟ قلت: نعم، قال: أتاني جبريل عليه السلام فقال: من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، قلت: وإن فعل كذا وكذا؟ قال: نعم.[٨٤٢]



أتى النبي ﷺ رجل فقال:

«يا رسول الله! دلني على عمل، إذا أنا عملته، أحبني الله، وأحبني الناس، فقال رسول الله ﷺ:

«**ازهد في الدنيا، يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس، يحبوك**».[٨٤٣]



عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ مَرَّ بالسوق، داخلا من بعض العالية، والناس كنفته، فمر بجدي أسك ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «**أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟**»، فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «**أتحبون أنه لكم؟**» قالوا: والله لو كان حيا، كان عيبا فيه، لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: «**فوالله للدنيا أهون على الله، من هذا عليكم**».[٨٤٤]



وحسبما روي عن عمرو بن عوف رضي الله عنه:

أنّ رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدومه، فوافته صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ، فلما انصرف تعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، وقال:

---

٨٤٢ البخاري، الاستقراض، ٣، الرقاق ١٤؛ مسلم، الزكاة ٣٢.

٨٤٣ ابن ماجة، الزهد، ١/ ٤١٠٢.

٨٤٤ مسلم، الزهد، ٢/ ٢٩٥٧.



«أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة، وأنه جاء بشيء»

قالوا: أجل يا رسول الله، قال:

«فأبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم».[٨٤٥]



وفيما يلي مثال ذو عبرة، يرينا مدى خطورة الغفلة عن الآخرة والتعلق والميل إلى الدنيا:

«روي أن جيشاً للمسلمين غزا من المدينة يريد القسطنطينية وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو، فقال الناس: مه مه!! لا إله إلا الله، يلقي بيديه إلى التهلكة! فقال أبو أيوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه وأظهر الإسلام، قلنا: هلم نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى:

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ...﴾ [٨٤٦]

فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد، قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دُفِنَ بالقسطنطينية».[٨٤٧]



كانت حُجَرُ النبي ﷺ متواضعةً إلى أبعد الحدود، وبما أن أم الحسن البصري جاريةَ أم سلمة زوج النبي ﷺ، فيقول الحسن البصري: «كنت أنال السقف

٨٤٥ البخاري، الرقاق، ٧/ ٦٤٢٥؛ مسلم، الزهد، ٦/ ٢٩٦١.

٨٤٦ البقرة، ١٩٥.

٨٤٧ انظر: أبو داوود، الجهاد، ٢٢/ ٢٥١٢؛ الترمذي، التفسير، ٢/ ٢٩٧٢.



بيدي،[٨٤٨] ويمكن الحديث عن أن حجرات النبي عليه الصلاة والسلام لم تكن طويلة، فقد كانت حُجَرَ أزواج رسول الله مِن جريد النّخل، على أبْوابها الْمُسُوحُ مِن شعر أسود». [٨٤٩]

قال سعيد بن المسيب عندما هدمت حجرات النبي عليه الصلاة والسلام بالمدينة:

«والله لوددتُ أنهم تركوها على حالها ينشأ ناشئ من المدينة، ويقدم قادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته، ويكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر».[٨٥٠]

إن عيش سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام في حجرات ضيقة ليس لحاجة أو فقر، وإنما لعدم اهتمامه ولو قليلا بالحياة الدنيا، وقد كان قادراً على تشييد القصور المزخرفة والأبنية العظيمة من خلال إمساكه بحقه من نصيبه من مال الغنائم فقط، لكنه اختار الفقر والحياة الزاهدة، ولم يكن ليطمئن حتى ينفق الغنائم التي تكون من نصيبه، رحمة بفقراء أمته، وكأنما كان الحق تعالى يتجلى بصفة «**الرحمن**» عليه ﷺ.



كان سليمان عليه السلام يعد نفسه فقيراً لأنه انتزع حبّ المال والملك والسلطة من قلبه، فيقصد الفقراء والغرباء كل صباح ويجلس إليهم بكل تواضع، ويقول: «يليق الفقر بالفقراء».



٨٤٨ ابن سعد، ٧، ١٦١؛ السهيلي، ١، ٢٤٨.

٨٤٩ ابن سعد، ١، ٤٩٩.

٨٥٠ ابن سعد، ١، ٤٩٩ ـ ٥٠٠.

وقيل لسيدنا نوح عليه السلام:

«يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا؟ فقال: كدارٍ لها بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر».[851]

«بنى نوح عليه السلام بيتاً من قصب، فقيل له: لو بنيت غير هذا، فقال: هذا كثير لمن يموت».[852]



عن جابر رضي الله عنه قال:

«بعثنا رسول الله عليه الصلاة والسلام وأمّر علينا أبا عبيدة نتلّقى عيراً لقريش، وزوّدنا جراباً من تمرٍ لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة، قال: فقلت: كيف كنتم تصنعون بها، قال: نمصّها كما يمصّ الصبي، ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنّا نضرب بعصيّنا الخبط ثم نبلّه بالماء فنأكله...».[853]

كان الصحابة الكرام –مع عدم امتلاكهم من الدنيا إلا النزر اليسير الذي لا يكاد يلبّي احتياجاتهم– لا يشتكون من ذلك مطلقاً، ولم يتخلفوا ويتخلوا عن حرصهم وخدمتهم في سبيل الله تعالى.



روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه استسقى فأُتي بإناء فيه ماء وعسل، فلما وضع على يده بكى وانتحب، فما زال يبكي حتى بكى من حولَه، فسألوه ما الذي هيجك على البكاء؟ فقال: كنت مع رسول الله ﷺ وجعل يدفع عنه شيئا ويقول: «**إليكِ**

---

٨٥١ ابن الأثير، الكامل، ١، ٧٣.

٨٥٢ أبو نعيم، الحلية، ٨، ١٤٥.

٨٥٣ مسلم، الصيد، ١٧.



عني إليكِ عني»، ولم أر معه أحدا، فقلت: يا رسول الله، أراك تدفع شيئا ولا أرى معك أحدا، فقال:

«**هذه الدنيا تمثلت لي بما فيها، فقلت لها: إليك عني فتنحت ثم رجعتْ، فقالتْ: أما والله إن أفلتَّ مني فلن ينفلت مني مَن بعدك**»، فخشيتُ أن تكون لحقتني فذاك أبكاني.[٨٥٤]

كان أبو بكر رضي الله عنه قد عاش حياة غاية في التواضع أثناء فترة خلافته، وحتى في وفاته أوصى ببيع بستان يمتلكه، وأن يُرَدَّ ثمنه في بيت المال مقابل المعاش الذي كان يتقاضاه أثناء خلافته من بيت المال.[٨٥٥]



لما كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه في فراش الموت قال لابنته عائشة رضي الله عنها:

«إني لا أعلم في آل أبي بكر من هذا المال شيئاً إلا هذه اللقحة وهذا الغلام الصقيل كان يعمل سيوف المسلمين ويخدمنا ، فإذا متُّ فادفعيه إلى عمر رضي الله عنه، فلما بعثت به إلى عمر، قال: يرحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده».[٨٥٦]



تمّ فتح مدنٍ كثيرة –كسورية وفلسطين ومصر– في خلافة عمر رضي الله عنه، وأضْحت أراضي إيران من أولها إلى آخرها ضمن حدود دولة الإسلام، وبدأت الخزائن الغنية للبيزنطيين والفرس تتدفق على المدينة المنورة مركز العالم الإسلامي آنذاك، وارتفع مستوى العيش لدى المسلمين، إلا أن خليفة المسلمين سيدنا

٨٥٤ أبو نعيم، الحلية، ١، ٣٠ ـ ٣١.

٨٥٥ ابن الأثير، الكامل، ٢، ٤٢٨ ـ ٤٢٩.

٨٥٦ أحمد، الزهد، ص: ١١٠ ـ ١١١؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصر ١٩٦٩، ص: ٧٨ ـ ٧٩.

عمر ﵁ كان يخطب بالمسلمين في لباسه المرقع بقلب مستغنٍ عن هذه الدنيا، على الرغم من عظمة الدولة وغنى بيت المال، وكان في بعض الأحيان يستدين، ويدفع بحياته إلى الهلاك وهو في محنة، لأنه كان يأخذ من بيت المال ما يكفيه لتلبية حوائجه الملحّة ويقضي حوائجه بها بصعوبة.

ولم يعد كبار الصحابة يتحمّلون حاله هذه، ففكروا بزيادة ما يتقاضاه الخليفة من بيت المال، لكنهم لحذرهم من عرض الأمر على الخليفة حدثوا به ابنته حفصة ﵂، والتي كانت زوج النبي عليه الصلاة والسلام، وطلبوا منها أن تعرض الأمر على أبيها من غير ذكر أسمائهم، فأطلعت حفصة ﵂ أباها بالعرض الذي قدمه بعض الصحابة، فقال عمر ﵁ -الذي رأى رسول الله ﷺ يظلّ الْيوم كله يلتوي ما يجد دقلا يملأ بطنُ-:

«يا ابنتي كيف كان حال النبي ﷺ في مأكله ومشربه وملبسه؟» [٨٥٧]

وعندما كان جوابها: بقدر حاجته، قال: إني سأخصمك إلى نفسك، أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش، فما زال يذكرها حتى أبكاها، فقال لها: إن قلت لك ذاك، إني والله لئن استطعت لأشاركنَّهما -أي رسول الله وأبو بكر- بمثل عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرخي». [٨٥٨]

كان أبو ذر الغفاري ﵁ -الذي يعيش حياة زاهدة ومتواضعة، ويحب البقاء بعيداً عن الرفاهية- على الرغم من تخصيص أربعمائة دينار له من بيت المال يستخدم القليل منه ويوزع الباقي على الفقراء.[٨٥٩]



---

٨٥٧ انظر: مسلم، الزهد، ٣٦.

٨٥٨ انظر: أحمد، الزهد، ص: ١٢٥؛ شهبندر زاده أحمد حلمي، تاريخ الإسلام، ١، ٣٦٧.

٨٥٩ أبو نعيم، الحلية، ١، ١٦٣.

بعث حبيب بن أبي سلمة إلى أبي ذر وهو أمير الشام بثلاثمائة دينار، وقال: استعن بها على حاجتك، فقال أبو ذر رحمه الله:

«ارجع بها إليه، أما وجد أحداً أغر بالله منا؟ ما لنا إلا ظل نتوارى به، وثلة من غنم تروح علينا، ومولاة لنا تصدقت علينا بخدمتها، ثم أنا أتخوّف الفضل».[٨٦٠]



وقد لفّ العالمَ الإسلامي بعد الصحابة الكرام حماسٌ إيمانيٌّ بلغ حدا جعل جيش طارق بن زياد البالغ خمسة آلاف يدمر الجيش الإسباني البالغ تسعين ألفاً، فكان طارق يقول لنفسه وقد باتت خزائن الملك تحت أقدامه:

«طارق! كنتَ حتى أمس عبداً مطوّقاً، فأتى عليك يوم أكرمك الله بحريتك، ثم أصبحت قائداً! واليوم فتحتَ الأندلس، وأنتَ الآن في قصر الملك، اعلم جيداً ولا تنس أنّك غداً ستكون بين يدي ربك!».

يا لها من تربية تبلغ بعبد إلى قمة السلطة فلا تدع قلبه يميل إلى مال الدنيا ولو بمقدار ذرة، بل تجعله يحاسب نفسه دائما.



صادف حضرة محمد باريسا -من كبار الأولياء الذين ربّاهم حضرة شاه نقشبندي- وهو في طريقه إلى الحج مارّاً من مدينة بغداد صيرفياً شاباً منوّر الوجه، فقال في نفسه -وقد ظن انشغال الشاب بالدنيا وانهماكه بالبيع والشراء-: «يا للخسارة! إنه غارق بالمشاغل الدنيوية في وقتٍ كان أحرى به أنْ يقضيه بالعبادة!» ولما انتبه رأى وشاهد بِحَيرة أن قلب هذا الشاب الذي يبيع ويشتري الذهب متعلق بالله تعالى. وهذه المرة أُعجب بالشاب قائلاً: «اليد في الربح والقلب مع الحبيب...».

---

٨٦٠ أحمد، الزهد، ص: ١٤٧.



لكن هذه الحال «الخلوة في المجتمع»، يعني التواجد مع الله تعالى حتى أثناء الانشغال بالخلق، والبقاء معه لوحده وأن يعيش بحال الوحدة مع الكثرة.

وعندما وصل محمد باريسا الحجاز التقى برجل مسنٍّ أشيب قد التصق بستار الكعبة وهو يبكي بمرارة وحرقة، ويقول وهو ينظر أولاً إلى توسله بِلَوعة إلى الحق تعالى ومظهره الخارجي:

«ليتني كنت ألتجأ إلى الحق تعالى باكياً على هذا النحو»، غابطاً إياه.

وعندما ينظر إلى قلبه يجد أن كل دعائه وبكائه في سبيل دنيا فانية، وعندها يحزن قلبه الرقيق.

وكما نرى من القصة فإن الزهد بالدنيا ليس بالفقر فقط، وإنما هو سلوك قلبي يجب العيش معه في كل آن، وما يهم هو التمكن من مواصلة المشاغل الدنيوية من دون إهمال للآخرة.



وما أجمل حال وليّ الحق حضرة مولانا إذ يُظهر حياة زهد النبي عليه الصلاة والسلام في حياته هو، بسبب الحب الذي يكنه للنبي عليه الصلاة والسلام:

«كان عندما يأتي بيته ويسأل ماذا يوجد عندنا اليوم؟ يُسَرُّ بسماعه جواب لا يوجد شيء، ويقول: الحمد لله لقد أشبه بيتنا اليوم بيت النبي عليه الصلاة والسلام»

ثم إن حضرة مولانا كان لا يقبل الصدقة والنذر مطلقاً، ويمنع مريديه قطعياً من ذلك ويحثهم على العمل. [٨٦١]



٨٦١ علي نهاد طارلان، مولانا، اسطنبول ١٩٧٤، ص: ٢٩.



رأى مالك بن دينار في منامه يوماً رفعي أحدَ أولياء الله تعالى، كان يركض مكشوف الرأس حافياً، فسأله: أين؟ فقال رفعي: الحمد لله لقد تخلصت من السجن، فلما استيقظ مالك ذهب من فوره إلى بيت رفعي، فرأى أنه قد توفي.

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**».[٨٦٢]



لما ذهب السلطان مراد خان الثاني إلى مانيسا بعد أن تنازل عن السلطة، بدأ يترنم بهذا البيت في صدد توضيح أنه لم يقم بذلك إلا ابتغاء وجه الله تعالى:

فلنصلْ لنذكر ربنا يوماً أو يومين

هل أرسلت هذه الدنيا الكاذبة إلينا



ثم إن أحد أرباب الفؤاد الذين اتخذوا موقفاً زاهداً تجاه المال والملك والمكانة –ممن أظهر عرفان وفضيلة قبول النعم الدنيوية بقصد خدمة عباد الله وليس إرضاءاً لنفسه– كان السلطان يافوز سليم خان، وقد قال يوماً لمن هم تحت إمرته:

«إن كانت رغبتكم الاستمرار في عصيان الأوامر، أعلموني حتى أعزل نفسي من السلطة على الفور، لقد استلمت السلطة عن والدي خدمةً للإسلام وضحيت بشقيقي وأولاد شقيقي في سبيل إصلاح العالم، وعرضت عليكم البيعة فوافقتم، إني أعمل على تأييد الدين المبين، وأتخلى في سبيل ذلك عن النوم والراحة والطمأنينة، فإن لم تكن غايتكم إحياء الإسلام، فأنا أيضاً لست متحمساً للسلطة».



٨٦٢ مسلم، الزهد، ١/ ٢٩٥٦.



وباختصار فإن على العبد قصدَ وطلب رضا الله تعالى خالق كل شيء، فعندما تكون المحبة التي في القلب خاضعة لله تعالى، تتجلى حالة الزهد في العبد، وعندما يظهر الزهد يفقد كل ما كان عائداً إلى النفس من مال وملك قيمته في عين العبد، وبهذا يكون مستقراً في مجراه الطبيعي، لأن محبة الله تعالى التي في القلب لا يسقيها إلا العمل الصالح، وعندها تبدأ الأعمال التي يحبها محبوبه تبعث المتعة في روحه.

١٥ . الصبر والثبات

يأتي الصبر على معان عدة منها المحافظة على التوازن أمام الأحوال المادية والمعنوية المتبدلة، وصيانة الاعتدال، وإظهار التحمل على الابتلاءات، واحتمال المعاناة، ومقاومة المحن والمشاق برباطة جأش، وإبقاء المشاعر البشرية ثابتة في إطار الحدود العقلية والدينية.

والمتانة هي المتانة والثبات أمام كل أنواع المصائب الحالّة بالمرء وقوة التحمل والصلابة.

ثم إن الصبر مركز الأخلاق الحميدة، وشطر الإيمان، ومفتاح السعة والسعادة، وفضيلة عظيمة تصل بالمرء إلى نعم الجنة، والصبر التمتع بالسكينة من دون إفساد التوازن تجاه الحوادث التي تبعث الاستياء وتتسبب بالضيق، والاستسلام للحق تعالى.

لقد كان الأنبياء والأولياء يظهرون نماذج بالغة الروعة في شأن الصبر حتى ظفروا بعون الله تعالى، ولذا فينبغي أن يكونوا قدوتنا في أمر الصبر أيضاً. وإن الناحية الدنيوية للصبر أليمة، وناحيته الأخروية مشرقة، فالذين يتحملون آلام الصبر في صدورهم يصلون إلى دولة الأبدية والتي هي الجنة ويبلغون رضا الله تعالى. وعلى أي حال فإن التفكير بالنعمة والحكمة والجزاء الإلهي لأوامر الله



تعالى ونواهيه يُسَهّل الصبر. وأول شرط الصبر إظهاره في بداية الحادثة التي تستلزمه، فالصبر إن لم يتم إظهاره في وقته لا مكافأة كبيرة له.

إن مكانة الصبر –الذي يدخل في بنية جميع الأخلاق الإسلامية– عظيمة جداً، يتطرق القرآن الكريم في أكثر من سبعين موضع فيه إلى الصبر، ويوصى النبيَّ ﷺ –ومن خلاله جميع أمته– بالصبر في الآيات الكريمة على النحو التالي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [٨٦٣]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٨٦٤]

وقد أصدر محمد حمدي يازِر إلماللي في تفسير هذه الآية هذا البيان:

«وإحدى أسماء الله تعالى الحسنى الاسم الشريف «الصبور»، فمن كان عنده صبر فلديه تجلّ من قدرة الله تعالى، وبالأخص إن اجتمع أصحاب الصبر هؤلاء مع بعضهم، يضحون مظهراً لعون الله تعالى، والله تعالى وليهم ومتوليهم على الدوام».

وغالباً ما تأتي المكافآت الكبيرة عقب الصبر العظيم وتحمّلِ المصيبة والابتلاء، تقول الآية الكريمة:

﴿... إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [٨٦٥]

وقد قال رسول الله ﷺ:

«**الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية**».[٨٦٦]

---

٨٦٣ البقرة: ١٥٣.

٨٦٤ آل عمران: ٢٠٠.

٨٦٥ الزمر: ١٠.

٨٦٦ السيوطي، ٢، ٤٢؛ الديلمي، ٢، ٤١٦.

ويخبرنا عليه الصلاة والسلام إن الله تعالى يقول:

«ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة».[٨٦٧]

«إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة».[٨٦٨]

الصبر من أهم مبادئ ديننا، وامتحان الصبر من أصعب الاختبارات، ولذا يقول أبو بكر رضي الله عنه:

«إن التنعم بالعافية أفضل عندي من التعرض للامتحان والصبر عليه».

صور الفضيلة

كانت حياة النبي عليه الصلاة والسلام من أولها إلى آخرها مليئة بأروع نماذج الصبر، فقد واجه سيدنا ﷺ معاناة كثيرة، وذاق كل أنواع المحن والضيق منذ ولادته إلى حين وفاته، حيث فقد والده قبل ولادته، وحُرِمَ من أمه في السادسة من عمره، ومات جده لما كان في الثامنة من عمره، وعمه أبا طالب الذي كان يحميه في السنة العاشرة من بعثته، وبعد ثلاثة أيام زوجته الحبيبة خديجة رضي الله عنها والتي كانت أكبر سند له في دعوته، وفي غزوة أحد استشهد عمه حمزة سيد الشهداء، وفقد ستة من أولاده السبعة وكثيرا من أحفاده، بعضهم في سنّ صغيرة والبعض الآخر في سنّ البلوغ إذ أرسلهم واحداً تلو الآخر إلى ربه تعالى، وقد دفن بيديه الكثير من أصحابه الذين يكنّ لهم الحب الكبير، وتعرّض لأنواع التعذيب والشتائم والافتراءات، إلى جانب الجوع والفقر، وأصيب بالجراح في المعارك، وابتلي بالأمراض المحمومة، إلا أنه لم تفسد أيٌّ منها متانته وتوازنه، بل كان مثالاً على الصبر والرضا في كل حال.

---

٨٦٧ البخاري، الرقاق، ٦/ ٦٤٢٤.

٨٦٨ البخاري، المرضى، ٧/ ٥٦٥٣؛ الترمذي، الزهد، ٥٨.

ويا ترى كم منَّا وارى الثرى ستة من أولاده؟ وكم منا لفظ أولادُه وأحفادُه أنفاسَهم الأخيرة وماتوا بين يديه؟ وهل من أحد مُزِّقَ بدن عمّه النحيل ومضغت رئته؟ وباختصار هل من أحد ابتلي بأشد مما ابتلي به النبي عليه الصلاة والسلام، ثم أظهر قوة على الصبر ورضى بما قدره الله له كما صبر ورضي رسول الله عليه الصلاة والسلام؟



كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يبلِّغ الإسلام في الأسواق التي كانت تقام في مواسم الحج في عصر الجاهلية، فكان يتعرّض حينها للكثير من المحن والمشاق والإيذاء، وهو يقابل جميعها بالصبر ولا يُظهر أي شكوى، وفي إحدى المرات أتى إلى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى اللَّه، وعرض عليهم نفسه، فقال بحيرة بن فراس (رجل منهم): واللَّه لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، (ثم قام بحيرة) فغمز شاكلة ناقة النبي ﷺ، فقمصَت بالنبي ﷺ فألقته، وعندنا يومئذ ضباعة بِنْت قُرط كانت من النسوة اللاتي أسلمن بعد رسول الله ﷺ بمَكَّة، جاءت زائرة إلى بني عمها فقالت: يا آل عامر ولا عامر لي أيسمع هذا برسول الله ﷺ بين أظهركم، لا يمنعه أحد منكم؟! فقام ثلاثة من بني عمها إلى بحيرة فأخذ كل رجل منهم رجلاً فجلد به الأرض، ثم جلس على صدره، ثم علقوا وجهه لطماً، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**اللهم بارك على هؤلاء**»، فأسلموا وقتلوا شهداء.[٨٦٩]

ويذكر لنا طارق بن عبد الله المحاربيّ ما شاهده من تحمل النبي ﷺ في سبيل تبليغ الإسلام والمشاق التي واجهها بالرضا والصبر، فيقول:

«إني بسوق ذي المجَاز، إذ أنا بإنسان يقول: يا أيها الناس، قولُوا لا إلٰه إلاّ الله تُفْلِحُوا، وإذا رجل خلفه يرميه، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه، ويقول: يا أيها الناس،

٨٦٩ ابن حجر، الإصابة، ٤، ٣٥٣.



إنه كذاب فلا تصدقوه، فقلت: مَنْ هذا؟ فقالوا: محمد، زعم أنه نبي، وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب». [870]



وإحدى الأمثلة التي توضح مدى صبر رسول الله ﷺ يبينها لنا مدرك الأزدي بقوله:

«حججت مع أبي فلما نزلنا منى إذا نحن بجماعة، فقلت لأبي: ما هذه الجماعة؟ قال: هؤلاء القوم الذين اجتمعوا على صابئ لهم، فإذا رسول الله ﷺ يقول: "يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا"، وهم يردون عليه ويؤذونه حتى انتصف النهار وانصدع الناس عنه، أقبلت امرأة قد بدا نحرها تحمل قدحاً ومنديلاً، فتناوله منه، فشرب وتوضأ ثم رفع رأسه، فقال: يا بنية خمري عليك نحركِ ولا تخافي على أبيك، قلنا: من هذه قالوا هذه زينب بنته». [871]

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

قسم رسول الله ﷺ قسمة، فقال رجل من الأنصار: والله ما أراد محمد بهذا وجه الله، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فتمعَّر وجهُه، وقال:

«رحم الله موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

وفي رواية:

«ويلك! ومن يعدل إن لم أعدل، لقد خبت وخسرت إن لم أعدل»

قال أنس: قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً. [872]



---

٨٧٠ الدارقطني، السنن، بيروت ١٩٨٦، ٣، ٤٤ ـ ٤٥.

٨٧١ الهيثمي، ٤، ٢١.

٨٧٢ البخاري، الأدب، ٥٣/ ٦٠٥٩؛ مسلم، الزكاة، ١٤٠، ١٤٢.



ووفق ما يرويه أنس بن مالك ﷺ قال: مرّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال:

«**اتقي الله واصبري**»

قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال:

«**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**».[٨٧٣]



ويقول عبد الله بن مسعود ﷺ:

دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك، فقلت: يا رسول الله، إنك لتوعك وعكاً شديداً؟

قال: «**أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم**»

قلت: ذلك بأن لك أجرين؟ قال:

«**أجل، ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها، إلا كفر الله بها سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها**».[٨٧٤]



قال عبد الله بن مسعود ﷺ:

«كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».[٨٧٥]



---

٨٧٣ البخاري، الجنائز، ٣٢/ ١٢٨٣.

٨٧٤ البخاري، المرضى، ٣، ١٣، ١٦/ ٥٦٤٨؛ مسلم، البر، ٤٥/ ٢٥٧١.

٨٧٥ البخاري، الأنبياء، ٥٤؛ مسلم، الجهاد، ١٠٤.

وكم هي معبرة هذه الحادثة التي ترينا أن جزاء الصبر الجنة:

فعن عطاء بن أبي رباح، قال: قال لِي ابْنُ عَبَّاسٍ:

ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ،فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، قال:

«**إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك**»

فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف، فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها.[٨٧٦]

هذه هي قيمة الصبر عند الحق تعالى على البلاء النازل بالمرء...



عن أبي سعيد الخدري ﷺ في الحديث :

كنت في جماعة فيها ضعفاء المهاجرين، وإن بعضهم ليستتر ببعض من العري، -لعدم وجود ثوب يستر بدنه كله، مستفيدين من ظلال الغير- وقارئ يقرأ علينا ونحن نستمع كتاب الله، فجاء النبي حتى قام علينا فلما رآه القارئ سكت، قال فسلم ثم قال: «**ما كنتم تصنعون؟**». قلنا يا رسول الله كان قارئ يقرأ علينا وكنا نستمع إلى قراءته، فقال النبي:

«**الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم**». [٨٧٧]

ثم جلس وسطنا ليعدل نفسه فينا، ثم قال بيده هكذا فحلق القوم (صنعوا حلقة) وبرزت وجوههم، قال فما رأيت رسول الله عرف منهم أحدا غيري، أن أصبر نفسى معهم، يشير إلى قوله في سورة الكـهف:

٨٧٦ البخاري، المرضى، ٦/ ٥٦٥٢؛ مسلم، البر، ٥/ ٢٥٧٦.

٨٧٧ وبقول النبي ﷺ هذا إشارة إلى آية: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ (الكهف، ٢٨) فقد أمر الله تعالى بهذه الآية رسوله ﷺ أن يصبر مع الفقراء والمحتاجين من أول الداخلين في الإسلام على المشاق التي قد تصيبهم، وأن يكون لطيفاً في معاملتهم للغاية.



﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

ثم قال عليه الصلاة والسلام:

«أبشروا يا معشر صعاليك (فقراء) المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذاك خمسمائة سنة».[٨٧٨]

وهذا هو جزاء الفقراء ذوو الصبر...



قال سيدنا فضالة بن عبيد:

«أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة وهم أصحاب الصفة حتى تقول الأعراب هؤلاء مجانين أو مجانون، فإذا صلى رسول الله عليه الصلاة والسلام انصرف إليهم، فقال:

«لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة»

قال فضالة: وأنا يومئذ مع رسول الله ﷺ».[٨٧٩]



عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء قد ربطوا في أعناقهم منها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته».[٨٨٠]

---

٨٧٨ أبو داوود، العلم، ١٣/ ٣٦٦٦.

٨٧٩ الترمذي، الزهد، ٣٩/ ٢٣٦٨.

٨٨٠ البخاري، الصلاة، ٥٨.

وكما هو واضح فإن الصحابة الكرام –ومن خلال إظهارهم التحمّل بالصبر على شتى أنواع المشاق كالجوع والفقر والحرب والمصيبة– كانوا وسيلة لوصول الإسلام إلى يومنا هذا، وعلينا نحن بدورنا نقل ما على عاتقنا من الأمانة المقدسة للأجيال القادمة بكل اعتناء باتباعنا واقتفائنا لهم.



وعن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال:

«نزل الإسلام بالكره والشدة، فوجدنا خير الخير في الكراهة، فخرجنا مع رسول الله ﷺ من مكة، فجعل لنا في ذلك العلاء والظفر، وخرجنا مع رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى بدر على الحال التي ذكر الله ﷻ تبارك وتعالى:

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ. يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ. وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾[٨٨١]

والشوكة قريش فجعل الله لنا في ذلك العلاء والظفر فوجدنا خير الخير في الكره».[٨٨٢]

وكلمات محمد إقبال التمثيلية فيما يلي تفيد فضيلة وإظهار الصبر والتحمّل على المصاعب حيث يقول:

«كان ثمة غزال يشتكي لغزال آخر قائلاً: سأعيش بعد الآن في الكعبة والحرم، أنام وأصحو هناك، وأرعى، لأن الصيادين قد وضعوا الأفخاخ في

٨٨١ الأنفال:٥ ـ ٧.

٨٨٢ الهيثمي، ٧، ٢٦ ـ ٢٧.



السهول، يتجولون متعقبين آثار الغزلان ليلاً ونهاراً، وإني أريد أن أتخلص من همِّ الصياد بعد الآن، وليجد قلبي السكينة والطمأنينة!..»

وأما الغزال الآخر الذي كان يستمع لهذا فقد رد عليه:

«يا صديقي العاقل! إن كنت تريد العيش فعش داخل الخطر، واضرب نفسك بحجر الشحذ على الدوام، وعش أَحَدَّ من السيف نظيف الجوهر! فإن كلاً من الخطر والقوة يمتحن القدرة، فإن ذلك هو ما يعلمنا ما هي قادرة عليه الأجسام والأنفس».



وخلاصة القول فإن الصبر كنز ثمين في أعماق الإنسان، وأمتن درع أمام البلاء والمصائب، وخصلة عليّة أرضت الله تعالى وتستلزم مكافآته الكبيرة التي وعد بها، وهي ببيان رسول الله ﷺ تضيء دنيا الإنسان وعقباه في آخرها بقوله: «...**الصبر ضياء**...».[883]

١٦ . الحمد والشكر

ومن الشكر حَمْدُ عظمة الحق تعالى اللامتناهية والثناء على صفاته الجليلة وأفعاله وصنعته البديعة، والمدح والثناء لساناً وفعلاً وقلباً مقابل لطائفه اللامعدودة ونعمه ومنّه، فكلٌّ من اللفظين قريب من الآخر باعتبار المعنى.

فيختص الحق تعالى بكل تعظيم وحمد دون غيره، وحمد الله تعالى على نعمه كلها إحدى وظائف عبودية المسلم، ومع أن الحمد وفاء لدَين العبودية فإنه للطف وإحسان عظيمين إخبار الله تعالى إيانا برضاه عن العبد الحامد،[884]. وصورة لرحمته الأبدية.

---

٨٨٣ مسلم، الطهارة، ١/ ٢٢٣.

٨٨٤ انظر: مسلم، الذكر، ٨٩.



وبناء على ما ورد في الآية فإن الله تعالى هو الذات الوحيدة المستحقة للحمد:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ...﴾ [885]

ويطلب الحق تعالى من عباده أن يحمدوه في كل أحوالهم، فيقول:

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ...﴾ [886]

﴿...وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [887]

وتُلقِنُنا الآية الأولى من الفاتحة التي نقرأها في كل ركعة من الصلاة الحمد:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

وبالفعل فإنه من غير الممكن تأمّل الخير من عمل وتصرف من غير حمد الله تعالى، يقول النبي ﷺ منبهاً إيانا نحن أمته:

«**كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم**».[888]

والحمد في الوقت نفسه يُعَدُّ ذكراً مهماً، حيث يبين النبي عليه الصلاة والسلام فضل الحمد على النحو التالي:

«**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها**».[889]

---

٨٨٥ الأنعام: ١.

٨٨٦ الإسراء: ١١١.

٨٨٧ يونس: ١٠.

٨٨٨ أبو داوود، الأدب، ١٨/ ٤٨٤٠.

٨٨٩ مسلم، الطهارة، ١/ ٢٢٣؛ الترمذي، الدعوات، ٨٥/ ٣٥١٧.

والشكر من إحدى وظائف العبودية كالحمد تماماً، وهو تعبد العبد برضاً منه لربه تعالى المحسن بالنعم والفضائل مقابل ما مَنَّ به عليه، وذلك بأنواع الكلام والتصرفات المخلصة، وهذا يثبت لنا أنّ الشكر هو معرفة صاحب النعمة الحق.

ثم إن معرفة أن النعم التي نالها العبد من لطف الله تعالى والتعبير باللسان عن الشكر غير كاف ليكون العبد شاكراً بحق، بل من الضروري القيام بالعبادات الواجبة لربنا تعالى والتخلق بمحاسن الأخلاق، والمسارعة إلى أداء الأعمال الصالحة.

وفي الحقيقة فإن كلاً من «الحمد والشكر» الذي يُعد موجب طبيعي لكون الإنسان «أشرف المخلوقات» المكوّن رأس الهرم في الهرم التسلسلي –من أبسط المخلوقات إلى أكملها– أحَدُ أعمق وأهمّ أمور الدين، يقول رسول الله ﷺ:

«...**الشكر شطر الإيمان**».[٨٩٠]

إنّ كل إنسان محافِظٍ على عزّته وأصالته الموجودة في خلقته يشعر بأنه مدينٌ بشكرٍ لمن تفضّل عليه ولو بكوب من الماء، فما بالك بواجب الإنسان تجاه الله تعالى منبع جميع النعم والكرم، فمن أعرض عن شكر الله تعالى و نسي فضله عليه فهو بليد الحس متحجر الفؤاد، ينكر النعمة ويجحد الفضل لأهله.

وعلى الرغم من هذا فإن الكثير للأسف يغفلون عن النعم اللامعدودة التي مَنَّ الله بها عليهم، وبسبب هذه الغفلة العميقة عند الناس يقول ربنا تعالى:

﴿...**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾[٨٩١]

إن عدم الشكر حالة لا ترضي ربنا، وتؤدي إلى زوال النعم التي تفضل ربنا تعالى بها، وقد قال الحق تعالى:

---

٨٩٠ السيوطي، ١، ١٠٧.

٨٩١ سبأ: ١٣.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[892]

﴿...لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[893]

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[894]

صور الفضيلة

روي أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدته قال:

«**الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه، غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا**».[895]



وقال رسول الله ﷺ:

«**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها**».[896]



عن أنس رضي الله عنه قال:

عطس عند النبي ﷺ رجلان، فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر، فقال الذي لم يشمته: عطس فلان فشمته، وعطست أنا فلم تشمتني، قال:

«**إن هذا حمد الله، وإنك لم تحمد الله**».[897]

---

٨٩٢ البقرة، ١٥٢.

٨٩٣ إبراهيم، ٧.

٨٩٤ لقمان، ١٢.

٨٩٥ البخاري، الأطعمة، ٥٤/ ٥٤٥٨؛ أبو داوود، الأطعمة، ٥٢.

٨٩٦ مسلم، الذكر، ٨٩/ ٢٧٣٤؛ الترمذي، الأطعمة، ١٨.

٨٩٧ البخاري، الأدب، ١٢٧، مسلم، الزهد، ٥٣/ ٢٩٩١.



وقد رأى فخر الكائنات ﷺ على عمر رضي الله عنه ثوبا أبيض، فقال:

«أجديد ثوبك أم غسيل؟»

فقال: فلا أدري ما رد عليه، فقال النبي ﷺ:

«البس جديداً، وعش حميداً، ومت شهيداً».[٨٩٨]

فبيانات وتصريحات النبي عليه الصلاة والسلام الإعجازية، كانت تتحقق كما هي في أوقاتها، وقد مات سيدنا عمر رضي الله عنه كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام شهيداً.



إنّ مما لا شك فيه أنّ من أهمّ الأعمال التي يقوم به العبد إنما هو حمد الله تعالى وشكره، يقول عليه الصلاة والسلام في بعض أحاديثه الشريفة التي توضح فضيلة الحمد:

«أن عبداً من عباد الله قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، فعضلت بالملكين، فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء، وقالا: يا ربنا، إن عبدك قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها، قال الله عز وجل: وهو أعلم بما قال عبده: ماذا قال عبدي؟ قالا: يا رب، إنه قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فقال الله عز وجل لهما: «اكتباها كما قال عبدي، حتى يلقاني فأجزيه بها».[٨٩٩]

أكرمنا الله جميعا بالتضرع إليه سبحانه بهذا الدعاء مخلصين صادقين!



---

٨٩٨ أحمد، ٢، ٨٩/ ٥٦٢٠.

٨٩٩ ابن ماجة، الأدب، ٥٥/ ٣٨٠١.

كان أبو هريرة ﷺ يقول:

«نشأت يتيماً، وهاجرت مسكيناً، وكنت أجيراً لبسرة بنت غزوان بطعام بطني، كنت أخدمهم إذا نزلوا، وأحدو لهم إذا ركبوا، وها أنا ذا وقد زوجنيها الله، فالحمد لله الذي جعل الدين قواماً، وجعل أبا هريرة أماماً».[٩٠٠]



قالت عائشة ﷺ:

«قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي فقال: «**يا عائشة! ذريني أتعبد لربي**»، قالت: قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما يسرك، قالت: فقام، فتطهر ثم قام يصلي فلم يزل يبكي حتى بلَّ حجره، ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلَّ الأرض، وجاء بلال يؤذنه بالصلاة فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله! تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال:

«**أفلا أكون عبدا شكورا؟ لقد نزلت عليَّ الليلةَ آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها:**

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٩٠١]».[٩٠٢]



٩٠٠ ابن ماجة، الرهون، ٥/ ٢٤٤٥.

٩٠١ آل عمران، ١٩٠ ـ ١٩١.

٩٠٢ ابن حبان، ٢، ٣٨٦.



كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيره محروما من النعم التي عنده يشكر الله تعالى من فوره، وقد روي عن ابن عمر أن النبي عليه الصلاة والسلام مرَّ به رجل به زمانةٌ فنزل فسجد.[٩٠٣]

وعلامة حب رسول الله ﷺ الاقتداء به في أحواله، فكم مرّة خررنا نحن ساجدين شكراً تجاه الصور المليئة بالعبرة التي نصادفها كل يوم في حياتنا؟!

❀

يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

خرجنا مع رسول الله من مكة نريد المدينة، فلما كنا قريباً من عزوزاً نزل، ثم رفع يديه، فدعا الله ساعة، ثم خرّ ساجداً، فمكث طويلاً، ثم قام فرفع يديه فدعا الله تعالى ساعة ثم خرّ ساجداً فمكث طويلاً، ثم قام فرفع يديه ساعة ثم خرّ ساجداً ثلاثاً، قال:

«إني سألت ربي وشفعت لأمتي، فأعطاني ثلث أمتي، فخررت ساجداً شكراً لربي ثم رفعت رأسي، فسألت ربي لأمتي فأعطاني ثلث أمتي فخررت ساجداً لربي شكراً، ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي فأعطاني الثلث الآخر فخررت ساجداً لربي».[٩٠٤]

إن البشرى التي سَرَّتْ سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام إلى هذا الحد هنا، ودفعته إلى سجدة الشكر، إنما هي عدم بقاء العصاة ممن ارتكبوا الكبائر من أمته في جهنم إلى الأبد، ودخولهم الجنة حتى لو عوقبوا بذنوبهم تلك بشفاعته، وأما وأصحاب الصغائر فقد يصفح الله عنهم من دون تعرّضهم لأي جزاء، وأما دخول من لم يكن لهم نصيب من الإيمان الجنة فليس بموضوع بحثنا.



---

٩٠٣ الهيثمي، ٢، ٢٨٩.

٩٠٤ أبو داوود، الجهاد، ١٦٢/ ٢٧٧٥.



يبين عبد الرحمن بن عوف ﵁ حادثة توضح اهتمام النبي ﷺ بشكر الله تعالى مقابل إكرام وإحسانه وفضله علينا سبحانه، فيقول:

«دخلت المسجد ورسول الله ﷺ خارجٌ من المسجد، فتبعته أمشي وراءه وهو لا يشعر، حتى دخل نخلا فاستقبل القبلة فسجد فأطال السجود، وأنا وراءه حتى ظننت أن الله قد توفاه، فأقبلت أمشي حتى جئته فطأطأت رأسي أنظر في وجهه فرفع رأسه، فقال:

«**ما لك يا عبد الرحمن؟**»

فقلت: لما أطلت السجود يا رسول الله خشيت أن يكون توفي نفسك، فجئت أنظر فقال:

«**إني لما دخلت النخل لقيت جبرائيل، فقال إني أبشرك أن الله يقول من سلم عليك سلمت عليه، ومن صلى عليك صليت عليه**».[٩٠٥]



من المؤكد أن جميع النعم التي نتقلب فيها ليل نهار إنما هي من قبل الله تعالى، لكن شكر من كان وسيلة لوصول هذه النعم إلينا من موجبات الوفاء واللطف. قال رسول الله ﷺ:

«**من صُنع إليه معروف، فقال لفاعله: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء...**».[٩٠٦]



عن عائشة ﵂ قالت:

«كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يقول لي: «**ما فعلت أبياتك؟**» فأقول: أي أبيات تريد؟ فإنها كثيرة فيقول: «**في الشكر**»، فأقول: نعم بأبي وأمي، قال الشاعر:

٩٠٥ الحاكم، ١، ٣٤٤_٣٤٥/ ٨١٠.

٩٠٦ الترمذي، البر، ٨٧/ ٢٠٣٥



ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه يومـــاً فيدركك العواقب قد نما
يجزيك أو يثني عليك وإن مــن أثني عليك بما فعلت كمن جزى
إن الكريم إذا أردت وصالـــــه لــم تلف رثا حبله واهي القوى

قالت: فيقول:

«**نعم يا عائشة، أخبرني جبريل، قال: إذا حشر الله الخلائق يوم القيامة، قال لعبد من عباده: اصطنع إليه عبد من عباده معروفاً، فهل شكرته؟ فيقول: أي رب علمت أن ذلك منك فشكرتك، فيقول: لم تشكرني إذا لم تشكر من أجريت ذلك على يديه**».[٩٠٧]

ويبين سيد الكائنات عليه الصلاة والسلام في حديث آخر العلاقة القريبة بين شكر الله تعالى وشكر من أحسن إليه من الناس على النحو التالي:

«**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**».[٩٠٨]



وقد ذكر النبي عليه الصلاة والسلام القلب الشاكر بين أعظم النعم الموهوبة للإنسان رضي الله عنه، إذ يقول ثوبان رضي الله عنه: لما نزلت ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة**﴾ قال: كنا مع النبي عليه الصلاة والسلام في بعض أسفاره، فقال بعض أصحابه: أنزل في الذهب والفضة ما أنزل لو علمنا أي المال خير فنتخذه، فقال:

«**أفضله لسانٌ ذاكر وقلبٌ شاكر وزوجةٌ مؤمنة تعينه على إيمانه**».[٩٠٩]



---

٩٠٧ علي المتقي، ٣، ٧٤١ ـ ٧٤٢.

٩٠٨ أبو داوود، الأدب، ١١/ ٤٨١١؛ الترمذي، البر، ٣١.

٩٠٩ الترمذي، التفسير، ٩/ ٣٠٩٤.



كان داوود عليه السلام كثير الشكر لربه، روي في الأثر: أنّ داوود عليه السلام قال: يا رب، كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك علي؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود،.[910] أي: حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم.



روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقي رجلاً مؤمناً يقول:

«اللهم اجعلني من الأقلين، فقال عمر: ما هذا؟! فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، إن الله عز وجل قال: ﴿...وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾».[911]



لما كان الجنيد البغدادي في السابعة من عمره أخذه خاله السري السقطي إلى الحج، وقد كانوا يتكلمون في إحدى مجالس العرفان داخل الحرم عن الشكر، وبعدما قدّم كل العارفين هناك حكمهم، التفت السري السقطي إلى الجنيد طالباً منه التكلم هو أيضاً، فيجيب الجنيد بعد فترة من الصمت بهذا الجواب الرائع: «الشكر ألا تعصي الله بنعمه».[912]



وفي شأن الشكر ثمة مقابلة ذات حكمة جرت بين شقيق البلخي وإبراهيم بن أدهم، حيث قال شقيق البلخي إبراهيم بن الأدهم:

«ما تقول في الصبر والشكر؟ قال شقيق: إنا قوم نصبر عند البلاء، ونشكر في الرخاء، قال: هذا ما تفعله كلاب بلخ، قال: فما تقول أنت قال: إنا قوم نصبر عند الرخاء ونشكر في البلاء».



---

٩١٠ ابن كثير، قصص الأنبياء، بيروت، دار الكلام، ص: ٥٢٤.

٩١١ ابن أبي شيبة، المصنف، ٧، ٨١.

٩١٢ فريد الدين عطار، ص: ٣١٨.



ليس من الممكن تأدية شكر النعم التي مَنَّ الله بها كما يجب، لكنْ إن حمدنا وشكرنا بكل ما في وسعنا فإن الحق تعالى يرضى عنا بقبوله قليلنا كثيراً. رؤي بشر الحافي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، وأباح لي نصف الجنة، وقال لي: يا بشر، لو سجدت لي على الجمر ما أديتَ شكر ما جعلتُ لك في قلوب عبادي.[٩١٣]



لقد غلب بارباروس خير الدين باشا أندريا دوريا في برفيزة، وقد تمكن أندريا دوريا بصعوبة من النجاة بنفسه بفراره تاركاً أسطوله البحري والندم يلفه.

ثم إن بارباروس قد أخذ مراكب العدو وقد تحطمت أشرعتها، وفيها عشرات الآلاف من الأسرى، من سارايبورنو إلى هاليج، وكان البحر كله مغطىً بمراكب العدو المليئة بالأسرى.

وكان قانوني والوزراء والسادة (الباشاوات) يشاهدون هذا المنظر المذهل من أمام قصر ساحلٍ لم يعد موجوداً الآن في سارايبورنو، فقال أحد السادة متحمساً:

«مولاي! كم هي عدد المرات التي تمكن فيها العالم من مشاهدة هذا المنظر؟ فمهما بلغ بكم الفخر فإنه يعتبر قليلاً!»

وأما خاقان قانوني العظيم فقد أجاب بقوله:

«أيها الباشا! أينبغي علينا التفاخر أم حمد ربنا العظيم وشكره سبحانه أن وهبنا هذا الظفر؟!».

يا لها من تربية إسلامية عظيمة، وما أعظمه من عالم قلبي سامٍ...



---

٩١٣ القشيرية، الرسالة، بيروت ١٩٩٠، ص: ٤٠٦.



وباختصار فإن عيش كل لحظاتنا بأحاسيس الحمد والشكر لَهو من أجل وظائف العبودية وأهمها، وأداؤنا لهذه الوظيفة المهمة ستقربنا في الوقت نفسه إلى الله تعالى، وستكون وسيلة إلى زيادة النعم التي بنا، وما أجمل ما يقوله حضرة مولانا-رحمه الله-:

«إن شكر النعم محبب أكثر من النعمة، فهل يتوجه من يحب الشكر تاركاً إياه إلى ناحية النعم؟ والشكر روح النعمة، والنعمة كالجلد والقشرة، لأن الشكر فقط هو الذي يجعلك تقصد باب الصديق، ثم إن النعمة قد تورث في الإنسان الغفلة بدلاً عن اليقظة، لكن الشكر يورث اليقظة على الدوام، فكن عاقلاً واصطد النعمة الحقيقية من خلال نعمة الشكر!».

١٧ . الشجاعة

وتأتي الشجاعة لمعانٍ منها عديدة منها البسالة والبطولة ومتانة القلب وإظهار الجسارة في الشدائد وفي غمرة المهالك، وهي حالة معتدلة بين قوة الغضب والحدّة وما يضادها من الجبن.

وأساس الشجاعة الرضا والاستسلام لقضاء الله تعالى، ولذا فلا يليق الجبن والتخاذل والضعف بالمسلم الذي يؤمن باليوم الآخر ويتوكل على الله تعالى.

فعن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن اللهُ في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت».[٩١٤]

٩١٤ أبو داوود، الملاحم، ٥/ ٤٢٩٧.

وهذا يعني أنه عندما يستولي حب الدنيا وكراهية الموت والخوف منه على القلوب تخرج الشجاعة والجسارة منها، ليقع عندها المؤمنون في الذلة والهوان، وبهذا لا يبقى لهم أيّة عزة وكرامة أمام أعدائهم.

صور الفضيلة

يتعذر تصور أن يكون ثمة أحد ما ذو شجاعة أعظم من رسول الله ﷺ، حيث إنه يُظهر الصبر والثبات حتى في الأحوال الاستثنائية، ولا يقوم بتصرفات غير مناسبة باستسلامه للخوف والاضطراب.

أتى جبريلُ رسولَ الله ﷺ وأمره أن يهاجر إلى المدينة، ولما علم مشركو قريش بالأمر، واجتمعوا يتطلعون من صير الباب ويرصدونه يريدون ثيابه، فخرج رسول الله ﷺ عليهم وهم جلوس على الباب فأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذرها على رؤوسهم ويتلو يس والقرآن الحكيم حتى بلغ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ومضى رسول الله ﷺ.[٩١٥]



وعن علي رضي الله عنه قال:

«لقد رأيتني يوم بدر، ونحن نلوذ بالنبي عليه السلام، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذٍ بأساً».[٩١٦]

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال:

«ما رأيت أحداً أجود ولا أنجد ولا أشجع ولا أوضأ من رسول الله ﷺ».[٩١٧]



٩١٥ ابن سعد، ١، ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

٩١٦ أحمد، ١، ٨٦.

٩١٧ ابن سعد، ١، ٣٧٣.



لما كان يوم أحد خرج رجل من المشركين على بعير له فدعا للبراز، فأحجم عنه الناس حتى دعا ثلاثاً، فقام إليه الزبير، فوثب حتى استوى معه على البعير ثم عانقه، فاقتتلا فوق البعير، فقال رسول الله: الذي يلي حضيض الأرض مقتول، فوقع المشرك، فوقع عليه الزبير فذبحه، فأثنى عليه رسول الله، وقال: لكل نبي حواري، وإن حواريَّ الزبير، وقال: لو لم يبرز إليه الزبير لبرزت إليه» لما رأى من إحجام الناس عنه». [918]



كان أُبي بن خلف من ألدّ أعداء الإسلام، يلقى رسول الله ﷺ بمكة فيقول: يا محمد إن عندي العوذ فرساً أعلفه في كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليه، فيقول رسول الله ﷺ:

«**بل أنا أقتلك إن شاء الله**».

أقبل أبي بن خلف يوم أحد إلى النبي ﷺ يريده، فاعترض رجال من المؤمنين وهو يقول: لا نجوت إن نجوت، فقال القوم: يا رسول الله يعطف عليه رجل منا، فقال رسول الله ﷺ: دعوه، فأمرهم النبي ﷺ فخلوا سبيله، فلما دنا منه تناول رسول الله الحربة من أحد الصحابة فلما أخذها رسول الله انتفض انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله النبي ﷺ فطعنه في عنقه تداداً منها مراراً، فلما رجع إلى قومه، وقد خدشه الرسول بالحربة خدشاً غير كبير قال: قتلني والله محمد، قالوا له: ذهب والله فؤادك، والله ما بك من بأس، قال: إنه قد كان قال بمكة أنا أقتلك فوالله لو بصق علي لقتلني، فكان هذا الشقي الوحيد الذي قتله رسول الله بيده الكريمة، فمات إلى النار فسحقاً لأصحاب السعير. [919]



٩١٨ الحلبي، إنسان العيون، مصر ١٩٦٤، ٢، ٢٣٥.

٩١٩ ابن إسحاق، ص: ٨٩؛ ابن سعد، ٢، ٤٦؛ الحاكم، ٢، ٣٥٧.



يقول محمد بن مسلمة:

«سمعت بأذناي ورأيت بعيناي، لما تفرّق المسلمون في أحد، وكانوا يهربون نحو الجبل، ورسول الله ينادي من وراءهم: «إليّ يا فلان، إليّ يا فلان، أنا رسول الله». [٩٢٠]

ويقول الحق تعالى في صدد بيان هذه الحقيقة وكيف كان رسول الله يدعو الصحابة للثبات معه بكل بسالة وشجاعة:

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ...﴾ [٩٢١]



كان المسلمون والمشركون سيتقاتلون مجدداً رأس الحول بموجب الهدنة المعقودة يوم أحد، وبمقتضى هذه الهدنة أتى أبو سفيان حتى موقع مرّ الظهران على رأس جيشه، إلا أنه أحاط الخوف أيضاً بقلبه مما أجبره على الرجوع، لكن عزة نفسه أبت أن يعود، فبعث رجلاً إلى المدينة فأخبرهم بجمع أَبِي سُفْيَان لهم وما معه مِن العدة والسلاح قاصداً بذلك دَبَّ الرعب في قلوب المسلمين، وبالتالي منعهم من الخروج.

ولما وصل الخبرُ المدينةَ كان رسول الله ﷺ قد فرغ من استعدادات المعركة، بل وأعطى الأمر بسيرهم إليها، وبما أنّ رسول أبي سفيان كان على علم بخوف أبي سفيان ورجوعه فقد عمل جاهداً لكي يمنع خروج المسلمين إلى الغزو بتخويفه المسلمين من المعركة، مضيفاً إلى الكذب الموكل بإشاعته الجديد من الكذب، بإخباره أن المسلمين إن خاضوا المعركة مع مشركي مكة خارج المدينة ستكون عاقبتهم وخيمة جداً، فوقع الخوف في قلوب بعض

٩٢٠ الواقدي، ١، ٢٣٧.

٩٢١ آل عمران: ١٥٣.

المسلمين نتيجة جهوده ومحاولات المنافقين فبدأوا برفض الخروج للمعركة، فَقَالَ رَسُول اللَّهِ ﷺ عندئذ:

«**والذي نفسي بيده لأخرجنّ وإن لم يخرج معي أحد!**»، فنصر اللَّه المسلمين وأذهب عَنْهُمُ الرعب.[٩٢٢]



وحنين إحدى المواضع التي أظهر فيها النبي ﷺ الشجاعة أيضاً، حيث كان النبي ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار لما ولّى المسلمون مدبرين.[٩٢٣]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان، وغيرهم بذراريهم ونعمهم، ومع النبي ﷺ يومئذ عشرة آلاف، ومعه الطلقاء، فأدبروا عنه، حتى بقي وحده، قال: فنادى يومئذ نداءين، لم يخلط بينهما شيئا، قال: فالتفت عن يمينه، فقال: «**يا معشر الأنصار**» فقالوا: لبيك، يا رسول الله، أبشر نحن معك، قال: ثم التفت عن يساره فقال: «**يا معشر الأنصار**» قالوا: لبيك، يا رسول الله، أبشر نحن معك، قال: وهو على بغلة بيضاء، فنزل فقال: «**أنا عبد الله ورسوله**»، فانهزم المشركون،...».[٩٢٤]



جاء رجل إلى البراء بن عازب رضي الله عنه وقال:

«أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة! فقال: أشهد على نبي الله عليه الصلاة والسلام ما ولى، ولكنه انطلق إخفاء من الناس وحسر إلى هذا الحي من هوازن وهم قوم رماة فرموهم برشق من نبل كأنها رجل من جراد، فانكشفوا، فأقبل القوم

---

٩٢٢ ابن سعد، ٢، ٥٩؛ الواقدي، ١، ٣٨٦ـ٣٨٧.

٩٢٣ مسلم،الجهاد، ٧٦.

٩٢٤ البخاري، المغازي، ٥٦، مناقب الأنصار، ١؛ مسلم، الزكاة، ١٣٥/ ١٠٥٩.



إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلته، فنزل ودعا واستنصر، وهو يقول: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، اللهم نزل نصرك**»

قال البراء: كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به يعني النبي عليه الصلاة والسلام».[٩٢٥]



عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«كان رسول الله ﷺ أشجع الناس وأحسن الناس وأجود الناس، قال: فزع أهل المدينة ليلة، فانطلق رسول الله ﷺ قِبَلَ الصوت، فتلقاهم رسولُ الله ﷺ وقد سبقهم، وهو يقول: لن تُراعوا، وهو على فرس لأبي طلحة عري في عنقه السيف، قال: فجعل يقول للناس لن تراعوا، وقالٌ: وجدناه بحراً أو أنه البحر يعني الفرس».[٩٢٦]



وروي أن رسول الله أخذ سيفاً يَومَ أُحد، فقال:

«**مَن يأخذ مني هذا؟**»

فبسطوا أيديهم، كل إنسان منهم يقول: أنا، أنا، قال:

«**فَمَن يأخذه بحقه؟**»

قال فأحجم القوم. فقال أبو دجانة: أنا آخذه بحقه. قال: فأخذه ففلق به هام المشركين.[٩٢٧]

ولما أخذ أبو دجانة السيف قال أحد الصحابة: وما حقه يا رسول الله؟ قال:

---

٩٢٥ مسلم، الجهاد، ٧٩/ ١٧٧٦؛ البخاري، المغازي، ٥٤، الجهاد، ٥٢، ٦١، ٩٧.

٩٢٦ البخاري، الأدب، ٣٩؛ ابن سعد، ١، ٣٧٣.

٩٢٧ مسلم، فضائل الصحابة، ١٢٨/ ٢٤٧٠.



«أن تضرب به العدو حتى ينحني»

قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، فأعطاه إياه، فلما أخذ السيف من رسول الله أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دجانة:

«إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن».[928]



وقد روي أن رسول الله ﷺ خرج إلى الخندق فجعل نساءه وعمته صفية في أطم يقال له فارع، وجعل معهم حسان بن ثابت، وخرج رسول الله ﷺ إلى أحد، فرقى يهودي حتى أشرف على نساء رسول الله ﷺ وعلى عمته، فقالت صفية: يا حسان قم إليه حتى تقتله، قال: والله ما ذاك فيّ، ولو كان ذاك فيّ لخرجت مع رسول الله ﷺ، قالت صفية: فاربط السيف على ذراعي ثم تقدمت إليه حتى قتلته، وقطعت رأسه، فقالت له: خذ الرأس فارم به على اليهود قال: ما ذلك فيّ فأخذتْ هي الرأس فرمت به على اليهود، فقالت اليهود: قد علمنا أن محمداً لم يكن يترك أهله خلوفاً ليس معهم أحد فتفرقوا وذهبوا.[929]



قال خالد بن الوليد رضي الله عنه:

«لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية».[930]



---

٩٢٨ ابن هشام، ٣، ١١ ـ ١٢.

٩٢٩ الهيثمي، ٦، ١٣٣ ـ ١٣٤؛ الواقدي، ٢، ٤٦٢.

٩٣٠ البخاري، المغازي، ٤٤.



كان الصوفي الكبير حضرة نجم الدين كبرى المتّبع خطى النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه من بعده، لما تعرّض بلده خوارزم إلى الاحتلال من قِبل المغول قد ثار مع تلامذته ببطولة نادرة وقاتل حتى استشهد، فأضحى الذين جعلوا تمني الشهادة في ثقافة التصوف ورداً، وأقاموا في الثغور لتوفير أمن المقاتلين، وقدموا نماذج في البسالة والشجاعة، أضحوا أهم ممثلي الشجاعة والإقدام.



كان جيش التحالف الصليبي –الذي اجتمعت غايته على القضاء على العثمانيين وإنقاذ البيزنطيين واستعادتهم والاستيلاء على القدس الموجودة في أيدي المسلمين– قد دخل الأراضي العثمانية وحاصر قلعة نيغ بولو الواقعة على ساحل نهر طونا. ولما بلغ الخبر مسامع يلدرم بيازيد وصل قريباً من نيغ بولو بسرعة البرق، حتى إنه تسلل ببراعة بين صفوف العدو لوحده ممتطياً جواده منتصف الليل، كي يُعلمهم بأنه ليس عليهم تسليم القلعة، فلما تجاوز الجيش نادى قائد القلعة من أسفلها: «يا دوغان! يا دوغان!..»

فأجاب القائد الذي سمع صوت السلطان من فوق السور وقد عرفه على الفور قائلاً: «تفضل يا سيدي!..»

فأعلمه يلدرم بيازيد خان بتعليماته باختصار، وقد قال:

«دوغان! لقد أتيت بجيشي فاهدأ وإياك وتسليم القلعة!»، وسرعان ما عاد أدراجه بعدها مختفياً في جنح الظلام.

وانتهت المعركة الدامية التي قامت مع جيش الصليبيين الحاشد في اليوم التالي بنصر مؤكد ليلدرم بيازيد، وقد كانت جميع الدول الأوروبية الصغرى والكبرى قد أمدت جيش الصليبيين بجنود منها، ومنهم عشرة آلاف محارب من المحاربين الفرنسيين، كانوا يتفاخرون بقولهم: «إن سقطت السموات فإنا نمسكها برماحنا»، إلا أن الصليبيين لم يصمدوا وقد ذابوا أمام الحملات الممتلئة



بالإيمان، وقد وقع يومها يلدرم بيازيد مِن على حصانه الذي أصيب كما أصيب هو بجراح في العديد من مواضع جسمه، لكنه لم يلتفت لجراحه وامتطى جواداً آخر، وأدارَ المعركة بكل ما أوتي من قوة حتى أصبح النصر حليفه.



لقد أَسَرَ يلدرم بيازيد الكثيرَ من النبلاء الأشراف والمحاربين في ظفر نيغ بولو، وكان بين الأسرى محارب الفرنسيين المعروف والذي لا يعرف الخوف (جان)، فخلّى يلدرم بيازيد خان سبيلهم مقابل افتدائهم أنفسهم، إضافة إلى إكرامه إياهم جميعاً في يوم عودتهم إلى بلادهم، فقال جميع المحاربين وقد خجلوا إلى أبعد الحدود بعد التفكير في معاملتهم السيئة وظلمهم لأسرى المسلمين مقابل المعاملة الإنسانية التي لاقوها من السلطان:

«نقسم بشرفنا أننا ومنذ هذه اللحظة لن نتعرض لسلطان أناضول و»روملي» يلدرم بيازيد خان، ولن نحمل السلاح في وجهه!..».

فقال السلطان العظيم يلدرم بيازيد خان الذي يعد نموذجاً في البسالة أمام الكفار مضيفاً على كلماتهم التي قالوها تحت وطأة تفضله هذا، وبصوت جهوري مخاطباً المحاربين:

«ليرجع جان –صاحب اللقب المعروف في أوروبا بأنه لا يعرف الخوف– وأصدقاؤه عن قولهم، وليرفعوا السلاح مرة أخرى في وجه السلطان، وليذهبوا، ويجمعوا الجيوش من جديد وليزحفوا نحوي، لكن لتكونوا على علم بأن فعلكم هذا يُيَسِّر لي فرصة للفوز والنصر مرة أخرى، لأنني سلطانٌ أحمل في طيات نفسي حسّا أنني ولدت في هذه الدنيا لكسب رضا الحق تعالى بإعلاء دينه ﷻ، وفي هذا الصدد فإنّ عون الله تعالى ونصره سيكون حليفنا، ومن كان الله في عونه فما من قوة أو قدرة تستطيع التغلب عليه!..».





لما حاصر تيمور قلعة سيواس بالفيلة التي تُعَدُّ دبابات ذلك الزمان، قام أمير القلعة أرطغرل ابن يلدرم بيازيد بجمع أشراف البلد إليه، والتحدث إليهم بما يلي:

«تقوم وظيفتي على بذل الجهد لحمايتكم والذَّود عنكم، قد تكون قوات تيمور أكثر منا إلى درجة يتعذر معها القياس، وهذا ليس إلا قضاءً إلهياً، وما عليّ فعله هو المدافعة عنكم وعن القلعة كما يليق بنا، ولتعلموا أن تيمور لن يدخل هذه البلدة إلا على أجسادنا».

قام الأمير أرطغرل بالتحرّك كما قال، وأظهر مقاومةً لا تصدق بالثلّة من أبطاله في مواجهة جيش تيمور، وتقاتلوا بإقدام، إلا أن الأمير ومحاربيه الشجعان شربوا من معين الشهادة أمام جيش العدو الجاري كسيل عرم.

فأرسل تيمور –بعد أن قضى على الأمير– خبراً إلى مَن في القلعة بأنه سيحقن دماءهم إن استسلموا، لكنه –بعد أن وثقوا بأمانه لهم– قتل جميع من في القلعة بوحشية.



وفيما يلي حادثة تصلح مثالاً رائعاً يوضّح شجاعة الجنود العثمانيين:

كان لِوانت الذي جاء ببشرى ظفر بريْويزة على أربعة جياد سريعة، عند دخوله قصر طوب كابي، قد دار به جواده على قائمتيه مدة لما شدّ لجامه، فقال قانوني الذي رأى هذا المشهد للوانت:

«يا لهذا الفرس الجموح الذي أتيت به!» فكان جواب لِوَانت على سؤال قانوني هذا:

«يا مولاي! لقد كان البحر الأبيض فرساً جموحاً فصيّرناه ذلولاً».





ظهر القرار باتخاذ تدابير بنقل السلطان والحكومة إلى أَسكي شهير أثناء معركة «جاناك قلعه» خشيةً من إمكانية اجتياز أسطول العدو بحر مرمرة، فلما علم السلطان عبد الحميد الثاني -المعزول عن العرش- والمسجون في قصر بيلاربيه، قال راداً على ذلك بكل بسالة وشجاعة:

«أنا حفيد السلطان محمد الفاتح!.. ليس من الممكن أبداً أن أكون أقل مستوى من قسطنطين الأمبراطورية البيزنطية! لما استولى جدي الفاتح على اسطنبول مات قسطنطين وهو يحارب على رأس جنوده، فإن تحقق احتمال دخول العدو من جاناك قلعه -لا قدر الله- فإني سآخذٌ سلاحي وأمضي وحدي لأموت وأنا أقاتل، فلا يدخل العدو اسطنبول إلا على جثتي، قولوا لأخي رشاد القائم على أمور الدولة إياه حتى هو والذهاب إلى أي مكان، فإن فارق هو أو الحكومة اسطنبول فلن يعودوا إليها مجدداً...».

وقد بقي السلطان والدولة في اسطنبول أمام ثباته هذا، وبهذا وُقِيَتْ الدولة من الانهيار ذلك اليوم.



يصوّر لنا السائح الفرنسي أ. ل. جاستلان، شجاعة الإنسان العثماني بكلماته التالية:

«عقيدة القضاء والقدر متجذرة بعقول العثمانيين، وهذه العقيدة لديهم تصلح مكان الشجاعة، وتزيد من ثباتهم ومتانتهم، حتى إنه يكون وسيلة لوضع الموت نصب أعينهم غير آبهين به، ولهذا السبب فلا يمكن للمهالك المؤكدة إلى درجة معاينتها بالعين أن ترهبهم، ثم إنهم لا يقطعون الأمل من الحياة إن لم يكونوا على قناعة بمجيء الأجل على الرغم مِن تحوّل أجسامهم كالمنخل من الجراح بعد إلقائهم بأنفسهم في النيران وفوق حراب الأعداء».





وباختصار لا يخشى المؤمنون إلا الله تعالى، ولا يخافون أحداً غيره لتوكلهم عليه، ويطبقون أوامر الله تعالى بشجاعة وصلابة، ويتصرفون بما يلزمه الزمان والمكان من خلال استخدامهم شجاعتهم بكل فراسة وبصيرة، يثني الله تعالى على هذه الحالة بقوله:

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [٩٣١]

١٨. الاستقامة

الاستقامة بالمعنى العام هي المضيّ بثبات نحو هدف بلا تردد أوشك، وأما في اصطلاح التصوف فهي المحافظة على الفطرة من غير تلويث لصفائها وبراءتها.

والاستقامة بتعبير آخر: أخذ حظ من شخصية الرسول ﷺ المثلى من خلال إبقاء محبته له حية في قلبه، والتخلّق بأخلاقه والعيش بروحانية القرآن والسنة طوال الحياة، والتمكّن من نيل أسرار العبودية والمعرفة بالابتعاد عن المتع النفسية الدنيوية.

وبما أنه ما من طريق آخر غير الاستقامة للوصول إلى الحق تعالى، فلذا ما من أمر صعب كالمحافظة على الاستقامة في كل حالة وهي مكانة عالية ينبغي إيفاءها حقها كما يجب، ولذا فالاستقامة في طريق الحق تعد أعظم كرامة عند أهل الحق.

ويبشر الحق تعالى أهل الاستقامة بما يلي:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ

---

٩٣١ الأحزاب: ٣٩.

الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ. نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [932]

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [933]

والصراط المستقيم طريق أهل الاستقامة، ويتحدث القرآن الكريم فيمن تمكن من السير في هذا الطريق القويم بحق فيقول:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [934]

إن الصراط المستقيم طريق الناس المصطفين، وأساس الاستقامة الإيمان والتقوى، ومحلهما القلب، وبهذا فإن الاستقامة بالإيمان والتقوى الموجودين في القلب تجعل القلب والبدن منسجمين، ثم إن الإيمان والإخلاص والاعتدال في القلب توفر الاستقامة على الدوام، يقول رسول الله ﷺ:

«لا يستقيم إيمان عبدٍ حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه». [935]

وعلى المؤمن أن يكون مستقيماً في هذه الدنيا الفانية، ولا ينحرف عن طريق الحق أبداً، وما أجمل قول الشاعر:

---

٩٣٢ فصّلت: ٣٠ ـ ٣٢.

٩٣٣ الأحقاف: ١٣ ـ ١٤.

٩٣٤ النساء: ٦٩.

٩٣٥ أحمد، ٣، ١٩٨.

استقم ولا تخش عدوا
فلو كان ناراً لا تحرقك
فإن الله لا يخزي عباده

صور الفضيلة

يخاطب الحق تعالى رسوله ﷺ وأمته من خلاله:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا...﴾ [٩٣٦]

قال عليه الصلاة والسلام: «**لقد شيبتني هود**».[٩٣٧]

وقد قال ابن عباس رضي الله عنه في هذه الآية:

«ما نزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية كانت أشدّ ولا أشقّ عليه من هذه الآية».[٩٣٨]

وعلى الرغم من أن الخطاب في هذه الآية للنبي ذي الشأن عليه الصلاة والسلام، فإن ما شق عليه لم يكن متعلقاً بالاستقامة المتعلقة بشخصه فحسب، لأنه كان صاحب مقام التأييد الإلهي: **﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** [٩٣٩] . والأمر الذي شغل تفكيره إلى أن شيّبه قلقه من أن الأمر يشمل المؤمنين.

قال فخر الكائنات في إحدى أحاديثه الشريفة:

«**استقيموا، ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ...**».[٩٤٠]



---

٩٣٦ هود: ١١٢.

٩٣٧ الترمذي، التفسير، ٥٦/ ٣٢٩٧؛ القرطبي، ٩، ١٠٧.

٩٣٨ النووي، شرح صحيح مسلم، مصر ١٩٨١، ٢، ٩.

٩٣٩ يس، ٤.

٩٤٠ ابن ماجة، الوضوء، ٢٧٧؛ الموطأ، الطهارة، ٦.

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال:

قلت: يارسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسال عنه أحداً غيرك، قال:

«**قل آمنت بالله، ثم استقم**».[941]



وعن أنس أن النبي ﷺ قرأ:

﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**﴾[942]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«**قد قال الناس ثم كفر أكثرهم، فمن مات عليها فهو ممن استقام**».[943]



لقي أحد الأكابر مسناً يمشي بصعوبة، وقد حمل على ظهره حطباً، فقال وهو ينظر إلى حالته:

«أيها العجوز! أنفد توكلك على الله تعالى الرازق، فأنت لا تزال تتحمل هذه المهنة في سِنِّك هذه؟ أم أنه ما من أحد يعيلك؟»

فنظر الحطاب المسن إلى السماء رافعاً يديه لإزالة الإدراك المعنوي عند مخاطبه: «يا ربي! صيّر هذه ذهباً!» وسرعان ما تحول الحطب في يده ذهباً. فقال الشخص الذي رأى هذه الكرامة -والحيرة تلفه-: «لِمَ يحمل رجلٌ قد بلغ هذه المرتبة الحطب؟»

---

٩٤١ مسلم، الإيمان، ٦٢.

٩٤٢ فصلت: ٣٠.

٩٤٣ الترمذي، التفسير، ٤١/ ٣٢٥٠.



فقال الحطاب المسن:

«يا بني، إني أقوم بهذا كي تعرف نفسي حقيقتها، ولا تخرج عن دائرة العبودية، لأن درجة القبول عند الحق تعالى تتناسب والاستقامة في العبودية...».



يقول أبو يزيد البسطامي قدس سره:

«قد ترون من يتربع في الهواء ويجلس، فلا يمكن أن نصدق أنها كرامة ما لم يحمِ حدود أوامر الله تعالى ونواهيه، واتباعه للسنة النبوية، ومراع لحقوق الحق...».

ويقول أيضاً أبو يزيد البسطامي قدس سره:

«كنت سأمرُّ يوماً من نهر دجلة إلى الطرف الآخر، فلما وصلت قريباً منها، اتحد طرفا دجلة ليصير طريقاً لي، فانتبهت من فوري، وقلت لدجلة: «أقسم بالله أنني لا أخدع بهذا، لأن الملّاحين يأخذون الشخص بنصف درهم إلى الطرف المقابل، لكنك في طلب عملي منذ ثلاثين سنة! ولذا فإني لا أخاطر بعملي الصالح الذي أعددته ليوم الحشر مقابل نصف درهم، وليس بي حاجة إلى الكرامة وإنما إلى الكريم!».



طلب مريدو نقشبندي شاه من حضرته يوماً كرامة، فقال حضرته:

«كرامتنا نحن جلية، انظروا، فعلى الرغم من ثقل الذنوب التي تُثقل عاتقنا فإننا لا نزال قادرين على الوقوف والمشي على الأرض، أَمِن كرامةٍ أعظم من هذه؟

وقال بعد ذلك مذكراً مرة أخرى بأن الأمر المهم في التصوف هو الاستقامة وليست الكرامة:



«من دخل روضة وسمع كل ورقة شجر فيها وهي تخاطبه بقولها: مرحباً بك يا ولي الله، فلا يلتفتن إل هذا الصوت سواء كان ما سمعه ظاهرياً أم باطنياً، بل على العكس عليه زيادة عزمه وجهده في العبودية».

فقال بعد المريدين معقبين على هذا:

«سيدي، إن لكم كرامات تظهر بين الحين والآخر مهما اجتهدتم في إخفائها!...».

فقال وليّ الحق -وهذا مثال التواضع-:

«إن ما ترونه كرامات مريديَّ».

قال ذلك لأنه كان في حالةٍ من إخفاء مقامه، ولذا لم يأذن لمريده حسام الدّين حاجّي يوسف بكتابة أقواله وكراماته وهو على قيد الحياة.

لقد وصل عظماء الإسلام إلى مراتب عالية، باتخاذهم الاستقامة دستوراً لهم، وليس الكرامة، وهم اعترفوا بعدم اكتسابهم قدراً أكثر مِن الطير الطائر في السّماء والسّمكة العائمة في الماء، وهم يوضحون بكل الوسائل أن المعرفة حصرياً ليست بالتوجه إلى تقليد ما يقوم به كل من الطائر والسمكة بل بالعيش في استقامة من خلال التمسك برضا الحق تعالى ضمن إحساس بعبودية عظيمة، وقدموا ذلك بأحوالهم وتصرفاتهم.

إن أولياء الحق لا يظهرون كراماتهم ما لم يضطروا إلى ذلك، وإنما يظهرون بكمالية الأخلاق البشرية التي تصلح مثالاً يحتذى به.

ومن الملفت للانتباه وصية الحسن البصري- رحمه الله- لأحد تلامذته فيما يتعلق بالكرامة:

«لا تغتر بمستوى العلم والحال والعرفان! وتذكر ما أصاب بلعم بن باعوراء بعد أن وصل إلى مرتبة الاطلاع على اللوح المحفوظ وقراءة ما فيه!».



فإن حالته المليئة بالعبرة مذكورة في القرآن الكريم كما يلي:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٩٤٤]

ويقول حضرة مولانا خالد البغدادي:

«الاستقامة والجهد أفضل من كشف وكرامة لا تحصى، إضافة إلى لزوم معرفة أن الكشف والكرامة إن لم يتحولا وسيلة إلى زيادة رعاية أوامر الدين، فإن كلاً منهما لا يعدو عن كونه بلاء وفتنة».



وتأتي تنبيهات محمد أسعد أفندي رحمة الله عليه في صدد بيان أهمية الاستقامة وبالأخص للأوائل على النحو التالي:

«كل مَن لم يكن على رأسه عمامة الاستقامة فإنه ماضٍ إلى الزوال والفناء، سواء في ذلك العالِم أو الشيخ».

«أيصيب سهم الأمل هدف القرب من الله تعالى إنْ لم ينحنِ ظهرك بثقل الاستقامة؟». [٩٤٥]

ولنتأمل -نحن العباد المذنبين- في مقدار العناية التي ينبغي علينا إيلاؤها في شأن الاستقامة، في حين ترتعش قلوب أولياء الحق وأهل الكرامة في هذا الشأن...



---

٩٤٤ الأعراف: ١٧٦.

٩٤٥ الديوان، اسطنبول، ١٩٩١، ص: ٢٧.

وباختصار فإن الاستقامة ضرورية لكل مؤمن، لكن من الصعب جداً نيله والمحافظة عليه، وبما أن شرف أي نتيجة يحصل المسلم عليها تكون متناسبة والمشاقّ التي تحمّلها في سبيل بلوغ تلك النتيجة، فإن أهل الاستقامة ينالون شرفاً عظيماً ومكافآت لا حصر لها مقابل ما بذلوه في سبيل ذلك.

١٩ . الوفاء والإخلاص

الوفاء والإخلاص من أهم الشعارات الإسلامية، ومن الأوصاف التي ينال بها الإنسان الكرامة والشرف، وهي خصلة معنوية تتوج الحياة البشرية في أرفع سوية بكونها صفة تخص الأنبياء والأولياء وأصحاب الفضل، هذا الشعور العلوي مقياس للقيمة المعطاة للمحبوبين أو الذين يجب أن يُحَبُّوا، إنّ مَن لا وفاء عنده هو المغرور الذي لا يفكّر إلا بنفسه ومتعه ومنفعته.

وعلى الإنسان قبل كل شيء أن يكون وفياً لربه ﷻ، ولا يتحقق هذا إلا برعاية أوامره تعالى، يقول الحق تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٩٤٦]

والوفاء الأفضل والألزم بعد الوفاء لله تعالى هو الوفاء لفخر الكائنات الأبدي نبينا ﷺ، فهذا الوفاء عبارة عن مشاعر الشكر المكنونة للنبي ﷺ، الذي يولي أمته الأولوية في تضرعه والتجائه إلى الله تعالى بقوله «**أمتي، أمتي**». ثم إن هذا الوفاء الذي يبدأ بالتعمق بحب رسول الله ﷺ، لا يمكن تحققه إلا بالتمسك بسنته السنية.

وعلى كل مؤمن أن يكن مفعماً بحسِّ الوفاء لعظماء الإسلام أي أولياء الحق، لأنّ أولياء الحق تعالى هم من أوصل إلينا أوامر الله تعالى ونبيّه ونواهيهما، والأخلاق الحميدة والمصابيح العليّة التي تضيء عالَمِينا.

---

٩٤٦ الحشر: ١٩.

ما يلزم إظهار الوفاء فيه غير محصور بما أحصيناه، إذ يجب تثبيت الوفاء في القلب وبالأخص للأصحاب والإخوة في الدين، ومن ناحية أخرى فإنّ الوفاء للأجداد وللأحياء منّا والأموات، والوفاء للوطن ولجميع الأمانات الموجودة في المجتمع من خصال الطابع والشخصية المتينة.

وما أجمل بيان حضرة مولانا لفضيلة الوفاء والإخلاص:

«إن جملة أمور كالعشق والمحبة والصداقة مرتبطة بالوفاء وتبحث دائماً عن الأوفياء، ولا تقترب من فؤاد غير مخلص.

وقد كتب القلم: «الوفاء يقابله الوفاء والجفاء يقابله الجفاء»، ثم جفّ مداده.

لقد كان كل سلطان يقوم بقطع رأس من ظهرت منه الخيانة له حتى ولو كان ولده، لكن إن أظهر عبد هندي الوفاء والإخلاص للسلطان، تطري القلوب ذلك العبد، وتكن له التقدير... ولا يحصل مئات الوزراء على الاحترام الذي يحصل هو عليه.

ومن هو العبد، فلو كان الوفيّ كلباً على الباب تثمر في قلب صاحبه مئات مشاعر الرضا والامتنان، ويربت صاحبه عليه بكل محبة...».

صور الفضيلة

ويقدّم النبي ﷺ لأصحابه نموذجاً على الوفاء:

«**أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورؤيا أمي آمنة التي رأت**». [٩٤٧] مظهرٌ وفاءه لهم.

عن أبي هريرة ﷺ، قال:

زار النبي ﷺ قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، فقال:

---

٩٤٧ أحمد، ٥، ٢٦٢؛ الحاكم، المستدرك، ٢، ٤٥٣/ ٣٥٦٦.

«استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت».[٩٤٨]



لما شرّف النبي عليه الصلاة والسلام الدنيا بمولده، كانت بين من أرضعنه ثويبة بلبنِ ابنٍ لها يقال له مسروح. [٩٤٩]

فكان رسول الله ﷺ بعد أن هاجر يسأل عن ثويبة، فكان يبعث إليها بالصلة والكسوة حتى جاءه خبرها أنها قد توفيت سنة سبع مرجعه من خيبر، فقال: «**ما فعل ابنها مسروح؟**» فقيل: مات قبلها ولم يبق من قرابتها أحد.[٩٥٠]



استأذنت حليمة السعدية على النبي ﷺ وكانت قد أرضعته، فلما دخلت عليه قال: أمي أمي، وعمد إلى ردائه فبسطه لها فقعدت عليه. [٩٥١]

وروي أيضاً، أن رسول اللّه ﷺ كان جالساً يوماً فأقبل أبوه من الرضاعة، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه، ثم أقبلت أمه فوضع لها شِقَّ ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام له رسول اللّه ﷺ فأجلسه بين يديه.[٩٥٢]

قدمت حليمة بنت عبد الله على رسول الله ﷺ مكة وقد تزوج خديجة فشكت جدب البلاد وهلاك الماشية، فكلم رسول الله ﷺ خديجة فيها فأعطتها

---

٩٤٨ ابن سعد، ١، ١١٦ ـ ١١٧؛ مسلم، الجنائز، ١٠٥، ١٠٨/ ٩٧٦.

٩٤٩ ابن سعد، ١، ١٠٨.

٩٥٠ ابن سعد، ١، ١٠٨، ١٠٩.

٩٥١ ابن سعد، ١، ١١٣، ١١٤.

٩٥٢ أبو داوود، الأدب، ١١٩ ـ ١٢٠/ ٥١٤٥.



أربعين شاة وبعيراً موقعاً للظعينة، وانصرفت إلى أهلها، وبهذا أظهرت السيدة خديجة ﵂ وفاءها للنبي عليه الصلاة والسلام.[٩٥٣]



وقدمت على النبي عليه الصلاة والسلام إحدى نساء بني سعد بن بكر، إما خالة وإما عمة بنحي مملوء سمناً وجراب أقط، فدخلت عليه وهو في الأبطح، فلما دخلت انتسبت له فعرفها رسولُ الله ﷺ ودعاها إلى الإسلام، فأسلمت وصدقت، ثم أمر رسول الله ﷺ بقول هديتها، وجعل يسائلُها عن حليمة، فأخبرته أنها توفيت في الزمان، قال: فذرفت عينا رسول الله ﷺ، ثم سألها من بقي منهم؟ فقالت: أخواك وأختاك، وهم والله محتاجون إلى برِّك وصِلتك، ولقد كان لهم موئل فذهب، وقال لها رسول الله ﷺ: أين أهلك؟ فقالت: بذنب أوطاس، فأمر لها رسول الله ﷺ بكسوة وأعطاها جملاً ظعينة وأعطاها مائتي درهم، وانصرفت وهي تقول: نعم والله المكفول كنت صغيراً، ونعم المرء كنت كبيراً عظيم البركة.[٩٥٤]



لما تحقق النصر للمسلمين في غزوة حنين، وسيقت الغنائم ومعها الأسرى وساقوا معهم الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله من الرضاعة، قال: فعنفوا عليها في السوق، فقالت للمسلمين: تعلمون والله إني لأخت صاحبكم من الرضاعة؟ فلم يصدقوها حتى أتوا بها رسول الله ﷺ، فلما انتهى بها إلى رسول الله قالت: يا رسول الله إني أختك من الرضاعة،

قال: «**وما علامة ذلك؟**»

قالت: عضة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك، قال: فعرف رسول الله العلامة، فبسط لها رداءه فأجلسها عليه وخيرها، وقال:

---

٩٥٣ ابن سعد، ١، ١١٤.

٩٥٤ الواقدي، ٢، ٨٦٩؛ البلاذوري، ١، ٩٥.

«إن أحببت فعندي محببةً مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلتُ؟»

قالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي، فمتعها رسول الله وردها إلى قومها، فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلاماً يقال له مكحول وجارية، فزوجت أحدهما الآخر، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية.[٩٥٥]



وبعد فترة أعلن سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام أنه فكّ أسْرَ أقاربه من الرضاعة ممن كان بين الأسرى من نصيبه هو ونصيب بنو عبد المطلب، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه:

«...فإن إخوانكم قد جاؤوا تائبين، وإني قد رأيت أن أردّ إليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحبّ منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله ﷻ علينا فليفعل»

فقال الناس: قد طيّبنا ذلك لرسول الله عليه الصلاة والسلام.[٩٥٦]

وبهذا تمّ رد آلاف أسرى الحرب يومئذ إلى هوازن من غير أخذ عوضٍ عنهم، فتم إحياء آلاف الناس بفضل حس وفاء الرسول عليه الصلاة والسلام، وحصلوا على الإيمان والحرية.



لما كان نور الوجود عليه الصلاة والسلام في السادسة من عمره، قصد المدينة بصحبة أمه زائراً قبر والده، وعند الرجوع توفيت أمه في قرية الأبواء، وبهذا أضحى النبي ﷺ يتيم الأم أيضاً، ورجع إلى مكة بصحبة الخادمة أم أيمن رضي الله عنها.

٩٥٥ ابن هشام، ٤، ١٠١؛ الواقدي، ٣، ٩١٣.

٩٥٦ البخاري، المغازي، ٥٤/ ٢٣٠٧؛ ابن هشام، ٤، ١٣٤ ـ ١٣٥.



فكان رسول الله ﷺ يزور مربيته أم أيمن بين الحين والآخر طوال عمره، ويخاطبها بأمي!، وكان يثني عليها فيقول:

«**هي أمي بعد أمي! هذه بقية من أهلي!**»، ويظهر لها الاحترام والمحبة.



كانت السيدة فاطمة بنت أسد زوجة أبي طالب فاضلة وذات قلب سليم، فكان النبي عليه الصلاة والسلام يزورها على الدوام بعد أن شرفها الله بالإسلام وهاجرت إلى المدينة، وكان ينام في بيتها وقت القيلولة.[٩٥٧]



لما توفيت السيدة فاطمة بنت أسد رضي الله عنها ذرفت عينا النبي ﷺ الدمع سخيا رقراقا كحبات اللؤلؤ، وقال: «**اليوم ماتت أمي**»، وخلع النبي قميصه وألبسها إياه، واضطجع في قبرها، فلما سوّى عليها التراب قالوا: يا رسول الله رأيناك صنعت شيئاً لم تصنعه بأحد، فقال:

«**إني ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة، واضطجعت معها في قبرها خفف عنها من ضغطة القبر**».

ولما قيل للنبي ﷺ: لقد اشتد جزعك على فاطمة قال ﷺ:

«**إنها كانت أمي، إن كانت لتجيع صبيانها وتشبعني، وتشعثهم وتدهنني، وكانت أمي**»

ثم دعا لها النبي عليه الصلاة والسلام قائلاً:

«**الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها**»

وقال النبي عليه الصلاة والسلام:

---

٩٥٧ ابن سعد، ٨، ٢٢٢.

«رحمكِ الله يا أمي كنت أمي بعد أمي، تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيبا وتطعميني، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة...».[958]



وعن عائشة رضي الله عنها، قالت:

مَا غِرْتُ على أحد من نساء النبي عليه الصلاة والسلام، ما غِرْتُ على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول:

«إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد».[959]



لما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بدفن شهداء أحد قال في عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

«ادفنوا عبد الله بن عمرو، وعمرو بن الجموح في قبر واحد، فإنهما كانا في الدنيا متحابين، متصافين».[960]

ما أعظمه من حسٍّ بالوفاء، وثناء عليه، وحض للصحابة أن يتخلقوا بأخلاق إخوانهم...



روي أن رجلاً أسود أو امرأة سوداء كان يقمّ المسجد، فمات فسأل النبي ﷺ عنه، فقالوا: مات قال:

---

٩٥٨ الحاكم، ٣، ١١٦ ـ ١١٧؛ الهيثمي، ٩، ٢٥٦ ـ ٢٥٧؛ اليعقوبي، ٢، ١٤.

٩٥٩ البخاري، مناقب الأنصار، ٣٨١٨/٢٠؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٧٤ ـ ٧٦.

٩٦٠ انظر: ابن هشام، ٣، ٤٩؛ ابن سعد، ٣، ٥٦٢.



«أفلا كنتم آذنتموني به دلّوني على قبره، أو قال قبرها فأتى قبرها فصلى عليها».[961]



مضى سنوات على هجرة الحبشة، وقدم على النبي عليه الصلاة والسلام مرة رُسُلُ ملك الحبشة، فاهتم النبي عليه الصلاة والسلام بهم من قريب، حتى إنه قام بخدمتهم بنفسه، ثمّ إنّ ما قاله رسول الله ﷺ –معقِّباً على قول صحابته: نكفيك ذلك– ذو معنىً:

«إنهم كانوا لأصحابي مكرمين، فإني أحب أن أكافئهم».[962]



وأثناء الرجوع من غزوة تبوك في رجب توفي النجاشي ملك الحبشة، فنعى رسول الله ﷺ للناس النجاشيَّ في اليوم الذي مات فيه، وقال:

«مات اليوم عبد لله صالح بغير أرضكم، فقوموا فصلوا عليه»،

قالوا: ومن هو يا رسول الله؟

قال عليه الصلاة والسلام: **«النجاشي»**

ثم قال عليه الصلاة والسلام : **«استغفروا لأخيكم»**

فخرج بهم إلى المصلى.[963]

وقد عرف فيما بعد أن نعي النبي عليه الصلاة والسلام النجاشي كان في اليوم الذي توفي فيه.



---

٩٦١ البخاري، الجنائز، ٦٧/ ٤٥٨.

٩٦٢ البيهقي، شعب الإيمان، ٦، ٥١٨، ٧، ٤٣٦/ ٨٧٠٤.

٩٦٣ مسلم، الجنائز، ٦٢ ـ ٦٨؛ أحمد، ٣، ٣١٩، ٤، ٧.



مكث النبي ﷺ في مكة بعد الفتح خمسة عشر يوماً، فأصاب القلقُ بعضَ الأنصار، وأصبحوا يفكرون هل سيرجع النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة مجدداً أم لا، لأن الله تعالى كان قد أكرمه بفتح مكة المكرمة -المكان الذي وُلد وشبّ فيه- ثم أتى عليه الصلاة والسلام الصفا فعلاه، فرفع يديه فجعل يذكر الله ويدعوه، قال والأنصار تحته، يقول بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته، ثم قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«**يا معاشر الأنصار**»

قالوا: لبيك يا رسول الله.

قال: «**قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته؟**»

قالوا: قد كان ذاك.

قال: «**كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم والممات مماتكم**»

فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله، ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله وبرسوله، فقال رسول الله ﷺ:

«**إن الله ورسوله يصدقانكم، ويعذرانكم**».[٩٦٤]



لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام لينسَ أحداً من أصحابه الذين جاهدوا أموالهم وأنفسهم وبذلوها في سبيل الدعوة الإسلامية أبداً أو يفتر قلبه عنهم، فكان يذهب بين الحين والآخر إلى مقبرة الجنة الباقية وسائر مقابر الشهداء داعياً لهم، يقول الصحابة الكرام رضي الله عنهم:

٩٦٤ مسلم، الجهاد، ٨٤، ٨٦/ ١٧٨٠؛ أحمد، ٢، ٥٣٨.



«صعد نبينا الأكرم عليه الصلاة والسلام المنبر، فكان أول ما قاله بعد إتيانه بالشهادتين، استغفاره لشهداء أحد».[٩٦٥]

ثم قال في معرض وفائه للأنصار:

«أيها الناس، فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن وَلِيَ منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم».[٩٦٦]

«الأنصار كرشي، وعيبتي والناس سيكثرون، ويقلون فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم».[٩٦٧]



لم ينس النبي ﷺ التضحيات التي قدمها المهاجرون أيضاً إطلاقاً، حيث كان يضع في الاعتبار من كان عوناً للإسلام في أيامه الأولى عند تكليفه صحابته بوظائف هامة، إلا أن لأبي بكر رضي الله عنه مكانة خاصة، يبين لنا رسول الله ﷺ امتنانه العظيم له بقوله:

«ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدا يكافئه الله به يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ألا وإن صاحبكم خليل الله».[٩٦٨]



---

٩٦٥ ابن سعد، ٢، ٢٢٨.

٩٦٦ البخاري، مناقب الأنصار، ١١/ ٣٨٠٠.

٩٦٧ البخاري، مناقب الأنصار، ١١/ ٣٨٠١.

٩٦٨ الترمذي، المناقب، ١٥/ ٣٦٦١.

لما تولى أبو بكر ﷺ الخلافة، نَادَى نادى: من كان له عند النبي ﷺ عِدَةٌ أَوْ دَيْنٌ، فليأتنا، فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر فأعطى منه ووفّى.[969]

وقد كان علي ﷺ يقضي دين رسول الله ﷺ، فروي: أن رسول الله ﷺ لما توفي أمر عليٌّ ﷺ صائحاً يصيح: من كان له عند رسول الله عدة أو دين فليأتني، فكان يبعث كل عام عند العقبة يوم النحر من يصيح بذلك حتى توفي علي، ثم كان الحسن بن علي يفعل ذلك حتى توفي، ثم كان الحسين يفعل ذلك.[970]



ومن المعروف عن عبد الله بن عمر ﷺ وفاؤه وتعلقه بالذكريات النبوية، فيسير بعد وفاة النبي ﷺ متأمّلاً الطريق التي كان يسلكها عليه الصلاة والسلام، ويتذكره بجلوسه تحت ظلال الأشجار التي كان النبي ﷺ قد استظلّ بظلها، ويسقي هذه الأشجار حتى لا تجف وتيبس، بغضّ النظر أين كانت في الجبل أو في السهل، كل ذلك صور تقدم لنا وفاءه الفريد لذكريات النبي عليه الصلاة والسلام، عن طريق محبته العظيمة لرسول الله ﷺ.



وما أروع ما يقصّه لنا فريد الدين عطّار عن حال الغافلين عن نعم الله التي تتوالى عليهم، ويقعون في أسر نفوسهم:

كان للسلطان كلب صيد اكتسب اهتماماً خاصاً من السلطان، كان الكلب ماهراً وبارعاً في الصيد، وذا قيمة إلى أبعد الحدود لدى السلطان، إذ كان يأخذه معه في كل صيد، وقد زيّن طوقه بالمجوهرات، وعلق في رجليه ويديه حلقات وأساور مصنوعة من الذهب والفضة، وأما ظهره فمغطّى بقطيفة من الديباج مطّرزة.

٩٦٩ انظر: البخاري، الكفالة، ٣/ ٢٢٩٧.

٩٧٠ ابن سعد، ٢، ٣١٨.



وذات يوم خرج السلطان إلى الصيد ومعه أفراد من القصر مصطحباً الكلب أيضاً، فكان السلطان مسروراً للغاية وهو يتقدم على ظهر حصانه وبيده شريط الطوق الحريري الخاصّ بالكلب، لكن وفجأة شد انتباهه ما أذهب فرحه، حيث كان كلبه الذي يحبه بشدة يلهو بأمور أخرى ناسياً سلطانه، ولما قام السلطان الحزين بشدّ خيط الحرير فإن الكلب قاومه، واستمر بمضغ قطعة العظم التي أمامه، وهنا صرخ السلطان وقد خالجته مشاعر الحيرة والغضب قائلاً:

«كيف تنشغل في حضرتي بشيء آخر ناسياً إياي! كيف حدث هذا؟»

أَسِف أشدّ الأسف، وقد تأثر أشد التأثر بنكران الكلب للجميل وجحوده وعدم وفائه له واكتراثه به، ولم يرض قلبه بالصفح عنه بأن يلتمس له عذراً ولو كان كلباً، فنسيان الكلب إياه مقابل كلّ ذاك الشرف والإحسان والإكرام فجأة ولأجل قطعة من العظم، كان أمراً لا يمكن العفو عنه إطلاقاً على اعتبار أنه تصرف يجرح القلب ويخدش الوفاء.

فقال بغضب: «افسحوا المجال لقليل الأدب هذا»

أدرك الكلب معنى هذا الغضب إلا أن الوقت قد فات، وما من شيء يسعه القيام به، إلى درجة أن المحيطين بالسلطان عندما قالوا له: «مولاي، لنأخذ كل ما عليه من المجواهرات والذهب والفضة وغيرها ولنتركه» قال: «لا! دعوه يذهب كما هو»، وأضاف قائلاً:

«دعوه ليذهب كما هو! ليذهب كما هو وليبق غريباً وجائعاً وعطشاً في الصحارى المقْفِرة والحارّة والموحشة، وليعش بألم فقد الإكرام واللطف برؤيتها لها على الدوام!...»

يا لها من قصة معبرة تعكس حال عديمي الوفاء الذين هلكوا لتمسكهم بالمنافع البسيطة والدونية متجاهلين قيمة نعم الحق تعالى التي لا حصر لها.





كان الخطّاط كارا هيساري مكلفاً بوظيفة كتابة خطوط قبّة جامع السليمانية، فانكبّ قاراهيساري بجهدٍ لا مثيل له لإتمام النقوش على نحو يليق وعَظَمة الجامع، بحيث لما فرغ من التصحيح الأخير للخط الأخير ذهب نور عينه وانغلقت نافذة مشاهدة العالم لديه، فقال السلطان سليمان خان القانوني عندما اكتمل بناء الجامع وأضحى جاهزاً لأداء العبادة فيه:

«إن شرف افتتاح الجامع الشريف للعبادة من حظ المهندس المعماري سنان الذي بناه على هذا النحو العظيم والمذهل».

إلا أن المهندس سنان -الذي بدأ مهنته هذه بتعلّم التواضع أولاً، والذي كان لا يضاهى في مهارته وشهرته- فكّر حينها بتضحية الخطاط كاراهيساري وقابل كلام السلطان بكلِّ أدب قائلاً:

«مولاي! لقد ضحّى الخطّاط كاراهيساري بعينيه أثناء تزيينه هذا الجامع بنقوشه وعَمِيَ، فهلّا وهبتم هذا الشرف له!..».

فأصدر السلطان القانوني مرسوماً بجعل الخطّاط كاراهيساري يفتح الجامع للعبادة، فكان مشهدا عظيماً ومهيبا تكلله دموع الحاضرين.



كان أستاذي في اللغة الفارسية المرحوم يامان دادا -والذي كان مسيحي الأصل ثم اهتدى من خلال المثنوي- عندما يسئل: «لم تتطرقون في حديثكم لمولانا ومثنويته دائماً؟» يقول:

«يا بني، لقد أمسك مولانا بيدي، وكان وسيلة لهدايتي بإيصالي إلى باب النبي عليه الصلاة والسلام، وتَحَدُّثي بهذا القدر عمن خلّصني من النار قليلٌ!».

ما أجمله من وفاء وأدقّه من تفكير!..





كان والدنا وأستاذنا موسى أفندي -رحمه الله- معروفاً بين محبيه بصاحب الوفاء، ونسرد بعض وقائع وفاء موسى أفندي الكثيرة، فمنها مثلا:

كان يتأثر أشدّ التأثر أمام الغرباء والعجزة المتروكين للوحدة بغير إخلاص في المجتمع، والمتروكين وجهاً لوجه مع معاناتهم وآلامهم ويقول: «في الحقيقة يلزمنا استضافة هؤلاء الغرباء المساكين في بيوتنا، لكن ذلك ليس في استطاعتنا، ولذا علينا إنشاء دار للسلام»، وبهذا فقد حقق مع بعض أقربائه هذه الفكرة الحسنة، فكانوا يهتمون باحتياجات الغرباء بزيارتهم لهم بين الحين والآخر وقضاء حوائجهم.

وقد كان فؤاده يرق حتى على القطط الموجودة في الحديقة حيث تأثرت بشخصيته العالية، وذلك بتسميته إياها بصفاتها فكان يعامل كل واحدة معاملة تختلف عن الأخرى بما يتناسب وشفقتها ورحمتها بصغارها.

وأما شخصياً فقد طلب البحث عن الممرّضة التي اعتنت بي، وأنا رضيع حتى بعد مضي خمس وخمسين سنة، حتى وجدوها، وأعزها وأكرمها.

ولا سيما وفاؤه لأستاذه حضرة سامي أفندي حيث كان أسطورياً، فكان أولَّ مكان يزوره في أيام العيد بيتُ سامي أفندي، وأول الأضاحي التي يذبحها من أجله، ويكون وسيلة لتلاوة الكثير من ختم القرآن الكريم على روحه الشريفة خاصة، وعشرات آلاف الختمات الشريفة التي تتلى على روح أستاذه من قبل محبيه كل سنة، ترضي قلبَه الوفيّ وتسره أشد السرور.

وباختصار فإنه بتصرفاته الحسنة الشاملة لحياته كلها كان لنا معلم عشق ومحبة، كأبي بكر رضي الله عنه فيما يتعلق بــــ «ماهية وفاء المحبين وكيفيته».

أكرمنا الحق تعالى جميعاً بأحوالهم الحسنة تلك!

يا إلهي! اجعلنا في زمرة الصالحين وامنن على قلوبنا بأحوال أهل الوفاء الحسنة! واجعلنا الوارثين لجنات النعيم بتفضلك على أعمالنا بالإخلاص

والوفاء، وأكرمنا بذرية تكون قرة عين لنا! واجعلنا مخلصين لك ولرسولك ولوالدينا وأقربائنا وإخواننا في الدين، ولأوطاننا وللأمة ولسائر الأمانات! وأحْيِنَا في رضاك الشريف في العالَمين!

آمين!..

٢٠ . العفّة والحياء

العفة هي حفظ النفس من الانجرار وراء الشهوات والرغبات الدونية، والعفة صفة تميز الإنسان عن غيره من سائر المخلوقات، وغيابها يعني غياب كرامة الإنسان وشرفه وانحداره إلى مستوى البهائم.

إن العفّة والشرف شريان الوريد النابض في جميع الأخلاق، والخصل الحميدة كالشرف والكرامة والعزة مرتبطة بأن يكون المرء عفيفاً دائماً.

لقد أرانا الحق تعالى شخصين بالغي القمة في العفة ومَدَحَهم وأثنى عليهم كنموذج مثاليٍّ للمؤمنين، أحدهما يوسف عليه السلام الذي تُقَصُّ حكايته على أنها أحسن القصص في سورة يوسف، والنموذج الآخر مريم عليها السلام التي تروى قصّتها بالثناء والمديح في مختلف المواضع من القرآن الكريم، تقول الآية الكريمة:

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [٩٧١]

فسينال الرجال والنساء المحافظون على عفتهم مغفرة الله تعالى الواسعة وأجراً عظيماً. [٩٧٢]

---

٩٧١ الأنبياء: ٩١.

٩٧٢ انظر: الأحزاب، ٣٥.

ويمدح الحق تعالى عباده المفلحين بأنهم ذوي عفة فيقول:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [٩٧٣]

ثمّ إنّ النبي ﷺ كان يعلّم الناس أسس الأخلاق، كالصِّدق والعفة وحماية الأقرباء والاعتناء بهم، إلى جانب تعليمهم أسس الإيمان والعبادة، وقد قال هرقل الروم لأبي سفيان: ماذا يأمركم رسول الله؟ فقال: يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. [٩٧٤]

فكان النبي ﷺ يولي أهمية بالغة للعفة، ويبايع النساء على المحافظة على العفة خاصة. [٩٧٥] فكان يقول مخاطباً المؤمنين كلهم:

«**من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة**». [٩٧٦]

ومن ناحية أخرى فإن سيطرة الحياء والعفة والنزاهة واللطف على العلاقات بين الرجال والنساء مسألة غاية في الأهمية، لأن الإسلام حرم كل القبائح وانعدام الحياء والوقاحة.

فالعلاقة غير المشروعة بين الرجل والمرأة تبدأ من النظرة، ولذا فقد أُمِر المسلمين والمسلمات بقصر النظر، وغضّ البصر:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا

٩٧٣ المؤمنون: ٥ ـ ٧.

٩٧٤ البخاري، بدء الوحي، ٦، الصلاة ١؛ مسلم، الجهاد ٧٤.

٩٧٥ انظر: المتحنة، ١٢.

٩٧٦ البخاري، الرقاق، ٢٣/ ٦٤٧٤.

يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [977]

ولا تمشي المرأة المسلمة بحيث تلفت انتباه الآخرين نحوها، ولا تتطيب بطيب عبق الرائحة عند خروجها حتى لا تلفت الرجال إليها.

وهذه الآية الكريمة إلى جانب توجه الخطاب إلى أمهات المؤمنين تتناول ما يلزم على سائر النساء التنبه له:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا. وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [978]

ويقول في آية كريمة أخرى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [979]

---

٩٧٧ النور: ٣٠ـ٣١.

٩٧٨ الأحزاب: ٣٢ـ٣٣.

٩٧٩ الأحزاب: ٥٩.

على الرجال والنساء الأجانب إن أرادوا قضاء أمر ما بينهم أو قول شيء لبعضهم أن يحققوا ذلك من وراء باب أو حجاب قدر الإمكان. [٩٨٠]

وعلى الناس ألا يدخلوا بيوت بعضهم بغير إذن، بل حتى على أهل الدار الواحدة أن يطلبوا الإذن بالدخول على غرف غيرهم وإشعارهم بوجودهم، لأن الحق تعالى يعلمنا أن العفة خيرٌ على كل حال. [٩٨١]

ويولي الحق تعالى أهمية بالغة لتمتع عباده بالعفة، ويشير إلى ذلك في كثير من الآيات الكريمة. [٩٨٢] ولذا فمن الإثم العظيم الافتراء على أصحاب العفة وقد أوقع بالمفترين «حد القذف» جزاء على إساءتهم لسمعة العفيفات الطاهرات، يقول الحق تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٩٨٣]

ولذا فقد قال سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام:

«...**ولا تقذفوا محصنة!..**». [٩٨٤]

ومما لا شك فيه أن العفة هي أهم صفات المرأة، وما تم إيضاحه آنفا يوضح عِظَمَ إثم الافتراء على المرأة العفيفة، وليس هذا فحسب بل إن من الإثم العظيم نقل كل ما يسمعه المرء من الشائعات والتهم من غير تحرٍّ فيما يتعلق بعفة الناس وشرفهم في أية حالة من حالات الشهادة.

---

٩٨٠ انظر: الأحزاب: ٥٣.

٩٨١ انظر: النور، ٢٧، ٥٨ ـ ٦٠.

٩٨٢ انظر: النساء، ٢٥، المائدة، ٥، الأنبياء، ٩١، النور، ٤، ٢٣، التحريم، ١٢.

٩٨٣ النور: ٢٣.

٩٨٤ الترمذي، الاستئذان، ٣٣/ ٢٧٣٣.

وليست العفة بالابتعاد عن الزنا و مواطن الشبهات فحسب، بل هي البعد عن كل موقف يستحيا منه ولو كان طلب حاجة من الناس،وقد قال الحق تعالى يحض عباده على مساعدة المتعففين عن السؤال والذين يلجمهم حياؤهم عن إظهار فاقتهم وحاجتهم:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [٩٨٥]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة ولا اللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف، واقرءوا إن شئتم: ﴿لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾ [٩٨٦]». [٩٨٧]

«أهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال». [٩٨٨]

«... من يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله». [٩٨٩]

وأما الحياء الذي هو شعبة من الإيمان، فاجتناب الأمور السيئة والقبيحة، والاعتدال في التصرفات والسلوك، وعدم تجاوز الحد في أي عمل كان، وصفة الحياء أصلُ كل خير، وهي تضاد كل ما هو سيء وقبيح.

---

٩٨٥ البقرة: ٢٧٣.

٩٨٦ البقرة: ٢٧٣.

٩٨٧ البخاري، ٦، ٣٢/ ٤٥٣٩.

٩٨٨ مسلم، الجنات، ٦٣/ ٢٨٦٥.

٩٨٩ البخاري، الزكاة، ١٨/ ١٤٢٧.

ويقول فخر الكائنات ﷺ في الحياء الصفة التي يحبها الله تعالى:

«**الحياء من الإيمان**».[٩٩٠]

«**الحياء والإيمان قرنا جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر**».[٩٩١]

«**الحياء لا يأتي إلا بخير**».[٩٩٢]

«**الحياء كله خير**».[٩٩٣]

«**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**».[٩٩٤]

«**اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى**».[٩٩٥]

ووحدها فضيلة الحياء هي التي تحول دون وقوع المرء في قبائح الأعمال التي تنافي الأخلاق الرفيعة، وتأثير الأدب والحياء في صيانة المؤمن من القبائح أشد من مئات قوات القانون والشرطة، وقول «ألا تخجل؟» كافٍ للعفيف وذو الحياء ليحجزه عن قبائح الأعمال.

لقد كان سيدنا عثمان رضي الله عنه شخصا شديد الحياء حتى اشتهر به، وقد أخبر رسول الله ﷺ بأنه من شدة حيائه كانت الملائكة تستحي منه.[٩٩٦]

وبالمقابل يحذّر الحقّ تعالى فاقد الحياء ومن يريد شيوع الفاحشة وخلع ستر الحياء بين المسلمين فيقول:

---

٩٩٠ البخاري، الإيمان، ٣/ ٢٤/ ٦١١٨.

٩٩١ السيوطي، ١، ٥٣.

٩٩٢ البخاري، الأدب، ٧٧/ ٦١١٧.

٩٩٣ مسلم، الإيمان، ٦٠- ٦١.

٩٩٤ مسلم، البر، ٧٨/ ٢٥٩٤.

٩٩٥ مسلم، الذكر، ٧٢/ ٢٧٢١.

٩٩٦ انظر: أحمد، ١، ٧١، ٦، ١٥٥.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...﴾ [٩٩٧]

فمن يريد انتشار قلة الحياء في المجتمع يكون قد تسبب بأعظم إساءة لوطنه وملته، وهؤلاء يصابون بأكبر نصيب من الضرر، لأن انعدام الحياء سببٌ للهلاك على ما أخبر به النبي ﷺ:

«إن الله إذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً، فإذا لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً نزعت منه الأمانة، فإذا نزعت منه الأمانة لم تلقه إلا خائناً مخوناً، فإذا لم تلقه إلا خائناً مخوناً نزعت منه الرحمة، فإذا نزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجيماً ملعناً، فإذا لم تلقه إلا رجيماً ملعناً نزعت منه ربقة الإسلام». [٩٩٨]

صور الفضيلة

يحدثنا أبو سعيد الخدري رضي الله عنه فيقول:

«كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئا يكرهه عرفناه في وجهه». [٩٩٩]

لم يتكلم النبي عليه الصلاة والسلام قطّ بصوت عال، وكان يمرّ أمام الناس بلِيْنٍ متبسّماً، وحين يصل إلى مسامعه قولٌ غليظ لا يُكَلِّم الناس في وجوههم، وبما أن تعابير وجهه كانت تعكس مشاعره فقد كان مَن حوله شديدي الحيطة في الحديث معه والتصرف أمامه، ومن حيائه وأدبه ولطفه أنه لم يكن يضحك قهقهة، وإنما كان جُلُّ ضحكه التبسم، يقول في أحاديثه الشريفة:

---

٩٩٧ النور، ١٩.

٩٩٨ ابن ماجة، الفتن، ٢٧.

٩٩٩ البخاري، المناقب، ٢٣/ ٦١٠٢؛ أبو داوود، الخراج، ٣٤ ـ ٣٦.

«الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار».[١٠٠٠]



لم يكن رسول الله ﷺ يحدق بنظريه في وجه أحدهم وينظر بإمعان أثناء حديثه معه لصفة الحياء العلية التي يمتلكها.[١٠٠١]



جاء جدّ بهز بن حكيم رسول الله ﷺ، وسأله: يا نبي الله، عوراتنا، ما نأتي منها وما نذر؟ قال:

«احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك»

قلت: يا رسول الله، إذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال:

«إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا يرينها»

قال: قلت: إذا كان أحدنا خالياً؟ قال:

«الله أحق أن يستحيا منه من الناس».[١٠٠٢]

ويقول في إحدى أحاديثه الشريفة:

«إياكم والتعري، فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط، وحين يفضي الرجل إلى أهله فاستحيوهم وأكرموهم».[١٠٠٣]



١٠٠٠ الترمذي، الحياء، ٢٠٠٩.

١٠٠١ المناوي، ٥، ٢٢٤.

١٠٠٢ أبو داوود، الحمّام، ٢/ ٤٠١٧.

١٠٠٣ الترمذي، الأدب، ٤٢/ ٢٨٠٠.



ما من شك أنّ رسول الله عليه الصلاة والسلام كان الشخص الأكثر حياء بين الناس، حيث كان متميزاً بهذه الخصلة العلية حتى في عصر كانت الفواحش فيه أمرا يجترئ عليه عموم الناس، قبل نبوته عليه الصلاة والسلام، وأحد أروع أمثلة هذا ما يلي:

كان فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام يحمل مع عمه سيدنا العباس رضي الله عنه حجارة الكعبة أثناء إعادة إنشائها، فقال العباس رضي الله عنه للنبي عليه الصلاة والسلام كيلا تؤثّر الحجارة في منكبيه العاريتين:

«اجعل إزارك على رقبتك، فخر إلى الأرض، وطمحت عيناه إلى السماء، فقال: «**أرني إزاري**»، فشده عليه».[١٠٠٤]



رأى فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام رجلاً يغتسل بالبراز «أي العراء» بلا إزار فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وقال:

«**إنّ الله عز وجل حيي ستير يحب الحياء والستر فإذا اغتسل أحدكم فليستتر**».[١٠٠٥]



يحدثنا مسور بن مخرمة رضي الله عنه فيقول:

«أقبلتُ بحجر أحمله وعليَّ إزار خفيف، قال: فانحل إزاري، ومعي الحجر لم أستطع أن أضعه حتى بلغت به إلى موضعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«**ارجع إلى ثوبك فخذه ولا تمشوا عراة**».[١٠٠٦]



١٠٠٤ البخاري، الحج، ٤٢/ ١٥٨٢.

١٠٠٥ أبو داوود، الحمّام، ١/ ٤٠١٢.

١٠٠٦ مسلم، الحيض، ٧٨/ ٣٤١، أبو داوود، الحمّام، ٢/ ٤٠١٦.



وينقل لنا ابن مسعود ﵁ هذا الحديث: قال النبي ﷺ ذات يوم:

«**استحيوا من الله حق الحياء**»

قلنا: يا نبي الله إنا لنستحيي الحمد الله، قال:

«**ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء**».[١٠٠٧]

وقد قال حضرة جنيد البغدادي:

«رؤية الآلاء ورؤية التقصير، فيتولَّد من بينهما حالة تُسَمَّى الحياء».



كانت عائلة الفرعون هي التي تدير شؤون دولة مصر، وهؤلاء كانوا طغاة وجبابرة، فإن عبرت حدودَ المملكة امرأة غريبة وجميلة سرعان ما يُعْلَم الفرعون بذلك، فيقتل زوجها إن كانت متزوجة، وإلا تطلب من أخيها إن وجد، وقد عبر سيدنا إبراهيم ﵇ الحدود ومعه زوجته السيدة سارة فبلغ الأمر الفرعون، وتم إعلامه بأن امرأة فاتنة دخلت الأراضي المصرية، فقادوا السيدة سارة إلى القصر، وثمة حديث شريف في هذا الشأن يقول–لما دخلت سارة القصر–:

«**قامتْ تتوضّأ وتصلّي، فقالت: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي، إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر**».[١٠٠٨]

فَلَمَّا دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فَأُخِذَ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأطلق، فدعا بعض حجبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما

١٠٠٧ الترمذي، القيامة، ٢٤/ ٢٤٥٨.

١٠٠٨ انظر: البخاري، البيوع، ١٠٠/ ٢٢١٧.



أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: مهيا، قالت: رد الله كيد الكافر، أو الفاجر، في نحره، وأخدم هاجر. [١٠٠٩]

ما أحسنه من مثال على العفة وحفظ الحياء والأدب!...

تقول الآية الكريمة: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ**...﴾ [١٠١٠]



روي أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديا فشدت اليهود على المسلم، فقتلوه فاصطرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسملون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع، وكان من حديثهم: أن الرسول جمعهم في سوقهم ثم قال:

«**يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم**»

فقالوا: يا محمد إنك ترى أنا كقومك، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس، ثم أعلن النبي عليه الصلاة والسلام الحرب بينه وبينهم. [١٠١١]. فإلى هذا الحد يرى المجتمع المسلم أهمية عفة المرأة المسلمة والحفاظ عليها.



١٠٠٩ انظر: البخاري، ٤، ١٤٠/ ٣٣٥٨؛ مسلم، الفضائل، ١٥٤.

١٠١٠ البقرة: ٤٥.

١٠١١ انظر: ابن هشام، ٢، ٤٢٦ ـ ٤٢٩؛ الواقدي، ١، ١٧٦ـ ١٨٠؛ ابن سعد، ٢، ٢٨ ـ ٣٠.



عن أبي شهم رضي الله عنه قال:

كان رجلا بطالا قال: فمرت بي جارية في بعض طرق المدينة إذ هويت إلى كشحها، فلما كان الغد قال: فأتى الناس رسول الله ﷺ يبايعونه فأتيته فبسطت يدي لأبايعه، فقبض يده وقال: «أجنك صاحب الجبيذة؟، يعني: أما إنك صاحب الجبيذة، أمس». قال: قلت: يا رسول الله، بايعني فوالله لا أعود أبدا. قال: «**فنعم إذا**».[١٠١٢]



وروي أن رسول الله ﷺ مرّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ:

«**دعه فإن الحياء من الإيمان**».[١٠١٣]



كانت أم خلاد إحدى الصحابيات المدنيات، وقد أرسلت ابنها خلاداً إلى غزوة بني قريظة، فقتل، فلما علم بعض المسلمين بعودة جنود المسلمين وشهادة خلاد أتوا أمه، فقيل لها: يا أم خلاد قُتل خلاد، قال: فجاءت متنقبة، فقيل لها: قُتل خلاد وأنت متنقبة قالت: إن كنتُ رزئت خلاداً فلا أُرزأ حيائي، فأُخبر النبي ﷺ بذلك، فقال:

«**أما إن له أجر شهيدين**».

قال: قيل ولم ذلك يا رسول الله؟ فقال:

«**لأن أهل الكتاب قتلوه**».[١٠١٤]



١٠١٢ أحمد، ٥، ٢٩٤/ ٢٢٥٦٤/ ٢٢٥١٢.

١٠١٣ البخاري، الإيمان، ١٦، الأدب، ٧٧؛ مسلم، الإيمان، ٥٧ ـ ٥٩.

١٠١٤ ابن سعد، ٣، ٥٣١؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٢، ١٤٠.

دخل نسوة من أهل الشام على عائشة رضي الله عنها فقالت:

ممن أنتن؟ قلن: من أهل الشام قالت: لعلكن من الكورة التي تدخل نساؤها الحمامات، قلن: نعم، قالت: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**ما من امرأة تخلع ثيابها في غير بيتها إلا هتكت ما بينها وبين الله تعالى**».[١٠١٥]

فالمرأة التي تفعل هذا تهتك ستر الحياء والأدب، لأنّ الله تعالى أمرها بحفظ نفسها بلباس التقوى، في حين أنها بتصرفها هذا في انتهاك لأمر الله تعالى إياها بالتستر والتقوى أيضاً.



توفيت النوار زوجة الفرزدق -أحد كبار شعراء الهجاء الثلاثة في عصر الأمويين- فكان الحسن البصري بين الحاضرين في مراسم جنازتها، فقال الحسن البصري مشيراً إلى القبر، متوجهاً إلى الفرزدق الذي افترى على الناس بشعره وجرح عفتهم: ما أعددت لهذا المضجع يا أبا فراس؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة، فقال له الحسن: نِعْمَ ما أعددت، فهذا العمود فأين الطنب، (أي لِكلمة الشهادة شروط، ولذا فاحذر قذف العفيفات!).

قيل لوهب بن منبه:

«أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك».[١٠١٦]

والخير والحسنات وجميع الأعمال الصالحة هي أسنان مفتاح التوحيد.



كانت عفة الناس وشرفهم في الدولة العثمانية مضمونة، فمثلاً أصدر السلطان فاتح في فتح البوسنة أمراً مقتضاه:

١٠١٥ أبو داوود، الحمّام، ١/ ٤٠١٠؛ الترمذي، الأدب، ٤٣/ ٢٨٠٤.

١٠١٦ البخاري، الجنائز، ١.



«حذار من تواجد جنودي في أماكن النبع عند مجيء فتيات الصرب لأخذ الماء..».

والسلطان فاتح بأمره هذا صان عفة وشرف جنوده وأتباعه من النصارى ممن هم تحت أمانه.



بدأت رذيلة ولهو خليع يدعى بالرقص تظهر في فرنسا في عهد السلطان سليمان القانوني، فما إن بلغ الأمر سليمان القانوني حتى أرسل من فوره هذه الأوامر لملك فرنسا:

«...بلغني أنه ظهر لديكم لهو دُوْنِيٌّ يتصرف به الناس على نحو يغاير الأخلاق والحياء، يتعانق فيه النساء والرجال أمام العامّة تحت اسم الرقص في بلدكم! وثمّة احتمال لوصول هذه الرذيلة إلى مملكتي باعتبار الحدود التي تصلنا ببلدكم، ولذا فليتم وضع حد لهذه الرذيلة مجرد أن تصلكم رسالتي المختومة! وإلا فإني قادر على المجيء وإزالة تلك الرذيلة بنفسي».

وقد سجل المؤرخ حمّاد حظر هذا النوع من الرقص في فرنسا عقب هذه الرسالة طيلة مائة عام.



ومن المعروف قديما حجارة الصدقة التي كانت توضع في بعض أحياء اسطنبول القديمة، كيلا يقع ذوو الحاجة في الحرج -من الاضطرار إلى سؤال الناس- وعدم جرح قلوبهم، من العاجزين عن طلب شيء من الغير لعفتهم وحيائهم.

وقد كانت حجارة الصدقة هذه يوماً شاهداً على أعظم سباق في التسارع للخدمة والخيرات، حيث كان الميسورون المنفقون على نحو «لا تدري فيه شماله ما تنفق يمينه» يتركون صدقاتهم في الحفرة التي في أعلى هذا الحجر في جنح الظلام.



ومن ثم يأخذ فقراء المحلة الفضلاء والعفيفون كفايتهم من النقود التي في الحفرة غير ملتفتين إلى الفاضل عن حاجتهم، وبالأخص من كان محتاجاً لكنه لا يسأل الناس إلحافاً يقصد الحجر في ساعات متأخرة من الليل ويأخذ ما يقضي له حاجته، وقد كتب سائح فرنسي يتحدث عن اسطنبول في القرن السابع عشر أنه راقب حجراً فيه نقود طيلة أسبوع لكنه لم يجد أحداً يقصده ليأخذ صدقة منه.



وباختصار، على المؤمن أن يكون عفيفاً وحَيِيًّا، ويشغل قلبه بالمشاعر الحسنة ويملأ ذهنه بالأفكار السامية، للتمكن من صيانة العفة والشرف والسيطرة على النفس، باعتبار أن الرغبات والأحاسيس النفسية موجودة بكل قوتها في نفس الإنسان، بالإضافة إلى أن من الأهمية بمكان في هذا الشأن اجتناب رفقاء السوء، يقول النبي ﷺ:

«عفّوا عن نساء الناس تعف نساؤكم، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم، ومن أتاه أخوه متنصلاً فليقبل ذلك منه محقاً كان أو مبطلاً، فإن لم يفعل لم يرد عليّ الحوض».[١٠١٧]

إن الحياء الذي هو زينة البشرية حِصْنٌ معنوي يحمي صاحبه من كل سوء، ويُسْهِمُ في إيفاء الإنسان بجميع وظائفه تجاه ربه والعباد، يقول رسول الله ﷺ مبرزاً هذا التأثير والأهمية للحياء:

«إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت».[١٠١٨]

١٠١٧ الحاكم، ٤، ١٧٠/ ٧٢٥٨.

١٠١٨ البخاري، الأنبياء، ٥٤، الأدب، ٧٨؛ أحمد، مسند، جـ ٤، ١٢١/ ١٧١٣٩.



٢١ . الفطنة والفراسة

تعد الفطنة -والتي تعني امتلاك قوة في الذكاء المتفوق- إحدى الأوصاف الخمس الفارقة المختصة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وليست الفطنة مجرد عقل ومنطق جاف، وإنما منزلة أعلى من الدهاء، فالعقل المرتبط بالقلب عبارة عن الفراسة والبصيرة، وعلى كل نبي أن يمتلك مثل هذا الذكاء المتفوق كي يكون قادراً على أداء مهمة التبليغ من غير نقص وعلى النحو الكامل، وإلا فسيعجزون عن الإتيان بالأدلة القوية لمن أُرْسِلوا إليهم، وبالتالي لن يتمكنوا من إقناعهم وإلزامهم.

فالأنبياء في أعلى المستويات بين الناس من كل المناحي ولا سيما في العقل والذكاء والفراسة، فهم يمتلكون صفاتٍ متميزةً كالذاكرة القوية والإدراكِ العالي وَحِدَّة المنطق والقدرة على الإقناع، وفي مقدورهم حلّ أغمض المسائل وأكثرها إشكالاً، وبما أنهم يتكلّمون بالسهل الممتنع [١٠١٩] لا يصعب على المخاطبين المختلفة مستوياتهم في الإدراك فهمهم.

إن الفراسة التي هي جزء من صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، تعني التصرف حسب السوية العقلية للمخاطب من خلال الدقة في الذكاء، إذ إنه يمكن لسلوكٍ ما أن يسر أحدهم في حين يزعج غيره، ولذا فإنّه ينبغي تربية الإنسان على التمكن من تحديد نفسيته والقدرة على القيام بحساب المراحل المتقدمة للحوادث.

ومن المثير للاهتمام هذه الحادثة التي توضح معاملة رسول الله ﷺ لأولئك البعيدين عن الفراسة والبصيرة الذين يفتون الناس بغير علم، ومن ثم يلحقون الضرر بالآخرين بقصر نظرهم وقلة علمهم وضعف محاكمتهم للأمور:

١٠١٩ السهل الممتنع يعني التعبيرات التي يصعب قولها وتقليدها على الرغم من أنها تبدو سهلةً في الظاهر وبسيطة وطبيعية.

يقول جابر رضي الله عنه:

خرجنا في سفر، فأصاب رجلاً منا حجر فشده في رأسه، ثم احتلم فسأل أصحابه، فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل، فمات، فلما قدمنا على النبي أُخبر بذلك، فقال عليه الصلاة والسلام:

«قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العيّ السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو «يعصب» على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده».[١٠٢٠]

وباختصار فعلى المسلمين المتعقبين أثر النبي عليه الصلاة والسلام أن يكونوا ذوي عقل ومعرفة وذكاء ويقظة وفراسة.

إن الفراسة نور يَمُنُّ الله تعالى به على قلوب مَنْ يحب مِنْ عباده، أي يجب أن تتجلى الأحوال كالذكاء وحدّته والحدس والمعرفة والفهم في القلب على أنها قابلية إدراك معنوي، وتقييم وتشخيص السطح الداخلي للحوادث وما يخطر في الأذهان والقلوب بفضل الأحاسيس المخلصة التي تنبعث من القلب والإلهامات الموهوبة، وما من شك في أنّ هذه الفراسة لا يحصل عليها إلا المتخلّص من غرور نفسه، الناظر إلى الأمور بنور الله تعالى.

وقول سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم:

«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله».[١٠٢١]

يشير إلى أنّ فراسة كل مؤمن تتناسب وإيمانه، وفي هذا الصّدد فإنّ فراسة أولياء الله تعالى من المؤمنين الكاملين أقوى بالقياس إلى سائر المؤمنين.

١٠٢٠ أبو داوود، الطهارة، ١٢٥/ ٣٣٦/ ٣٣٧؛ ابن ماجة، الطهارة، ٩٣.

١٠٢١ الترمذي، التفسير، ١٥/ ٣١٢٧.

إن تحفة الفراسة تبدأ بالجهد المبذول في محاولة لحلِّ لغز الموت، لأن التمكن من معرفة الأسرار والحقائق في الدنيا الفانية لا يتحقق إلا «بالموت قبل الموت»، يقول حضرة مولانا:

«العقلاء هم الباكون أولاً، والغارقون في التبسم آخراً، في حين أن الحمقى تخنقهم القهقهات أولاً ومن ثمّ يبكون ضاربين رؤوسهم بالحجارة لشدة الندم، يا أيها الإنسان! كن ذا فراسة ترى ما سيؤول إليه الأمر وهو في أوله كيلا تكوى بنار الندامة يوم الجزاء!..».

وشرط الفراسة أكل اللقمة الحلال وكشف الحياة القلبية والتعمّق في التفكر، وأول خطوة في التفكّر والتخصص نظر المرء إلى ما حوله بعين الاعتبار والاتعاظ، لقد دعا الله تعالى عباده في القرآن الكريم إلى النظر ببصيرة لإدراك مثل هذه العبر، وقال في آيات مختلفة:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [١٠٢٢]

ومن ناحية أخرى فقد خوطب النّاس في القرآن أيضاً مراراً وتكراراً بعد تعداد نِعم الله تعالى عليهم بقوله يا أولي الأبصار، [١٠٢٣] وطولبوا بالنظر إلى المخلوقات بعين العبرة، وثمّة الكثير من الآيات الكريمة في هذا الصدد تفيد لزوم نظر بني آدم إلى الكائنات بدراية وبصيرة تدرك بهما الحكمة، بعيداً عن مشاهدة العالم بنظرة فارغة وخالية عن الوعي من خلال أمرها بـ «**أفلا تتفكرون**» و«**أفلا يتدبرون**» و «**أفلا يعقلون**».

وتقول الآيات الكريمة التي توضح أهمية البصيرة:

١٠٢٢ الغاشية: ١٧ـ ٢٠.

١٠٢٣ انظر: آل عمران، ١٣، النور، ٤٤، الحشر، ٢.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [١٠٢٤]

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [١٠٢٥]

﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي...﴾ [١٠٢٦]

صور الفضيلة

سئل رسول الله ﷺ يوماً:

«يا رسول الله! أعبدت شيئاً غير الله؟ «فأجاب: «لا» فسئل: «أشربت الخمر»، فقال: «لا! كنت أعرف أن ما يفعلونه هو الكفر حتى وأنا أجهل معنى الكتاب والإيمان».(بمعنى الحديث).[١٠٢٧]

لقد خُلق رسول الله ﷺ في ذروة الفطرة السليمة والفطانة والفراسة والبصيرة.



جمعت القبائل من قريش الحجارة لبناء الكعبة قبل نبوة رسول الله ﷺ بخمس سنين، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البناء موضع الركن فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا أو تحالفوا، وأعدوا للقتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسموا لعقة الدم، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ثم إنهم

١٠٢٤ آل عمران، ١٣.

١٠٢٥ ص، ٤٥ ـ ٤٧.

١٠٢٦ يوسف، ١٠٨

١٠٢٧ دياربكري، ١، ٢٥٤ ـ ٢٥٥.



اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة وكان عامئذ أسنّ قريش كلها قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم -فيما تختلفون فيه- أولَّ من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا، فكان أولَّ داخل دخل رسولُ الله ﷺ.[١٠٢٨]

فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال رسول الله ﷺ: «**هلموا إلي ثوباً**» فأُتيَ به، وأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال: «**لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً**»، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ﷺ، ثم بنى عليه، وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ الأمين، وبهذا حال النبي ﷺ دون حربٍ كان من المحتمل وقوعها بين القبائل وذلك من خلال فراسته وفطانته.[١٠٢٩]

إن الدراية التي كان يظهرها النبي ﷺ في الغزوات التي خاضها في سبيل الإسلام، والتي قدمها في عهود الصلح والمهادنة وخاصة في الحديبية، والطريقة الرائعة التي اتبعها في فتح مكة وحنين والطائف، كلها من العلو والسمو بحيث يكاد يتعذر بشر بلوغه.

لقد تم قبول براءة يوسف عليه السلام من التهمة الموجهة إليه وبُعث إليه رسول لإخراجه من السجن، إلا أن يوسف عليه السلام رفض الخروج ما لم يتحرَّ الملك عن الحقيقة جيداً، وتتضح الحقيقة على نحو جلي، وما لم يعترف الجميع بدخوله السحن ظلماً وجوراً، وهو بهذا حال دون إلصاق التهمة به، من خلال استخدامه لعقله وإظهاره سلوكاً يتضمن صبراً ووقاراً.

وحين تخلص كلياً من التهمة -بتمكنه من إثبات الكذب والافتراء الذي تعرض له-، عندها فقط رضخ لطلب الخروج من السجن، ولذا على كل مسلم

١٠٢٨ عبد الرزاق، ٥، ٣١٩؛ ابن كثير، البداية، ٢، ٣٠٤.

١٠٢٩ ابن هشام، ١، ٢٠٩ - ٢١٤؛ عبد الرزاق، ٥، ٣١٩.

التصرف بدقة وصرامة بالغتين فيما يتعلق بإزالة التهمة عن نفسه واجتناب مواقع التهمة من خلال اتّعاظه بفراسة يوسف عليه السلام.



كان سليمان عليه السلام ذا فهم عال وذكاء وقاد منذ صغره، يذكر لنا رسول الله ﷺ حادثة في هذا الشأن فيقول:

«كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت لصاحبتها إنما ذهب بابنك وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه فقال ائتوني بالسكين أشقه بينهما فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى». [١٠٣٠]



وثمة رواية ينقلها كتاب باسم العرائس والمجالس:

«أصدقُ النساء فراسةً امرأتان كلتاهما تفرستا في موسى فأصابتا، إحداهما امرأة فرعون حين قالت: قرة عين لي ولك لا تقتلوه، والأخرى بنت شعيب حيث قالت: يا أبت استأجره إنّ خير من استأجرت القوي الأمين، وإنما قالت القوي الأمين، لأنه أزال الحجر العظيم الذي لا يرفعه إلا أربعون رجلاً، فقال لها أبوها: هبكِ أنك عرفت قوتَه فما أعلمكِ بأمانته، فأخبرته بما أمرها به من استدبارها إياه في الطريق». [١٠٣١]



على كل مسلم أن يأخذ بنصيب من صفة الفطنة وبعد النظر والفراسة التي تمتع بها الأنبياء، واستخدامه نعمة العقل على النحو الأمثل، كما عليه معرفة مَن يلزمه الكلام معه ولم ومتى وكيف والطريقة التي عليه التصرف بمقتضاها، فعلى

١٠٣٠ البخاري، الأنبياء، ٤٠/ ٦٧٦٩.

١٠٣١ الثعلبي، عرائس المجالس، ٢٣٢.



سبيل المثال: الأسلوب الدقيق الذي اتبعه جعفر الطيار ﵁ في حديثه مع النجاشي ملك الحبشة بشأن التعريف بالإسلام كان غاية في العبرة من ناحية إظهاره فراسة المسلم، إذ إن النجاشي الذي كان نصرانياً لما سأل جعفر الطيار ﵁: هل معك مما جاء به الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ جعفر من سورة مريم، فبكى النجاشي، ثم قال: إنّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة.[١٠٣٢]



يقول أنس ﵁ فيما يرويه هو:

«دخلت على عثمان بن عفان ﵁، وقد رأيت امرأة في الطريق فتأملت محاسنها، فقال لي عثمان: يدخل عليّ أحدكم وأثر الزنى ظاهر على عينيه؟! فقلت: أوحيٌ بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: لا، ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة».[١٠٣٣]



لـمَّا علم ابن عمر ﵁ بخروج الحسين ﵁ أدركه على بعد ثلاث مراحل من المدينة، فقال للحسين أين وِجْهَتك؟ فقال: أريد العراق، ثم أخرج إليه كتب القوم، ثم قال: هذه بيعتهم وكتبهم، فناشده اللهَ أن يرجع، فأبى الحسين، ثم قال ابن عمر: أحدِّثك بحديث ما حدَّثت به أحداً قبلك: إن جبريل أتى النبي يخيره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، وإنَّكم بِضْعَةٌ منه، فوَالله لا يليها أحد من أهل بيته، ما صرفها الله عنكم إلا لما هو خيرٌ لكم، فارجع، أنت تعرف غدر أهل العراق وما كان يلقى أبوك منهم، فأبى، فاعتنقه وقال: استودعتك من قتيل.[١٠٣٤]

١٠٣٢ ابن هشام، ١، ٣٥٨ ـ ٣٦٠.

١٠٣٣ القشيري، الرسالة، ص: ٢٣٨.

١٠٣٤ ابن كثير، البداية، ٨، ١٥٢؛ الذهبي، السير، ٣، ٢٩٦.



وكان سيدنا الحسن رضي الله عنه قد كتب رسالة إلى معاوية تنازل فيها عن الخلافة درءاً للفتنة بين المسلمين وحقناً منه لدماءهم.

إن هذه الحوادث -التي تعكس فراسة سيدنا عبد الله بن عمر- تقدم لنا المعاناة التي تكبّدها آل البيت مقابل عشق التضحية والمسؤولية والخدمة.



لقد بيّن حضرة عبد القادر الجيلاني حالاً تعرّض فيقول:

«ذات مرة ظهر نور أمام عيني وغطّى الأفق كله، وحين رنوت متسائلاً ما هذا، جاءني صوت من النور يقول:

«يا عبد القادر، أنا ربك، إنني من الرضا على أعمالك الصالحة التي قمت بها حتى اليوم بحيث أحللت لك اعتباراً من اليوم فصاعداً كل ما كان محرماً»

لكنني أدركت عقب توقف الصوت أنه الشيطان عليه اللعنة، وقلت:

«انصرف عني أيها اللعين! إن النور الذي أريتني إياه ظلام بالنسبة إلي»

فابتعد الشيطان عقب هذا قائلاً:

«لقد نجوت مني مجدداً بالحكمة والفراسة التي منَّ الله تعالى بها عليك! في حين أنني كنت قد أغويت المئات من الناس بهذه الطريقة».

ففتحت يدي متوجهاً إلى الحضرة العلية وشكرت الحق تعالى وأنا أعرف أنه فضل ربي عليَّ، فسألني أحد الذين في الجماعة ممن سمعوا هذا:

«يا عبد القادر، كيف أمكنك معرفة أنه الشيطان؟

فأجاب عبد القادر الجيلاني قدس سره بقوله:

«من مقولته أحللت لك ما كان محرماً!..».

هذه هي الفراسة التي يحتاجها كل مسلم في حياته.





كان الرعية -أثناء مجادلة الأمراء في السلطنة العثمانية- في حالٍ من المتانة والنضج والتحكم بحسِّ التاريخ بحيث لا يقاس بيومنا هذا، إذ اختاروا انتظار نتيجة الخلاف الجاري بينهم من غير انحيازٍ لأحد الأمراء دون غيره، ولذا فقد قال الرعيّة لموسى شلبي البالغ ضواحِي مدينة بورصة العاصمة آنذاك بإرسالهم ممثليهم:

«نحن لسنا بمنحازين لأيٍّ منكم، ولا معارضين! أنتم الأخوة أنهوا المسألة التي بينكم بأنفسكم! فإن أشركتمونا في هذا الخصام، تسببتم بجراح يتعذر التئامها مجدداً، فإخلاص جنود كل أمير لأميرهم دينٌ عليهم، لكن ثمة التماس منكم ألا وهو تفاديكم أن يفرّق هذا الخلاف أفراد الأمة...».

ثم إنّ إحدى أشدّ القوى تأثيراً في الحيلولة دون تفكّك الدولة العثمانية، هي هذه البصيرة والدراية والشخصية المتمكنة لهذا المجتمع. وإلا فيتعلق كل واحد بقائد من غير بصيرة منه على نحوٍ تعصبيٍ كالدعم الحزبي، ويدخل الدم والحقد بين أفراد الأمة.



لقد فرض تيمور الذي غلب يلدرم بيازيد في أنقرة خراجاً للعثمانية يدوم بضع سنين فقط، ومن ثم استمر الإلهانيون في أخذ هذا الخراج زاعمين أنهم في مكان تيمور، وهذا الخراج أُعطي حتى مراد خان الثاني، فقال سادة الدولة العثمانية التي كانت قد استعادت شأفتها واسترجعت قوتها تماماً في عهد مراد خان الثاني للسلطان:

«يا مولاي! لم لا نزال نعطي هؤلاء الخراج؟ لندفعهم عنا!..»

فردّ مراد خان الثاني الذي كان سلطاناً بالغ الذكاء والفراسة على هذا الطلب الحسي بهذا الجواب المشتمل على العبرة:

«إنهم غير مدركين لتقدمنا وإمكانياتنا في وقتنا الحالي، فلو امتنعنا عن إعطائهم المال الذي فرضوه علينا يذهبون ويجمعون جيشاً حتى لو كان بسيطاً ويُغِيرون علينا، ورغم أنهم يُغْلَبون إلا أن دماء مسلمة تسيل... وعليه فواصلوا أنتم إعطاءهم المال حالياً! لأنني لا أريد إراقة دم مسلم من أجل المال! .

لكن قوموا بعروضٍ رائعةٍ لرسل الإلهانيين وأروهم عظمة جيشنا، كي يصبحوا على بيّنة من القوة والقدرة التي نمتلكها، فلا يجترئوا مجدداً لطلب الخراج من هذه الدولة العلية التي باتت أفضليتها الكبيرة أمرا محققا.»

وهذا ما حصل بالفعل، فقد كانت النتيجة وفق ما بينه مراد خان الثاني.



ثم إن إحدى الأسباب التي دعت مراد خان الثاني يصرّ على جعل ابنه محمد الفاتح الثاني يجلس على العرش، مواهبه الكبيرة، إذ إنّ الأمير محمد على الرّغم مِن صغر سنه، يفكّر بأمورٍ يعجز الكثير من الناضجين والعقلاء عن إدراكها، وكان يفكّر ويسأل أباه عن أمورٍ عميقة، وقد رأى مرة والده في حديقة القصر فركض مسرعاً نحوه، وقال له بعد أن سأله عن أحواله:

«يا والدي العظيم! ما الحكمة على الرغم مِن كل تلك الأعباء التي تثقل كاهلك والمعاناة التي قاسيتها، ولستُ مصاباً بعلامات الشيخوخة البادية عليكم كسائر المسنين، لقد كبرتم في السن كباقي الناس لكن ظهوركم لم تنحنِ، وعلى الرغم من كل المشاق والعناء فإنكم لا تزالون في نشاط الشباب وحيويته وبطولته مع شجاعته مستخدمين عقولكم وإرادتكم وفي محلها، فأراك تارة قائداً مظفراً في ميادين القتال، وتارة أخرى أستاذاً عميقاً في مجالس العلم، وأراك مخلصاً وفياً يقضي حوائج العامة!.. لا فرق عندكم لليل أو نهار! كيف تطيقون القيام بكل هذا كغصن غض لا تنحنون ومن دون استنزاف لروحكم الدقيقة تلك؟. أيُّ أمر هو هذا يا والدي؟!. لما كان انشغال الذهن على الدوام يفني الإنسان ويهلكه لم



يُظهر فيكم تغييراً، ولم يعكر صفو طمأنينتكم!.. ما هو العقار الذي تستخدمونه للشخصية الاستثنائية التي تتمتعون بها، وما هو العلاج الذي تشربونه للمحافظة على دهائكم؟ هلا تفضلتم بتعليمي كل هذا؟ حتى أمضي في طريقكم...».

فأصابت الحيرة السلطان مراد خان الثاني من أسئلة ولده الشاب التي لم يتوقعها، ونصحه بهذه النصيحة التاريخية وهو مسرور راض عنه:

«يا ولدي الحبيب! لقد أدخلت السرور إلى قلبي، ليزد ربي العليّ -متخذ الكائنات والمخلوقات عباداً له- ميزاتك المتفوقة، وليُدم فضولك لبحث مثل هذه المسائل الكبيرة والواسعة.

يا بني! فليقل من يريد ما يريد، فإني أوقن بأن من يقضِ حياته بالإخلاص والصدق لا يحيد عنهما سيصل إلى النعم اللامتناهية والتي لا يحدها خيال في عالم الآخرة عندما يفارق هذه الدنيا، وليس عندي أدنى شك في اعتقادي هذا، ولذا فإنَّ العبادات التي أقوم بها لربي العظيم، أؤديها على النحو الأخلص من روحي وقلبي، ولأني أوقن بأن جزاء ما أعانيه في عالم المشقات والعناء هذا سألاقيه في عالم الآخرة من قِبل ربي، وألتجئ إليه في كل أمر، إضافة إلى أني أظن بأن تقديره أي قضاءه تزكية معنوية بالنسبة لي.

يا بني! يجب تفادي تصديق كل ما يقال والانخداع به، كما يلزم معرفة الوجه الداخلي لكل أمر والتفكير به ومن ثم الاقتراب من حقيقته! فكما أن فاكهةً ما لا يمكن تناولها بشكل جيدٍ إلا بعد نضجها، فكذا يفضّل من الناس من أكل عليه الدهر وشرب ممن لديه معرفة وخبرة على الدوام، وإلا فإنَّ مما ينافيه العقل تناول (الحصرم) غير الناضج من العنب أثناء تواجد الناضج اللذيذ منه في عنقوده.

يا بني! إني أتذكر بين الحين والآخر أجدادي العظماء، وأسرح في الأفكار فيما يتعلق بعاقبة جيلنا الصاعد، نحمد الله على بلوغنا هذا اليوم بالمحبة



والاحترام والتمسك، وأرجو أن نستمر على هذا النحو في قادمات الأيام، فأنا أود الرحيل عن هذا العالم على الحال التي ولدنا وأُوْجِدنا عليها...

ولتعلم جيداً أنه من غير الممكن استمرار شيء ما بإلزام القوة والسيف والبطولة والقوة الساحقة، وإنّ العقل والتدبير والصبر ورؤية المستقبل والامتحان والتجارب المضنية مهمة جداً، والطريق الأول كما أنه ليس بصحيح دائماً فإنّ محظوراته كثيرة، وأما الثاني فلا يفيد شيئاً لوحده، ولا بد من أن يسير الطريقان معاً للحصول على النجاحات، ولا تنس أن أجدادنا العظماء حتى لو كان ما نالوه من الانتصارات الكبيرة حاصل تحت ظلال السيوف إلا أنهم ملكوها في الحقيقة بقوة العقل والمنطق والمحبة.

يا بني! لا تتخل عن العدالة لو للحظة واحدة! لأن الله العظيم عادل يحب كل عادل، وأنت نوعاً ما خليفته في الأرض، وهو بإرادته قد أكرمك ببعض اللطائف وجعلك سيداً على رأس عباده، فلا تنس هذا!..

يا بني! ثمة ثلاث أنواع للبشر في هذا العالم:

الفئة الأولى: وهم من كَمُلَ عقلُهم ورجح تفكيرُهم، فتمكنوا من رؤية المستقبل والإعداد له، وعاشوا حياتهم بتوازن واستقرار.

الفئة الثانية: الذين لا يملكون تمييز الصواب من الخطأ والصحيح من الباطل، لكنهم لم يقعوا في هذه الحالة باختيارهم وإنما بتأثير الآخرين، وإن قدمت النصيحة إليهم سرعان ما يتبعونه ويقبلون الحقيقة، ويستمعون إلى ما يقال لهم، ومع هذا فإنهم في كثير من الأحيان يعيشون ممتثلين لما يسمعونه.

الفئة الثالثة: فهم غير عالمين بأيّ شيء، ولا يستمعون للنصائح والتنبيهات الموجهة إليهم، ويقتصر سلوكهم على امتثالهم لرغباتهم الشخصية ويحسبون أنهم عالمين بكل شيء، وهؤلاء هم الأشد خطراً.



يا بني! إن كان الله ﷻ قد خلقك في الفئة الأولى من الناس، فإني أفرح لذلك وأشكر الحق تعالى، وإن لم تكن منهم بل من الفئة الثانية فإني أوصيك بالاستماع إلى النصائح والتنبيهات، وإياك وأن تكون من الفئة الثالثة! فهم بعيدون عن الله بعيدون عن الناس.

يا بني! إن السلاطنة أشبه بأشخاص في أياديهم ميزان، إلا أن السلطان بحقّ هو من يعرف كيف يمسك بذلك الميزان الذي في يده! وأوصيك بأن تحسن مسك الميزان في يدك عندما تصير سلطاناً، فعندها يقدر الله تعالى لك ما فيه خيرك، ويجعلك من الصالحين، فكل شيء في علمه هو معلوم لديه...»



ثم إن الأهمية التي أولاها ولي بيازيد الثاني للعلوم الإسلامية والثقافة إلى جانب القوانين والمجمعات والمستشفيات وسائر الخدمات الخيرية كانت أهمية عظيمة، ففي عهده وضعت أسس الثقافة والحضارة العثمانية، وعندما عرض المهندس المعماري والرسام الإيطالي الشهير ليوناردو دا فينشي على بيازيد الثاني القيام بنفسه بخطط ومشاريع الجوامع وسائر الآثار في اسطنبول من خلال رسالة بعث بها إليه، كان لهذه الرسالة وقعاً حسناً لدى وزراء كوبّا آلتي، وأما بيازيد خان الثاني الذي يتمتع بنظرة تصوفية عميقة ودقيقة فقد قال رادّاً هذا التكليف:

«لو قبلنا هذا لسيطر على بلادنا هندسة معمارية مقلدة لعمارة الكنيسة من ناحية الأسلوب والروح، وبذلك يتعذر ظهور وتجلّي عمارتنا الإسلامية ولا تكتسب طابعاً مميزاً».

إذاً هذا الرأي يوضح أفق المسلم العاقل وصاحب الفراسة والقلب، لأنه كما بلغت الأراضي المسلمة بعد بيازيد الثاني أربع وعشرين مليون كلم مربع، فقد كان الفن الإسلامي أيضاً قد بلغ الذروة، وبفضل هذا الفهم ظهرت روح الإسلام



في الهندسة، وظهرت سلسلة تحفٍ ستتمكن من المحافظة على قيمتها حتى القيامة كالسلمية والسليمانية وأشباههما.



ما من شك في أن السلطان عبد الحميد خان الثاني هو أول مظاليم فلسطين، حيث أإنه أظهر حساسية كبيرة في الشأن الفلسطيني وأخذ موقفاً يتمتع بالبصيرة والفراسة من رغبات اليهود وآمالهم التي تبدو بريئة للوهلة الأولى، فقد قال عبد الحميد خان الثاني حين طلب منه تيودور هرتزل بعضاً من الأراضي الفلسطينية مقابل قضاء الديون الخارجية للدولة العثمانية:

«أنا لا أبيع حتى شبراً واحداً من تراب فلسطين! إذ إن هذا البلد ليس لي، بل لأمتي، وأما أمتي فقد نالوا تلك الاراضي بدمائهم، وقطعة الأرض المأخوذة بدماء الشهداء لا تباع بالمال! ولتعلموا أني لا أسمح أبداً بإجرائكم العملية الخائنة التي خططتم لها في بدن حي!» مع اتخاذه تدابير جدّية للقضاء على هذا الخطر.

وبإمكاننا فهم وإدراك فراسة ودراية عبد الحميد خان الثاني عندما نرى ما حدث وما يحصل الآن.

إن أغلب الأسماء التي يسمى بهم الأولاد اليوم في فلسطين هي «عبد الحميد»، يتذاكر الفلسطينيون عبد الحميد بقولهم «نحن أيتام عبد الحميد.



وباختصار فإن الفراسة والبصيرة من الصفات اللازمة للمؤمن.

يقول شاه الكرماني:

«من شَخَصَ بصره عن المحارم، وأمسك عن الشهوات، وعَمَرَ باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنة، وعوَّد نفسه أكل الحلال لم تخطئ فراسته!».



٢٢ . تزكية النفس وتصفية القلب

إن تزكية النفس وتصفية القلب هي الأساس الذي ينبغي على المسلم أن يؤسس عليها صرح الأخلاق الحسنة التي تُكَوِّنُ الشخصية الإسلامية، هذه التزكية والتصفية هي في الوقت نفسه أهمّ عامل يبيِّن نهاية الإنسان التي ستتكشف يوما ما إما بالهلاك وإما بالسعادة.

ولا بدّ أولاً من التمسك بالإرادة الإلهية، والعمل على مقاومة المشاعر الشهوانية والأحوال القبيحة، وعلى كل مؤمن أن يدرك ربه بكل عظمته وقدرته وكماله من خلال إدراكه تقصيره هو ونقصانه وعجزه وفناءه وجهالته، كما عليه توجيه أفعاله على أساس هذا الإدراك، إذاً فإن تحقق هذا فإنَّ النفس التي عبر عنها القرآن الكريم بـــ «النفس الأمارة بالسوء» تطهر من الأوصاف المذمومة حتى تكون في حالة مقبولة.

لقد عُدَّتْ تزكية النفس ومجاهدة أهوائها –من خلال المجاهدات الروحية– أعظمَ الجهاد بناءً على أهميتها وعظمتها، وقد عبّر النبي عليه الصلاة والسلام عن هذا إثر عودتهم من غزوة تبوك التي شقَّت على المسلمين، ففي هذه الغزوة مشى الأصحاب الكرام ألف كيلومتر ذهابا ثم مثلها إيابا، وفي طريقهم تعرضوا للعديد من المشاقّ واليأس من جوع وعطش، تشعث الصحب الكرام وتغبروا والتصقت جلودهم بعظامهم، فقال سيدنا النبي ﷺ الصحابة وهم على هذه الحالة:

«**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، مجاهدة العبد هواه**». [١٠٣٥]

وقد قال عليه الصلاة والسلام في أحاديثه المختلفة:

«**المجاهد من جاهد نفسه**».[١٠٣٦]

١٠٣٥ انظر: السيوطي، الجامع الصغير، ٢، ٧٣.

١٠٣٦ الترمذي، فضائل الجهاد، ٢/ ١٦٢١.

«الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله».[١٠٣٧]

«إنّ أخوف ما أخاف على أمتي الهوى، وطول الأمل».[١٠٣٨]

وفي هذا الشأن فإنّ تربية النبي ﷺ لأصحابه تقوم على مجادلة قاسيةٍ ضد النفس، حتى بلغ الصحابة الكرام بهذه التربية النبوية مرتبة الإنسان الكامل نتيجة تزكية النفس وتصفية القلب من خلال تطهير نفوسهم من خبائثها وقبائحها، وباتوا جيلاً مثالياً يحتذى به، وقد أفاد ابن مسعود رضي الله عنه الذي عاش في حالة من الحمد والشكر والذكر في رحلة التدريس، والذي روى ٨٤٨ حديثا عن النبي ﷺ فقط على سعة علمه بالحديث الذي تعلمه لكثرة مجالسته للنبي ﷺ، والسبب في ذلك يعود إلى الدقة والاعتناء اللذين يوليهما للحديث، أفادنا بالحالة الروحية التي بلغها ضمن التربية المعنوية التي تلقاها عن النبي ﷺ على النحو التالي:

«لقد كُنّا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل».[١٠٣٩]

لقد أضحى قلب ابن مسعود رضي الله عنه الذي كان «راعيا للإبل» في السابق، بعدما وصل إلى الهداية وتلقى تربية الرسول ﷺ المعنوية، أضحى نبعاً، ورقّ وتعمّق وبات قلبه مرآةً تعكس التجليات الإلهية، وإنّ مدرسة الكوفة المعروفة ما هي إلا أثر من آثار هذا الصحابي الجليل، وقد نشأ الإمام الأعظم أبو حنيفة -أعظم رجال الحقوق في العالم- وتربى في هذه المدرسة، وهذا الإمام الأعظم من العظمة بحيث يكون كبار الحقوقيين في العالم -أمثال سولون وحمورابي- تلامذة بين يديه، وباستمرار المذهب الحنفي الذي أسسه الإمام أبو حنيفة

١٠٣٧ الترمذي، القيامة، ٢٥/ ٢٤٥٩؛ ابن ماجة، الزهد، ٣١.

١٠٣٨ السيوطي، ١، ١٢.

١٠٣٩ انظر: البخاري، المناقب، ٢٥/ ٣٥٧٩.

سينال ابن مسعود ﵁ أجر الصدقة الجارية، وهكذا فإنه وأمثاله من الصحابة ممن لم يغيب الماضي ذكرهم مع أن التراب غيب أجسادهم، وستظل سيرتهم العطرة في قلوب الأمة المحمدية إلى يوم القيامة.

والصحبة هي إحدى أهمّ الوسائط المستخدمة من قبل الأنبياء وأولياء الحق للتأثير على الأرواح والقلوب في التربية المعنوية للإنسان، ثم إنّ مَن زكّى نفسه وصفّى قلبه تضمخت كلماته بمشاعر الحال التي يعيش بها، والكلمات المعجونة بهذه العواطف والمروية بماء الإخلاص تولّد تأثيرات إيجابية في نفس المخاطب لأن ما خرج من القلب وصل إلى القلب، وتكون وسيلة لاستمرار الفيض والروحانية.

يقوم العلماء والعارفون الذين هم ورثة الأنبياء بتهيئة قلوب الخلق –قبل تطهيرهم من أحوالهم السلبية– وذلك عن طريق تليينها بالتلذذ من المشاعر الروحانية وبركة الصحبة، ويهيّئون مناخاً مواتيا لهبوب نسائم الندامة اللطيفة بتهدئة عواصف الغضب والغيظ التي في القلب.

ثم إنّ الفيض المنتقل إلى قلوب المرشدين الكاملين على هيئة سلسلة من النبي عليه الصلاة والسلام، ينتقل أيضاً إلى المؤمنين عن طريق الرابطة والصحبة، وبفضل هذا تعكس الشخصية المثالية للرسول عليه الصلاة والسلام، في القلوب المؤمنة بما يتناسب مع استعداداتها.

وكلما أُدِّيت العبادات بشوق أكثر كان التجلّي بقدره، فالقلوب في الصحبة تُضْبَط وفق حال المخاطب، لأن الصحبة كوصفة الدواء التي يعيّنها الطبيب للمريض، إنّ الصحبة المؤداة والمسموعة بقلب مخلص، حالةٌ من الكشف العميق، وتحصل الانكشافات على حسب حالة المخاطبً القلبية.

وقد كانت الصحبة أشد الأساليب التي كان يتبعها النبي عليه الصلاة والسلام في تربية أصحابه وتزكيتهم، لأن الحق تعالى قال لسيدنا النبي ﷺ:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [1040] ﴿... إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [1041]

ومما يلفت الانتباه أنّ «الصحابي» و«الصحبة» مشتقان من الجذر نفسه، لقد أصبح الصحابة الكرام الأنموذجَ الأوضح والأكمل في الاستفادة الْمُرادة من الصحبة المعنوية والتربية ضمن حسّ المحبة والاحترام والأدب، وقد قال رسول الله ﷺ -في صدد بيان شرط هذه الاستفادة التي نالوها- متحدثاً عن حال السكون والأدب التي كانوا يستغرقون بها:

«كأنما على رؤوسنا الطير».[1042]

هذا ما كانت عليه مجالس صحبة النبي عليه الصلاة والسلام من الوجد، فقد كان يصغي إليه مَن حوله بأذن الروح في حالة من الطمأنينة والوجد لا تخطئها العين، وقد كان الأدب والحياء والإجلال لرسول الله ﷺ كان يمنع الصحابة في كثير من الأحيان عن سؤال النبي أو الإكثار عليه، ولذا كان الصحابة رضوان الله عليهم ينتظرون أن يأتي النبيَّ عليه الصلاة والسلام أعرابيٌّ من البادية يسأله عن أمور فيستفيدون من فيضها وروحانيتها.

إن الصحب الكرام الذين كانوا فيما مضى جاهليين أضحوا -بصحبة النبي عليه الصلاة والسلام المؤثرة وتربيته المعنوية- صفوة العالم عندما زكّوا أنفسهم وصفّوا قلوبهم، حتى عم ذكرُهم العصورَ والبلاد، وملأ حبهم القلوب والعباد.

هذه هي الأهمية الكبيرة لتزكية النفس وتصفية القلب في تكوين الشخصية المسلمة، فهي أولاً تَطَهُّرٌ من الكفر والجهالة والمشاعر السيئة والعقائد المغلوطة والعادات القبيحة، أي التنقّي من كل اعتقاد منافٍ للدين المبين ومن الأخطاء

١٠٤٠ الذاريات، ٥٥.

١٠٤١ الغاشية، ٢١.

١٠٤٢ انظر: أبو داوود، السنة، ٢٣ ـ ٢٤/ ٤٧٥٣؛ ابن ماجة، الجنائز، ٣٧؛ ابن سعد، ١، ٤٢٤.

الأخلاقية والعملية، وبعد تطهير القلب من السيئات وصيانته منها، ملؤه بالروحانية من خلال تربيته وتزيينه بخصل التقوى كالإيمان والعلم والعرفان والحكمة والمشاعر الخيّرة والصفات الحميدة.

إن ابن آدم مبتلى بعلة يطلق عليها النفس وتشتمل على آلاف السلبيات، من حين ولادته في هذا العالم وحتى الموت، فهو وإنْ بلغَ أعلى درجات الولاية معرّضٌ في كل آنٍ إلى حيل ووساوس ومكائد ثلاثيةِ الدنيا والنفس والشيطان، ثم إنّ قيمة العبودية تبدأ بالقضاء على هذه الأخطار عن طريق التملّص من الحيل الجذّابة لهذا العالم الفاني، والاصطباغ بالتقوى وبالنتيجة التوجه إلى الله تعالى.

ويبين حضرة مولانا المدَّ والجزر الحاصل في عالم الإنسان الداخلي على النحو التالي:

«صاحب النفس كموسى عليه السلام وجلده هو فرعونه، فصاحب النفس يدع النفس التي في داخله، ويظل باحثاً في الخارج عن العدو».

«يا مسافراً في طريق الحق! إن كنت تريد معرفة الحقيقة، فإن موسى وفرعون لم يموتا، بل لا يزالان حيّين اليوم داخلك، مختبئَين في وجودك، يواصلان معركتهما في قلبك، ولذا عليك البحث عن هذين العدوَين فيك!».

يقول حضرة مولانا أيضاً:

«لا تهتم بتغذية ورعاية الجلد والبشرة! إذ لا يعدو عن قربانٍ سيُقَدَّم للتراب في النهاية، وإنما اعتن بتغذية قلبك! إذ إن ما سيسمو في العلا ويلقى الشرف إنما هو قلبك».

«أعط جسمك من الدهن والعسل القليل، لأن من غذاه بأكثر من اللازم يقع في الشهوات النفسية ويذلّ في عاقبته».

«أعط روحك الأغذية المعنوية، وقدم لها تفكيراً ناضجاً وفهماً دقيقاً وأغذية روحية كي تبلغ المكان الذي ستذهب إليه قوية».

وفي الحقيقة فإن النفس واسطة ذات وجهين فإن هي تربّت سمَتْ بالإنسان إلى أكرم المنازل بين المخلوقات، وإلا فتهبط به إلى أسفل سافلين، فهي سلاحٌ ذو حدّين.

إن النفس المحرومة من الإرشاد المعنوي والرقابة، غلِّفت بحجابٍ مؤلم من الحرمان يستر الحقائق بالغفلة، لكن الإنسان إن هو تمكّن من تزكية نفسه وتصفية قلبه بالتخلص من الأخلاق الذميمة رغم مانع النفس، فإنه قد يسبق الملائكة التي لا تتعرض لمانعٍ مِنْ نفسٍ للتوجهِ إلى الحقّ والخير. لأنَّ شرفَ نتيجةٍ ما يكون متناسباً مع ما يعانيه المرء ويضحي في سبيل بلوغها.

وبالتالي فتزكية النفس وتصفية القلب ضرورية لترويض وتهذيب ميول الشر المركوزة في فطرة الإنسان ثم زرع بذور التقوى، ولذا فكل إنسانٍ مكلَّفٌ بتسبيح الله تعالى وتكريمه بالأعمال الصالحة من خلال معرفة الحق تعالى وتصيير هذه المعرفة عرفاناً، وهذه هي العبودية، وأما بلوغه هدف كيفية هذه العبودية فمرتبطٌ بتزكية النفس وتصفية القلب التي تأتي بمعنى امتلاء الإنسان بالمشاعر السّامية عن طريق اجتياز حاجز النفس.

ثم إنّ تزكية النفس أمرٌ مهمٌّ لفتَ الحقّ تعالى الانتباه إليه بالقسم تلو القسم، فقد قال في سورة الشمس:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا. وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا. وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا. وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [١٠٤٣]

وتزكية النفس تكون بتنقيتها من الملوثات المادية والمعنوية.

١٠٤٣ الشمس: ١ ـ ١٠.

إنّ قَسَمَ الحق تعالى هو في الحقيقة إظهار عظمة وأهمية الأمر الإلهي المبين بعد القسم، مع إبدائه قيمة وشرف المخلوقات المقسَم بها أيضاً، والوضع هو على هذا النحو في آيات القسم هذه، لكن بفارقٍ هو كما يلي:

«أقسم الحق تعالى في هذه الآيات إحدى عشر مرة متتالية، وأعقبها بأداة التأكيد «قد» لزيادة تقوية المعنى، وأفاد بعد هذا التأكيد والتأييد القويّ بأن من صفّى نفسه وطهّرها، لا بد وأن يبلغ الخلاص، وإلا فمن لوثّها بالمعاصي والذنوب فسيقع في الخسران!..»

ومن المثير للاهتمام أن الحق تعالى لم يقسم بأمرٍ إحدى عشر مرّةً متتالية في القرآن الكريم غير تزكية النفس، وهذه الحقيقة كافيةٌ لإيضاح أهمية وضرورة تزكية النفس لخلاص الإنسان.

التزكية في التصوف تعني كسر سلطة النفس على البدن من خلال تقليل رغباتها، ومن ثم إتاحة المجال لسيادة الروح، وهذا لا يتحقق إلا بالرياضة التي تقوّي الإرادة ضد النفس، أي إ ذلك يوفَّر بأساليب من رعاية الاعتدال في الطعام والشراب والنوم والكلام، ولهذا فأساليب كبح جماح النفس في التصوف يطلَق عليها قلة الطعام وقلة المنام وقلة الكلام، لأنها أولى خطوات السيطرة على النفس بالرياضة، إلا أنه ينبغي عدم ترك الاعتدال أثناء القيام بهذه الأساليب كما هو الشأن في كل أمر، لأن البدن أمانة الله للناس.

ثم إنّ النفس ينبغي ألا تموت بالمجاهدة القائمة تجاهها، وإنما يتمّ التحكّم بها، وليس المطلوب القضاءُ على النفس بل تحديد وتربية رغباتها وميولها بتجنيبها الإفراط ضمن قوانين موافقة للرضا الإلهي.

والأمر الآخر المهمّ لتصفية النفس جعل القلب نقياً وبرّاقاً، فالقلب في جوهره الأصلي موضع نظر الإله في هذا العالم، أي مظهر لشرف كونه مكاناً لتجلي نظر الحق تعالى، وكما أنه لا يسمح لغير السلطان بالجلوس على عرش

القصر فكذا يجب تنقية وتطهير القلب –الذي هو بمثابة قصر البدن– من كل شيء عدا الله تعالى أي من كل الأفكار النفسية والميول القبيحة وما سوى الله تعالى، وإلا فينغلق القلب عن اللطائف الإلهية، لكن هذا لا يعني أنه يتعذر أن نكنَّ حباً في القلب لغير الله تعالى، وفي الحقيقة فإن من بلغ ذروة سلامة القلب بتزكيته نفسه وتصفيته قلبه، فقد تحرر من حبّ ما سواه تعالى، لكن غيرهم من الناس لا يوفقون تماماً في محو محبة المال والأولاد وأشباههما من قلوبهم شيئاً فشيئاً، ومن المعلوم فإن هذا النوع من المحبة مسموح به ما لم يتجاوز الحدود المعلومة، ويكفي لإدراك أهمية تصفية القلب النظرُ إلى المقام المادي والمعنوي للقلب في الحياة، وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام الأهمية الحياتية للقلب حين قال:

«...ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».[1044]

ويبين حضرة مولانا قُدِّس سره أن من العبث وإضاعة الجهد محاولة ملء كيس مثقوب دون إغلاق ثقبه، ومن الواضح أن مثل هذه الأعمال عندما تؤدى بقلبٍ مصفىً تكون وسيلة لسعادة الإنسان، لأن الأعمال بالنيات، وأما النية فمن أعمالِ القلب، وبالتالي فيشترط تصحيح النية وتزيينها بالإخلاص.

وهذه الكيفية حالٌ يتعذر الحصول عليها إلا بعد تصفية القلب، إن النقطة التي استهدفها أولياء الحق في تربية القلب هي بلوغ القلب مرتبة الإحسان، بأن يكون العبد مع الله تعالى على الدوام، وبهذا ينال وصف القلب الحيّ، ومما لا بد للقلب منه للوصول إلى هذا القوام تنقيته مما سوى الله تعالى أي من كل شيء عداه تعالى.

وعندها يغدو القلب الواصل إلى هذا القوام يألف الحقائق الدقيقة والعميقة، وتتجلى على صفحة القلب أسماء الله الحسنى وأسراره بقدر تخلّصه من كثافته

١٠٤٤ البخاري، الإيمان، ٣٩.

واصطباغه بالرقة واللطافة، وبهذا يبلغ معرفة الله تعالى والتي تعني معرفة الحق تعالى عن طريق القلب، وأما هذا فيعني نوال العلم مرتبة العرفان.

فالخلاص لا يناله إلا من وفد على حضرة الله ﷻ بقلب سليم طاهر، وامتلأت قلوبهم بالمحبة الإلهية عن طريق تصفية القلب وتنقيته من جميع العلل، يبين الحق ﷻ هذا على النحو التالي:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [١٠٤٥]

وثمة بعض الشروط الواجب مراعاتها للحصول على قلب سليم ومنيب ونفس مطمئنة بعد تزكية وتصفية معنوية، ويمكن أن نُعَنْوِنَها على النحو التالي:

١. اللقمة الحلال.
٢. الاستغفار والدعاء.
٣. تلاوة القرآن الكريم، والانصياع لأحكامه واتباعها.
٤. تأدية العبادات بالخشوع.
٥. الإنفاق.
٦. قيام الليل.
٧. ذكر الله والمراقبة.
٨. الاستغراق في محبة النبي ﷺ ومداومة الصلاة والسلام عليه.
٩. التفكر بالموت.
١٠. صحبة الصالحين والصادقين.
١١. التخلق بالأخلاق الحسنة.

القلب السليم –الذي يحرص المرء للحصول عليه وفق جميع هذه الشروط– يغدو مظهراً لصفات الحق الجمالية، منقّىً مما سواه كمرآة ملساء، وحين يرى الحق تعالى تجلي صفاته الجمالية في قلب عبده يحبه ويرضى عنه.

١٠٤٥ الشعراء، ٨٨ ـ ٨٩.

ربنا خالق كل شيء ومالكه، ولذا فإنه مستغن عن كل المخلوقات، وما من هدية قيمة -ليست في خزائنه اللامتناهية- يمكن أن ترسل إليه، فهو الحسن المطلق، ومنبع كل الخير والحسن، ولذا فإنّ الشيء الأكثر جمالاً وقيمة بين المخلوقات إنما هو قلبٌ نقي وبراق إلى درجة يكون فيها كمرآة تعكس أسماء الله الحسنى، وبالتالي فإن الهدية الأكثر لياقة لتقديمها لله تعالى إنما هي القلب السليم الذي يطلبه الله تعالى منا.

صور الفضيلة

كان النبي عليه الصلاة والسلام ينقل وقائع معركة مؤتة وكل ما يجري على ساحتها وهو يخطب على منبر مسجده، حيث كانت ساحة المعركة معروضة أمام عينيه، فكان يُعلم أصحابه بالشهادات التي تحققت متتالية هناك ومجالدة الصحابة الكرام تارة مع الأعداء وأخرى مع نفوسهم، وهو مغتمٌ حزينٌ قائلاً:

«أخذ الراية زيد بن حارثة، فجاءه الشيطان فحبب إليه الحياة وكره إليه الموت ومناه الدنيا، فقال: الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين يمنيني الدنيا!، ثم مضى قدماً حتى استشهد، فصلى عليه الرسولُ وقال: استغفروا لأخيكم فإنه شهيد، دخل الجنة وهو يطير في الجنة، ولما قتل زيد: أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، فجاءه الشيطان فحبب إليه الحياة وكره إليه الموت ومناه الدنيا، فقال: الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين يمنيني الدنيا!، ثم مضى قدماً حتى استشهد،[١٠٤٦] وقال: استغفروا لأخيكم فإنه شهيد، دخل الجنة وهو يطير في الجنة بجناحين من ياقوت حيث يشاء في الجنة، ثم أخذ الراية جعفر، فقاتل بها حتى قتل شهيداً، ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار، وظنوا أنه

١٠٤٦ يقول ابن عمر ﷺ: «أنه وقف على جعفر بن أبي طالب يومئذ وهو قتيل فعد به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شئ في دبره»، (البخاري، المغازي، ٤٤). قُتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . (ابن هشام، ٣، ٤٣٤)



قد كان في عبد الله بن رواحة ما يكرهون، ثم قال: أخذها عبد الله بن رواحة، ومضى قدماً نحو الأعداء، وهو يقول: وقال: يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة، فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة، فمضى الناس، وهو يقول:

يا نفس مالك تكرهين الجنة
أقسم بالله لَتنزلنَّه
طائعة أو لتُكرهِنَّـه
فطالما قد كنت مطمئنة
هل أنت إلا نطفةٌ في شنَّه
قد أجلب الناس وشدوا الرنّه

وفي حومة مؤتة، تُجرَحُ إصبعُهُ، فينفرُ منها دمٌ غزير، لكنّه لا يعبأ به، فهو في سبيل الله، فينزل من على فرسه، ويدهس إصبعه ويقول:

هل أنت إلا إصبع دميت
وفي سبيل الله ما لقيت
يا نفـس إلا تُقتَلي تموتي
هـذا حياض الموت قد صليت
وما تمنيت فقد لقيت
إن تفعلي فعلهما هديت
وإن تأخرت فقد شقيـت

ثم شد يده بسرعة فقطعت إصبعه، ومضى في قتاله، فكان -وهو في جهاد صغير مع العدو من ناحية- يواصل جهاده الكبير مع نفسه من ناحية أخرى، فيقول: يا نفس إلى أي شيء تتوقين؟ إلى فلانة -زوجه- فهي طالق، وإلى فلان

وفلان –غلمانه– فهم أحرار، وإلى بستان له فهو لله ولرسوله، ثم قال: ثم استمر النبي عليه الصلاة والسلام بنقل وقائع المعركة قائلاً:

أخذ الرايةَ عبدُ الله بن رواحة، فاستشهد ثم دخل الجنة معترضاً، فشق ذلك على الأنصار، فقيل: يا رسول الله ما اعترضه؟، قال: لما أصابته الجراح نكل، فعاتب نفسه فتشجع، واستشهد ودخل الجنة، فسُرِّي عن قومه، ثم قال: لقد رُفعوا في الجنة على سرر من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله ازوراراً عن سريري صاحبيه، فقلت: ممَّ هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردد عبد الله بعض التردد، ثم مضى، فدمعت عينا النبي عليه الصلاة والسلام وهو يصف ساحة المعركة، وزاد حزنه وذرفت عيناه المباركتان بدمع كحبات اللؤلؤ، وقال: حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم.[١٠٤٧]

وهذا يعني أنّ كلاً من النفس والشيطان لن يتخليا عن الإنسان حتى الموت، وحينئذ يجب علينا أن نكون في حالة من التيقظ والمجاهدة دائماً، والالتجاء إلى حفظ ربنا تعالى، تقول الآية الكريمة:

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [١٠٤٨]



كان حضرة عبد القادر جيلاني من كبار أولياء الله قد اعتزل في خرابات بغداد وقتاً طويلاً –بعد بلوغه كمال العلم الظاهري– وذلك لبلوغ «حال الفناء»، أي الاحتماء من الذاتية والأنانية ودسائس النفس، والتمكّن من حفظ قلبه وصيانته من كل ما يُبعده عن الحق.

١٠٤٧ انظر: البخاري، المغازي، ٤٤؛ أحمد، ٥، ٢٩٩، ٣، ١١٣؛ ابن هشام، ٣، ٤٣٣ ـ ٤٣٦؛ الواقدي، ٢، ٧٦٢؛ ابن سعد، ٣، ٤٦، ٥٣٠؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٣، ٢٣٧

١٠٤٨ الحجر، ٩٩.



وكان شاه نقشبندي -رحمه الله- في أُولى سنوات انتسابه للطريقة قد عاش سبع سنوات من حياته في الخدمة -من خلال قضاء حوائج المرضى والفقراء والمصابين، وحتى الحيوانات كان لها نصيبا من خدمته ورعايته، حتى إنه كان ينظف الشوارع التي سيمر بها الناس، وذلك في سبيل بلوغ «حالة الفناء».

هذه هي صعوبة تزكية النفس والمكافأة العظيمة مقابلها.



وقد حصل ميل سلطان بلخ إبراهيم بن الأدهم لتزكية النفس وتصفية القلب نتيجة هاتف جاءه، حيث روي أنه كان يوماً نائماً في قصره عندما سمع وقع أقدام -قيل إنهم ملائكة- فوق سطح القصر، فهتف ابن أدهم قائلا: أيها الطارقون، من أنتم وما الذي جاء بكم إلى سطح القصر؟ فجاءه الجواب: إننا نبحث عن جمل لنا فقدناه، فأجاب ابن أدهم مستنكراً: وهل تتوقعون أن تجدوا جملكم فوق أسطح المنازل؟ وكم كانت دهشته كبيرة عندما جاءه الردّ بالقول: وهل تتوقع أنت أن تجد الطريق إلى الله في القصور ووسط أبّهة السلطان؟.

فكثفت هذه الحادثة المد والجزر المعنوي الحاصل مسبقاً في قلب إبراهيم بن الأدهم، فتركته في حيرة وتعجب، لكن السلطان لم يتخل عن حياته السابقة كلياً.

إلا أن إبراهيم بن الأدهم بسبب إدمانه على الصيد، جعله التنبيه المعنوي الثاني -الذي لاقاه أثناء صيده المعتاد -سائراً حقيقياً في طريق الحق، وقد جرت مغامرة الصيد هذه حين خرج مع بعض أصحابه إلى الصيد، وبينما كان يكر ويفر جاداً إثر أرنب يروم صيده، إذ بهاتف من وراء الغيب يناديه باسمه: يا إبراهيم! أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً، وأنكم إلينا لا ترجعون، يا إبراهيم! ألهذا خُلقت أم بهذا أُمرت، فلم يبال في بادئ الأمر، فعاوده الثانية والثالثة، فشد لجام فرسه



ووقف حائراً من شدة الجزع، ثم هتف به الرابعة، فآمن آنئذٍ أنه صوت من الحق ونذير من رب العالمين، فاطمأنت نفسه من بعد اضطراب، فرجع إلى أهله، ثم جاء إلى راعٍ لأبيه فألقى إليه ما يلبس من حُلَلِ الإمارة وحُلِيِّها ، وأخذ منه أطماره ولفّ جسمهً بها وهام على وجهه، وقد قال الراعي من ورائه: لقد جنّ سلطاننا، لكن ما حصل كان على العكس حيث عاد عقله إليه، فقد كان خرج لصيد الغزلان فتصيده الله تعالى بغزالٍ.

وعلينا أن نعلم أنه يتعذر تطهير النفس وكبح جماحها من دون مجاهدتها وحرمانها من كثير من متطلباتها، فلا بد من جهد جادّ لكي ينال السلامة في الآخرة من خلال جعله في مقام يرضي ربنا تعالى، فيلزم البدء بهذا الجهد وهذه المجادلة فوراً قبل فوات الأوان، لأن الأجل قد يتصيد المرء في كل آن!..



اشترك حضرة نجم الدين كبرى أحد أولياء الله برفقة تلامذته في جنازة رجل صالح، فتبسم حضرة نجم الدين أثناء تلقين الميت الشهادتين، فدهش التلامذة من تبسم شيخهم في وقت كهذا وسألوه عن حكمة ذلك، فلم يرد البوح عن السبب، لكنه وبإصرارهم في سؤالهم قال:

«قلب الملقن في غفلة، وقلب الميت الذي في القبر حيٌّ، فتعجبت من تلقين غافل القلب لمن قلبه حيٌّ».

إن المؤمن الذي يزكي نفسه ويصفي قلبه يستمر في الحياة حتى بعد موته، ومن لم يفعل ذلك فلا فرق بينه وبين الميت حتى وهو في الحياة.



خرج حضرة مولانا خالد البغدادي مع بعض أصدقائه لزيارة حضرة عبد الله الدهلوي، وأخيراً وبعد سفر طويل وصلوا إلى دهلي (جيهان آباد)، وقد روي أن هذا السفر استمر سنة كاملة، وعند بلوغهم ذهب مولانا خالد من فوره والذي كان



متشوقاً للمثول في حضرة عبد الله الدهلوي مع أصحابه إلى تكية الشيخ، فقال مَن معه للدرويش الذي فتح لهم الباب:

«جاء مولانا الحاج خالد زياد الدين من علماء السليمانية والشام وبغداد مع رفاقه، لزيارة حضرة العارف بالله».

فقال عبد الله الدهلوي العالِم معنىً بمجيئهم:

«ليبق خالد! وليعد البقية إلى بلادهم بعد استضافتهم مدة لدينا».

فتم تنفيذ الأمر، وجاء أمر ثان مقتضاه:

«ليبدأ خالد في تنظيف الحمامات التي في التكية».

إلا أنّ مولانا خالد -مع شهرته في كل العالم الإسلامي وعلمه الواسع الذي كان نبعا ثرا- لم يعترض بأي اعتراض، وهو الذي تم قبول تلمذته على هذا النحو، وهو لم يقابل الشيخ بعد أيضاً، فأخذ إناءه ومقشّته وباشر عمله من فوره.

فكان يأتِ بالماء اللازم للتنظيف من البئر الكائنة بعيداً من التكية، يملؤ الماء ويربطها على خشبة يضعها على عاتقه، فكان يقطع المسافة بين التكية والبئر كل يوم ذهاباً وإياباً مرات عديدة في اليوم للقيام بهذا العمل، ينظف التكية ويجهز مياه الوضوء، وبهذا يقضي أيامه في عزم وجهد كبيرين في سبيل تربية نفسه، وكان سرعان ما يستغفر ويتوب فيما لو أظهرت نفسه بعض التردد أو اللوم، استمرّ على هذه الحال شهوراً عديدة.

وذات يوم كان مُنهَكاً مِن تنظيف حجارة المراحيض، وإذ توسوس له نفسه في لحظة ترى فيه مولانا خالد ضعيفاً بهذه الوساوس:

«يا منبع العلم الذي لا مثيل له في ديار بغداد والشام! يا مولانا خالد في إقليم الأغنياء، لقد أتيتَ إلى هنا بعد أن قطعت مسافاتٍ طويلةٍ منصاعاً لقولِ شخص لا تدري أمجنون هو أم وليٌّ، فهل وجدت ما تبحث عنه؟ انظر فما من شيخ ولا سير

السلوك! وأيُّ شيء فعلوه لك منذ شهور عدا تنظيف المراحيض؟ أهذا هو العلم اللَّدنِّي الذي كنت تبحث عنه؟..».

فحذّر حضرة خالد البغدادي -الذي دهش أمام هذا الإغواء الخطير- نفسَه ممزِّقاً من فوره حجاب الغفلة الذي أرادت نفسه إسداله أمام عينيه وذلك عن طريق الإخلاص، فقال:

«يا نفسي! إن كنت ستتمنّعين عن هذه الوظيفة الشريفة التي كلفكِ بها شيخي المبارك، ولم تبدي امتنانك، فإني سأجعلك تكنسين الأرض بلحيتي وليس بالمكنسة!..».

وقد كان عبد الله الدهلوي يراقب متبسّماً حال خالد البغدادي هذه من بعيد، ورأى أن الملائكة بدأت تحمل إناء مولانا خالد ومكنسته والذي قضى على آخر وسوسات نفسه، إضافة إلى أنه بدأ يشع نورٌ -يصل إلى السماء- من الجراح التي ظهرت على منكبيه بسبب حمل الماء، فدعا العارف بالله الذي سُرَّ إلى أقصى الحدود بهذا، دعا تلميذه هذا الاستثنائي إليه، وقال:

«يا بني خالد! كنت قد بلغت مكانة لا مثيل لها في العلم، إلا أنه لزمك تزيينها بالمعنوية، فكان لا بد من تربية القلب وتصفية القلب، وإلا فإن نفسك ستهلكك بجرك إلى مهاوي الغرور والكبر، والحمد لله أنك بدأت تتسلق قمّة الكمال بجعلك نفسك تحت قدميك، حتى أضحت الملائكة تقوم بالعمل عنك».

وأضاف أيضاً:

«يا بني! إن سيدنا الذي انتسبنا إليه هو ممن وصلوا إلى الشريعة والطريقة والحقيقة والمعرفة، وقد غدوتَ أنت الآن باعتبارك مجدداً حلقةً منهم، والآن كل الأقاليم تنتظرك إرشادك، فليجعل الله همتك عالية!». [١٠٤٩]

١٠٤٩ محمد بن عبد الله الخاني، الآداب، ترجمة. خسرو أوغلو، اسطنبول ١٩٩٥، ص: ١٠٧ ـ ١٠٨؛ الهيئة، موسوعة علماء الإسلام، اسطنبول ، منشورات جريدة تركيا، ١٨، ص: ٨١ ـ ٨٢.

من المستحيل لنفس لم تزكّى بعد، وقلب لم ينضج ولم يصفّى مهما بلغ في العلم أن يرشد الناس، إذ لا يصير الإنسان جاهزاً للاستفادة والإفادة إلا بعد إيفاء هذين الشرطين.



جعل حضرة محمود محي الدين أفتادة تلميذه المنتمي إليه عزيز محمود هدائي إلى جانب بيع الكبد في سوق بورصة، مسؤولاً عن خدمة تنظيف أماكن الوضوء، بعد أن كان يشغل وظيفة قضاء مرموقة، وذلك بترجيحه طريق الشعور بالعدم أولاً، ونتيجة لتربية النفس هذه تم وصف القاضي محمود من قبل شيخه شخصياً بــ (هدائي) باعتباره نال كمالاً يمكنه من توجيه السلاطين.

أتى رجل إلى حضرة هدائي لما سمع اطلاعه على علم الكيمياء القديمة [١٠٥٠]، وقال لحضرته:

«يا سيدي! لقد بلغني اطلاعكم على علم الكيمياء، فماذا تأمرونني؟».

فلم ينبت حضرة هدائي ببنت شفّة ونزع ثلاث وريقاتٍ من كرم قريبة منه، ونفث فيها فانقلبت بإذن الله كل واحدة منها أوراقاً من ذهب. وأما الرجل الذي كان يراقب ما حدث بدهشة فعلى الرغم من أنه قام بالفعل نفسه من فوره إلا أنه لم يوفق لذلك، فقال حضرة هدائي:

«يا بني! ولتعلم أنّ تعلم علم الكيمياء هو عبارة عن جعل نفسك...».

ثم إنّ المقصد الرئيسي من الحياة ليس التمتع بالخوارق للعادات والكرامات، وإنما التمكن من بلوغ حالة الإيمان الكامل من خلال التخلص من وصف النفس الأساسية عن طريق تزكية النفس وتصفية القلب.



١٠٥٠ الكيمياء: علم تحصيل المعادن الثمينة من المعادن عديمة القيمة.

وما أجمل ما يذكره الشاعر الكبير والمفكّر العظيم محمد إقبال عن أهمية ملء القلب بالعشق بتزكية النفس:

«سمعت ذات ليلة في مكتبتي حديثاً لفراشة تقول لمروحة: استقررتُ داخل كتب ابن سينا، ورأيتُ كتب الفارابي، وتجولتُ بين سطورها الجافة التي لا تنفد وبين ما فيها من الحروف الذابلة، وقضمتها، وفي هذه الأثناء سحتُ في شوارع مدينة الفارابي الفاضلة شارعاً شارعاً وزقاقا زقاقا، إلا أني لم أستوعب فلسفة هذه الحياة أبدا، وغدوت أعبر الشوارع المسدودة المخيفة حزينة، فلا شمس لي تضيء أيامي... ».

وفي مقابل احتجاج الفراشة فقد أَرَتْ المروحة أجنحتها المحترقة للفراشة، وقالت: «انظري، لقد أحرقت جناحيّ في سبيل هذا العشق»، ثم أضافت قائلة:

«إن المجادلة والمحبة هي ما تجعل الحياة أكثر حيوية، والعشق هو ما يجعل الحياة ترفرف!..».

أي إنّ لسان حال المروحة كان يقول للفراشة وهي تعرض أجنحتها عليها:

خلّصي نفسكِ من طرقات هذه الفلسفة المسدودة! ولترفرفي للوصال واللقاء بأخذ نصيبٍ من نبع المعنى المليء بالفيض والوجد والعشق للمثنوي!.

وهكذا يلزم الدورانُ بمحبة عميقة وعشق كبير كمروحة تدور حول شمس المعنوية، والعيشُ عيشة جهدٍ وخدمةٍ فائقةٍ لتزكية النفس وتصفية القلب.



كان الشيخ ماهر إيز قد أدرك في سنوات عمره الأخيرة أن الحلّ الوحيد للقضاء على هذا النقصان هو الإرشاد المعنوي، وقد بيّن حاله هذه، فقال:

«بما أنّه من المتعذر جمع قيل وقال العلم في موطن واحد على الدوام، فإني أؤمن بأنّ الوقوف على الحقيقة في الأصل لا يتحقق إلا بإرشاد أهله مع أنه ليس



بأقل من التدقيق العلمي، ولهذا السبب فإنني ربطت سلّم الإرادة بإشارة خارجة عن اليقظة للعروج إلى سماء المعرفة بالفيض». [١٠٥١]

وللتحليق في سماء المعرفة فلا بدّ من بذل الجهد في ارتقاء درجات سلم الإرادة والمحبة والخدمة من خلال دعمها بشمس المعرفة.



وباختصار فإنّ تزكية النفس وتصفية القلب عملية ينبغي علينا مواصلتها طوال الحياة من غير انقطاع، وعلى المؤمن أن يكون يقظاً تجاه نفسه، وأن لا يظنّ نفسه بالغاً الكمال أبداً، فيقّع فريسةً لحيل ودسائس النفس، ويذكر حضرة مولانا التحذيرات التالية فيما يتعلق بهذا الأمر:

«تريد هذه النفسُ الدّنيّةُ جرّك إلى نجاح زائل، فإلى متى ستلهو بهذا النجاح الكاذب، فقد لهوت بما فيه الكفاية حتى الآن».

«لو أمهلك العمر ألف سنة، فإن نفسك تعثر على عذر جديد كل يوم».

«إن طلبت منك تلك النفس الدنية نجاحاً معنوياً، وأعمالاً صالحة فاحذر، إذ لا شك أن تلك النفس العدوة تخفي حيلة ما في ذلك الخير».

«ثمّة مسبحة وقرآن كريم في اليد اليمنى للنفس، إلا أنَّ في اليد الأخرى خنجرا وسيفا مخبئين».



إن التصوف –الذي يعتني بتزكية النفس وتصفية القلب ويعد ذلك ضرورة– محيطٌ لا نهاية له، وعلم إلهي يضمّ في فحواه كل الكائنات، ومن المتعذر إيفاءه حقه في التعريف به، لكن كل واحد يمكنه التكلم عنه بقدر حظه منه وفهمه له.

١٠٥١ أثر السنوات، ماهر إيز، إسطنبول ١٩٧٥، ص: ٣٩٦.



وإنَّ أهل التصوف أشخاص موصوفون بصفات عليّة من السخاء والرحمة واللطف والتواضع، فهم ينظرون إلى الغير بالبصيرة والتأني، فكل حركاتهم متوافقة وأحكامَ القرآن الكريم وأخلاق وآداب وأفعال رسول الله ﷺ، وهم يحبون الله تعالى ورسوله الكريم وأصحابه أكثر من أنفسهم وأموالهم وكل ما يملكونهم وأولادهم.

اللهم تفضّل علينا بحياة العبودية، وأعنا أن نستخدام رأس مال عمرنا على أحسن وجه!..

يا ربي! زيّن قلوبنا بمحبة الإيمان! واجعلنا مِن الذين يجتنبون بحقٍّ الكفرَ والعصيان برؤية قبحهما! وأكرمنا جميعاً بأن نغدو قرآناً حياً بتخلّقنا بالأخلاق النبوية! وأن نعيش حياة مثالية من الفضائل ضمن قوام الإحسان، وامنن على قوبنا بنصيبٍ من محبتك! واجعلنا من المستحقين لخطابك «عبادي» المليء بكرمك ومحبتك، والِْتفات حبيبك بقوله «إخواني»، وأكرمنا بذرية تكون قرة أعين لنا.

يا ربي! لا تترك وطننا وأمتنا من غير قرآن وإيمان وأخلاق! وأكرمنا –في هذا العالم الزائل– بالحياة في جنة القرآن الكريم من خلال تمسكنا بتعاليمه ومعرفة عظمته، وأكرمنا جميعاً بخدمة لائقة لأهل القرآن وخدامه!..

آمين!..

والحمد لله رب العالمين

فهرس







